2020
31.12.2019

رواية

تومَس هاردي

عُمدة كاستربردج
قصّة رجل محترم

ترجمة وتقديم زوينة آل تويّه

توممَس هاردي

عُمْدَةُ كاستربِرْدج

قصّة رجل محترم

ترجمة وتقديم زوينة آل تويّه

عُمْدَةُ كاستربرِدْج

هذا الكتاب بدعم من:
1001 عنوان
مبادرة 1001 عنوان

عُمْدَةُ كاستربِرْدج

تأليف: تومس هاردي
ترجمة: زوينة آل تويّه
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-38-608-7

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام
المرجع: MC-02-01-6127446
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Mayor of Casterbridge
The Mayor of Casterbridge, BY Thomas Hardy. Published in the London by Smith Elder & Co in 1886.

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

شُكْر

يسرُّني أنْ أشكر الرِّوائيَّة جوخة الحارثي على تفضُّلِها بقراءة الترجمة وعلى ملاحظاتها القيِّمة.

تقديم

بدأ تومَس هاردي حياته معماريًّا ناجحًا تَلْمَذَ لمعماريين بارزين وحاز جوائز عدَّة في هذا الجانب، وكان أبوه بنَّاءً أيضًا، بيْد أنَّ محاولاته الأولى لإبراز موهبته الشِّعريَّة باءت بالفشل فهجر الشعر إلى الرواية، وفيها لم يكن حاله أفضل من حاله في الشعر، فقد رفضت دور النشر روايته الأولى «الفقير والسيِّدة» لما حوت من نقد للعلاقات بين الطبقات الاجتماعية المختلفة في المجتمع الفكتوري آنذاك. ثمَّ نشر رواية «علاجات يائسة» على نفقته الخاصة وباسم مجهول ولم تلق رواجًا. تخطَّى هذه العقبات لاحقًا وحقَّق نجاحًا بارزًا حين نشر روايته «بعيدًا عن الحشد المجنون» في عام 1874 فتخلَّى عن حرفته كمعماري ليبدأ مسيرته في الكتابة السَّرديَّة حتى نشر قرابة أربع عشرة رواية. وفي منزله «ماكس غيث» Max Gate في بلدته دورشستر الذي هَنْدَسَ بناءه بنفسه وعاش فيه حتى مماته كتب أهمَّ رواياته التراجيدية مثل «عمدة كاستربرِدْج» التي صدرت في عام 1886، ثمَّ روايتيه المثيرتين للجدل «تَسّ سليلة دَرْبِرفيلز» 1891، و»جُود الغامض» 1895. وقد أثارت الأخيرتان سُخطَ المجتمع الفكتوري وغضَبَ رئيس الأساقفة الذي أمر بحرق نُسَخٍ من «جود الغامض»، ذلك أنَّ الروايتين عمدتا إلى تعرية النفاق الاجتماعي والديني للمجتمع ونقد تناقضاته الأخلاقية. وبعد روايته الأخيرة «المحبوبة جدًّا» هجر هاردي الرواية عائدًا إلى حبِّه الأول، الشعر، فكتب «قصائد وِسِكْس» في عام 1898. وبين الرواية والشعر كتب أيضًا «قصص وِسِكْس».

وقد تأثَّر هاردي بوليم شكسبير واقتبسه في كثير من أعماله الروائية. وفي عام 1916 كتب قصيدة «إلى شكسبير بعد ثلاثمائة عام»، كما تأثَّر بالروائية الإنجليزية جورج إليوت والشاعر الإنجليزي وليم وردزورث. أمَّا الكتاب البارزون الذين تأثَّروا بهاردي فكان منهم الروائي دي. اتش. لورنس الذي أعدَّ دراسة عن هاردي، والروائية فِرجينيا وولف التي زارته في «ماكس غيْت» وكتبت عن رواياته بعد وفاته.

لقد واضب هاردي على الكتابة حتى مماته، فقبل أن يفارق الحياة في الحادي عشر من يناير من عام 1928 أملى قصيدته الأخيرة على زوجته الثانية وهو على فراش الموت في منزله «ماكس غيْت». وقد دُفِن رُفاتُه في ركن الشعراء في مقبرة وستمِنستر آبي في لندن، في حين نُقِل قلبُه، كما أوصى، إلى جانب ضريح زوجته الأولى، إيما، في ستينزفورد خارج دورشستر.

اقتفاءُ أثر القراءة والاطلاع في حياة هاردي منذ صباه يكشف نظرته الفلسفية التراجيدية التي اتَّسمت بها رواياته، فبتحفيز من أمِّه انكبَّ الصبي المرهفُ الحِسِّ والبِنْيَة والمُحِبُّ للعزلة، على قراءة الأدب، ودَرَسَ الفرنسية والألمانية واللاتينية، ونَهَلَ من التراث الإغريقي والإنجليزي. يظهر أثر ذلك جليًّا في رواياته. وفي مطلع شبابه صدر «أصل الأنواع» فتأثَّر بالنظرية الداروينية وأصبح لا أدريًّا وناقدًا لاذعًا للتراث الديني. كان لهذا المخزون الثَّرِّ دورٌ لافت في تكوينه النفسي والأدبي، بل وفي نظرته الوجودية التي ترى الإنسان في أكثر حالاته بؤسًا وعجزًا أمام سخرية الأقدار، فكثير من شخصيات رواياته يلاحقه سوء الطَّالِع والمصادفة المشؤومة مهما حاول معاندة قدره وطبعه وتسوقه أقدامه سوقًا إلى نهايته المحتومة.

استطاع هاردي أن يمنح سردَه وشعرَه سمةً خاصَّة حين جعل مقاطعة دورسِت الإنجليزية، مسقط رأسه (وُلِد عام 1840)، مركزًا لرواياته وقصصه وقصائده وأطلق عليها اسم وِسِكْس، ثمَّ طفق يُبدِّل أسماء بعض

بلداتها وقراها وجوادّها ويسمّيها بأسماء من نسج خياله حتى تشكّلت خارطة حوت مواقع أحداث رواياته في الريف الإنجليزي. ويجد القارئ هذه الخارطة في مقدمة رواياته كي يستطيع تتبُّع خيوط الأحداث بين رواية وأخرى في أماكن متجاورة أو متباعدة حيثما تقوده القصة والشخصية. ولعلَّ أكثر ما يسترعي اهتمام قارئ هاردي هو تلك المَلَكة الفنية التي يتّسم بها في وصف هندسة المكان في دورست التاريخية ليُقدِّم قطعة طوبوغرافية متنوِّعة تتناثر عليها بلدانٌ وقرًى تضج بالأحداث والشخصيات ويكون بعضها على مرمى حجر من بعضها الآخر، فيخال القارئ أنَّ هذا النسيج كلَّه يجمعه خيطٌ واهٍ لا يكاد يُرى. تغدو الصورة أكثر وضوحًا إذا ما نظرنا إليها بعين الناظر من الأعلى فنرى مشهدًا مكتملًا ومُتَّحدًا. وسواء قُرئت الروايات الوسكسية هذه وفق تسلسلها الزمني أو كيفما اتَّفَق فإنَّ قارئها لن يعدم إشارة أو تلميحًا إلى مكان أو شخصية صادفها في رواية أو روايات أخرى. والمكان الذي يبدو رئيسًا في رواية يصير ثانويًّا في أخرى، وكذلك بعض الشخصيات الرئيسة في إحداها تظهر ظهورًا عابرًا في أخرى، ذلك أنَّ هذه الشخصيات تستطيع التَّنقُّل راجلةً بين مكان وآخر في أرجاء المقاطعة. على سبيل المثال، هناك بلدة كاستربردج وسوقها الشهير اللذان يأتي هاردي على ذكرهما ذكرًا سريعًا غير مرَّة في «تَسّ سليلة دَرْبِرفيلز»، هذه البلدة نفسُها تصبح مسرح القصة كلِّها في «عمدة كاستربردج»، وشخصية المزارع الناجح وِليَم بولوود في «بعيدًا عن الحشد المجنون» يلاقيها القارئ لقاءً خاطفًا في إحدى صفحات «عمدة كاستربردج».

ومع أنَّ أحداث روايات هاردي تدور غالبًا في بلدته في مقاطعة دورست وفي أنحاء إنجلترا، يَحِقُّ لنا أيضًا أنْ نصفه بالكاتب العالمي الذي استقى من حضارات العالم القديمة وأساطيرها وامتلأت رواياته بآثار العلماء والكُتَّاب والشعراء والفنانين والمفكرين عبر القرون. كما أنَّه ينقل قارئه إلى اللغات وأسفار الكتاب المقدَّس والفلكلور الشعبي وأغاني الريف والفن والموسيقى

والتاريخ والآثار والفلسفة والمعمار والزراعة والحصاد، وكلُّها إحالات خصبة تزخر بها رواية «عمدة كاستربردج» وتحرِّض مترجمها على قراءة رواية يشير إليها هاردي أو قصيدة شعبية، وقد تقوده للاستماع إلى لحن قديم وإلى البحث عن معنى كلمة لاتينية أو فرنسية أو ألمانية أو حتى إلى النظر في أدوات الحراثة القديمة التي شاع استخدامها في مجتمع كاستربردج.

في عام 1962 نشرت مؤسسة روز اليوسف أولَّ ترجمة عربية لرواية «عمدة كاستربردج» أنجزها محمد إبراهيم زكي وراجعها مصطفى حبيب، وتوجد طبعة قديمة منها في جزأين في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدُبي غير مسموح إلا بتصويرها لأغراض البحث والدراسة. وأمَّا المكتبات العربية فإنَّ هذه الترجمة لا توجد على رفوفها ولا سبيل إلى أن يهتدي إليها القارئ لأنها ليست متاحة كذلك عبر شبكة الإنترنت كروايات هاردي الأخرى المترجمة إلى العربية مثل «تَسّ سليلة دَرْبِرفيلز» و«جود الغامض». ولهذا فإنَّ ترجمةً جديدةً للرواية قد تساهم في تعويض هذا النقص وإيجاد حيِّز في المكتبة العربية لعمل من أعمال كاتب بالغ الأهمية شغل النُّقَّاد ويُعَدُّ إرثه السردي والشعري من أهم ذخائر الأدب الكلاسيكي.

تمتاز الترجمة العربية القديمة للأدب الأجنبي بوجه عام بجزالة الألفاظ وفصاحتها، فضلًا عن متانة التركيب وقوة بناء الجملة العربية وإحكام صياغتها، وهي بلا شكٍّ مرجع ريادي ضليع في الكتابة العربية المتقنة ودرس بليغ يقدِّمه لنا قامات في اللغة والترجمة ليس من دأبهم الوقوع في الأخطاء اللغوية الشائعة السَّائدة في الكتابات المعاصرة. إلَّا أنَّ بعضًا من هذه التراجم له عثراته التي تسترعي الانتباه، فهو لا يَنِي يقتطع من النص الأصلي ويُضيف إليه على نحوٍ يطغى على أسلوب الكاتب وعلى صوته أحيانًا. كما أن تراجم من هذا القبيل تعمد في بعض المواضع إلى محو سمات بعينها تُميِّز النص الأصلي كالاستعارة من الأسطورة والتاريخ والموروث الشعبي لثقافة

الكاتب، واستخدام الكاتب كلمات أو عبارات بلغات أخرى غير الإنجليزية لا يشير إليها المترجم، وذلك بُغية تبسيط النص للقارئ وتجريده من الغرابة في سعي محموم إلى إنتاج نص عربي خالص كأنَّه غير مترجم. وضمن هذا السياق أيضًا الزَّجُّ بكلمات دارجة في نسيج النص الفصيح دون أيِّ مبرّر مقبول ودون أيِّ ضرورة يفرضها الأصل، فيُصاب القارئ بخيبة أمل ويجد أنَّ ما يقرأه نصٌّ عربيٌّ وليس أجنبيًّا مترجمًا تتوق نفسه إلى معرفته وفهم اختلافه كما هو دون تشويه. ولهذا تغدو إعادة ترجمة بعض كلاسيكيات الأدب ضرورية لبثِّ روح جديدة في النص وإطلاق إمكاناته والإخلاص لغرابته وثقافته، فضلًا عن أهمية تصحيح ما اعترى بعض هذه التراجم القديمة من سوء فهم للنصوص في بعض المواضع، ولا سيَّما أنَّ هذه المهمة تغدو أكثر يُسرًا للمترجم المعاصر لما ناله من حظ وافر في حصوله على مصادر شتَّى بضغطة زرّ.

إنَّ ترجمة تومَس هاردي تحدٍّ كبير لا يخلو من مجازفات ومفارقات وخيبات جمَّة، فهو لم يكن ثائرًا على تقاليد مجتمعه وحسب، بل ثار حتى على تقاليد اللغة الإنجليزية الفكتورية فَحَار النُّقاد في أمر لغته وانقسموا بين مؤيِّد لها ومعارض، مع أنَّه بقي في نظرهم أحد عمالقة الأدب الإنجليزي في السرد والشعر، ورُشِّح مرتين لنيل جائزة نوبل للآداب. تكمن صعوبة ترجمة لغته بل حتى قراءتها في لعبه بترتيب أجزاء العبارة، ولا سيَّما إذا كانت تُشكِّل فقرة كاملة، فيكون على القارئ أن يُقطِّع أجزاء الفقرة ويعيد نظمها في قالب تقليدي يعينه على فهمها، وفي أثناء هذه العملية عليه أن يكون حذرًا من تصريف الكلمات سواءٌ كانت فعلًا أم فاعلًا أم مفعولًا به أم صفة أم غير ذلك، فهاردي يجد متعة بالغة في التقديم والتأخير وفي زجِّ عبارات اعتراضية طويلة في منتصف الفِقْرة، قد يستثقل القارئ غير الصبور قراءتها. وهو لا يتورَّع عن قلب الاستخدام النحوي للصفات مثلًا رأسًا على عقب، فتبدو للقارئ الحديث وكأنها استخدام خاطئ لا تقبله قواعد اللغة الصحيحة، أو

يختلط عليه الأمر إن كان هذا الاستخدام سائدًا آنذاك جنبًا إلى جنب مع استخدام الكلمات المهجورة. بيْد أنَّ قراءة أكثر من رواية لهاردي والاطلاع على بحوث تدرس لغته تقنع القارئ بأنَّ هذه لغة خاصة بهاردي نفسه، ومحمَّلة بتفاصيل سردية كثيرة تعمّق عالمه الروائي. كما أنَّ طريقة استخدامه للضمائر من اليسير أن تخلق سوء فهم للنص، فهو مثلًا لا يذكر أسماء جميع الشخصيات في فقرتين متتاليتين، بل يعمد إلى الإشارة إليها بالضمائر، وهو ما يُشوِّش القارئ ويُشكِّكه في ما إذا كانت الشخصيات المقصودة هي نفسها في الفقرتين، وعلى القارئ أن يكون نبيهًا ويقظًا ومتتبعًا مسار الأحداث بتركيز واهتمام حتى لا يقع في الخلط بين الشخصيات بسبب غموض الضمائر. أظن هذه المسألة من المعضلات التي تواجه المترجم، فنقل فقرات كهذه على نحوٍ لا يُسبِّب التشويش والغموض للقارئ مسألة لا تخلو من صعوبة، إضافة إلى أنَّ اللغة العربية تُخضِع المترجم أيضًا لنظامها الخاص الذي، سعيًا وراء تجنب إرهاق نَفَس الجملة أو تخفيف درجة تدفقها، قد يُفقِد النَّصَّ الأصليَّ خصيصةً أو أكثر من خصائصه.

إلَّا أنَّ التحدي الأكبر الذي يقع فيه المترجم هو عندما يترجم حوارًا بالعامِّيَّة، وما أكثر ما يتكرَّر هذا الحوار في روايات هاردي. لا بدَّ من الاعتراف بأنَّه ما من مناص من فقد سمة اللَّهجة عند ترجمة نصٍّ كلاسيكي إلى لغة عربية فصيحة، وفي «عمدة كاستربردج» لا يقتصر الأمر على استخدام اللَّهجة، بل يتعدَّاه إلى أنَّ كثيرًا من الشخصيات المتحدثة بها تكون أُمِّيَّة وتتحدث بلهجة ريفية أو سوقيَّة يصعب فهمها دون الرجوع إلى معاجم خاصة في كثير من الأحيان، فضلًا عن نطق هذه الشخصيات الخاطئ لبعض المفردات والذي يتعمَّد هاردي استخدامه في سياق ما. إنَّ هذا يضيع في الترجمة حتمًا. كما أنَّ هاردي لجأ في هذه الرواية إلى استخدام لغة خاصة بشخصية الشاب الاسكتلندي «فارفري»، إلى حدِّ أنَّ رجلًا اسكتلنديًا انتقد

طريقة هاردي – كما يزعم هاردي نفسه في مقدمته للرواية –التي جعل بها فارفري ينطق بعض الكلمات بالإنجليزية الاسكتلندية مُدَّعيًا أنهم لا ينطقون بعض الكلمات في اسكتلندا بهذه الطريقة أو تلك. وجاء ردُّ هاردي على ذلك بأنَّه ليس من الضَّروريِّ أن يفهم شخصٌ من الجنوب شخصيةَ الاسكتلندي فارفري كما يفهمها شخص اسكتلندي من الشمال، وأنَّ نطقه للكلمات يمكن أن يسمعه الجنوبي سماعًا يختلف عن سماع الشمالي، ولا سيَّما حين يكون الجنوبي من مقاطعة وسكس. ولكنْ، من ناحية أخرى، يقول هاردي، جاءته سيدة اسكتلندية بعد صدور الرواية وسألته عمَّا إذا كان قد استلهم شخصية فارفري من شخصية زوجها، ذلك أنَّها رأت فارفري يُجسِّد صورة حيَّة لزوجها السعيد. بيْد أنَّ هاردي أكَّد أنَّه لم يُفكِّر في زوجها قطُّ حين خلق فارفري. وبين هذا وذاك، كيف يسمع المترجم هذه الكلمات وكيف ينقلها إلى لغته؟

لعلَّ لتجربة هاردي المعمارية أثرًا في البناء اللغوي لسرده، فهو يهندس اللغة حين يتناول بالوصف الدقيق جادَّة أو برج كنيسة أو حائطًا أو زقاقًا من أزقة كاستربردج. ويكاد وصف مسرح روماني يغطي صفحة كاملة لأنه لا يكتفي بوصف الشكل الهندسي للمسرح بل يذهب أيضًا إلى سرد تاريخ المكان وارتباطه بأسطورة ما أو بحدث تاريخي ما في البلدة العتيقة قبل أن يُدخل شخصياته إلى حلبة ذلك المسرح. إنَّ لغة هاردي معمل يَضُجُّ بالفِخاخ والحِيَل ويفتح الطريق أمام سوء الفهم الذي قد يقع فيه القارئ، فكيف بالمترجم حين يلجأ إلى فكِّ طلاسم كل عبارة وكلمة وحرف، بل كل علامة ترقيم! ولا بدَّ من القول بأنَّ هذا التعقيد كلَّه في لغته وسرده يخرج نصًّا بليغًا شديد التأثير في قارئه بل إنه يجعل منه شخصًا قلقًا لا يستكين عقله ولا يطمئن قلبه حتى بعد انتهائه من قراءة الرواية.

لقد سعيتُ في ترجمتي هذه، وفي هذه المقدمة أيضًا، إلى الاستئناس ببعض المصادر التي تشرح الكلمات القديمة والعامِّيَّة التي استخدمها هاردي في

«عمدة كاستربردج»، وتحديدًا طبعة «عمدة كاستربردج» الصادرة عن دار نشر جامعة أكسفورد عام 2004، بتحرير ديْل كرامر Dale Kramer وتقديم بامِلا دالزيْل Pamela Dalziel. وتتضمن الطبعة مقدمة وافية عن الكاتب والرواية إلى جانب هوامش في أسفل كل فصل تشرح ما يُشكِل من عبارات مجازية أو إحالات تاريخية وثقافية أو مفردات عتيقة أو دارجة، ويجد القارئ ترجمة هذه التعليقات بتصرُّف في الهوامش في الرواية المترجمة التي بين يديْه، وأيّ هامش آخر فهو إمَّا من الكتاب المقدَّس أو المورد الأكبر أو من أي مصدر آخر مُثبَت في الهامش نفسه. إضافةً إلى ذلك، استعنت بكتاب Oxford Reader's Companion to Hardy الصادر عن دار نشر جامعة أكسفورد أيضًا في عام 2000، ومقدمة روايته «تَسّ سليلة دَرْبِرفيلز» ومقدمة الكاتب نفسه في «عمدة كاستربردج» الصادرة عن دار نشر Collector's Library عام 2003 وهي الطبعة التي اعتمدتُها في الترجمة. أمَّا باللغة العربية فقد كان مصدري الأساسي هو ترجمة محمد إبراهيم زكي التي أدين لها بفضل كبير في تعزيز الثقة بالترجمة وإيلاء اللغة العربية عناية خاصة بالنبش المستمر في المعاجم ومحاولة إيجاد مترادفات عربية للاستعارات والعبارات الاصطلاحية. فضلًا عن ذلك، كانت هناك مقدمات تراجم روايتي «تَسّ سليلة دَرْبِرفيلز» و«جود الغامض»، والمجموعة القصصية «مفارقات الحياة»، وجميعها تُرجِم إلى العربية في ستينيات القرن المنصرم.

المترجمة 2018/7/13 – مسقط

الفصل الأول

ذات مساءٍ من أَمْسية أواخر أحد الأصياف، قبل أن يبلغ القرنُ التاسع عشر ثلثَه الأوّل كان شابٌّ وشابَّةٌ تحمل طفلةً يُغِذَّان السيرَ صوب قريةِ وِيدون برايرز الكبيرة في مقاطعة وِسِكْس العليا. كانا يرتديان ثيابًا بسيطة ولكنَّها لم تكن رديئة، مع أنَّ كومةَ الغبار الكثيف التي تجمَّعت فوقها وفوق حذاءيهما من أثرِ رحلةٍ طويلةٍ كما يبدو جليًّا، منحت مرآهما في هذه اللحظة رثاثةً مُزريةً.

كان الرجل وسيمَ الطَّلعة، داكنَ البشرة، عابسَ الملامح، وكانت صفحة وجهه مائلةً بعض الشيء وتتخذ زاويةً شبه قائمة. كان يرتدي سُترةً بُنِّيَّةً قصيرة من القطيفة، أكثر جِدَّةً من باقي بِذْلته التي كانت صِدارًا قطنيًّا خشنًا ذا أزرار بيضاء مصنوعة من القرون، وبنطالًا قصيرًا من النسيج نفسه، وطِماقًا [1] جلديًّا، وقبعةً من القَشِّ يحفُّها شريط من قماش قِنَّبِيٍّ أسود لامع. وكان يحمل على ظهره سلَّةً مصنوعةً من القشِّ علّقها بحبل معقود، وقد نتأ من أحد أطرافها مَقبَضُ سكِّين القَشّ، كما برز من فتحتها مِثقبُ القَشّ. أخذ يمشي مشية رتيبة وئيدة كمشية ريفيٍّ ماهر وليس مشية عامل عمومي متثاقلة وغير منتظمة، وإذ هو يمشي مبادلًا بين القدم والأخرى، لاحت عليه أيضًا مسحة من اللامبالاة العنيدة والساخرة أخذت تتبدَّى حتى في الحركة الإبدالية المنتظمة لأثناء بنطاله، تارةً في الساق اليسرى وتارةً في اليمنى، وهو يتقدَّم في خطوه.

ولكنْ، ما كان غريبًا حقًّا في تقدُّم هذين الزوجين، ومن الممكن أن

1) طِماق: كساء للساق من جلد أو قماش. المورد الأكبر

يسترعي انتباه أيِّ مشاهد عابر يميل خلاف ذلك إلى تجاهلهما، هو ذلك الصمت المُطبق الذي خيَّم عليهما. كانا يسيران جنبًا إلى جنب بطريقةٍ توحي من بعيد بتجاذب أطراف حديثٍ حميمٍ خفيضٍ وسهل كالذي بين أشخاص ممتلئين بعاطفة مشتركة، ولكن عند النظر عن قرب، بوسع المرء أنْ يتبيَّن أنَّ الرجل كان يقرأ، أو يتظاهر بقراءة ورقة من قصيدة شعبيَّة وضعها أمام عينيه ببعض الصعوبة باليد التي كانت تحمل رباط السَّلَّة. سواءٌ كان هذا السبب الظاهر هو السبب الحقيقي أو كان سببًا مزعومًا لتفادي حديث قد يكون مزعجًا له، فلا أحد سواه باستطاعته الجَزْم بدقَّة. بيْد أنَّ صمته ما كان ليُكسر، ولم تكن المرأة تجد أيّ متعة برفقته مطلقًا. في الواقع كانت تسير على الطريق العام وحيدةً إلا من رفقة الطفلة التي كانت تحملها. وكان الرجل حين يثني مرفقه أحيانًا يكاد يلمس كتفها، ذلك أنها حرصت على أن تكون بجانبه قدر الإمكان دون تماسٍّ فعلي، ولكن، بدا أنْ لا هي كانت تفكِّر في تأبُّط ذراعه ولا هو عرض عليها ذلك، وكانت أبعد ما تكون عن إظهار دهشتها إزاء صمته المتجاهِل، فقد بدا أنها كانت تتقبَّل ذلك كأمر طبيعي. إن كان ثمَّة من كلمة تقولها هذه المجموعة الصغيرة، فهي همسُ المرأة بين الحين والآخر للطفلة – وهي بنتٌ صغيرة بملابس قصيرة وحذاء أزرق من الغزل المحبوك – وهمهمةُ الطفلة ردًّا على مناغاة أمِّها.

كان أكثر ما قد يجذب المرء إلى النظر إلى هذه المرأة الشابَّة، بل لعلَّه الشيء الوحيد، هو حركة وجهها. فعندما تُطرِق رأسها مائلة على الطفلة تبدو جميلة، بل فاتنة، ولا سيَّما حين تسقط أشعة الشمس الساطعة على ملامحها بشكل مائل، فيشفّ جفناها ومنخراها وتشتعل شفتاها. وهي تمشي بتثاقل في ظل سياج الأشجار، مفكّرةً بصمت، تبدو عليها سيماء صارمة تعوزها الحيوية كمن يتوقّع حدوث أيّ شيء بيديِ الزمن والمصادفة، اللَّهُمَّ إلا المعاملة العادلة. الحالة الأولى هي من صنع الطبيعة، وأمَّا الثانية فلعلَّها من صنع الحضارة.

أن يكون الرجل والمرأة زوجين، وأبوي الطفلة المحمولة، فهذا أمر لا مراء فيه، فما من علاقة أخرى غير هذه العلاقة يمكنها أن تفسّر مسحة الألفة التَّفِهة التي رانت على الثلاثة كهالة قداسة وهم يتجهون إلى أسفل الطريق.

جعلت الزوجة عينيها مثبّتتيْن غالبًا في الأمام – وإن كان بقليل من الاهتمام – على المشهد الذي يمكن إيجاد مثيل له تقريبًا في كل بقعة في مقاطعات إنكلترا في هذا الوقت من العام، فالطريق لا مستقيم ولا ملتوٍ، ولا مستوٍ ولا متحدّر، تحدّه أسوجةٌ وأشجار ونباتات أخرى دخلت طَوْر الاخضرار الضارب إلى الدُّكنة، قدَرُها وهي في سبيلها نحو القتامة والاصفرار والاحمرار. كان الغبار الذي أثارته العربات المسرعة يغطي الحافة المعشوشبة لضفة النهر وأغصانَ الشجيرات القريبة، وهو الغبار ذاته الذي كسا الطريق وكأنّه بساط فأضعف من وقع أقدامهما، وهذا، إضافةً إلى ما ذُكِر آنفًا من غياب تامٍّ لأيِّ حديث بينهما، أتاح سماع كلّ صوت خارجيّ.

مدةً طويلةً لم يكن هناك أكثر من صوت عصفور ضعيف يشدو بأغنية مسائيَّة قديمة مبتذلة سُمعت دون شك فوق الرابية في الساعة نفسها، وبالرُّعاش والرَّجيف والأنغام نفسها، عند كل غروب في ذلك الموسم قرونًا لا تُعدّ ولا تُحصى. بيْد أنَّه، وهما يقتربان من القرية، تناهى إلى آذانهما هتافٌ وجَلَبٌ كثيرة وبعيدة من إحدى البقع المرتفعة في ذلك الجانب الذي حجبته أوراق الشجر عن النظر. وحين أوشكت بيوت وِيدون برايرز النائية على الظهور، صادفت العائلة جامعَ نبات اللِّفت ومِعوله على كتفه التي تدلَّى منها خُرجُ عشائه. ورفع القارئ بصره فورًا.

«هل من تجارة هنا؟»، سأل ببرود وهو يشير ملوّحًا بالورقة إلى القرية أمامه، وظنًّا منه أن العامل لم يفهمه، أضاف قائلًا: «هل من عمل في تجارة التِّبن؟»

كان جامع اللِّفت قد بدأ بهزّ رأسه: «عجبًا! يا لهذا الرجل! أيَّة حكمة قادته إلى المجيء إلى وِيدون باحثًا عن عمل كهذا في هذا الوقت من العام؟»

«أما من بيت للاكتراء إذن؟ كوخ صغير جديد بُنِي حديثًا، أو شيء من هذا القبيل؟» سأل الآخر.

ما زال المتشائم على ردِّه السلبي: «إنَّ الهدم من طبيعة وِيدون. كانت هناك خمسة بيوت هُدِّمت العام الماضي، وثلاثة هذا العام، ولا يعلم الناس إلى أين يذهبون، ليس هناك حتى أكواخ مسوَّجة بالقَشّ. تلك هي طريقة وِيدون برايرز.»

أومأ التَّبَّان – فقد بدا واضحًا أنّه تبَّان– برأسه بشيء من الكِبْر، ثمّ أردف قائلا وهو ينظر إلى القرية: «ولكنْ، هناك شيء ما يجري، أليس كذلك؟»

«بلى، إنه يوم السوق. إلا أنَّ ما تسمعه الآن ليس أكثر من لَغَطٍ وعذْوٍ لخطف المال من الأطفال والحمقى، لأنَّ التجارة الحقيقية تحدث أبكر من ذلك. وقد عملتُ في هذا الضجيج طوال اليوم، ولكنني لم أصعد إلى هناك، لا ليس أنا. ليس من شأني.»

تابع التَّبَّان وعائلته طريقهم وسرعان ما دخلوا إلى أرض السوق حيث توجد مواقف وحظائر عُرضت فيها مئات من الخيول والخراف وبيعت في صدر النهار، فلم يبق منها إلا القليل الآن. وفي الوقت الحاضر، وكما أخبرهما صاحبهما، لا يوجد سوى القليل من التجارة الحقيقية، كان الأهم فيها مزاد يُباع فيه بعض الحيوانات الأقلّ شأنًا، تلك التي لم يتهيّأ التخلُّص منها، ورفضها رفضًا قاطعًا أفضلُ التُّجار الذين أتوا وغادروا باكرًا. ومع ذلك، صار الحشد أكثر كثافة الآن مما كان عليه في ساعات الصباح. كان هناك زائرون عابثون غير متوقَّعين، بينهم عمَّال خارجون لقضاء عطلتهم، وجندي متسكِّع أو اثنان في عطلة، وأصحاب متاجر قرويون، وأمثالهم، توافدوا مؤخَّرًا لتجد أنشطتهم بغيتها في عروض صناديق الفرجة، ومناصّ الألعاب، والتماثيل الشَّمعيَّة،

والدُّمى الشريرة، ومنهم أطباء نزيهون يجولون لأجل الصالح العام، ومُلاعبو الكُشتِبان[2]، وبائعو الحُلِيِّ الصغيرة، وقارئو الحظ.

لم يكن لأيٍّ من صاحبيْنا الراجليْن ميلٌ إلى هذه الأشياء، فَراحا يبحثان حولهما عن خيمة تبيع وجبات طعام خفيفة بين الخيام العديدة المنتشرة على الرابية. خيمتان منصوبتان قريبًا منهما، بدتا مُغريتين على حدٍّ سواء تقريبًا في السديم الأصفر الشَّاحب لضوء الشَّمس الغارِب. كانت إحداهما مصنوعة من قماش قِنَّب حليبيٍّ حديث العهد، وعلى قمتها أعلام حمراء، ولافتة مكتوب عليها: «جِعَةٌ ومِزْرٌ ونبيذٌ جيِّدٌ مُعتَّقٌ منزليًّا.» وكانت الأخرى أقلَّ جِدَّةً، وقد خرج من خلفها أنبوب موقدٍ حديدي، وفي الأمام برزت لافتة: «قَمْحيَّة لذيذة تُباع هنا.» أخذ الرجل يُقلِّب رأيه في المكتوب على الخيمتين فمال إلى الأولى.

«كلا، كلا، علينا بالأخرى»، قالت المرأة. «طالما أحببتُ القمحيَّة، وكذلك إلزابث جيْن، وأنت أيضا ستحبُّها. إنها مُغذِّية بعد يوم طويل شاقّ.»

«لم أذُقْها قطّ»، قال الرجل. ومع ذلك أفسحَ مجالًا لاقتراحها ودخلا خيمة القمحيَّة على الفور.

تبدَّى في الداخل جمعٌ غفير إلى حدٍّ ما، جالسٌ حول موائد ضيِّقة طويلة تمتدُّ على جوانب الخيمة. في طرفها انتصب موقد يحوي فحمًا مشتعلًا، ووُضِع فوقه قِدْرٌ كبير بثلاث قوائم، وقد صُقِلت حافَّاته كفايةً لتدلَّ على أنَّه مصنوع من مَعْدِن النواقيس. وكانت تجلس في صدر المكان مخلوقةٌ شمطاء ناهزت الخمسين من العمر، ترتدي مئزرًا أبيض أضفى مسحة احترام عليها قدر امتداده، وكان عريضًا جدًّا إلى حدٍّ أنه كاد يطوِّق خصرها كاملًا. كانت تحرِّك محتوى القِدْر ببطء. وكان صرير ملعقتها

2) لعبة تُوضَع فيها كرة صغيرة تحت واحد من ثلاثة أكواب كُشتبانية الشكل ثم تُحرَّك هذه الأكواب ويُطلَب إلى المشاهدين أن يحزروا تحت أيٍّ منها توجد الكُريَّة. المورد الأكبر

الكبيرة المُضجِر مسموعًا في الخيمة كلِّها وهي تتفادى بهذه الطريقة احتراق خليط الحبوب والقمح والدقيق والحليب والزَّبيب والكِشمِش وغير ذلك مما يتكوَّن منه ذلك المزيج المائع العتيق الذي تعدُّه. وقريبًا منها، كانت الأواني التي تحوي المكونات المنفصلة تصطفُّ على مائدة ذات ألواح ومساند، مكسوَّة بمفرش أبيض.

طلب كلٌّ من الشابِّ والشابَّة طبقًا من الخليط الذي كان يتصاعد منه البخار، وجلسا يتناولانه على مهل. كان ذلك حسنًا جدًّا إلى هذا الحدِّ، لأنَّ القمحيَّة كما قالت المرأة كانت مُغذِّية، وهي أفضل طعام ممكنٌ الحصول عليه في منطقة البحار الأربعة، مع أنَّ حبوب القمح المنتفِخة والكبيرة مثل بذور الليمون والطافية على سطح الخليط قد يكون لها تأثير رادع في البداية لأولئك الذين لم يعتادوا أكل القمحيَّة.

ولكن كان ثمَّة في تلك الخيمة شيء لا تدركه النظرة الخاطفة، وقد تمكَّن الرجل الذي يتمتَّع بغريزة ذات طبع نَزِق من شمِّ الرائحة بسرعة. وبعد أن أتى على ما في وعائه أخذ يراقب أعمال الشَّمطاء من زاوية عينه فعرف اللعبة التي كانت تلعبها. غمز لها، ومرَّر طبقه استجابة لإيماءتها حين أخذت قنِّينة من تحت المائدة وقاست خلسةً كميةً من محتواها وأفرغتها في قمحيَّة الرجل. كان الشَّراب المسكوب هو الرُّوم. وناولها الرجل المال خلسةً أيضًا.

وجد الطعامَ الملفَّقَ المضافَ إليه الشَّراب أكثر استساغة مما كان عليه في حالته الطبيعية. راقبت زوجته العملية بكثير من عدم الارتياح، إلا أنَّه أقنعها بأن تسمح بإضافة الشراب إلى طبقها، فوافقت بعد بعض التردُّد على إضافة مقدار معتدل.

أنهى الرجل طبقه وطلب آخر، مُشيرًا إلى إضافة مقدار أقوى من الرُّوم. وسرعان ما ظهر أثر الشَّراب في سلوكه، وأدركت زوجته بحزن بالغ أنها ما تحاشت صخرة خيمة الشَّراب المرخَّص بمشقَّة إلا لتسقط في أعماق دُوَّامة

هذه الخيمة الأخرى بين المهرّبين[3].

بدأت الطفلة تهذر بنفاد صبر، وقالت الزوجة أكثر من مرَّة لزوجها: «ماذا بشأن مكان إقامتنا يا مايكل؟ إنَّك تعلم أننا قد نقع في مشكلة إن لم نغادر في الحال.»

ولكنَّه أعار تلك الكلمات الأشبه بزقزقة العصافير أذنًا صمَّاء، وراح يتحدَّث إلى الجمع بصوت عالٍ. أغمضت الطفلة عينيها السوداوين بعد أن طال بهما التحديق في حركة بطيئة ودائريَّة إلى الشموع المُضاءة، ثم فتحتهما، ثم أغمضتهما ثانيةً ونامت.

حينما أنهى الرجل الطبق الأول بدت عليه السكينة، وبعد الطبق الثاني أصبح جذِلا، وبعد الثالث ميَّالا إلى الجدال، وعند الرابع، تبدَّلت ملامح وجهه، وأخذ فمه يطبق بين الفينة والأخرى، والشَّرر يتَّقد في سواد عينه، وبان ذلك في سلوكه، فبدا متعجرفًا، بل ومُحبًّا للنزاع والخصام على نحوٍ بارز.

أخذ الحديث مُنعطفًا حرِجًا كما يحدث عادةً في مناسبات كهذه. كان النقاش يدور حول الخراب الذي تجلبه الزوجات السيئات على الأزواج الأخيار، وعلى وجه الخصوص حول الأهداف والآمال العراض المجهضة للشباب الواعد، وطاقاته التي أخمدها الزواج المبكِّر الطائش.

«هذا ما جنيته بحقِّ نفسي تمامًا»، قال التَّبَّان متفكِّرًا بمرارة بلغت حدَّ الاستياء. «لقد تزوَّجت في الثامنة عشرة، كنت أحمق وهذه هي العاقبة.» وأشار مُلوِّحًا إلى نفسه وعائلته لإظهار ما هم عليه من بؤس.

تظاهرت زوجته الشابة، التي بدت معتادةً تعليقاتٍ كهذه، بأنَّها لم

3) إشارة إلى أسطورة الوحشين البحريين شيلا وشاريبديس في أوديسة هوميروس الواقعين على جانبي مضيق مسينا بين جزيرة صقلية والشاطئ الصخري الإيطالي. شيلا يرمز إلى الصخرة المسنَّنة الرؤوس على الجانب الإيطالي وشاريبديس هو الدُّوامة العاتية في صقلية. وكان على أوديسيوس أن يختار مواجهة أحد هذين الوحشين ليعبر المضيق بأقل الخسائر، ففضّل معاركة شيلا ليخسر بعض البحارة على أن يواجه شاريبديس وتغرق السفينة بمن فيها. [أصبحت هذه الأسطورة يُضرب بها المثل لتعني الوقوع بين شرَّين أو بين نارين كما يسري المثل العربي أو كما نقول: كالمستجير من الرَّمضاء بالنار].

تسمع، وواصلت ترديد كلماتها الخاصة المتقطّعة حول أشياء صغيرة ولطيفة للطفلة المترجّحة بين الصحو والنوم والتي كانت كبيرة بما يكفي لوضعها لحظةً على المقعد بجانبها كلما أرادت أمُّها إراحة ذراعها.

استطرد الرجل قائلا: «لا أملك أكثر من خمسة عشر شِلِنًا في هذا العالم، ولكنني أتمتَّع بخبرة جيِّدة في حرفتي. وإني لأتحدَّى إنكلترا أن تهزمني في تجارة التِّبن، ولَئِن أصبحتُ رجلًا حُرًّا ثانيةً سأساوي ألف جنيه قبل أن تبدأ تجارتي. لكنَّ المرء لا يدرك هذه الأشياء الصغيرة إلا بعد ضياع جميع الفرص.»

وتناهى إلى الأسماع صوت الدَّلَّال الذي يبيع الخيول المسنَّة في الساحة في الخارج وهو يقول: «هذه هي الفرس الأخيرة، من سيأخذ الفرس الأخيرة لقاء مبلغ زهيد؟ أأقول أربعين شِلِنًا؟ إنها فرسٌ مناسبة جدًّا للاستيلاد، لم تتجاوز الخمسة أعوام، وما من عيب فيها عدا أنَّ ظهرها متقوِّس قليلا، وعينها اليسرى تلقَّت رفسة من فرس أخرى، من أختها التي كانت مقبلةً في الطريق.»

«أمَّا أنا فلا أرى لِمَ لا ينبغي للرجال الذين لهم زوجات ولا يريدونهن أن يتخلَّصوا منهن مثلما يفعل هؤلاء الرِّفاق الغجر بخيولهم المُسنَّة»، قال الرجل الذي في الخيمة. «لِمَ لا يعرضوهن للبيع في المزاد لرجال يرغبون في سلع كهذه؟ لِمَ لا؟ بحقِّ الرَّبّ! سأبيع امرأتي هذه اللحظة إن كان ثمَّة من يودُّ شراءها!»

«هناك من يقومون بذلك.» أجاب بعض الضيوف وهم ينظرون إلى المرأة التي لم تكن بشعةً على الإطلاق.

«حقًّا»، قال سيِّد كان يدخِّن، معطفه نظيفٌ جدًّا عند الياقة والمرفقيْن والمثاني والكتفين، تلك النظافة التي تنشأ عن احتكاك طويل متصل بالأسطح القذرة، وتكون عادةً مرغوبةً في أن تُرى على أثاث لا على ملابس. توحي هيئته بأنه ربما كان في زمن مضى سائسًا أو حُوذيًّا لدى إحدى

عائلات المقاطعات المجاورة. «لقد نشأتُ في عالم صالح كأي رجل، اسمحوا لي أن أقول»، أضاف قائلًا. «وأعرف كيف تكون التنشئة الصالحة أكثر من أيّ شخص، ويمكنني القول بأنها تتمتَّع بالخلق الحسن حتى العظم كأي امرأة في السوق، حذارِ أقول لك، مع أنها قد تحتاج إلى إظهار ذلك قليلًا.» ثم وضع ساقًا على الأخرى واستأنف تدخين غليونه مثبّتًا نظرته المحدِّقة في نقطة في الهواء.

حدَّق الزوج السكران ثواني معدودة مُفكِّرًا في هذا الثناء غير المتوقَّع لزوجته، وشبه متشكِّك في فطنة رأيه في صاحبة هذه الصفات. بيْد أنَّه ما لبث أن عاد إلى قناعته السابقة وقال بفظاظة: «حسنٌ إذن، هذه فرصتكم، إنني أقبل أيَّ عرض على جوهرة الخلق هذه.»

التفتت إلى زوجها وغمغمت: «مايكل، لقد قلت هذا الهراء في أماكن عامَّة من قبل. المزحة تبقى مزحة، ولكن إيّاك أن تتجاوز الحدّ!»

«أعلم أني قلته من قبل، وأعني ما أقول. كل ما أريد هو مُشترٍ.»

في تلك اللحظة، أقبل عصفور سنونو، أحد آخر طيور الموسم، وشقَّ طريقه مصادفة من خلال فتحة في أعلى الخيمة، وراح يُحلِّق ذهابًا وإيابًا في انحناء سريع فوق رؤوس الجمع جاعلًا جميع العيون تتبعه شاردةً. بقي الجمع يتابع الطائر إلى أن وجد طريقه إلى خارج الخيمة، ولم يكترثوا بالرَّدِّ على عرض العامل فأُهمِل الموضوع.

راح الرجل يضيف الشراب بكثرة إلى قمحيَّته، ومع ذلك ظلَّ متّزِنًا تمامًا، إمَّا لأنه عنيد لا يؤثِّر فيه الشراب وإمَّا لأنه مدمن عربيد، وبعد مضيِّ ربع ساعة عاد إلى ترديد نغمته السابقة كما في قطعة موسيقية عندما تعيد الآلةُ اللَّحنَ الأصلي. «أنا هنا بانتظار رأيكم في عرضي هذا. المرأة غير صالحة لي، فمن يريدها؟»

عند ذلك بدأ فساد أخلاق المجتمعين يتبدَّى من فرط سكرهم،

فقابلوا طلبه المتكرِّر بضحك وإعجاب. همست المرأة متوسلةً قلقِة: «هيّا، هيّا، لقد بدأ الظلام يحلُّ ولن يفيد هذا الهراء. إن لم تأت سأغادر من دونك. هيّا!»

انتظرتْ وانتظرتْ، ولكنَّه لم يتحرَّك. وفي غضون عشر دقائق قال الرجل مقاطعًا الحديث المفكَّك بين سكارى القمحيَّة: «لقد سألتُ هذا السؤال ولم يُجب أحد. أليس بينكم جاك راغ أو توم سترو[4] يشتري بضاعتي؟»

وتغيَّرت هيئة المرأة وعبس وجهها وشحب لونها.

«مايك، مايك،» قالت. «لقد غدا الأمرُ خطيرًا. خطيرًا جِدًّا!»

«هل من يشتريها؟» قال الرجل.

«أتمنى أن يفعل أحدهم ذلك، فمالكها الحالي لا يروقها مطلقًا!» قالت بحزم.

«ولا أنت تروقينني.» قال. «إذن نحن متفقان على ذلك. أتسمعون أيها السادة؟ إنه اتفاق على انفصال. لها أن تأخذ الفتاة إن شاءت، وتمضي في سبيلها. وسآخذ أدواتي وأمضي في سبيلي. الأمر بسيط مثل تاريخ الكتاب المقدَّس. والآن، قِفي يا سُوْزَنْ وأظهري نفسك.»

«إيَّاك يا ابنتي»، همست امرأة بضَّة تبيع المشدَّات وترتدي تنورة فضفاضة كانت تجلس قريبة من المرأة، «إنَّ رَجُلَكِ الطيِّب لا يعي ما يقول.»

لكنَّ المرأة وقفت. «والآن، مَن الدَّلال؟» صاح التبَّان.

«أنا»، ردَّ على الفور رجل قصير ذو أنف يشبه مقبضًا نحاسيًّا وصوتٍ أَخَنّ وعينين تشبهان عُرَى الأزرار. «من يضع ثمنًا لهذه المرأة؟»

أطرقت المرأة وكأنها تحافظ على وضعها بإرادة بالغة المشقَّة.

«خمسة شِلنات»، قال أحدهم وَسَرَت ضحكة.

«من دون إهانات، من يقول جُنيهًا؟» قال الزوج.

---

4) كقولنا في العربية: أليس بينكم زيد أو عمرو؟

لم يُجب أحد، وقالت بائعة المشدّات مقاطعةً:

«تأدّب أيُّها الرجل، حبًّا بالرب! أيُّ رجل قاسٍ تزوّجتْ هذه المسكينة! إنَّ بيت الزوجيَّة يكلِّف الكثير، يا للعجب!»

«ارفع السعر أيُّها الدَّلّال،» قال التَّبّان.

«جُنيهان!»، قال الدَّلّال ولم يُجب أحد.

«إن لم يشتروها بهذا الثمن فسيدفعون المزيد في غضون عشر ثوان»، قال الزوج. «حسنٌ جدًّا. أَضِف جُنيهًا آخر أيُّها الدَّلّال.»

«ثلاثة جُنيْهات، بلغ السعر ثلاثة جُنيْهات!» قال الرجل المُصاب بالرَّشْح.

«أما مِن مشترٍ؟» قال الرجل. «يا إلهي! لقد كلَّفتني هذا القدر خمسين مرَّةً! استمر.»

«أربعة جُنيهات!» صاح الدَّلّال.

«سأقول لكم شيئًا، لن أبيعها بأقلَّ من خمسة جُنيهات»، قال الزوج وهو يطيح بقبضته على الطاولة، فطفرت الأطباق فوقها. «سأبيعها بخمسة جُنيهات لأيِّ رجل ينقدني المبلغ ويعاملها معاملة حسنة، وليأخذها إلى الأبد ولن يسمع عني بتاتًا، ولكنَّني لن أبيعها بأقلَّ من ذلك. والآن خمسة جُنيهات وتكون لمُشتريها. أتوافقين يا سُوْزَنْ؟»

أومأت برأسها بلامبالاة تامَّة.

«خمسة جُنيهات»، قال الدَّلّال. «وإلا سحبنا العرض. هل من يدفع؟ مرَّةً أخيرة، نعم أم لا؟»

«نعم»، قال صوت عالٍ عند مدخل الباب.

التفتت العيون كلُّها. عند الفتحة المثلَّثة التي شكَّلت مدخل الخيمة وقف بحّار كان قد وصل في أثناء الدقيقتيْن أو الثلاث دقائق الأخيرة دون أن يلحظه أحد. صمتٌ مطبقٌ أعقب ردَّه.

«أتقول إنك ستشتريها؟» سأل الزوج محدِّقًا إليه.

«أقول ذلك.» أجاب البحَّار.

«القول شيء والدَّفع شيء آخر. أين المال؟»

تردَّد البحَّار لحظةً، ونظر ثانيةً إلى المرأة، ثم تقدَّم، وبسط خمس ورقات متغضِّنة وألقاها فوق المائدة المغطَّاة بالمفرش. كانت أوراق مصرف إنجلَند من فئة خمسة جُنيهات. وفوقها ألقى قطع الشِّلِنات منفصلة وهي تصلصل: واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس.

لقد كان لمنظر مال حقيقي كامل ردًّا على تحدٍّ عُدَّ حتى تلك اللحظة افتراضيًّا بعض الشيء، كان لهذا المنظر أثرٌ كبير في المتفرِّجين. ثبَّتوا أنظارهم في وجوه الممثِّلين الرَّئيسين، ثم في الأوراق النقديَّة الموضوعة تحت ثقل الشِّلنات على المائدة.

حتى هذه اللحظة لم يكن بوسع المرء أن يجزم يقينًا بأنَّ الرجل كان جادًّا حقًّا، بالرَّغم من إعلانه المحيِّر ذاك. لقد فهم المتفرِّجون الحدث أنَّه سخرية مَرِحة بلغت مداها، وخالوا أنَّ الرجل بسبب عطوله عن العمل فقد أعصابه في مواجهة العالم والمجتمع وأقرب الناس إليه. ولكن، بالمطالبة بمالٍ حقيقي وبالاستجابة لهذه المطالبة فَقَد المشهدُ طيشَه المرِح. بدا وكأنَّ ضوءًا شاحبًا ملأ الخيمة، وغيَّر ملامح جميع من بداخلها. غادرت غضونُ المرح وجوهَ المستمعين، وترقَّبوا بأفواه فاغرة.

«والآن»، قالت المرأة قاطعةً الصمت، وقد بدا صوتها المنخفض الجاف عاليًا بعض الشيء: «قبل أن تذهب بعيدًا في هذا الأمر يا مايكل، اصغِ إليّ. إن لمستَ ذلك المال، سنرحل أنا والفتاة مع الرجل. حذارِ، لم يعد الأمر مزحة.»

«مزحة؟ قطعًا ليس مزحة،» صاح زوجها وقد تفاقم غضبه إزاء اقتراحها. «أنا آخذ المال والبحَّار يأخذك أنتِ. ذلك واضح وضوحًا كافيًا. لقد

حصل مثل هذا الأمر في أماكن أخرى، فلِمَ لا يحصل هنا؟»

«من الواضح أنَّ المرأة ترغب بالرحيل»، قال البحَّار بلطف. «لن أؤذي مشاعرها مهما كان الثمن.»

«حقًّا! ولا أنا»، قال زوجها. «ولكنَّها راغبة بالرحيل، شريطة أن تأخذ الطفلة. قالت ذلك عندما سألتُها ذلك اليوم!»

«أتُقسمين على ذلك؟» قال لها البحَّار.

«أُقسم»، قالت بعد أن نظرت إلى وجه زوجها ولم ترَ أيَّ ندمٍ فيه.

«حسنٌ جدًّا، لتأخذ الطفلة، انتهت الصفقة»، قال التبَّان. أخذ أوراقَ البحَّار النقديَّة وطواها بتأنٍّ، وبطريقة حاسمة وضعها مع الشِّلنات في جيب مرتفع وبعيد في سترته.

نظر البحَّار إلى المرأة وابتسم. «تقدَّمي!» قال بلطف. «والصغيرة كذلك، كلما زاد العدد كان ذلك أكثر بهجةً.» توقَّفت لحظةً ناظرة إليه عن قرب. ثم أخفضت عينيها ثانيةً ولم تقُل شيئًا وحملت الطفلة وتبعته وهو يتقدَّم نحو الباب. وحين وصلت إلى الباب التفتت وخلعت خاتم زواجها وقذفت به عبر الخيمة على وجه التبَّان.

«مايك»، قالت، «واحسرتاه يا مايك! لقد عشتُ معك هذه المدَّة كلَّها ولم ألقَ فيها إلا حدَّة طبعك! والآن ما عدتُّ لك، وسأجرِّب حظي في مكان آخر، وذلك خيرٌ لي ولإلزابث جيْن. وداعًا!»

تأبَّطت ذراع البحَّار بيدها اليُمنى وحملت الصغيرة باليُسرى، وخرجت من الخيمة تنشج بِمرارة.

علت وجهَ الزوج نظرةٌ متبلِّدة، وكأنه بعد كلِّ شيء لم يتوقَّع هذه النهاية، وضحك بعض الضيوف.

«هل رحلت؟» قال.

«مؤكَّد، لقد رحلت وذلك واضح بدرجةٍ كافية،» قال بعض القرويين

الواقفين قريبًا من الباب.

نهض وسار إلى المدخل بخطى رجل حذِر وواعٍ قَدْرَ ما تناوله من خمر. تبعه بعضهم ووقفوا ينعمون النظر في الشَّفق. لقد كان الفرقُ بين سلام الكائنات المستضعفة وعَدَاءِ البشر الجامح جليًا جدًّا في هذا المكان، فعلى النقيض من قسوة الفعل الذي انتهى توًّا داخل الخيمة، كان هناك مشهد لبعض الخيول تتلاقى أعناقها بِحُبٍّ وهي تنتظر بِصبر أن تُسرَج استعدادًا لرحلة العودة إلى موطنها. وخارج السوق، في السُّهول والغابات، كان كلُّ شيء هادئًا. كانت الشمس قد غربت توًّا، وفي السماء الغربيَّة تعلَّقت غيمة ورديَّة بدت مستقرَّة هناك مع أنها كانت تتحوَّل ببطء. كان النظر إليها يشبه النظر إلى عملٍ فذٍّ مَهيب على خشبة مسرح في قاعة كبيرة آخذة في الإظلام. وبحضور هذا المشهد بعد مشهد الخيمة ينتاب المرء إحساس غريزي بأنَّ الإنسان ما هو إلا وصمة عار في عالمٍ طيِّب في أحوالٍ أخرى إلى أن يتذكَّر أنَّ جميع الأحوال الدُّنيويَّة مؤقَّتة وأن البشريَّة ستنام في إحدى الليالي نومًا وادعًا في الوقت الذي تغضب فيه كائنات الطبيعة الهادئة هذه وتهتاج.

«أين يعيش البحَّار؟» سأل أحد المتفرِّجين بعد أن بحث الجميع من حولهم بلا جدوى.

«الرَّبُّ وحده يعلم، إنه بلا ريب غريبٌ هنا.» أجاب الرجل الذي عاش حياة رغيدة.

«لقد جاء منذ خمس دقائق،» قالت بائعة القمحيَّة منضمَّة إلى الجميع وهي تضع راحتيها على خاصرتها. «ثم تراجع إلى الخلف ثم نظر إلى الداخل ثانية. إنني لا أساوي قِرشًا في نظره.»

«لقد استحقَّ الزوج ما حلَّ به،» قالت بائعة المشدَّات. «إنَّها امرأة جميلة محترمة، فما الذي يريده رجل أكثر من ذلك؟ إنني لأعتزُّ بروح تلك المرأة. وسأفعل الشيء نفسه إذا تصرَّف معي زوجي على هذا النحو، ولتحلَّ

عليَّ اللعنة إن لم أفعل! سأرحل، وقد يصيح ويصيح حتى توجعه حنجرته ولكنِّي لن أعود أبدًا، لا، لن أعود إلى أن تقوم الساعة.»

«ستكون المرأة أفضل حالا،» قالت أخرى بنبرةٍ أكثر تروِّيًا. «لأنَّ طبيعة حياة البحَّارة ملاذ جيِّد جدًّا للخراف المجزوزة، ويبدو أنَّ الرجل ذو مال وفير، وهذا ما لم تعتده هي مؤخَّرًا كما يوحي مظهرها.»

«اسمعوا. لن أذهب وراءها!» قال التَّبَّان عائدًا بإصرار إلى مقعده. «فلتذهب! إن كانت تحلو لها نزوات كهذه فسيكون عليها أن تعاني بسببها. ما كان من شأنها أن تأخذ الفتاة، إنها طفلتي، ولو حدث هذا الأمر ثانيةً فلن تأخذها!»

وبدأ الزبائن يغادرون الخيمة شيئًا فشيئًا بُعيْد هذا الحدث، ربَّما لما انتابهم من إحساس طفيف بالمشاركة في فعل متعذِّر تبريره، وربَّما لأنَّ الوقت تأخَّر. بسط الرجل مرفقيه على الطاولة، وأسند وجهه إليهما وسرعان ما بدأ يشخر. قرَّرت بائعة القمحيَّة إغلاق الخيمة، وحين رأت ما تبقَّى من قناني روم، وحليب، وذرة، وزبيب، وغير ذلك حملتها كلَّها إلى العربة، وأقبلت إلى حيث اضطجع الرجل. هزَّته، ولكنَّها لم تستطع إيقاظه. ولأنَّ الخيمة لن تُفكَّ تلك الليلة، لأنَّ السوق سيستمر يومين أو ثلاثة، فقد قرَّرت أن تترك النائم الذي كان واضحًا أنه لم يكن متسوِّلًا، ليبقى حيث كان وسلَّته معه. أطفأت آخر شمعة وأرخت ستارة الخيمة، غادرتها، وقادت عربتها مبتعدةً.

الفصل الثاني

كانت شمس الصباح تفيض خلل شقوق الخيمة عندما استيقظ الرجل. ساد جوَّ الخيمة وهجٌ دافئ، وكان ثمَّة ذبابة كبيرة زرقاء تطنُّ طنينًا موسيقيًّا وهي تحوم وتحوم حول المكان. عدا طنين الذبابة لم يكن ثمَّة صوت. نظر حواليه، إلى المقاعد، والمائدة المدعومة بالمساند، وسلَّة أدواته، والموقد الذي كانت تغلي عليه القمحيَّة، والأطباق الفارغة، وبعض حبوب القمح المتناثرة، وأسِدَّة القناني التي غطَّت الأرضيَّة المعشوشبة. وتبيَّن بين البقايا شيئًا صغيرًا لامعًا فالتقطه. لقد كان خاتم زوجته.

بدأت تعود إليه صورة مشوَّشة عن أحداث المساء الفائت، وحشر يده داخل جيب صِداره، فكشف صوتُ حفيفِ أوراقَ البحَّار النقديَّة التي كانت محشورة هناك بإهمال.

كان ذلك التَّحقُّق الثاني من ذكرياته المعتمة كافيًا، فأدرك الآن أنها لم تكن أحلامًا. بقي جالسًا وهو يطرق إلى الأرض بعض الوقت. «يجب أن أخرج من هذا بأسرع وقت ممكن»، قال بتروٍّ أخيرًا وبنبرة شخص لم يستطع الإمساك بأفكاره دون نطقها. «لقد رحلت، مؤكِّد أنها رحلت، رحلت مع ذلك البحَّار الذي اشتراها هي والِزَابِث جيْن الصغيرة. لقد دخلنا إلى هنا وتناولتُ القمحيَّة وفيها الرُّوم، وبِعتُها. نعم ذلك ما حصل، وها أنا هنا. والآن ماذا عساي أن أفعل؟ أتعجَّب، هل أنا مُتَّزنٌ بما يكفي لأمشي؟» وقف، ووجد أنه في حال جيدة إلى حدٍّ ما ليمشي، غير مُعَوَّق. ثمَّ وضع سلَّة أدواته على كتفه ووجد أنه قادر على حملها. بعد ذلك، رفع باب الخيمة وخرج إلى الهواء الطلق.

وهنا أخذ الرجل ينظر حواليه بفضول وكآبة. وبينما هو واقف ألهمته طراوة صباح سبتمبر وأنعشته. لقد كان وعائلته مرهقين عندما وصلوا الليلة الماضية، ولم يروا سوى القليل من المكان، ولذلك يراه الآن كشيء جديد. كان على قمة رابية مفتوحة، يحدُّها من أحد أطرافها حقل، ويصل إليها المرء من طريق متعرِّج. وفي الأسفل قامت القرية التي أعارت اسمها لذلك النَّجْد والسوق السنوي المُقام عليه. امتدَّت تلك البقعة إلى السهول، وصعودًا نحو نجود أخرى كانت تغطِّيها الرَّوابي وبقايا حصون ما قبل التاريخ. كان المشهد بأسره ينبسط تحت أشعة الشمس المشرقة توًّا، التي لم تُجفِّف بعد ورقةَ نبات واحدةً من العشب المغمور بالنَّدى، ووقفت في البعيد عرباتٌ حمراء وصفراء بدت ظلال عجلاتها طويلة الامتداد مثل مدار مذنَّب. وكان جميع الغجر والعارضين الذين بقوا في الساحة يضطجعون داخل دفء عرباتهم وخيامهم أو يلتفُّون بأكسِيَة الخيل تحتها، وكانوا صامتين وساكنين وكأنهم أموات لولا شخيرهم المتقطِّع الذي كان يُنبئ بوجودهم. ولكن كان للسبعة النائمين كلب[5]، وكانت تربض هناك أيضًا كلاب ذات سلالات مجهولة، تلك التي يملكها المتشرِّدون، والتي تشبه القطط أكثر من الكلاب، والثعالب أكثر من القطط. جفل جرو صغير تحت إحدى العربات، ونبح كما ينبغي لفطرته، ثم سرعان ما ربض ثانيةً. كان هو الشاهد الأكيد الوحيد على خروج التَّبَّان من أرض سوق وِيدون.

وبدا ذلك ملائمًا لرغبته. مضى مفكِّرًا بصمت وغير مُكترِثٍ بطيور الدُّرَّسَة الصفراء وهي تحلِّق فوق أسوجة الشجيرات حاملةً في مناقيرها أعواد القش، ولا بتيجان نبات الفطر، ولا برنين أجراس الخراف المحلِّيَّة التي حالفها

5) السبعة النائمون حسب الدين المسيحي هم الفتية الذين اختبأوا في الكهف هربًا من أن يحاكمهم الإمبراطور الروماني ديقيانوس على اعتناقهم المسيحية في عام 250 قبل الميلاد، ثمّ غلبهم النوم ولم يستيقظوا إلا في عهد ثيودوسيوس الثاني (408–450) ق م. وبعد ذلك ناموا مرّة أخرى وماتوا مثل قديسين. وتشير نسخة القصة المذكورة في القرآن إلى وجود كلب رابض عند فم الكهف لحماية النائمين.

الحظ السعيد ولم تُعرَض في السوق. ولمَّا وصل الرجل إلى طريق يبعد بضعة أميال عن مشهد المساء الفائت، طرح سلَّته أرضًا واتكأ على بوابة. كانت تشغل عقله مشكلة صعبة واحدة أو اثنتان.

«هل أخبرتُ أحدًا باسمي الليلة الماضية، أم أنني لم أخبر باسمي؟» قال لنفسه، وخلُص أخيرًا إلى أنه لم يفعل. كان سلوكه العام كافيًا ليُظهر كم كان مدهوشًا ومغتاظًا من زوجته عندما فهمته فهمًا حرفيًّا تامًّا، حيث أمكن رؤية ذلك على وجهه وفي الطريقة التي يقضم بها عود قشٍّ انتزعه من السياج. كان يعلم أنها لا بدَّ كانت منفعلة بعض الشيء عندما فعلت ذلك، وإضافةً إلى ذلك، لا بدَّ أنها صدَّقت أنَّ ثمَّة قوَّة مُلزِمة في تلك الصفقة. شعر أنَّه متيقِّنٌ تقريبًا من النقطة الأخيرة، لأنَّه كان يعرف تحرُّرها من تقلُّب الشخصية، ويعرف بساطة تفكيرها المفرطة. وربَّما كان هناك أيضًا قدر كافٍ من لامبالاة وامتعاض وراء هدوئها المعتاد جعلاها تكبت أية شكوك لحظيَّة، ففي مناسبة سابقة عندما أعلن في لحظة سُكْر أنه سيتخلَّص منها كما فعل هذه المرَّة، أجابت بنبرة استسلام شخص مؤمنٍ بالقضاء والقدر بأنَّه لن يمرَّ وقت طويل على قوله ذلك حتى يتحقَّق... «ولكنَّها تعرف أنني لا أكون حاضر الحواس عندما أفعل ذلك!» صاح. «حسنٌ، يجب أن أبحث عنها حتى أجدها... أقبض عليها، لِمَ لمْ تكن أكثر تعقُّلًا من أن تجلب لي هذا العار؟» قال مزمجرًا. «إن كنتُ شاذَّ الأطوار فلم تكن هي كذلك. إنَّها سُوْزَنْ من يُظهر بساطة حمقاء كهذه. إنَّها خانعة، ذلك الخنوع سبَّب لي أذًى أكثر مما يسبِّبه طبعي الحادّ!»

وعندما هدأ عاد إلى قناعته الأصليَّة بأنَّه يجب أن يجدها هي والصغيرة إلِزَابث جيْن بطريقة أو بأخرى، وأن يتحمَّل الخزي ما وسعه ذلك، فقد كان ذلك من صنع يديه وعليه أن يتحمَّله. ولكنَّه قرَّر أوَّلًا أن يؤدي قَسَمًا، قسمًا أعظم من أيِّ قسم أدَّاه من قبل، ولكي يفعل ذلك كما ينبغي كان بحاجة إلى مكان مناسب وأيقونة مناسبة، ذلك أنَّه كان ثمَّة إيمان لاعقلاني يتعلَّق به هذا

الرجل في معتقداته.

حمل سلّته على كتفه وواصل سيره وهو يقلّب نظره باحثًا في الطبيعة من حوله، وبعد ثلاثة أميال أو أربعة عاين ذُرا قريةٍ وبرجَ كنيسة، فقصد فورًا الهدف الثاني. كانت القرية هادئة تمامًا، لأنَّ الساعة كانت الساعة الساكنة من الحياة الريفية اليومية، التي تشغل الفترة بين ذهاب عمَّال الحقل إلى أعمالهم وبين نهوض زوجاتهم وبناتهم لإعداد الإفطار إثر عودتهم. وهكذا وصل إلى الكنيسة دون أن يلحظه أحد، ولمَّا كان الباب مُزْلَجًا فقط دخل. وضع التبَّان سلّته جوار جُرْن التعميد، واتَّجه إلى صحن الكنيسة حتى بلغ بوابة المذبح، ففتحها ودخل إلى المكان المقدَّس وبدا أنَّ إحساسًا بالغرابة ساوره لحظةً، ثم جثا على المنصَّة.

ترك رأسه يسقط على الكتاب المثبَّت بإحكام والمبسوط فوق مائدة العشاء الرَّبَّانيِّ وقال بصوتٍ عالٍ: «أقسم، أنا مايكل هِنْشَرْد، في صباح السادس عشر من سبتمبر هذا، في هذا المكان المَهيب، أن أجتنب جميع المُسْكِرات طوال إحدى وعشرين سنة قادمة، كلُّ سنة منها تساوي كلَّ سنة عشتها. أقسم على هذا باسم الكتاب الذي أمامي، وليُصبني البَكَم والعمى والعجْز إن نكثت بقسمي هذا!»

حين قال التَّبَّان ذلك وقبَّل الكتاب الكبير نهض وبدا متخفِّفًا لأنه صنع بداية جديدة. ووقف في المدخل لحظةً فرأى سحابة كثيفة تصعد فجأة من مدخنة حمراء لكوخ قريب، فعرف أنَّ قاطنها قد أشعل النار توًّا. اتَّجه إلى باب الكوخ ووافقت ربَّة البيت أن تعدَّ له إفطارًا لقاء مال زهيد، وحصل ذلك. ثم شرع في البحث عن زوجته وطفلته.

وسرعان ما أصبحت الطبيعة المُشوّشة لمهمته جليَّةً. ومع أنَّه بحث وسأل، وسار هنا وهناك يومًا بعد آخر، لم يَرَ أحدٌ أشخاصًا كالذين وصفهم في أي مكان منذ ذلك المساء في السوق. وما زاد الأمر صعوبة أنَّه لم يستطع

معرفة اسم البحّار. ولأنّه كان ينقصه المال فقد قرّر بعد بعض التردُّد أن ينفق مال البحّار على متابعة هذا البحث، ولكنّ ذلك لم يُجْدِ نفعًا أيضًا. كانت الحقيقة هي أنّ خجل مايكل هِنْشَرْد الأكيد من كشف فَعْلته قد منعه من متابعة بحثه الذي يقتضي إثارة الصخب ليأتي بنتيجة، ولعلّه لهذا السبب لم يحصل على أيّة معلومات، مع أنّ كل شيء قام به لم يتضمّن أيّ تفسير للظروف التي فقد فيها زوجته.

أصبحت الأسابيع شهورًا، وكان ما زال يبحث مُنفقًا على نفسه بالقيام بأعمال صغيرة بين فترة وأخرى. وفي أثناء ذلك وصل إلى ميناء بحري، وهناك استمدَّ بعض الأنباء بأنّ الأشخاص الذين وصفهم كانوا قد هاجروا منذ وقت قصير. ثم قال إنه سيتوقّف عن البحث وسيذهب ويستقر في المقاطعة التي كانت في ذهنه بعض الوقت. وفي اليوم التالي بدأ رحلته نحو الجنوب الغربي، ولم يتوقّف إلا ليلةً للمبيت، حتى بلغ بلدة كاسْتربرِدْج في جزء قصيٍّ من مقاطعة وِسِكْس.

الفصل الثالث

اكتسى الطريق العام المؤدِّي إلى قرية وِيدون برايرز بالغبار مرةً أخرى. واتَّشحت الأشجار، كما في الزَّمن الغابر، بالأخضر الداكن، وفي المكان الذي سار فيه أفراد عائلة هِنشَرْد الثلاثة ذات مرَّة كان يسير الساعة شخصان ليست قرابتهما ببعيدة عن تلك العائلة.

لقد اتسم المشهد في نطاقه الواسع بكثيرٍ من سماته السابقة، حتى في ما يتعلَّق بالأصوات والثرثرة الآتية من القرية المجاورة في أسفل الرابية، وكأنَّ هذا النهار هو النهار الذي أعقب الحادثة التي وقعت في السابق. كان التغيُّر ملحوظًا في التفاصيل فقط؛ ولكن بدا واضحًا هنا أنَّ أعوامًا طويلةً قد انصرمت. كان أحدُ الشخصيْن السائريْن على الطريق زوجةَ هِنْشَرْد التي كانت لا تزال شابَّةً في الحادثة السابقة، والتي فقد وجهها الآن الكثير من امتلائه، وطال بشرتَها تغيُّرٌ ظاهر، ومع أنَّ شعرها لم يفقد لونه أصبح أكثر خفَّة من السابق. كانت ترتدي ثياب أرملة. وبدت رفيقتها، التي كانت في ثياب الحداد كذلك، شابَّةً جميلةً في الثامنة عشرة، تحفُّها روح ذلك الشباب العزيز الزائل، الشباب الذي كان جمالًا في ذاته، بغضِّ النظر عن البَشَرَةِ أو القَسَمات.

كانت نظرة خاطفة تكفي لإخبار العين بأنَّ تلك كانت ابنة سُوْزَنْ هِنْشَرْد وقد أصبحت يافعة. ترك صيف منتصف العمر بصمته القاسية على وجه الأم، بيْد أنَّ الزمن نقل بحذق ملامح شبابها الربيعية السالفة إلى الشخصية الثانية، ابنتِها، إلا أنَّ بعض الحقائق التي تعرفها الأم تجهلها الفتاة، فبدا الأمر اللحظةَ لِمَن يتأمَّل تلك الحقائق أنَّ ثمَّة نقصًا غريبًا في قدرة الطبيعة

على الاستمرار.

سارتا مُتشابكتَيِ الأيدي، ويمكن القول إنَّ هذا كان فعل محبَّة خالصة. كانت الابنة تحمل في يدها الأخرى سلَّة مصنوعة من الصفصاف ذات طراز قديم، في حين حملت الأمُّ صُرَّة زرقاء بدت مناقضة إلى حدٍّ غريب لثوبها الصوف الأسود.

حين وصلتا إلى أطراف القرية تابعتا السير على الطريق المتعرِّج كما كان في الماضي وارتَقتا الرابية تُجاه السوق. وهنا أيضًا بدت آثار السنين جليَّة. كان يمكن ملاحظة بعض التعديل الفنِّيِّ في ألعاب دُوَّامة الخيل والأراجيح، تلك الآلات التي تختبر قوة الرِّيفيِّ وثقله، وكذلك في الإنشاءات المخصَّصة لألعاب الرماية. لكنَّ تجارة السوق الحقيقية تضاءلت تضاؤلًا كبيرًا، إذ بدأت الأسواق الدَّوريَّة الكبيرة في البلدات المجاورة تتدخَّل تدخلًا جادًّا في التجارة القائمة هنا منذ قرون، فأصبحت حظائر الخراف والخيول نصف حجم ما كانت عليه في الماضي، واختفت تقريبًا أكشْاك الخياطين وبائعي الجوارب وصانعي البراميل وتجار الأقمشة وغيرها من أعمال مشابهة، وأضحت العربات أقلَّ عددًا بكثير. شقَّت الأمُّ والابنة دربهما بحذر بين الحشد مسافةً قصيرة، ثم وقفتا في مكانهما.

«لِمَ نُضيِّع وقتنا بالمجيء إلى هنا؟ اعتقدت أنك تودِّين التقدُّم إلى الأمام؟» قالت الآنسة.

«أجل يا عزيزتي إلِزَابِث جيْن،» شرحت الأخرى. «ولكن لديَّ رغبة في البحث هنا.»

«لماذا؟»

«هنا التقيتُ نيُوسِن أوَّل مرَّة، في يوم كهذا اليوم.»

«أوَّل مرة التقيتِ أبي هنا؟ بلى، أخبرتني بذلك من قبل. ولكنَّه الآن رحل عنَّا وغرق في اليَمّ!» سحبت الفتاة وهي تتحدَّث بطاقةً من جيبها وراحت

تنظر إليها بحسرة. كان يحيط بحافَّاتها إطار أسود، وبداخل تصميم يشبه لوحةً جداريَّة نُقِشت هذه الكلمات: «في الذكرى الغالية للبحَّار ريتشَرْد نيُوسِن الذي فُقِد لسوء الحظ في البحر في شهر نوفمبر من عام 184_ في عمر الحادية والأربعين.»

«وهنا،» أردفت أمُّها بمزيد من التردُّد: «رأيت آخر مرة قريبنا الذي نبحث عنه، السَّيِّد مايكل هِنْشَرْد.»

«ما صلة قرابته لنا تحديدًا يا أمي؟ لم تخبريني بذلك بوضوح.»

«إنه، أو كان – فقد يكون ميتًا – قريبًا لنا قرابة نسب،» قالت الأم بتروٍّ.

«ذلك تمامًا ما قُلتِه مراتٍ عدَّة من قبل!» أجابت الشابَّة ناظرة حولها دون انتباه. «أظن أنه ليس وثيق القرابة بنا؟»

«كلا، على الإطلاق.»

«كان تبَّانًا عندما سمعتِ عنه آخر مرَّة، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«أظن أنه لا يعرفني؟» أردفت الفتاة قائلة ببراءة.

توقفت السيدة هِنْشَرْد لحظةً، ثم أجابت بارتباك: «حتمًا لا، يا إلِزابِث جيْن. ولكن تعالي من هذا الطريق.» وانتقلت إلى جزء آخر من أرض السوق.

«أعتقد أنه لا فائدة من البحث هنا عن أيِّ أحد،» علَّقت الابنة محدِّقةً حواليها. «يتغيَّر الناس في الأسواق كأوراق الشجر، وإنَّني لأجرؤ على القول إنك الوحيدة هنا اليوم ممن كان هنا في تلك السنوات.»

«لستُ على يقين من ذلك»، قالت السَّيِّدة نيُوسن كما تدعو نفسها الآن، وهي تعاين باهتمام شيئًا تحت دكَّة خضراء بعيدًا قليلًا. «انظري هناك.»

نظرت الفتاة إلى تلك الجهة حيث أشارت الأمّ. كان الشيء المُشار إليه

مِنْصَبًا ثلاثي القوائم من عصيٍّ مغروزة في الأرض وعليه قِدْر ثلاثي القوائم تحته حطب مشتعل. كانت تنحني فوق القِدْر امرأةٌ مُسنَّة، منهكةٌ ومتغضِّنة، ترتدي أسمالًا بالية. كانت تُحرِّك محتوى القدر بملعقة كبيرة، وتنعب بين الحين والآخر بصوت متقطِّع قائلة: «قمحيَّة لذيذة تُباع هنا!»

لقد كانت حقًّا السَّيِّدة السابقة لخيمة القمحيَّة، التي كانت ناجحةً ذات يوم ونظيفة وترتدي مئزرًا أبيض وتَرِنُّ جيوبها بالنُّقود، وأصبحت الآن بلا خيمة، وقذِرةً ولا تملك موائد ولا مقاعد، ولم يكن معها زبائن إلا صبيَّان أسمران ضارب لونهما إلى البياض جاءا وطلبا قمحيَّة «بقِرْش من فضلك، ومقدار جيِّد»، قدمتها لهما في طبقيْن أصفريْن مشوَّهيْن بالكسور ومصنوعيْن من أردأ أنواع الصَّلصال.

«لقد كانت هنا في ذلك الزمن»، تقدَّمت السيدة نيُوسن خطوةً وهي تقترب.

«لا تتحدَّثي إليها، ليس لائقًا أن تفعلي ذلك!» ألحَّت الأخرى.

«سأقول لها شيئًا وحسب، وأنت يا إلِزَابث جيْن ابقي حيث شئت.»

لم تمانع الفتاة فاستدارت نحو بعض الأكشاك التي تبيع المطبوعات الملوَّنة في حين تقدَّمت أمُّها إلى الأمام. توسَّلت العجوز إلى زبونتها الأخيرة حالما رأتها واستجابت لطلب السيدة هِنْشَرْد نيُوسن ابتياع قمحيَّة بِقرْش واحد ببهجة أكبر مما كانت تظهره في أيامها الخوالي عندما كانت تبيع بستَّة قروش. عندما أخذت الأرملة المزعومة[6] طبق الحساء الرديء الخفيف الذي حلَّ مكان الخليط الغنيِّ في الأيام السالفة، فتحت العجوز الشمطاء سلَّة صغيرة خلف الموقد المشتعل ونظرت بخبث هامسةً: «أتودِّين بعض الرُّوم؟ إنه خمر مُهرَّب، كما تعلمين، خذيه لنقل بقرشيْن، سيجعل الخليط ينساب مثل شراب مُنعِش!»

---

6) وردت في الرواية في الأصل بالفرنسية: soi-disant، (المترجمة)

ابتسمت زبونتها بمرارة أمام استمرار هذه الخدعة القديمة وهزَّت رأسها بالنفي بطريقة كانت العجوز بعيدة تمامًا عن تفسيرها. وتظاهرت بأكل قليل من القمحيَّة بملعقة الرصاص المقدَّمة إليها، وبينما هي تفعل ذلك قالت مُداهِنةً العجوز: «لعلّك شهدتِ أيامًا أفضل؟»

«آه يا سيدتي، يمكنك أن تقولي ذلك!» أجابت العجوز مُشرعةً أبواب قلبها فورًا. «لقد وقفتُ على أرض هذا السوق آنسةً وزوجةً وأرملةً طوال تسعة وثلاثين عامًا، وفي تلك الأيام عرفتُ كيف تكون التجارة مع أصحاب الكروش الثريَّة في البلدة! سيدتي، إنك لن تصدِّقي أنني كنت ذات يوم أملك خيمة كبيرة كانت فتنة السوق

بأسره. لا أحد كان يأتي ويغادر دون أن يتناول طبق قمحيَّة السيدة غُودإنَف. كنت أعرف ذوق رجل الدين وذوق المُختال، وذوق القادم من البلدة والقادم من القرية، بل وكنت أعرف ذوق النساء البذيئات الوقحات. ولكن قسمًا بحياتي العالم لا يتذكَّر، الصفقات الشريفة لا تجلب الربح، وإنَّما الخبث والخداع هما ما يجلب الربح في هذه الأيام!»

ألقت السَّيِّدة نيُوسن نظرة حولها. كانت ابنتها لا تزال مُنحنية عند أحد الأكشاك البعيدة. «هل تذكرين قصة باع فيها زوج زوجتَه في خيمتك منذ ثمانية عشر عامًا؟» قالت بحذر للعجوز.

فكَّرت العجوز الشَّمطاء وهزَّت رأسها شبه نافية. «لو كان حدثًا كبيرًا لتذكَّرته فورًا،» قالت. «أتذكَّر كلَّ صراع جادٍّ بين متزوجين، وكلَّ جريمة قتل، وكلَّ قتل غير متعمَّد، بل وكلَّ سرقة أموال، الكبيرة منها على الأقل التي كان من نصيبي أن أشهدها. ولكن قصة بيع؟ هل تمَّتَ بهدوء؟»

«حسنٌ، نعم. أعتقد ذلك.»

هزّت امرأة القمحيَّة رأسها شبه نافية ثانيةً. «ومع ذلك،» قالت. «فإنني أتذكَّر على أيَّة حال، أستطيع أن أتذكَّر رجلًا يفعل شيئًا من هذا

القبيل، كان يرتدي سترة من القطيفة ومعه سلَّة مليئة بالأدوات، ولكن، حماك الرَّبُّ، لا متَّسع في ذاكرتي لذلك. السبب الوحيد الذي يجعلني أتذكَّر الرجل هو أنه جاء إلى هنا في سوق السنة التالية وأخبرني على نحوٍ سِرّيٍّ نوعًا ما بأنه إن سألت امرأة عنه فَعليَّ أن أخبرها بأنه ذهب إلى.. أين؟ كاسْتربرِدْج، أجل، قال إلى كاسْتربرِدْج. ولكن يا إلهي، ما كنت لأتذكَّر ذلك ثانية!»

كان يمكن السَّيِّدة نيُوسن أن تكافئ العجوز بقدر ما يسمح به ما تملكه من مال لو لم تفكر مليًّا في أنه بسبب شراب تلك العجوز عديمة الضمير تعرَّض زوجها للخزي. شكرتها بإيجاز وانضمَّت إلى إلِزابِث التي استقبلتها قائلة: «أمِّي، دعينا نذهب، من غير اللائق أن تبتاعي وجبة طعام من هنا. لا أرى سوى الوضيعين يفعلون ذلك.»

«لكنَّني عرفت ما أردت،» قالت أمُّها بهدوء. «آخر مرَّة زار فيها قريبنا هذا السوق قال إنه يعيش في كاسْتربرِدْج. إنه طريق بعيد من هنا، وقال ما قال منذ سنوات طويلة، ولكن، أعتقد أننا سنذهب إلى هناك.»

وهكذا خرجتا من السوق وتقدَّمتا صوب القرية حيث حصلتا على مأوى تبيتان فيه الليلة.

الفصل الرابع

تصرَّفت زوجة هِنْشَرْد تصرُّفًا حسنًا، ولكنَّها أوقعت نفسها في مصاعب. مئات المرَّات كانت على وشك إخبار ابنتها إلِزَابث جيْن بقصة حياتها وبالأزمة المأساويَّة للصفقة التي وقعت في سوق وِيدون عندما لم تكن أكبر بكثير من الفتاة الواقفة بجانبها الآن، ولكنها كانت تتراجع. وهكذا ترعرعت الآنسة البريئة معتقدةً أنَّ العلاقة التي تجمع البحَّارَ الودود وأمَّها كانت علاقة طبيعيَّة مثلما بدت لها دائمًا. لقد كان أمرًا مفزعًا جدًّا للسيدة هِنْشَرْد أن تجازف وتبلبل حُبَّ ابنتها القوي لها وتريك أفكارها التي نشأت عليها. بدا حقًّا أنه من الحماقة أن تجعل إلِزَابث جيْن حكيمة[7].

لكنَّ خوف سُوْزَنْ هِنْشَرْد تمثَّل في أن تفقد قلب ابنتها الحبيبة إذا ما اعترفت لها بخطأ لم يكن لها يدٌ فيه. لقد أتاحت لها بساطتها – السبب الأساس لازدراء هِنْشَرْد لها – أن تعيش مقتنعة بأنَّ نيُوسن نال حقًّا أخلاقيًّا صحيحًا ومبرَّرًا بشرائه إياها، مع أنَّ الظروف الدقيقة لذلك الحقِّ وحدوده القانونية كانت غامضة لها. قد يبدو غريبًا للعقول المثقَّفة أن تُصدِّق امرأة شابَّة عاقلة جادَّة عمليَّة بيع كهذه، ولولا أنَّ ثمَّة أمثلة أخرى كثيرة لاعتقاد كهذا لكان من الصعب تصديق ذلك. بيْد أنها لم تكن قطعًا أوَّلَ ولا آخر امرأة قرويَّة تتمسَّك دينيًّا بمُشتريها كما تفيد سجلات ريفية كثيرة.

يمكن سرد تاريخ سُوْزَنْ هِنْشَرْد في تلك الأثناء في عبارتين أو ثلاث. كانت بائسة تمامًا عندما أُخِذت إلى كندا حيث عاشت وزوجها سنوات عديدة

7) من المقطع: حيث يكون الجهل نعيمًا، من الحماقة أن تكون حكيمًا، في قصيدة الشاعر الإنجليزي توماس غراي «قصيدة غنائية في نظرة من بعيد لكلية إيتن».

بلا أي نجاح دنيوي عظيم، مع أنها عملت بمشقَّة كأيِّ امرأة تحرص على جعل منزلها مبهجًا وفي أحسن حال. وعندما بلغت إلِزَابث جيْن الثانية عشرة انتقل ثلاثتهم إلى إنكلترا واستقروا في فَلْموث، حيث كان نيوسن يكسب لقمة عيشه من عمله ملاحًا وأجيرًا سنوات عديدة.

ثم عمل في التجارة في نيوفاوندلاند[8]، وفي أثناء هذه المدة ثابَت سُوْزَنْ إلى رشدها. إذ عندما أسرَّت بقصتها إلى إحدى صديقاتها سخرت الأخيرة من قبولها وضعَها الخطير ذاك، وعندها ضاع كلُّ ما كانت تنعم به من راحة بال. ولمَّا عاد نيوسن إلى الوطن في نهاية أحد الأشتية عرف أنَّ الوهم الذي غذّاه بحرص شديد قد تلاشى إلى الأبد.

ثم أتى زمن من الحزن عندما أخبرته بشكوكها حول قدرتها على مواصلة العيش معه. وغادر نيُوسن الوطن مرة أخرى إلى نيوفاوندلاند عندما حلَّ موسم التجارة. ثم جاء نبأ فقدانه في البحر بعد مدَّة وجيزة حلًّا لمشكلة باتت عذابًا لضميرها المستسلم. ولم تره مرَّة أخرى.

أمَّا عن هِنْشَرْد، فلم تسمع شيئًا، إذ كانت إنكلترا آنذاك في نظر الخاضعين لنظام الإقطاع قارَّة بحدِّ ذاتها[9]، وكانت المسافات الجغرافية مترامية.

بلغت إلِزَابث جيْن مبلغ النساء باكرًا. ذات يوم، بعد شهر أو نحو ذلك من تلقِّي نبأ وفاة نيُوسن غرقًا في سدِّ نيوفاوندلاند، عندما كانت الفتاة في حوالي الثامنة عشرة، كانت جالسةً على مقعد من خشب الصفصاف في البيت الذي كانتا لا تزالان تسكنانه، وكانت تجدل الشباك للصيادين. جلست أمُّها في زاوية خلفيَّة في الغرفة ذاتها منشغلةً بالعمل ذاته حين تركت الإبرة الخشبية الثقيلة التي كانت تخيط بها وراحت تتأمَّل ابنتها بتمعُّن. كانت

8) جزيرة في كندا.

9) كانت حريّة السفر والتنقّل مقيّدة في ظل النظام الإقطاعي.

الشمس تشرق عبر الباب فوق رأس المرأة الشابَّة وشعرها الذي تُرك منسدلًا حتى إن أشعة الشمس تغلغلت في أعماقه كما تتغلغل في أيكة بُندق. ومع أنَّ وجهها كان شاحبًا وغير ممتلئ بعض الشيء، كان يمتلك المادة الخام للجمال بدرجة واعدة. كان فيه جمالٌ مندسٌّ يصارع من أجل إظهار نفسه من بين تلك المنحنيات المؤقتة التي رسمتها السنون الغضَّة وتلك التَّشوُّهات العَرَضِيَّة الناتجة عن ظروف الحياة الصارمة التي قاستها هي وأمُّها. كانت جميلة في الأعماق وبالكاد جميلة في الجسد. وربما لن يُقيَّض لها أبدًا أن تكون مكتملة الجمال حتى تنحسر الأحداث المقلقة عن حياتها اليومية قبل أن تستقر الأجزاء النامية من ملامحها وتأخذ شكلها النهائي.

لقد جعل منظرُ الفتاة الأمَّ حزينة، ليس بطريقة غامضة، وإنما باستنتاج منطقي. كانت كلتاهما لا تزال تعيش في قبضة الفقر التي جاهدت الأمُّ كثيرًا لفكِّ إسار الفتاة منها، فقد أدركت منذ وقت طويل كيف أنّ عقل رفيقتها الشابِّ يصارع بحماسة وباستمرار سعيًا وراء المعرفة، وها قد بلغت الثامنة عشرة ولم يتفتَّح عقلها إلا قليلًا. وكانت تنازع قلب إلِزابث جيْن رغبة رزينة ومكبوتة بأن ترى وتسمع وتفهم حقًّا. وأمَّا كيف تصبح امرأة واسعة المعرفة وذات سمعة حسنة و«أفضل» كما تقول، فقد كان هذا سؤال أمِّها المستمر. كانت تنشغل كثيرًا بأمور لا تنشغل بها الفتيات الأخريات في وضعها، وكانت أمُّها تتأوَّه عندما تشعر بعجزها عن إعانة ابنتها.

وسواءٌ غرق البحَّار أم لم يغرق، فقد أصبح مفقودًا لكلتيهما الآن، ومن حيث المبدأ لم تعُد سُوزَنْ مضطرَّةً إلى التَّمسُّك به دينيًّا بصفته زوجها، كما لم تعُد المعرفة تقضُّ مضجعها. وسألت نفسها، وقد أصبحت الآن امرأةً حُرَّة مرَّةً أخرى، ما إذا كانت اللحظةُ الراهنة مؤاتيةً لأن تبذل جهدًا مستميتًا من أجل مضيِّ إلِزابث في الحياة، لأنَّ لحظةً كهذه لم تَجِن سابقًا في عالم كان كلُّ شي فيه في غير محلِّه. وبدا لها أنَّ أفضل خطوة أولى تخطوها هي أن تكظم

كبرياءها وتبحث عن زوجها الأول سواء كانت حكيمة تلك الخطوة أم لا. لعلَّ السُّكْر بلغ به مبلغًا حتى لقي حتفه، ولعلَّه من جهة أخرى كان أكثر تعقُّلًا من أن يفعل ذلك؛ لأنه في أثناء عمرها الذي قضته معه كانت تنتابه نوبات سُكْر وحسب، ولم يكن سكِّيرًا مُعتادًا.

على أيَّة حال، كانت فرصة العودة إليه لا شكَّ فيها إن كان على قيد الحياة. إلا أنَّ حرج البحث عنه يكمن في إخبار إلِزابث بالحقيقة، وهو تصرُّف لم تُطِق أمُّها التفكير فيه مليًّا. وعزمت أخيرًا على أن تتولَّى البحث دون أن تفضي إلى الفتاة بحقيقة علاقتها السابقة بهِنْشَرْد، تاركةً الأمر له إن وجدته ليتخذ الخطوات التي يراها مناسبة. وهذا يُفسِّر حديثهما في السوق وحالة الجهل التي دُفِعت إليها إلِزَابث.

على هذا المنوال تابعتا رحلتهما، مُتَّكِلتيْن فقط على الضوء الخافت الذي ألقته بائعة القمحيَّة على مكان وجود هِنْشَرْد. وكان لا مفرَّ أمامهما من الاقتصاد الصارم في الإنفاق. كان يمكن رؤيتهما حينًا راجلتيْن، وحينًا في عربة مزارعين، وحينًا آخر في عربة نقل، وهكذا حتى اقتربتا من كاسْتربِرْدج. اكتشفت إلِزَابث جيْن مذعورةً أنَّ صحة أمِّها لم تعُد كالسابق، وكان ثمَّة في حديث الأمِّ بين الفينة والأخرى نبرةُ استسلام لم تفطن إليها الفتاة، توحي بأنَّها لن تأسف كثيرًا على التخلي عن حياة باتت تنهكها بشدة.

كان ذلك في مساء يوم جمعة في منتصف شهر سبتمبر تقريبًا وقبل الغسق بقليل عندما وصلتا إلى قمَّة رابية تبعد ميلًا عن المكان الذي تبحثان فيه. كانت هناك أسوجة من الشُّجيرات المصطفَّة على طول الطريق الذي تسلكه العربات، وصعدتا إلى الأرض المكسوَّة بالعشب وجلستا هناك. كانت تلك البقعة تطلُّ على مشهد كامل للبلدة وما يحيط بها.

«ياله من مكانٍ عتيق!» قالت إلِزَابث جيْن في حين غرقت أمُّها الصامتة في التفكير في أمور أخرى غير خارطة المكان. «إنَّه مكوَّم ومحشور داخل مربع

من الأشجار، مثل حديقة مسوَّجة الحافَّات.»

كان شكل البلدة المربع أكثر ما يجذب العين حقًّا في هذه البلدة العتيقة، بلدة كاسْتربرِدْج، التي لم تطلها يد المدنيَّة قطُّ حتى ذلك الحين. كانت مضغوطةً مثل صندوق أحجار الدومينو، ولم تكن فيها ضواحٍ بالمعنى المعتاد، فقد كانت القرية والبلدة تلتقيان عند خطّ واحد.

لا بُدَّ أن كاسْتربرِدْج بدت، للطيور المحلِّقة فوقها، في هذا المساء اللطيف، مثل لوحة فسيفسائيَّة من ألوان فاتحة حمراء وبُنيَّة ورماديَّة وبلوريَّة يجمعها إطار مستطيل داكن الخضرة. وأمَّا لمستوى العين البشرية فتقف البلدة مثل كتلة غير واضحة المعالم خلف حاجز شائك وكثيف من أشجار الليمون والكستناء، وسط أميال من الروابي المستديرة والحقول المقعَّرة. ثمَّ حين يقترب النظر شيئًا فشيئًا تبين ملامح هذه الكتلة وتبرز أبراج وأسطح مائلة ومداخن ونوافذ مرتفعة يعكس زجاجُها حمرةَ الشفق القانية وصفرته المُشعَّة من وراء غيمة غربيَّة.

ومن قلب كل بقعة في هذا المربع المُسيَّج بالأشجار تتفرَّع الجَوَادُّ شرقًا وغربًا وجنوبًا صوب المساحات الشاسعة لحقول الحنطة والأغوار الممتدة مسافة ميل أو نحو ذلك. كانت السائرتان تهمَّان بالدخول إلى إحدى هذه الجَوَادّ، ولكن قبل نهوضهما لمتابعة السير، مرَّ رجلان وراء السياج كانا منشغليْن بحديث جدلِّي.

«عجبًا! أحقًّا؟» قالت إلِزَابث وهما ترجعان القهقرى. «لقد ذكر هذان الرجلان اسم هِنْشَرْد في حديثهما، اسم قريبنا؟»

«اعتقدت ذلك أيضًا» قالت السيدة نيُوسن.

«يبدو ذلك إشارة لنا بأنه ما زال هنا.»

«بلى.»

«هل ألحق بهما فأسألهما عنه؟»

«لا، لا، لا! ليس بعد أيًا كان الأمر. فقد يكون في عمله أو في السجن، وما يدرينا نحن.»

«يا إلهي! لم تعتقدين ذلك يا أمّي؟»

«كان ذلك شيئًا قلته وحسب، هذا كلُّ ما في الأمر! ولكن يجب أن نتحرَّى الأمر بأنفسنا.»

وبعد أن أخذتا قسطًا كافيًا من الرَّاحة واصلتا طريقهما عند حلول المساء. جعلت أشجار الجادَّة الكثيفة الطريقَ مظلمًا كنفق، مع أن الأرض المفتوحة على كلا الجانبين كانت لا تزال تحت ضوء النهار الخافت. وبعبارة أخرى، شقَّتا طريقهما في الظلام الدامس بين غسقيْن. وقد لاقت ملامح البلدة اهتمامًا كبيرًا لدى والدة إلِزَابث، لأنَّ الجانب الإنسانيَّ أصبح جليًا الساعة. وحالما تجوَّلتا في الأنحاء استطاعتا أن تلاحظا أنَّ سياج الأشجار المتشابكة المحيط بكاسْتربِردْج كان جادَّة بحدِّ ذاته، حيث كان يقف على مِصْطبة أو جرف أخضر دونه خندق يمكن رؤيته من الخارج. وامتدَّ خلف الجادَّة والجرف سور متقطِّع تكدَّست وراءه مساكن أهل البلدة.

ولم تدرك المرأتان أنَّ هذه الملامح الخارجية لم تكن إلا تحصينًا قديمًا للبلدة وقد أصبح متنزَّهًا.

أخذت المصابيح تومض خلل الأشجار التي تطوِّق البلدة باعثةً على الإحساس بدفء وراحة كبيرين داخلها، وبدت القرية المعتمة خارجها في الوقت نفسه منعزلة وخاويةً بصورة غريبة عن قربها من البلدة المفعمة بالحياة. وما زاد أيضًا من الاختلاف بين البلدة والقرية تلك الأصوات التي كانت تصلهما أعلى من أية أصوات أخرى، والتي كانت أنغامًا تعزفها فرقة نحاسيَّة. انعطفت المسافرتان إلى طريق «هاي» حيث قامت هناك منازل خشبية ذات طوابق علويَّة نوافذها الصغيرة محجوبة بستائر قطنية رقيقة ذات خيوط للسَّحْب، وتحت الأُطُر الخشبية لأسطح هذه البيوت كانت بيوت العناكب القديمة

تتموَّج في النَّسيم. وكانت هناك منازل من الطوب المحاط بألواح خشبية، تستمد دعمها بدرجة كبيرة من البيوت المجاورة لها. وهناك أسطح حجرية مرمَّمة بالقرميد، وأسطح قرميدية مرمَّمة بالحجر، وبين الحين والآخر كانت تظهر أسطح من القشّ.

وقد تبدَّت السمة الزراعية والرِّيفيَّة للناس الذين اعتمدت عليهم البلدة في أصناف الأدوات المعروضة في واجهات المتاجر، فهناك المناجلُ والمَحاشُّ الجزَّازاتُ والمشاذِبُ والمَرافشُ والمَعاولُ والمَعازِق في متجر الحدَّاد، وخلايا النحل وبراميلُ الزُّبْدِ والمَمَاخِضُ ومقاعدُ حلْب الماشية والدِّلاءُ وأدواتُ جمع القش والأباريقُ وسلالُ البذور في متجر صانع البراميل، وحبال العربات وحبال الحراثة في متجر صانع السُّرُوج، والكارّات وعجلاتُ اليد والتُّرُس في متجر صانع العربات والميكانيكي، ومراهمُ الخيل في متجر الصيدلاني، وأمَّا في متجر صانع القفافيز والدَّبَّاغ فتوجد القفافيز وأحذية المزارعين وطماق عُمَّال الحراثة وقباقيبُ القرويين وأخفافهم.

بلغتا كنيسة رماديَّة علا برجها الرباعي الضخم باستقامة صوب السماء المظلمة دون أن ينكسر، وكانت الأجزاء السفلية من الكنيسة مضاءة بالمصابيح القريبة منها بدرجةٍ كافية لتُظهِر الائتكال الكامل الذي لَحِق بالإسمنت المُلْحَم بين الآجُرَّة والأخرى بفعل الزمن والطقس، فنشأت بينها صدوعٌ نبتت منها أوراق زُهيْرات نبتة بريَّة صفراء وأعشاب أخذت تنمو حتى بلغت فُتَح البُرج في الأعلى. ومن هذا البرج دقَّت الساعة الثامنة، وإذ ذاك بدأ ناقوسٌ يرنُّ رنينًا حادًّا. كان ناقوس الغروب ما زال يُقرَع في كاسْتربرِدْج وكان السُّكَّان يستخدمونه إشارةً إلى وقت إغلاق متاجرهم. ولم تكَد أنغام الناقوس العميقة تخفق بين جنبات المتاجر حتى قعقعت مصاريع الأبواب على طول شارع «هاي». وفي غضون دقائق معدودة كانت تجارة كاسْتربرِدْج في ذلك اليوم قد انتهت.

راحت ساعاتٌ أخرى تدقّ بين حين وآخر مُعلنةً حلول الثامنة. دقّت إحداها من السِّجن دقَّاتٍ كئيبة، وأخرى من ملجأ للفقراء مُحدِثةً صريرَ آلة تُعَدُّ للتشغيل بدا مسموعًا أكثر من نغمة الناقوس، وقد انضمَّ إليها رَتَلٌ من الساعات المصقولة ذات الصندوق الطويل داخل متجر صانع الساعات، أخذت تدقُّ الواحدة تلو الأخرى حالما أُغلِقت عليها الأبواب، وبدت مثل رَتَلٍ من المُمثِّلين وهم يلقون كلماتهم الأخيرة قبل إسدال الستار، ثم تناهى إلى الأسماع لحنٌ يردِّد «نشيد البحَّارة الصِّقلِّيِّين»[10]، وهكذا بدا واضحًا بدرجة ملحوظة أنَّ أولئك الملتزمين بالوقت من أصحاب المدرسة الحديثة في التجارة كانوا في طريقهم إلى الساعة القادمة ولمَّا تنقضِ أعمال الساعة السابقة كُلُّها على نحوٍ مُرْضٍ.

في ساحةٍ مفتوحة أمام الكنيسة مشت امرأة طوت كُمَّي ثوبها للأعلى حتى بانت بِطانَتَاهما، ودسَّت طرف ثوبها في جيبها. كانت تحمل رغيفًا تحت ذراعها أخذت تقتطع منه وتناول بعضَ النساء اللاتي كنَّ يمشين معها ويقضِمْن الخبز بامتعاض. ذكّر المشهدُ السيدةَ هِنْشَرْد نيوسن وابنتَها بأنهما تشتهيان الطعام، فسألتا المرأةَ عن أقرب مَخبِز.

«لعلَّكما تجدان المنَّ، فهو أفضل خبز في كاسْتربرِدْج هذه الأيام!» قالت بعد أن أرشدتهما. «فليزعقوا بأبواقهم وليخبطوا طبولهم ولتكن لهم ولائمهم الصاخبة،» قالت وهي تلوِّح بيدها نحو نقطة بعيدة في الطريق حيث أمكن رؤية فرقة نحاسيّة تقف أمام مبنى مضاء، «ولكننا بحاجة إلى خبز سليم. هناك الآن في كاسْتربرِدْج خبزٌ جيِّد أقلُّ من الجِعة الجيِّدة.»

«وجعةٌ جيِّدة أقلُّ من الجعة الرديئة.» قال رجل ويداه في جيبيه.

«كيف يحدث أن لا يوجد خبز جيِّد؟» سألت السيدة هِنْشَرْد.

10) لحن تقليدي أُلِّفه أكثر من كاتب قبل أربعينيات القرن التاسع عشر وبعدها، وكان يُردّد مع قرع ناقوس الغروب إيذانًا بانتهاء أعمال اليوم، ويبدأ بالكلمات: ربّنا اصرفنا محفوفين بنِعَمك.

«أوه، إنه تاجر الحنطة، الرجل الذي يتعامل معه جميع الطَّحَّانين والخبَّازين، فقد باعهم قمحًا فاسدًا، ولم يعرفوا أنه كان فاسدًا، كما يزعمون، حتى رأوا العجين يتمدَّد داخل الأفران كالزئبق ويصير مسطّحًا مثل عُلجوم ومن الداخل يبدو كالسخينة. لقد عشتُ زوجةً وأُمًّا ولم أرَ في كاسْتربرِدْج خبزًا تَفِهًا كهذا من قبل، ولكن لا بدَّ أنك غريبة عن هنا إذا كنتِ لا تعرفين ما الذي جعل مِعَدَ هؤلاء المساكين منتفخةً هذا الأسبوع؟»

«بلى إنني كذلك،» قالت والدة إلِزَابث باستحياء.

ولمَّا كانت غير راغبة في أن تُعرَف حتى تَعرف المزيد عن مستقبلها في هذا المكان، انسحبت مع ابنتها من جانب محدِّثتها. ابتاعتا بضع رقائق بسكويت من المتجر بديلًا بعضَ الوقت عن وجبة طعام، ثم قادتهما خطواتهما غريزيًّا إلى حيث كانت تُعزَف الموسيقى.

الفصل الخامس

بعد مسافة بضع ياردات بلغتا البقعة حيث كانت فرقة البلدة تهزُّ زجاج النوافذ هزًّا وهي تردِّد لحن «لحم إنكلترا المقدَّد.»[11]

كان المبنى الذي نَصبت الفرقةُ أمامه منصَّتها هو النُّزُل الرئيس في كاسْتربِرِدْج؛ نُزُل «الأسلحة الملكية». وقد برزت منه نافذة مقوَّسة كبيرة تطلُّ على الطريق وتقع فوق شرفة المدخل الرئيس، ومن بين مصراعيْها المفتوحيْن كانت تأتي ثرثرةٌ وقرعُ كؤوس وسَحْبُ أسِدَّة قنان. فضلا عن ذلك، لمَّا كانت الستائر غير مُسدلة، فقد أمكن رؤية داخل الحجرة كلِّه عند الوقوف فوق بعض السلالم الحجرية لمكتب تأجير العربات المقابل، ولذلك تجمَّعت هناك زُمرَةٌ من المتسكِّعين.

«لعلَّنا نستطيع على أيَّة حال أن نُجري بعض الاستفسارات عن قريبنا السَّيِّد هِنْشَرْد،» همست السَّيِّدة نيُوسن التي بدت منذ دخولها إلى كاسْتربِرِدْج واهنة ومضطربة إلى حدٍّ غريب. «وأظنُّ أنَّ هذا مكانٌ مناسبٌ لمحاولة السؤال وحسب عن وضعه في البلدة إن كان هنا، لأنني أعتقد أنه يجب أن يكون هنا. من الأفضل يا إِلِزابث جيْن أن تقومي أنتِ بذلك. إنني مجهدة جدًّا ولا أستطيع القيام بأيِّ شيء، أسدلي غطاء قبَّعتك أوَّلًا.»

وجلست على آخر سُلَّم في الأسفل، وأذعنت إِلِزَابث جيْن لتعليماتها فوقفت بين المتسكِّعين.

«ما الذي يحدث الليلة؟» سألت الفتاة بعد أن اختارت رجلًا عجوزًا

---

11) The Roast Beef of Old England. أغنية وطنية إنجليزية كتبها المؤلف المسرحي الإنجليزي هنري فيلدِنغ في عام 1731 في مسرحيته الساخرة "الأوبرا الويلزية."

وقفت إلى جانبه بمقدار مسافة كافية تسمح لها بالتحدّث إليه.

«لا بدَّ أنك غريبة،» قال العجوز دون أن يبعد عينيه عن النافذة. «إنها مأدبة عشاء ضخمة للسادة وغيرهم من المسؤولين مع العمدة الجالس على الكرسي. ولأننا نحن البسطاء غير مدعوِّين تركوا النافذة مفتوحة حتى يتيسَّر لنا فقط تخمين ما يجري هناك. إنْ ارتقيتِ السَّلالم يمكنك رؤيتهم. ذاك هو السَّيِّد هِنْشَرْد، العمدة، عند نهاية المائدة قُبالتك، وأولئك هم أعضاء المجلس عن يمين المائدة ويسارها. آه كثيرون منهم لم يكونوا أفضل حالًا من حالي الآن عندما بدأوا حياتهم!»

«هِنْشَرْد!» قالت إلِزَابث جيْن مدهوشةً، ولكنها لم تشكّ مطلقًا في القوة الكاملة لهذا الاكتشاف. ارتقت السَّلالم حتى أعلاها.

ومع أن أمَّها كانت مُطرقة الرأس، استرعت انتباهها بطريقة غريبة تلك الأصوات الآتية من داخل النافذة قبل أن تصل إلى أذنيها كلمات العجوز: «السَّيِّد هِنْشَرْد، العمدة.» نهضت وصعدت السَّلالم ووقفت بالقرب من ابنتها حالما تمكَّنت من ذلك دون إظهار حماسة استثنائية.

انبسطت أمامها حجرة طعام النُّزُل بموائدها وأقداحها وأطباقها ونزلائها. كان يجلس على كرسي الشَّرف قُبالةَ النافذة رجلٌ ناهَزَ الأربعين، ضخم الجثَّة، عريض قسمات الوجه، صوتُه ذو نبرة آمِرة، وبوجهٍ عامٍّ كانت بُنيتُه غليظة أكثر من كونها مُكتنِزة. وكانت بشرته ممتلئةً ومائلةً إلى السُّمرة، وعيناه سوداوين لامعتين، وحاجباه أسودين كثيفيْن، وشعرُه أسود كثًّا. وحين كان ينغمس أحيانًا في الضحك بصوتٍ عالٍ من تعليق أحد الضيوف، ينفرج ثَغْره الكبير على اتساعه، كاشفًا في ضوء الثُّريَّا، جزءًا كبيرًا من أسنانه الاثنتين والثلاثين البيضاء القويَّة التي كان من الواضح أنه ما زال يتباهى بها.

تلك الضحكة، لم تكن مشجِّعة للغرباء، ولذا كان من الأفضل أنهم قلَّما سمعوها. وقد تُبنى عليها نظريات عديدة، فهي ضحكة من شأنها أن

تجعل المرء يحدس بمزاج شخص لا تعرف الرَّحمةُ إلى قلبه سبيلًا في مواقف الضَّعف، ولكنَّه على استعدادٍ لأن يسبغ إعجابًا بالعظمة والقوة غير ضَنين. إنَّ طِيبَة صاحب هذا المزاج، إن كان طيِّبًا، ستكون ذات طبيعة متقلِّبة، وسيكون كرمُهُ طارئًا وثقيل الوطأة عِوَضًا عن أن يكون معتدلًا ودائمًا.

جلس هِنْشَرْد زوج سُوْزَنْ – قانونيًا على الأقل – قبالتهما، وقد بدا على هيئته النضج، وتغضَّن وجهه، وغلُظت ملامحه. جلس منضبط النفس، مُفكِّرًا، وباختصار أكبر سنًّا. إلِزَابث، التي لم تكن مُثقلةً بالذكريات كأمِّها، أثار في نفسها فضولًا واهتمامًا متحمِّسين سبَّبهما بطبيعة الحال اكتشافُ هذا الوضع الاجتماعي غير المُتوقَّع لقريب طال البحث عنه. كان يرتدي بذلة مسائية قديمة الطراز، وقميصًا واسعًا مزركشًا يُبرز صدره العريض، وعليه أزرار مرصَّعة بالجواهر، ويضع سلسلة ذهبيَّة ثقيلة. عن يمينه قدحان وكأس، ولكن، وقد استولى الدَّهَشُ على زوجته، كان القدحان المخصَّصان للنبيذ فارغيْن في حين امتلأ الثالث، وكان كُوزًا كبيرًا، بالماء حتى منتصفه.

لَّما رأته آخر مرَّة كان لابسًا سترة قطنية وصدارًا قطنيًّا وبنطالًا قصيرًا وطماقًا جلديًّا، وقد جلس وأمامه طبق قمحيَّة ساخنة. إلا أنَّ الزَّمن، هذا السَّاحر، قد فعل الأفاعيل هنا. نظرت إليه وتذكَّرت الماضي فتأثَّرت كثيرًا إلى حدٍّ أنها تراجعت إلى الخلف مُتَّكئةً على عِضادة باب مكتب العربات، وكان الظلام عند الباب يخفي ملامحها بطريقة مُريحة. نسيت ابنتها إلِزَابث حيْن حتى نبَّهتها الأخيرة بلمسة من يدها. «هل رأيته يا أمَّاه؟» همست الفتاة.

«أجل، أجل،» أجابت صاحبتها على عجل. «لقد رأيته وذلك يكفيني! والآن أريد فقط أن أذهب، أن أموت.»

«عجبًا! ما الخطب؟» دَنَت وهمست في أذن أمِّها. «هل يبدو لك أنه لن يعطف علينا؟ أعتقد أنه يبدو رجلًا كريمًا. ياله من رجلٍ نبيل! أليس كذلك؟ يالأزراره الماسيَّة المتلألئة! كم كان غريبًا قولك إنه قد يكون في العمل

أو السجن أو أنَّه ميِّت! أليس ممكنًا حدوث ما يخالف ذلك؟ لِمَ أنتِ خائفة جدًّا منه؟ أنا لست خائفة على الإطلاق، سأقوم بزيارته، يمكنه أن يقول إنَّه ما مِن أقارب بعيدين له وحسب.»

«لا أعرف على الإطلاق، لا أعرف ماذا أُقرِّر. أحسُّ بكآبة.»

«لا تبتئِسي يا أمِّي وقد وصلنا الآن إلى هنا! استريحي حيث أنتِ قليلًا، وسأتفقَّد الأمر لأعرف المزيد عنه.»

«أعتقد أنني لا أستطيع أن ألتقيَ السَّيِّد هِنْشَرْد مُطلقًا. إنَّه ليس كما ظننتُه، له سُلطة طاغية! ولم أعد أرغب في رؤيته.»

«ولكن انتظري قليلا وفكِّري في الأمر.»

لم تهتمَّ إلِزَابث جيْن في حياتها بشيء اهتمامًا كبيرًا كاهتمامها بوضعهما الحاضر، إلى حدٍّ ما بسبب ما انتابها من إحساس مبهج وهي تكتشف أنها على صلة قرابة بِثَريّ، وراحت تتفرَّس في المشهد مرة أخرى. كان الضيوف الأصغر سنًّا يأكلون ويتحدَّثون بصخب، في حين أخذ الكبار ينبشون الطعام الشَّهيَّ ويتنشَّقون وينخرون فوق أطباقهم كخنازير تُمرِّغ خُطُومها في التراب بحثًا عن ثمار البلُّوط. كانت هناك ثلاثة أنواع من الشَّراب بدت مقدَّسة لهؤلاء الضيوف، وهي: البورت، والشِّري، والرُّوم، ثالوث عريق صُفَّت حوله بضعة أطباق.

وفي تلك اللحظة وُضِع على المائدة صفٌّ من الأقداح العتيقة التي صنعت أشكالًا هندسيَّة بين جوانبها، وكان كلٌّ منها مزوَّدًا بملعقة، ثمَّ سرعان ما مُلِئت بالكُروغ[12] الذي كان بدرجة حرارة عالية تجعل المرء يُفكِّر بجِدٍّ قبل أن يتعرَّض لِبُخاره المتصاعد. عندما كان ملء الأقداح يدور بسلاسة كبيرة على طول المائدة ذهابًا وإيابًا، لاحظت إلِزَابث جيْن أنَّ قَدَح العمدة لم يملأه أحد، وكان يشرب مقادير كبيرةً من الماء من الكُوز الموضوع خلف مجموعة الآنِية البلورية المخصَّصة للنَّبيذ والأشربة الرُّوحيَّة.

---

12) شراب مُسكِر ممزوج بالماء غالبًا ما يقدَّم ساخنًا، وأحيانًا يُضاف إليه الليمون والسُّكَّر.

«إنهم لا يصبُّون النبيذ في قَدَح السَّيِّد هِنْشَرْد،» تجرَّأت على القول لرفيقها المجاور، الرجل العجوز.

«أوه لا، ألا تعلمين أنه الزَّاهد ذائع الصِّيت الذي استحقَّ هذا اللقب؟ إنه يزدري المُسْكِرات المُغرية كلِّها، ولا يقربها مطلقًا. نعم، إنَّه يتمتَّع بخصالٍ قويَّة من هذه الناحية. لقد سمعتُ أنه أقسم أمام الإنجيل في أيَّامه الخوالي ولم يُخلَّ بقسمه منذ ذلك الحين. ولذلك فإنهم لا يلحُّون عليه لأنهم يعرفون أنه ليس من اللائق فعل ذلك، لأنَّ قَسَم المرء أمام الإنجيل أمرٌ عظيم.»

انضمّ عجوز آخر عندما سمع هذا الحديث وسأل: «كم بقيَ له من المعاناة بسبب ذلك يا سولومُن لونغْوَيْز؟»

«بقيَ عامان، يقولون. لا أعلم السبب ولماذا حدَّد هذه المدة لأنه لم يخبر أحدًا قطّ. ولكن يقولون أنَّه ما زال أمامه عامان تقويميَّان تحديدًا. ياللعقل الجبَّار الذي استطاع تحمَّل كل هذه المدة!»

«صدقت... ولكن هنالك طاقةٌ كبيرة في الأمل. فأن تعرف أنك ستتحرَّر من قيدك بعد أربعة وعشرين شهرًا، وأنك ستكون قادرًا على تعويض نفسك من معاناتها بتناول الشَّراب بلا حدود، ذلك من شأنه أن يجعلك تحتمل بلا شكّ.»

«بلا شكٍّ يا كرِستوفر كوني، بلا شكّ. ولا بدَّ أنَّ هذه الأفكار جالت في فكر هذا الرجل الذي عاش أرملا وحيدًا،» قال لونغْوَيْز.

«متى فقد زوجته؟» سألت إلِزَابث.

« لم أعرفها قط. كان ذلك قبل مجيئه إلى كاسْتربرِدْج»، أجاب سولومُن لونغْوَيْز بنبرة قاطعة وكأنَّ حقيقة جهله بالسيدة هِنْشَرْد كانت كافية لكفِّ أيِّ اهتمام بحياتها. «لكنَّني أعلم أنه مُمتنع بتاتًا عن المُسكِرات، وأنه إذا ما أفرط أحد رجاله في تناول الشَّراب قليلًا أنزل عليه عقابًا شديدًا كما أنزل الرَّبُّ غضبه على بني إسرائيل.»

«هل لديه رجال كُثر؟» قالت إلِزابث جيْن.

«كُثر! بالطبع يا آنستي الطيبة، إنه أكثر أعضاء المجلس البلديِّ نفوذًا، وله نفوذ واسع في القرى المجاورة. ما مِن معاملة كبيرة في الحنطة والشعير والشوفان والتبن والبذور وما شابه ذلك إلا ولهِنْشَرْد يد فيها. وهو على استعداد للدخول في معاملات أخرى أيضًا، وهنا يرتكب خطأه. لقد بدأ بشقِّ طريقه من الصِّفر عندما قدم إلى هنا، والآن أصبح عمدة البلدة. ولكنَّ تجارته تأثَّرت قليلا هذا العام بسبب الحنطة الفاسدة التي زوَّد بها المتعاقدين. لقد رأيت الشمس تشرق على ديرنوفر طوال سنواتي التسع والستين، ومع أنَّ السَّيِّد هِنْشَرْد لم يظلمني قطّ منذ أن عملت في خدمته، وكما ترين فإنني رجل بسيط، يجب أن أقول إنني لم أذُق قطّ من قبل خبزًا خشنًا كهذا الذي صُنع من حنطة هِنْشَرْد مؤخرًا. إنها حنطة فاسدة ويمكنكِ أن تسمِّيها تقريبًا «مَلْت»[13]، وهناك جزء في أسفل الرغيف غليظ مثل باطن النَّعْل.»

بدأت الفرقة في هذه الأثناء تعزف لحنًا آخر، وعند نهايته كان العشاء قد انتهى أيضًا وبدأت الخُطب. ولمَّا كان المساء هادئًا والنوافذ لا تزال مفتوحة، فقد كان مُمكنًا سماع هذه الخطب بوضوح. علا صوت هِنْشَرْد فوق أصوات الآخرين، فقد كان يسرد قصة عن تجاربه في تجارة التبن، حين فاق دهاؤه دهاء محتال حاول الاحتيال عليه.

«ها ها ها!» كان ردُّ مستمعيه على نهاية القصة، وبينما كان المرح الصاخب مهيمنًا إذ بصوتٍ جديدٍ يرتفع قائلًا: «كل هذا جيِّد جدًّا، ولكن ماذا عن الخبز الرديء؟»

جاء الصوت من الطرف الآخر للمائدة حيث جلست مجموعة من صغار التُّجار الذين، مع أنهم كانوا جزءًا من الجمع، بدوا أقلَّ شأنًا من الآخرين، كما بدا أنَّ لهم رأيًا مستقلًّا وكانوا منخرطين في نقاش لم يكن

13) malt شعير مُنبَت بالنقع في الماء ويستخدم في تخمير الجعة.

يُساوِق تمامًا نقاش أولئك الجالسين عند رأس المائدة، مثلما يفعل المنشدون في الطرف الغربي من الكنيسة عندما ينشدون أحيانًا بإصرار بطريقة لا تتَّسق زمنًا ولحنًا والمجموعة القائدة عند مذبح الكنيسة.

لاقت هذه المقاطعة الكلاميَّة بشأن الخبز الرديء استحسانًا لامحدودًا لدى المتسكِّعين في الخارج، الذين كان بعضهم في مزاج يجد لذَّته في حرج الآخرين، ولذا أخذوا يردِّدون بِحُرِّيَّة كبيرة: «بلى! ماذا عن الخبز الرديء أيُّها السَّيِّد العمدة؟» إضافة إلى أنهم لم يشعروا بتلك القيود التي يشعر بها أولئك المشاركون في المأدبة فقد أمكنهم أن يضيفوا قائلين: «من الخير أن تسرد قصة ذلك الخبز يا سيدي.»

لقد كانت تلك المقاطعة كفيلة بدفع العمدة إلى ملاحظتها.

قال: «حسنٌ، أعترف أنَّ الحنطة كانت رديئة، ولكنني كنت مخدوعًا بشرائها شأني شأن الخبَّازين الذين ابتاعوها منِّي.»

«وماذا عن المساكين الذين كان عليهم أن يأكلوا هذا الخبز، ألم يُخدَعوا؟» قال الرجل خارج النافذة مُقاطعًا.

اكفهرَّ وجه هِنْشَرْد. كان يكظم غضبًا مستعرًا تحت قناع وجهه الهادئ، ذلك الغضب الذي اشتدَّ يومًا حتى نفى زوجته منذ ما يناهز عشرين عامًا.

«يجب أن تلتمسوا العذر للحوادث التي تقع في تجارة كبيرة،» قال. «يجب أن تضعوا في الاعتبار أنَّ الطقس في وقت حصاد تلك الحنطة كان أسوأ من أي وقت مضى عرفناه منذ سنوات. ومع ذلك، فقد اتَّخذت تدابيري تحسُّبًا لذلك. ولأنني أجد أن تجارتي أكبر من أن أعتني بها وحدي فقد وضعت إعلانًا بحثًا عن رجل صالح وضليع كي يدير الجزء المتعلِّق بالحنطة. وعندما أجده سترون أن هذه الأخطاء لن تتكرَّر، وسننظر فيها بطريقة أفضل.»

«ولكن ماذا ستفعل لتعوِّضنا عمَّا فات؟» سأل الرجل الذي تحدَّث

سابقًا والذي بدا أنه خبَّاز أو طحَّان. «هل ستستبدل طحينًا سليمًا بالطحين الرديء الذي ما زال معنا؟»

أصبح وجه هِنْشَرْد أكثر تجهُّمًا بسبب هذه المقاطعات فأخذ يشرب من كُوز الماء وكأنه يهدِّئ من روعه أو ليكسب الوقت. وبدلا من أن يمنح جوابًا مباشرًا، علَّق بفظاظة: «إن أخبرني أحدكم كيف أحوِّل الحنطة التالفة إلى حنطة نافعة سأعمل بذلك بكلِّ سرور. ولكن لا يمكن فعل ذلك.»

لم يكن ممكنًا استثارة هِنْشَرْد مرة أخرى. قال ذلك وجلس.

الفصل السادس

في الدقائق القليلة الأخيرة زاد عدد المجتمعين خارج النافذة وعزَّزه حضور آخرين، كان بعضهم أصحاب متاجر محترمين ومساعديهم خرجوا طلبًا للهواء النَّقيّ بعد أن أغلقوا أبواب متاجرهم، أمَّا بعضهم الآخر فكان من طبقة أقلّ شأنًا. وقد ظهر بين هؤلاء جميعًا شخصٌ غريب – شابٌّ حسن المظهر بصورةٍ لافتة – يحمل في يده حقيبة سفر منقوشةً بورد أنيق من ذلك النوع الذي كان سائدًا في سلع كهذه في ذلك الحين.

كان أصهبَ جميلَ المنظر[14]، لامع العينين، نحيل البِنية. لعلَّه كان سيعبر هذا المكان دون أن يتوقّف أبدًا، أو إن توقّف فلن يتوقّف في الأغلب إلا لحظات لإلقاء نظرة خاطفة على المشهد لولا أنَّ عبوره صادف النقاش المُثار حول الحنطة والخبز، هذه المصادفة التي لولاها ما سُجِّلت هذه الواقعة قطّ. ولكن بدا أنَّ الموضوع قد استرعى اهتمامه، فهمس بعض الأسئلة في آذان المتفرّجين الآخرين، وبقي مُنصتًا.

عندما سمع كلمات هِنشَرْد الأخيرة، «لا يمكن فعل ذلك»، تبسَّم بعفويَّة، وأخرج مُفكِّرته وكتب بضع كلمات مستعينًا بالضوء الخارج من النافذة. نزع الورقة من مفكِّرته وطواها وكان على وشك إلقائها عبر النافذة المفتوحة على مائدة الطعام، ولكنَّه بعد إعادة النظر شقَّ دربه بين المتسكِّعين حتى بلغ باب النُّزُل ووجد أحد النُّدُل الذين كانوا يخدمون في الداخل مُستندًا بتكاسُل إلى عِضادة الباب.

«أَعْطِ العمدةَ هذه حالًا،» قال مناولًا إيَّاه ملحوظته العاجلة.

---

14) سِفر صموئيل الأول، الإصحاح 17 في وصف داوود: «كان ولدًا أصهبَ جميلَ المنظر.» الكتاب المقدّس، دار المشرق، بيروت، 2007.

رأت إلِزَابث جيْن حركاته وسمعت كلماته التي استرعت اهتمامها بموضوعها ولُكْنتها الغريبة عن هذه البقاع. كانت لكنةً شماليَّة طريفة.

أخذ النادل الورقة، في حين أردف الشابُّ الغريب قائلًا: «وهلَّا أخبرتني عن نُزُل لائق أقلَّ سعرًا من هذا النُّزُل؟»

ألقى النادل نظرة سريعة لامبالية صعودًا ونزولًا على الطريق.

«يقولون أنَّ نُزُل «البحَّارة الثلاثة» القريب من هنا مكانٌ جيِّد جدًّا، لكنني لم أُقِم فيه شخصيًّا.» أجاب بفتور.

شكره الشابُّ الذي كان اسكُتلنديًّا كما يبدو ومشى ناحية النُّزُل المذكور آنفًا، وبدا أنه كان مهتمًّا بالبحث عن نُزُل أكثر من معرفة مصير ملحوظته وقد تلاشى الدافع الآنيُّ إلى كتابتها. وبينما كان يتعد رويدًا في الطريق غادر النادل باب النُّزُل، ونظرت إلِزَابث جيْن ببعض الاهتمام إلى الورقة التي أخذها النادل إلى حجرة الطعام وناولها العمدة.

نظر هِنْشَرْد إلى الورقة دونما اكتراث، وفضَّها بيد واحدة وقرأها. عند ذلك بدا أمرًا مثيرًا للفضول رؤيةُ أثر الرسالة غير المتوقَّع عليه، فقد تبدَّدت تلك السحنة الغاضبة المُكفَهِرَّة التي غشيت وجهه منذ طَرْقِ موضوع تجارة الحنطة وأصبحت ملامحُه ملامحَ شخص استحوذ عليه الاهتمام. قرأ الملحوظة بتمهُّل وغرق في التفكير، لم يكن تفكيرا كئيبًا، وإنما تفكير عميق متشنِّج، تفكير شخص استولت على حواسِّه فكرة ما.

في تلك الأثناء، أفسحت الأنخاب والخُطَب المجالَ للأغاني، وقد نُسي موضوع الحنطة تمامًا. كانت رؤوس الرجال قريبًا بعضها من بعضها الآخر. في مجموعات ثنائية وثلاثية، وهم يسردون القصص ويضحكون ويلوون قسمات وجوههم. بدا بعضهم وكأنه لم يعرف كيف قدم إلى هذا المكان، وما الذي جاء به، وكيف سيعود إلى بيته، فجلس على تلك الحال حينًا وعلى وجهه ابتسام ذاهل. وكان منهم رجالٌ أقوياء البِنية انحنت ظهورهم وبدا عليها الحَدَب من

فرط سُكرهم، وآخرون من أهل الوقار فقدوا وقارهم حين أخذت أجسادهم تترنَّح بطريقة غريبة وباتت ملامحهم مشوَّشة ومضطربة، وهناك أيضًا أولئك الذين أسرفوا في الطعام فغارت رؤوسهم بين أكتافهم وارتفعت أفواههم وعيونهم إلى الأعلى. وحده هِنْشَرْد لم يذعن لهذا التَّحوُّل الأشّوَه، وظلَّ بهيئة وقورة منتصبة وهو يفكِّر بصمت.

دقَّت الساعة التاسعة، فالتفتت إلِزَابث جيْن إلى صاحبتها. «لقد حلَّ المساء يا أمي،» قالت. «ماذا تقترحين أن نفعل؟»

لقد أثار استغرابها ما آلت إليه أمُّها من تردُّد. «يجب أن نجد مأوى للمبيت،» غمغمت الأمّ. «رأيت السَّيِّد هِنْشَرْد وذلك كلُّ ما أردت.»

«هذا يكفي الليلة على أيَّة حال،» ردّت إلِزَابث جيْن مُطمئِنةً. «في وسعنا أن نفكِّر غدًا في ما يمكننا فعله بشأنه. والسؤال الآن، كيف سنجد مأوى؟»

ولأنَّ أمَّها لم تُجب تذكَّرت إلِزَابث جيْن قول النادل أنَّ «البحَّارة الثلاثة» نُزُل معتدل السِّعر، فلعلَّ توصيةً جيِّدةً لشخص ما تفيدُ شخصًا آخر. «لننذهب إلى حيث ذهب الشابّ،» قالت. «إنه مهذَّب. ما قولك؟»

قبلت أمُّها، فانطلقتا في الطريق.

في تلك الأثناء، كان العمدة ما زال غائصًا في تفكير عميق بسبب الملحوظة السالفة الذكر إلى أن حانت له فرصة مغادرة مقعده وهمس لجاره أن يحلَّ محلَّه. حدث ذلك مباشرة بعد مغادرة زوجته وإلِزَابث.

رأى النادلَ خارج حجرة المجتمعين، فأومأ إليه وسأله عمَّن أحضر الورقة التي ناوله إياها منذ ربع ساعة.

«شابٌّ يا سيدي، كأنه مسافر. يبدو أنه اسكُتلندي.»

«هل قال كيف وجد الورقة؟»

«لقد كتبها بنفسه يا سيدي حينما كان واقفًا خارج النافذة.»

«أوه، كتبها بنفسه... هل الشَّابُّ في النُّزُل؟»

«كلا يا سيدي. أعتقد أنه ذهب إلى «البحَّارة الثلاثة».

أخذ العمدة يجوب بهو النُّزُل ذهابًا وإيابًا ويداه خلف ذيل سترته، وكأنه كان يلتمس هواءً ألطف من هواء الحجرة التي تركها وحسب. ولكنه كان دون شك لا يزال في الواقع مأخوذًا تمامًا بفكرة جديدة أيًّا كانت. وأخيرًا، عاد إلى باب حجرة الطعام، وقف، ووجد أن الأغاني والأنخاب والأحاديث ما زالت مستمرة بطريقةٍ مُرضية للغاية من دون وجوده. كان أعضاء المجلس البلدي ونزلاء النُّزُل وكبار التجار وصغارهم قد أفرطوا في الواقع في تناول الأشربة المُنعشة إلى حدٍّ أنهم نسوا تمامًا، ليس العمدة وحسب، بل كلَّ تلك الخلافات السياسية والدينية والاجتماعية الكبيرة التي كانوا يصرُّون عليها في النهار، والتي فرَّقت بينهم مثلما تفترق قضبان الحديد. عندما رأى ذلك، أخذ العمدة قبَّعته، وساعده النادل على ارتداء معطفه الهولنديِّ الخفيف، ثمّ خرج ووقف تحت الشرفة.

كان ثمَّة أشخاص قليلون جدًّا في الطريق في هذه الساعة، والتفت العمدة فوقع بصره على بقعة تبعد زُهاء مائة ياردة وكأنَّ شيئًا ما يجذبه. كان هناك النُّزُل الذي ذهب إليه كاتب الملحوظة: نُزُل «البحَّارة الثلاثة»، حيث يمكن للمرء أن يرى من المكان الذي يقف فيه العمدة سطحي النُّزُل المائلين المبنيَّين وفق الطراز الإلزابثي، ونافذته المقوَّسة البارزة، ورواقه المُضاء. أخذ ينعم النظر فيه ثمَّ تقدَّم في ذلك الاتجاه.

ولسوء الحظ أنَّ هذا النُّزُل القديم الذي كان مأوى للإنسان والدَّوابِّ، لم يَعُد له وجود اليوم، وكان مبنيًّا من الحجر الرَّملي، وله نوافذ مبنيَّة من الحجر نفسه، وبدرجة ملحوظة كانت أعمدته لا تساوي أُسس البناء. وداخل النافذة البارزة المطلَّة على الطريق يقع المكان المألوف جدًّا بين مرتادي النُّزُل، وكانت النافذة مغلقةً بمصراعيْن على كلٍّ منهما فتحة بشكل

قلب بدا بُطيْناه الأيمن والأيسر أكثر نحولًا بعض الشيء مما هما في الطبيعة. وكما يعلم كلُّ عابر فإنَّ خلف هاتيْن الفتحتيْن المُضاءتيْن، كانت تصطفُّ في هذه الساعة على مقربة ثلاث بوصات، القُذُل الحمراء لكلٍّ من بِلِي ولْز صانع الزجاج، وسمارت الإسكاف، وبُزفورد التاجر، وغيرهم ممن هم من مجموعة أقلَّ شأنًا، وذوي منزلةٍ أقلَّ بعض الشي من منزلة أولئك الذين تناولوا العشاء في نُزُل «الأسلحة الملكيَّة»، وكان كلٌّ منهم يدخِّن غليونًا من الصلصال.

كان هناك فوق المدخل قوس تيودري[15] بأربعة مراكز، وفوق القوس لافتة النُّزُل، التي أمكن رؤيتها بفضل ضوء المصباح المعاكس. وكان يظهر على اللافتة البحَّارةُ الذين صوَّرهم الرَّسَّام ببُعدين فقط، وبعبارة أخرى، بدوا بأشكال مسطّحة مثل ظلال، ووقفوا مصطفين في وضع ساكن مشلول. ولمَّا كانت اللافتة تطلُّ على الجانب المشمس من الطريق، فقد عانت صورة الرِّفاق الثلاثة إلى حدٍّ بعيد من التَّشوُّه والتَّشقُّق والخُبُوّ والانكماش، ولم تعُد إلا طبقة رقيقة نصف مرئية فوق سطح مليء بالحبوب والحبال والمسامير التي شكَّلت اللافتة. وفي الواقع، لم يكن سبب هذه الحالة يعود إلى إهمال مالك النُّزُل ستانِدج، بقدر ما يعود إلى غياب وجود رسَّام في كاسْتربِرْدج يعيد نسخ ملامح الرِّجال الثلاثة بطريقة تقليدية.

كان ثمَّة رواق طويل ضيِّق ومعتم، يفضي إلى النُّزُل، وعبره تُساق الخيول إلى إسطبلاتها في الجزء الخلفي من النُّزُل، ويدخل منه النُّزلاء ويخرجون فتحتكُّ أكتاف بعضهم ببعض. من غير تمييز، وفي ذلك مجازفة أن تدوس سنابك الخيل أقدامهم. لقد جعل طيب المقام وطيب الجعة من «البحَّارة الثلاثة» مَقْصِدًا يسعى إليه بدأب أهل الفطنة ممن خبر أسرار كاسْتربِرْدج، وذلك على صعوبة بلوغه عبر هذا الرُّواق الضَّيِّق الوحيد المُفضي إليه.

---

15) طراز معماري قوطي كان يميِّز عهد أسرة تيُودَر التي حكمت إنكلترا من 1485 إلى 1603.

وقف هِنْشَرْد ثواني معدودة دون أن يدخل النُّزُل، ثم تخلَّى عن كبريائه قدر المستطاع وزَرَّر معطفه الهولنديَّ البُنِّيَّ على مقدِّمة قميصه، وبطريقة أخرى، تواضع ليظهر بمظهره اليومي المعتاد، ودخل النُّزُل.

الفصل السابع

كانت إلِزَابث جيْن وأمُّها قد وصلتا قبل ذلك بنحوِ عشرين دقيقة. وقفتا خارج النُّزُل وأخذتا تتساءلان عمَّا إذا كان حتى هذا المكان المتواضع غاليَ الثّمن مقارنة بما تملكانه من مال قليل، مع أنه موصًى به كمكان معتدل السِّعر. إلا أنَّهما وجدتا في نهاية المطاف الشجاعة للدخول، وقابلتا في الحال ستانِدْج، صاحب النُّزُل. كان رجلًا صامتًا، أخذ يتنقَّل بين حجرة وأخرى حاملًا كؤوس نبيذٍ كثيرَ الرَّغوة، جنبًا إلى جنب مع النادلات، إلا أنَّه كان على النقيض منهن يتحرَّك بِبُطء ومهابة وهو يقدِّم خدماته مثل شخص يؤدي هذه الخدمات باختياره. كان من المُمكن أن يكون عمله اختياريًّا تمامًا لولا أوامر صاحبة النُّزُل التي كانت تجلس في الحانة بلا حراك، ولكنَّ لها عينًا يقظة وأُذنًا سريعة الالتقاط، فترى وتسمع عبر الباب المفتوح طلبات الزبائن العاجلة التي كان زوجها يغفل عنها مع أنها في متناول يده. وقد سُمِح بهدوء لإلِزَابث وأمِّها بالبقاء كنزيلتيْن لن يطول بهما المقام، فأُدخِلتا إلى حجرة نوم صغيرة تقع تحت أحد سقفي النُّزُل المائليْن، وهناك جلستا.

بدا الجزء الداخليُّ للنُّزُل تعويضًا عن البشاعة العتيقة والاعوجاج والقتامة التي اتَّسمت بها أروقته وأرضيَّته ونوافذه، بسبب وجود كمِّيَّة من الملاءات النظيفة مفروشةً في كل مكان، وكان لهذا أثره المُبهر في المسافرتين.

«إنه باهظٌ جدًّا لنا ولا طاقة لنا بنفقاته!» قالت المرأة الأكبر سنًّا وهي تنظر الحجرة بريبة حالما تُركتا وحدهما.

«أخشى أنه كذلك،» قالت إلِزَابث. «ولكن يجب أن نظهر بمظهر محترم.»

«يجب أن ندفع بقدر ما نملك قبل أن نظهر بالمظهر المحترم،» أجابت أمُّها. «إنَّ السَّيِّد هِنْشَرْد أرفع شأنًا منَّا ولا يمكننا تقديم أنفسنا إليه، هذا أكثر ما أخشاه، ولذا لا يمكننا الاعتماد إلا على جيوبنا.»

«أعرف ما سأفعل»، قالت إلِزَابث جيْن بعد فترة انتظار بدا خلالها أنَّ طلبهما نُسي تمامًا في خضمِّ العمل في الطابق السفلي للنُّزُل. خرجت من الحجرة وهبطت السلالم وتسلّلت إلى حانة النُّزُل.

إن كان ثمَّة شيء أفضل من غيره يميِّز هذه الفتاة المخلصة فهو استعدادها للتضحية براحتها وكرامتها الشَّخصيَّة من أجل سعادة الآخرين.

«لأنكم مشغولون الليلة كما يبدو ولأن أمِّي ليست على ما يُرام، هل أستطيع أن أُسدِّد جزءًا من كُلْفة إقامتنا بمساعدتكم في العمل؟» سألت صاحبةَ النُّزُل.

أمَّا الأخرى التي بقيت ملتصقةً بكرسيِّها وكأنها أُذيبت عليه عندما كانت في حالة سائلة ولم يعُد ممكنًا نزعُها منه، فقد راحت تنظر الفتاةَ صعودًا ونزولًا متفحِّصةً، ويداها منبسطتان على ذراعي الكرسيّ. لم تكن مثل هذه التسوية التي اقترحتها إلِزَابث بالأمر النادر في قرى الريف، بيد أنَّ هذه العادة باتت شبه مهجورة في كاسْتربرِدْج على قِدَمها. لكنَّ صاحبة النُّزُل كانت متساهلة مع الغرباء فلم تُبدِ اعتراضًا. عند ذلك وبعد أن تلقَّت إلِزَابث توجيه صاحبة النُّزُل الصَّموت عن طريق الإيماءات والحركات بشأن مواضع اللَّوازم المختلفة، راحت تهرول على السلالم صعودًا ونزولًا حاملةً اللَّوازم لقاء الحصول على وجبة عشاء لها ولأمِّها.

وإذ هي تفعل ذلك، ارتجَّ الحاجز الخشبي في وسط النُّزُل لأنَّ أحدهم سحب حبل الجرس في الطابق العلوي. جرسٌ آخر في الطابق السفلي أصدر رنينًا أوهن من الرَّنين الصادر عن أسلاكه وأذرعه.

«إنه السَّيِّد الاسكُتلندي»، قالت السَّيِّدة بنبرة العارف بكلِّ شيء، ثمَّ

حوَّلت ناظريها إلى إلِزَابث: «والآن، هلَّا ذهبت ورأيت إن كان طبق عشائه على الصَّحْفَة؟ إن كان كذلك فاحملها إليه. الحجرة الأمامية فوق هذه الحجرة.»

ومع أنَّ إلِزَابِث جيْن كانت جائعة، أرجأت خدمة نفسها عن طيب خاطر، وتقدَّمت بطلبها إلى الطاهية في المطبخ حيث جلبت صَحْفَة العشاء ومضت صاعدة السلالم إلى الحجرة المقصودة. لم تكن الحجرات فسيحة على رحابة المساحة التي كان يشغلها نُزُل «البحَّارة الثلاثة». وكانت هذه المساحة تشغلها دعامات وعوارض خشبية بارزة، وحواجز، وأروقة، وسلالم، وأفران مهجورة، ومقاعد خشبية طويلة وأربعة ملصقات إعلانية، تاركةً حيِّزًا صغيرًا نسبيًّا للناس. إضافةً إلى ذلك، لمَّا كان هذا يحدث في زمن لم يَهجر فيه أصحاب النُّزُل الصغيرة صناعة الجِعة المنزليَّة بعد، وفي نُزُل كان صاحبه ما زال يلتزم بشدَّة بإضافة اثني عشر مكيالًا من الشَّعير إلى الجِعة التي يصنعها، ولمَّا كانت جودةُ الشراب عاملَ الجذب الرئيس في النُّزُل، كان لا بدَّ من فسح المجال للأواني والعمليات المرتبطة بها. وإذًا وجدت إلِزَابث أنَّ الاسكُتلندي يشغل حجرة قريبة جدًّا من الحجرة المخصَّصة لها ولأمِّها.

عندما دخلت، لم يكن هناك سوى الشاب نفسه الذي رأته متلكِّئًا خارج نوافذ نُزُل «الأسلحة الملكية». كان اللحظةَ يُطالع نسخة من الصحيفة المحلِّيَّة دون اهتمام، وبالكاد انتبه لدخولها، فنظرت إليه بهدوء تامٍّ ورأت كم كانت جبهته تلمع بسبب الضوء الساقط عليها، وكم كان شعره مقصوصًا بطريقة أنيقة، وزَغَبٌ مخمليٌّ يتكوَّم على ظهر رقبته، وكم كانت وجنته مكتنزة حقًّا وكأنها جزء من كُرة، وكم كان جليًّا رسم جفنيه وأهدابه التي تخفي عينيه المُسبلَتيْن.

وضعت الصَّحْفَة ووزَّعت أطباق الطعام على المائدة، وغادرت دون أن تنبس بكلمة. وفي أثناء وصولها إلى الطابق السفلي لاحظت صاحبةُ النُّزُل، التي كانت طيِّبة بقدر ما كانت بدينةً وكسولًا، أنّ إلِزَابث جيْن بدت متعبة

جدًّا، وأنَّها من شدَّة حرصها على أن تكون ذات فائدة تنازلت عن حاجاتها كلِّها. وعندئذ قالت السَّيِّدة ستانِدْج بلهجة آمِرةٍ قاطعة، ولكنَّها مُراعية، إنَّه من الأفضل لها ولأمِّها أن تتناولا عشاءهما إن كانتا تريدان ذلك.

جلبت إلِزَابث طعامهما المتواضع بالطريقة نفسها التي أحضرت بها طعام الاسكُتلندي، وصعدت إلى الحجرة الصغيرة حيث تركت أمَّها، وفتحت الباب بلا ضجيج بحافة الصَّحْفَة. مدهوشةً وجدت أمَّها جالسة منتصبة وشفتيها منفرجتين بدلًا من أن تلزم فراشها. ورفعت إصبعها عندما دخلت إلِزَابث.

وما لبث أن تبيَّن مغزى ذلك. كانت حجرة المرأتين في الماضي حجرةَ تغيير ملابس مُلحقةً بغرفة الاسكُتلندي، فقد كانت هناك علامات تشير إلى وجود باب متصل بين الحجرتين أُقفِل وأُلصِق فوقه ورق حائط. ولكن، وكما هو الحال غالبًا مع الأنزال الأكثر فخامةً من «البحَّارة الثلاثة»، فإنَّ كل كلمة تُقال داخل أيٍّ من هذه الحجرات تكون مسموعة بوضوح في الحجرة الأخرى. ومثل هذه الأصوات سُمِعت السَّاعةَ.

تقدَّمت إلِزَابث ووضعت الصَّحْفَة، وعندما اقتربت من أمِّها همست لها الأخرى: «إنه هو.»

«من؟» قالت الفتاة.

«العمدة.»

لقد كانت الرَّعشة في صوت سُوْزَنْ هِنْشَرْد تجعل أيَّ شخص – ما خلا الفتاة التي لم ينتبِها الشَّكُّ مُطلقًا في الحقيقة – يحدس وجود علاقة أكثر قربًا من تلك القرابة البسيطة المُعلنة، ليتَّخذ من ذلك وسيلةً لتفسير هذه الرَّعشة.

كان هناك حقًّا رجلان يتحدَّثان في الحجرة المجاورة؛ الشابُّ الاسكُتلندي وهِنْشَرْد الذي دخل النُّزُل عندما كانت إلِزَابث جيْن في المطبخ

تنتظر إعداد العشاء، وقد رافقه باحترام إلى الطابق العلوي المُضيفُ ستانِدْج نفسه. بسطت الفتاة أطباق عشائهما المتواضع على المائدة بهدوء وأومأت إلى أمّها أن تشاركها، فاستجابت السَّيِّدة هِنْشَرْد بطريقة آليَّة في حين كان انتباهها مركّزًا في الحديث الجاري خلف الباب.

«لقد دخلت إلى هنا عندما كنت أتمشَّى عائدًا إلى المنزل وأردت أن أسألك شيئًا أثار فضولي،» قال العمدة بلطف وعدم اكتراث. «ولكنني أرى أنك لم تفرغ من عشائك بعد.»

«ولكنني على وشك الانتهاء! ليس عليك أن تغادر يا سيدي. تفضَّل بالجلوس. لقد انتهيت تقريبًا، ولا يهمُّ ذلك مطلقًا.»

استجاب هِنْشَرْد للدعوة وجلس، وفي لحظة أردف قائلًا: «حسنٌ، ينبغي أوّلًا أن أسأل، هل كتبت هذا؟» وأعقب ذلك صوت حفيف ورقة.

«نعم أنا كتبته،» قال الاسكُتلندي.

«إذًا،» قال هِنْشَرْد. «تساورني الظنون أننا تقابلنا مصادفة وكنَّا ننتظر الصباح لنضرب موعدًا بيننا. اسمي هِنْشَرْد، هل أجبت عن إعلان أرسلتُه إلى الصحيفة بحثًا عن مدير أعمال لقسم الحنطة؟ هل أتيتَ إلى هنا لتراني بخصوص ذلك؟»

«كلَّا،» قال الاسكُتلندي مدهوشًا بعض الشيء.

«ألست الرجل،» استطرد هِنْشَرْد بإصرار. «الذي رتَّب للمجيء للقائي، جُوشوا، جُوشوا، جِب، جوب، ما كان اسمه؟»

«أنت مخطئ!» قال الشابّ. «اسمي دونَلْد فَارْفرَي. صحيحٌ أنني أعمل في تجارة الحنطة ولكنني لم أُجبْ عن أيِّ إعلان ولم أرتِّب للقاء أحد. إنّني في طريقي إلى برِسْتُل ومن هناك إلى الجانب الآخر من العالم لأجرِّب حظّي في المقاطعات الغربية الكبيرة التي تزرع الحنطة! لديّ بعض الابتكارات المفيدة لهذه التجارة وما مِن مجال لتطويرها هنا.»

«إلى أمريكا، حسنٌ، حسنٌ،» قال هِنْشَرْد بنبرة تشوبها مسحة من خيبة أمل، نبرةٍ قويَّة أوحت بالشُّعور بجوٍّ كئيب. «ومع ذلك بوسعي أن أُقسم بأنك ذلك الرجل!»

همهم الاسكُتلندي نافيًا مرة أخرى، ثم ران الصمت بينهما إلى أن تابع هِنْشَرْد قائلا: «إذًا أنا مُلزم حقًّا وصدقًا بشكرك على الكلمات التي كتبتها على تلك الورقة.»

«لا عليك يا سيِّدي.»

«حسنٌ، لتلك الكلمات أهمِّيَّة كبيرة لي الآن. لقد أعجزني هذا النِّزاع حول الحنطة التالفة، مع أنني أُقسم بالرَّبِّ أنني ما علمت بتلفها حتى جاء الناس يشتكون. لديَّ بضع مئات من مَكايِيل محصول الحنطة، وليتك تستطيع تحويلها إلى حنطة مفيدة بواسطة عملية الإصلاح خاصتك، سترى أيَّ مستنقع ستخرجني منه. لقد أدركت لحظةً أن ثمَّة حقيقة في ذلك، إلا أنني أودُّ أن أرى لذلك دليلًا، ولن يضيرك بلا ريب أن تخبرني بخطوات العملية بطريقة كافية لأنفِّذها إذا دفعت لك في المقام الأوَّل.»

فكَّر الشابُّ مليًّا لحظةً أو اثنتين. «ما عندي أيُّ اعتراض،» قال. «إنَّني في طريقي إلى بلاد أخرى، ومعالجة الحنطة التالفة ليست المجال الذي سأنخرط فيه هناك. بلى، سأخبرك بالعمليَّة كاملة، وسوف تستفيد منها هنا أكثر مما سأفعل في بلاد أجنبيَّة. ألقِ نظرة هنا لحظة يا سيِّدي. سأطلعك على عيِّنة أحملها في حقيبة سفري.»

أعقب ذلك تكتكة قفل، وصوت غربلة وحفيف، ثم كان هناك نقاش حول أواقيَّ كثيرة ومكيال وتجفيف وتبريد وما إلى ذلك.

«تكفي هذه البذور القليلة لأُريك العمليَّة،» تناهى صوت الشابِّ، وأعقب ذلك صمت بدا في أثنائه أنَّ كلاهما كان يشاهد العمليَّة باهتمام، ثم هتف الشابُّ: «هاك، تذوَّق الآن.»

«إنها مكتملة! مستوية تمامًا أو، حسنٌ، تقريبًا.»

«مستوية بدرجة كافية تمامًا لإنتاج حنطة تقترب في جودتها من الأفضل.» قال الاسكُتلندي. «من المستحيل استعادتها كما كانت، فلا تحتمل الطبيعة أكثر من ذلك، ولكن تلك طريقة عظيمة لذلك يا سيِّدي ولا أرى قيمة لها، لأنها ذات فائدة قليلة في البلدان التي يكون فيها الطَّقس أكثر استقرارًا من بلادنا، وسوف أكون مسرورًا جدًّا إن كانت ذات فائدة لك.»

«ولكن أصغِ إليّ،» قال هِنْشَرْد مناشدًا. «تجارتي، كما تعلم، في الحنطة والتِّبْن، ولكنني نشأتُ ببساطة تبَّانًا، وتجارة التِّبْن هي ما أفهم بدرجةٍ أفضل مع أنني أتاجر الآن في الحنطة أكثر من التِّبْن. فإذا قبلت العمل ستُدير مجال الحنطة كاملًا وسوف تتلقَّى عمولة إضافةً إلى أجرِك.»

«إنك سخيٌّ، سخيٌّ جدًّا، ولكن لا، لا، لا أستطيع!» أجاب الشابُّ بنبرةٍ فيها مسحةٌ من أسى.

«ليكن إذن!» قال هِنْشَرْد بطريقة حاسمة. «والآن لنُغيِّر الحديث، ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، فلا تبقَ هنا حتى تفرغ من ذلك العشاء البائس. هَلُمَّ إلى منزلي، وسأجد لك شيئًا أفضل من لحم الخنزير البارد والجِعة.»

عبَّر دونَلْد فَارْفرَيّ عن شكره وقال إنه يعتذر عن رفضه الدعوة وإنه يودُّ المغادرة باكرًا صباح اليوم الآتي.

«حسنٌ جدًّا،» قال هِنْشَرْد على عجل. «كما تشاء. ولكنني أقول لك أيها الشابُّ، إن نجحت هذه العملية مع المحصول كلِّه كما حدث مع العيِّنة، تكون قد أنقذت سمعتي، مع أنك غريب. كيف لي أن أكافئك على هذه المعرفة؟»

«لا شيء على الإطلاق، لا شيء على الإطلاق. لعلَّك لن تجد ضرورة لاستخدام هذه العملية كثيرًا، ولا أجد قيمة لها على الإطلاق. إنَّما اعتقدت أنه كان عليَّ أن أخبرك بها لأنك كنت في ورطة وكانوا قاسين عليك.»

توقَّف هِنْشَرْد. «لن أنسى هذا سريعًا،» قال. «ومن غريب!... لم أستطع التصديق أنك لست الرَّجل الذي أردت تعيينه! قلتُ لنفسي: إنَّه يعرف من أنا ويريد تقديم نفسه بالإتيان بهذا العمل الفَذّ. ومع ذلك، تبيَّن بعد كلّ شيء أنَّك لست ذلك الرَّجل الذي استجاب لإعلاني، وإنَّما رجل غريب!»

«بلى بلى، هو كذلك،» قال الشابّ.

علَّق هِنْشَرْد كلماته مرَّة أخرى، ثم قال بنبرة تدل على اهتمام بالغ: «إنَّ جبهتك يا فَارْفرَي تشبه جبهة أخي المسكين، لقد مات ورحل. وأنفُك أيضًا يشبه أنفَه. طولك خمس أقدام وتسع بوصات، أعتقد؟ طولي ست أقدام وبوصة واحدة ونصف بوصة إن لم أكن لابسًا حذائي. ولكن ما يهمُّ ذلك؟ في تجارتي، صحيحٌ أن القوَّة والنشاط يبنيان مؤسَّسةً، لكنَّ البصيرة والمعرفة هما ما يحافظ على بقائها. لسوء الحظ أنني سيِّئ في العُلُوم يا فَارْفرَي، وسيِّئ في الأرقام، فأنا رجل مسيطر. أمَّا أنت فعلى النَّقيض منِّي تمامًا، أستطيع أن أرى ذلك. لقد كنت أبحث عن شخص مثلك في أثناء هذيْن العاميْن، ومع ذلك أنت لن تبقى معي. حسنٌ، قبل أن أذهب، دعني أسألك: مع أنك لست الشابَّ الذي اعتقدتُّ، ما الفرق؟ ألا يمكنك البقاء وحسب؟ هل عقدت عزمك حقًّا بشأن فكرة أمريكا هذه؟ لا أخفيك الحقيقة، إنني أشعر بأنك ستكون شخصًا لا يقدَّر لي بثمن، لا حاجة إلى قول ذلك، وإذا بقيت وأصبحت مدير أعمالي سأجزِل لك العطاء.»

«خُططي محدَّدة،» قال الشَّابُّ بنبرة رافضة. «لقد وضعت خطة ومن ثمَّ لسنا بحاجة إلى قول المزيد. ولكن ألا تشاركني الشراب يا سيِّدي؟ أجد جِعة كاسْتربِرِدْج هذه دافئةً للمعدة؟»

«لا، لا، يسعدني ذلك ولكنني لا أستطيع»، قال هِنْشَرْد بطريقة جادَّة، وقد أوحى صوت احتكاك مقعده للسامعتيْن بأنَّه قد نهض ليغادر. «عندما كنت شابًّا مضيت بعيدًا بسبب الشراب، بعيدًا جدًّا، وحلَّ بِيَ الخراب! لقد

أتيْتُ بسبب ذلك فعلًا جلَّلني بالخزي إلى يوم مماتي. وقد ترك فيَّ أثرًا كبيرًا إلى حدٍّ أنني أقسمت، في ذلك الزمان والمكان، ألّا أشرب ما هو أقوى من الشاي عددًا من السنين يساوي عمري آنذاك. لقد حافظت على قسمي، ومع ذلك يا فَارْفرَي، يحدث أحيانًا أن أشعر بالجفاف في أيَّام القيْظ إلى حدٍّ أنني أستطيع شرب ربع برميل من الجِعة حتى يبِين قَطِران الخشب، ولكنَّني أتذكَّر قسمي فلا أقرب أيَّ شرابٍ قويٍّ على الإطلاق.»

«لن أحملك على فعل ذلك يا سيِّدي، لن أفعل. أحترم قسمك.»

«حسنٌ، سأجد مديرًا لأعمالي في مكان ما بلا شكّ،» قال هِنْشَرْد بنبرة محمَّلة بمشاعر قويَّة. «ولكنَّ وقتًا طويلًا سيمضي قبل أن أجد شخصًا يناسبني تمامًا!»

بدا الشاب متأثّرًا جدًّا بقناعة هِنْشَرْد المتحمّسة بأهميَّته. بقي صامتًا إلى أن وصلا إلى الباب. «أتمنَّى أن أبقى، بصدق أتمنَّى ذلك،» أجاب. «ولكن لا، لا يمكنني! أودُّ أن أرى العالم.»

الفصل الثامن

وهكذا افترقا، وبقيت إلِزَابث جيْن وأمُّها غارقتيْن في أفكارهما وأمامهما وجبة عشائهما، وكان وجه الأمّ مشرقًا بصورة غريبة منذ أن سمعت اعتراف هِنشَرْد بِعَار الفعل الذي أتاه في الماضي. أعلن ارتجاج الحاجز من جذوره أنّ دونَلْد فَارْفرَي قد قرع جرسه مرة أخرى من أجل إخراج عشائه دون شكّ. كان يدندن لحنًا ويذرع الحجرة جيئةً وذهابًا وقد جذبه صخب الأحاديث والألحان المنبعثة من المتجمّعين في الأسفل. مشى بخطا وئيدة إلى خارج الحجرة ثم هبط السلالم.

عندما حملت إلِزَابث جيْن صَحْفَتي عشائه وعشائها وأمّها إلى الطابق السفلي، وجدت صخب خدمة النُّزلاء في أوْجِه كما يحدث دائمًا في مثل هذه الساعة. امتنعت الشَّابَّة عن أن يكون لها شأن بخدمة زبائن الطابق السُّفلي، وتسلَّلت إلى هناك بهدوء لترى المشهد الذي كان جديدًا تمامًا لها، وأكثر حيويَّة من كوخهما المنعزل عند شاطئ البحر. ورأت في حجرة الاستقبال العامة الكبيرة دزينتيْن أو ثلاثًا من المقاعد ذات المساند القويَّة المصفوفة إلى الحائط، وقد شغل كلًّا منها أحد الجالسين اللُّطفاء، وأتاحت لها الأرضيَّة الرملية والمقعد الأسود الذي برز من الحائط المجاور للباب على وجه الخصوص أن ترى كلّ ما يجري دون أن تُرى.

كان الشابُّ الاسكُتلندي قد انضمّ توًّا إلى الضيوف. إضافةً إلى كبار التُّجار الذين شغلوا كراسي الشرف عند النافذة العريضة المقوَّسة وما جاورها، كانت بين الضيوف مجموعة أقلّ منزلة تجلس في الطرف البعيد المُعتم، وكانت كراسيهم مجرد مقاعد بسيطة مستندة إلى الحائط، وكانوا يتناولون شرابهم في أكواب وليس في أقداح. لاحظت إلِزَابث بين هؤلاء بعض الأشخاص الذين

كانوا يقفون خارج نافذة «الأسلحة الملكية».

كانت خلف ظهورهم نافذة صغيرة في أحد لوحيْها مروحة تهوية ما إن تبدأ بالدوران فجأةً مُصدِرةً خشخشةً حتى تقف فجأةً ثم تُعيد دورانها فجأةً.

وبينما كانت تستَرِق النَّظر حول المكان، صافح أذنيْها مُفتَتحُ أغنيةٍ ذات لحنٍ ونبرةٍ لهما سحر خاصٌّ أتى من وراء المقعد الأسود. كان الغناء قد بدأ قبل أن تنزل إلى الطابق السفلي، وها هو الاسكُتلندي سرعان ما أَلِف المكان حتى إنَّه نزولًا عند طلب بعض كبار التُّجَّار أخذ هو الآخر يُطرِب السَّامعين بأغنية قصيرة.

كانت إلِزَابث جيْن مولعةً بالموسيقى، فلم تتمكَّن من مقاومة رغبة الوقوف والاستماع، وكلَّما سمعت أكثر زادت انتشاءً. لم تسمع غناء كهذا من قبل قطُّ، وكان واضحًا أنَّ أغلب الحاضرين لم يسمع مثل ذلك كثيرًا من قبل، لأنهم كانوا مُنتبهين بدرجةٍ أكبر من المعتاد. كانوا لا يتهامسون ولا يشربون ولا يغمسون سيقان غَلايِينهم في أقداحهم لترطيبها ولا يدفعون أكوابهم نحو جيرانهم. كان المُغنِّي نفسه متأثِّرًا، حتى خُيِّل إلى إلِزَابث أن ثمَّة دمعة في عينه وهو يردِّد:

«إنّه وطني، وطني، وطني الذي إليه أهفو
آه يا وطني، يا وطني، يا وطني ويا بلادي!
عيني دامعة ووجهي شاحب
وحين أعبر وفرقتي الجميلة نهر عنان،
وتتفتَّح الأزهار وتُورق الأشجار
تشدو ليَ القُبَّرةُ بأغنية وطني!»[16]

انفجر المكان بالتصفيق، ثمَّ حلَّ صمتٌ عميقٌ كان أكثر بلاغةً من التصفيق. وقد بلغ الصمت عُمقًا بدت معه فعلًا مزعجًا ووقحًا تلك الفرقعةُ

16) من أغاني الفرقة اليعقوبية، إحدى الفرق النصرانية، في القرن الثامن عشر.

التي صدرت عن عقب غليون العجوز سولومُن لونغويز الذي كان أحد المجتمعين في الطرف المعتم من الحجرة. ثم بدأت المروحة في لوح النافذة بالدوران من جديد بطريقة متقطّعة، وخبا الشَّجو الذي أثارته أغنية دونَلْد إلى حين.

«إنَّك مُحق، محقٌّ تمامًا!» غَمْغَم كريستوفر كوني الذي كان حاضرًا أيضًا. ثمَّ أبعد غليونه عن شفتيه بمقدار أصبع وقال بصوتٍ عالٍ: «أكمل المقطع التالي أيُّها السَّيِّد الشَّابُّ من فضلك.»

«أجل. أسمِعْنا مجدَّدًا أيُّها الغريب،» قال صانع الزجاج، وكان سمينًا كبير الرأس يرتدي مئزرًا أبيض طواه فوق خصره. «لا يفتح الناس قلوبهم هكذا في هذا الجزء من العالم،» ثمَّ مال جانبًا وقال بصوت خفيض: «من يكون هذا الشَّابّ؟ أتُراه اسكُتلنديًّا؟»

«بلى، أعتقد أنه قادم مباشرةً من جبال اسكُتلندا،» أجاب كوني.

وغنَّى الشَّابُّ فَارْفرَي المقطع الأخير. كان جليًّا أنَّه ما من غناء شجيٍّ كهذا سُمِع في «البحَّارة الثلاثة» منذ زمن طويل. اختلاف نبرة المغنِّي، وحماسته، وعاطفته الجيَّاشة، وجِدُّه في الصُّعود بالغناء إلى ذروته، كلُّ ذلك أدهش هذه المجموعة من النُّبلاء الذين كانوا ميَّالين تمامًا إلى إسكات عواطفهم بكلمات كاوِية.

«اللَّعنة إن كانت بلادنا تستحقُّ أن يُتغنَّى بها على هذا النحو!» تابع صانع الزجاج كلامه عندما بدأ غناء الاسكُتلندي مقطع «يا بلادي» بالخفوت مرَّة أخرى. «فإنَّك إن أبعدت من بيننا الحمقى، والأنذال، والمشلولين، والعاهرات الفاجرات، والمُومسات وما شابه ذلك، سيبقى قليلٌ ممَّن يمكن أن يُزيِّنوا أغنية في كاسْتربرِدْج، أو في البلدان المجاورة.»

«صدقت،» قال بُزْفورد التَّاجر وهو ينظر إلى سطح الطاولة المُحبَّب. «إنَّ كاسْتربرِدْج مكانٌ شرِّيرٌ عجوزٌ عتيقٌ بكلِّ المقاييس. لقد سجَّل التَّاريخ

تمرُّدَنا على الملك منذ مئة أو مئتي عام في عهد الرُّومان، وكثير منَّا شُنِق في «غالوز هِل»[17]، وقُطّعت أوصالنا، ووُزّعت في أرجاء البلاد كما تُوزَّع لحوم الجزَّار، وأمَّا أنا فأُصدِّق ذلك.»

«ما الذي جعلك تخرج من بلادك يا سيِّدي الشَّابُّ إذا كنت تحبُّها؟» سأل كريستوفر كوني من الخلف بنبرة رجل فَضَّل الموضوع الأصليّ. «نحن بالتأكيد لا نستحقُّ ما تبذله من عناء، لأنَّنا كما قال السَّيِّد بِلِي وِلْز ناسٌ غير جديرين بالثِّقة حيث أفضلنا بالكاد يكون أمينًا أحيانًا، فما بالك بالأشتِية القاسية وتلك الأفواه التي تنتظر من يطعمها، إنَّ الرَّبَّ العظيم يرسل فُتاتًا ضئيلًا جدًّا لإطعام هذه الأفواه. إننا لا نفكِّر في الأزهار والوجوه الجميلة، لا نفكِّر سوى في القُنَّبيط وفكوك الخنازير.»

«ولكن لا،» باهتمام جادٍّ قال دونَلْد فَارْفرَيّ محدِّقًا إلى وجوههم حوله. «أن يكون أفضلكم بالكاد أمينًا، هذا ليس صحيحًا، هل سرق أحدكم ما ليس له؟»

«حاشا! كلا، كلا!» قال سولومُن لونغوَيْز مبتسمًا بعبوس «تلك فقط طريقته العشوائيَّة في الحديث. طالما كان رجلًا عديم التَّفكير»، (وقال موبِّخًا كريستوفر): «لا ترفع الكُلْفة بينك وبين سيِّد لا تعرف عنه شيئًا، وجاء تقريبًا من القطب الشمالي.»

أُسكِت كريستوفر كوني، ولمَّا لم يحظَ بعطف الآخرين، قال لنفسه مغمغمًا: «لئن أحببتُ بلادي حبًّا يضاهي نصف محبَّة هذا الرَّفيق الشَّابِّ لبلاده، لعشتُ وأنا أنظِّف زرائب خنازير جاري قبل أن أهجرها! وأمَّا أنا فلا أكنُّ لبلادي حبًّا أكثر مما أكنُّه لبوتَنِي بي!»[18]

---

17) Gallows Hill: اسم يُطلَق على المكان الذي كانت تُنفَّذ فيه عمليات الشَّنق في العصور القديمة، وهنا إشارة إلى الحرب الأهلية الإنجليزية في القرن السابع عشر التي أدت إلى إعدام قرابة 300 شخص.

18) Botany Bay خليج يقع في سِدني بأستراليا، يرتبط في الثقافة الشَّعبيَّة الإنجليزية بمستعمرة العقاب التي كان يُنفَى إليها المساجين.

«هيَّا،» قال لونغوَيْز. «دع الشَّابَّ يواصل أغنيته وإلا بقينا هنا اللَّيل كلَّه.»

«هذا كلُّ شيء،» قال المُغنِّي معتذرًا.

«ليتك تُغنِّنا أغنية أخرى!» قال التَّاجر.

«هلَّا غنَّيت لحنًا للسَّيِّدات يا سيِّدي؟»، سألت امرأة بدينة ترتدي مئزرًا أرجوانيًّا مُشجَّرًا تدلَّت جوانبه فوق الحزام الذي شدَّت به خصرها حتى لم يعُد يبين.

«دعيه يتنفَّس، دعيه يتنفَّس أيَّتها الأمُّ كُكْسُم. إنَّه لم يلتقط أنفاسه بعد،» قال السَّيِّد صانع الزجاج.

«بلى، لدي ما أغنِّيه،» هتف الشَّابُّ، وأخذ من فورِه يغني «يا ناني»[19] بلحن لا عيب فيه، ثمَّ غنَّى أغنية ثانية وثالثة بالإحساس نفسه، مُختتِمًا بأغنية «الأيَّام الخوالي»[20] نزولًا عند طلبهم المُلِّح.

كان حتى هذا الحدِّ قد أسر قلوب نزلاء «البحَّارة الثلاثة»، وحتى قلب العجوز كوني. وبالرَّغم ممَّا اعترى القوم من انجذاب غريب مؤقت أيقظ فيهم مشاعر السُّخرية اللحظةَ، بدأوا ينظرون إليه وكأنَّ هالة ذهبية أحاطت به. إنَّ كاسْتربرِدْج لا تخلو من عاطفة، إنَّ كاسْتربرِدْج تحمل حُبًّا، بيْد أنَّ العاطفة التي أثارها هذا الغريب كانت من ضرب مختلف. أو لعلَّ الاختلاف بالأحرى كان ظاهريًّا في الأغلب، وبدا في نظرهم مثل الشاعر المجدِّد الذي يأخذ معاصريه على حين غِرَّة، وأمَّا هو فليس بمجدِّد في الحقيقة، بيْد أنَّه كان أوَّل من عبَّر عن مشاعر جميع مستمعيه التي كانت مكبوتة حتى ذلك الحين.

جاء صاحب النُّزُل الصامت واتكأ على المقعد الطويل عندما كان

---

19) Oh Nannie أغنية وطنية اسكتلندية يسأل فيها المغني مريبته «ناني» قُبيل رحيلها عنه عمّا إذا كانت ستفضّل حياة المدينة الصاخبة على سحر الطبيعة الهادئة.

20) Auld Lang Syne قصيدة الشاعر الاسكتلندي روبرت بيرنز التي تحتفي بالصداقة، وتُغنّى أيضًا في ليلة رأس السنة.

الشَّابُّ يغنِّي، وحتى السَّيِّدة ستانِدْج تمكَّنت من نزع نفسها من هيكل مقعدها في الحانة، ومن الوصول إلى عِضادة الباب، وقد أنجزت حركتها هذه بالدوران والتدحرج، كما يُدحرِج خمَّارٌ برميلَ نبيذ على حافته دون أن يفقد البرميل كثيرًا من اتزانه.

«وهل ستقيم في كاسْتربرِدْج يا سيِّدي؟» سألته.

«آه كلا! إنني عابر هنا وحسب!» قال الاسكُتلندي بنبرة كئيبة مستسلمة، «أنا في طريقي إلى برِسْتُل، ومن هناك بعيدًا إلى بلاد أجنبيَّة.»

«يؤسفنا سماع ذلك حقًّا،» قال سولومُن لونغوَيْز. «ما بنا طاقة على فقد صوت رخيم كصوتك. ومن غير ريب، أنَّ معرفة رجل أتى من البعيد، من بلاد الثلج الدائم كما نقول، حيث تكثر الذئاب والخنازير البرِّيَّة وغيرها من الحيوانات الخطرة كما تكثر الشَّحارير هنا، لهي أمرٌ لا يُتاح لنا كل يوم، وحين يتفوَّه رجل مثلك يجدر بنا نحن المقيمين في ديارنا أن نعرف الكثير والمفيد منك.»

«ولكنَّكم لستم محقِّين بشأن بلادي»، قال الشَّابُّ وهو يحدِّق إليهم بنظرة ثابتة حزينة، ثمَّ فجأةً أشرقت عيناه وتوهَّجت وجنتاه وقد أخذته الحماسة لتصحيح أخطائهم. «ليس في بلادي ثلج دائم ولا ذئاب مطلقًا! عدا أن الثلج يسقط في الشتاء، والقليل منه في الصيف في بعض الأحيان، وهناك متسوِّل أو اثنان يتسكَّعان هنا وهناك، إن كان لكم أن تعدوهما خطيرَين. ولكن ينبغي أن تذهبوا في رحلة صيفيَّة إلى إدِنْبرَه وآرْثَرز سِيت[21]، وفي الأنحاء كلِّها هناك، ثم تذهبوا إلى البحيرات والهضاب المرتفعة في شهري مايو ويونيو، ولن تقولوا مطلقًا إنها أرض الذئاب والثلج الدائم!»

«حتمًا لا. ذلك منطقي،» قال بُزفورد. «إنَّما هو الجهل المُطبق ما يدفع إلى قول كلمات كهذه. إنه ريفيٌّ بسيط لا يصلح أبدًا لرفقة طيِّبة، فلا

---

21) هضبة تقع شرق مدينة إدنبره ومن قمتها يشهد المرء مناظر خلابة.

تأبه به يا سيدي.»

«وهل تحمل حَشِيَّة نومك ولحافك وجرَّتك وأطباقك الخزفيَّة؟ أم أنك تسافر عاريَ العظم إن جاز لي القول؟» سأل كريستوفر كوني.

«لقد أرسلت أمتعتي، مع أنها ليست كثيرة، لأن الرحلة طويلة.» ذهبت عينا دوُنَلْد في نظرة بعيدة عندما أضاف: «لكنني قلت لنفسي: لن أفوِّت أبدًا نعمةً تكافئني بها الحياة، فقرَّرت الرحيل.»

خيَّم على الجميع إحساس عامٌّ بالأسف، كان لإلِزَابث جيْن نصيب فيه. وإذ هي تنظر إلى فَارْفرَي من وراء المقعد الطويل، فكَّرت أنَّ عباراته لا تقلُّ عمقًا عن أغانيه الآسرة التي كشفت كم كان ودودًا ومشبوب العاطفة. وأعجبتها طريقته الجادَّة في النظر إلى الأمور الجادَّة، فهو لم يستظرف الخبث والمراوغة كما فعل سُكارى كاسْتربرِدْج، والحقيقة أنَّه لم يكن ثمَّة ظُرْف في الأمر. وقد ساءتها تلك الدُّعابات البائسة التي أطلقها كريستوفر كوني وزُمرته، والتي لم يقدِّرها فَارْفرَي. بدا إحساسه إزاء الحياة وتقلُّباتها كإحساسها تمامًا، وأنَّ الحياة بالأحرى مأساويَّة لا هزليَّة، ومع أنَّ المرء بمستطاعه أن يمرح أحيانًا، تبقى لحظات مرحه هذه متقطِّعة، ولا دور لها على مسرح الواقع. لقد كان أمرًا استثنائيًّا أن تتفق آراؤهما هذا الاتفاق.

مع أنَّ الوقت كان ما زال باكرًا، أبدى الاسكُتلندي رغبته في الانسحاب، وعندئذ همست صاحبة النُّزُل لإلِزَابث أن تصعد ركضًا إلى الطابق العلوي وتُعِدَّ له فراشه. أخذت شمعدانًا وانصرفت إلى أداء مهمتها التي أنجزتها في لحظات معدودة فقط. وعندما اقتربت من السلالم في طريقها إلى الأسفل والشَّمعدان في يدها، كان السَّيِّد فَارْفرَي يَهُمُّ بالصُّعود. ولم تتمكَّن من التراجع، فتقابلا وعبرا منعطف السلالم.

لا بدَّ أنها بدت مثيرة للإعجاب بعض الشيء، على بساطة ملبسها، أو ربَّما بالأحرى بسبب بساطة ملبسها، ذلك أنها كانت فتاة تتميَّز بسيماء جادَّة

ورزينة تتوافق والملبس البسيط بصورة جيِّدة. تورَّد وجهها كذلك بسبب ما أحدثه ذلك اللقاء من ارتباك طفيف، فعبرت قريبًا منه وعيناها مُسبلتان على الشَّمعدان المشتعِل الذي كانت تحمله قريبًا من أنفها. وهكذا حدث أنِ ابتسم هو حين واجهها، ثمَّ، ومثل رجل خَلِيِّ البال لم يتمكَّن بعض الوقت من كبْح زَخْم أغنيةٍ بدأها توًّا، فراح يردِّد برفق أغنية قديمة كأنما هي من أوحى بها:

«حين بلغتُ باب داري

والنهار يكاد يخبو ويذبل

عجبي، مَنْ تلك التي أقبلت تخطُر على السَّلالم

غير حبيبتي الجميلة بِغ.»[22]

سارعت إلِزَابث جيْن الخطو وقد اعتراها شيءٌ من الارتباك، وأخذ صوت الاسْكتلندي يخفت وهو ما زال يردِّد باقي الأغنية حين دخل حجرته وأغلق الباب.

هنا انتهى هذا المشهد وما أثاره من عاطفة في الوقت الحاضر. بُعيد ذلك، عندما انضمَّت الفتاة إلى أمِّها، كانت الأخيرة لا تزال غارقة في التفكير في أمر آخر مختلف كل الاختلاف عن أغنية يردِّدها شابّ.

«لقد اقترفنا خطأ،» قالت هامسة (حتى لا يسمعها الاسكُتلندي). «ما كان ينبغي لكِ تحت أيِّ ظرف كان أن تساعدي في الخدمة اللَّيلةَ هنا. ليس من أجلنا، بل من أجله هو. إن ساعدنا ثم اكتشف ما فعلتِه عندما أقمنا هنا، سيجرح ذلك كبرياءه الطبيعية بصفته عمدة البلدة.»

لو أنَّ إلِزَابث تعلم بالعلاقة الحقيقية لكانت أكثر قلقًا من أمِّها بشأن خدمتها في النُّزُل، ولكنَّها، والحال هذه، لم تنزعج كثيرًا. «هو» الذي تعنيه شخص آخر غير الذي عَنَته أمُّها المسكينة. «أمَّا أنا،» قالت، «فلا يزعجني مطلقًا أن أقوم بخدمته قليلًا. إنه مهذَّب ومثقَّف، يسمو كثيرًا على الآخرين في

---

22) Bonnie Peg من قصائد روبرت بيرنز.

النُّزُل. لقد ظنُّوه أكثر سذاجة من أن يعرف طريقتهم المَقيتة في الحديث عن أنفسهم هنا. ولكنَّه بلا شك لم يدرك ذلك، لأنَّ عقله كان أنقى من أن يدرك أشياء كهذه!» هكذا أجابت جادَّةً.

في الوقت نفسه، لم يكن «هو» الذي قصدته أمُّها بعيدًا جدًّا كما كانتا تعتقدان، فبعد أن غادر «البحَّارة الثلاثة» أخذ يتجوَّل ذهابًا وإيابًا في الطريق العام مارًّا قرب النُّزُل مرارًا وتكرارًا في جولته. وحين كان الاسكتلندي يغنِّي وصل صوته إلى أذني هِنْشَرْد عبر ثقوب شكل القلب على مصراعي النافذة، وجعله ذلك يقف خارجها وقتًا طويلا.

«حقًّا، حقًّا، لكم أثَّر فيَّ ذلك الرجل!» قال لنفسه. «وأحسَبُ لا لشيء إلا لأنَّني وحيدٌ جدًّا. لكنتُ أعطيته ثلثَ حصتي من تجارتي كي يبقى!»

الفصل التاسع

عندما فتحت إلِزَابث جيْن النافذة في صباح اليوم التالي، حمل إليها الهواء الطَّريُّ إحساسًا واضحًا بدنوِّ الخريف وكأنها في قرية بعيدة، فقد كانت كاسْتربرِدْج تكمِّل الحياة الرِّيفيَّة المحيطة، ولم تكن حضريَّة على النقيض منها. وكان يطيب للنَّحل والفَرَاش في حقول الحنطة في الجزء العلويِّ من البلدة أن يصل إلى المروج في أسفلها دون أن يأخذ مسارًا دائريًا، بل يطير مباشرةً ناحية شارع «هاي» دون أيِّ دراية واضحة بأنه يجتاز أنحاء غريبة. وفي الخريف تطفو كُرات ناعمة من زَغَب الشَّوك فوق الشارع نفسه، فتستقرُّ على واجهات المتاجر، وتندفع إلى شباك تصريف المياه، وعلى طول الرَّصيف تَسِفُّ أوراقُ شجرٍ سمراء وصفراء لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وتنسلُّ عبر مداخل البيوت إلى الأروقة حاكَّةً الأرض بتمهُّل مثلما تفعل أثوابِ زائرات خجِلات.

سمعتْ أصواتًا كان أحدها قريبًا جدًّا، فتراجعت عن النافذة وأخذت ترمُق من خلف الستائر. كان السَّيِّد هِنْشَرْد – الذي لم يعُدْ يسلك مسلك شخصيَّة بارزة الساعة، بل كان يتصرَّف كرجل أعمال ناجح – يشقُّ سبيله في منتصف الطريق، وكان الاسكُتلندي يُطلُّ من النافذة المجاورة لنافذتها. بدا أنَّ هِنْشَرْد قد ابتعد قليلا عن طريق النُّزُل قبل أن يلحظ رفيقَه الذي تعرَّف إليه المساء الفائت، فعاد بضع خطوات وفتح دونَلْد فَارْفرَي النافذة أكثر.

«أظنُّ أنك راحل قريبًا؟» قال هِنْشَرْد ناظرًا إلى الأعلى.

«أجل، هذه اللحظة تقريبًا يا سيدي،» قال الآخر. «ربما أمشي حتى أصادف العربة.»

«أيُّ طريق؟»

«الطريق الذي تسلكه أنت.»

«إذن فلنمشِ معًا حتى أعلى البلدة.»

«لو تفضَّلت بالانتظار لحظةً.» قال الاسكُتلندي.

ولم يلبث الأخير بضع دقائق حتى خرج والحقيبة في يده. نظر هِنْشَرْد إلى الحقيبة وكأنه ينظر إلى عدوّ. كان جليًا أنه لم يكن ثمَّة من خطأ بشأن مغادرة الشَّاب. «آه يا أيُّها الفتى،» قال، «كان ينبغي أن تكون رجلًا حكيمًا وتبقى معي.»

«بلى، بلى، لعلَّ ذلك كان أكثر حكمة،» قال دونَلْد وهو يعاين متفحِّصًا البيوت البعيدة. «لقد أخبرتك الحقيقة وحسب عندما قلت أنَّ خططي غامضة.»

عبرا في تلك اللحظة حدود النُّزُل، ولم تَعُدْ إلِزَابث جيْن تسمعهما. لاحظت أنهما كانا يستأنفان الحديث، لأن هِنْشَرْد كان يلتفت إلى الآخر بين الفينة والأخرى، ويؤكِّد ملاحظة ما بإيماءة. وهكذا عبرا نُزُل «الأسلحة الملكيَّة»، والسُّوق، وسور كنيسة القديس بطرس، صاعديْن نحو الجزء المرتفع من الطريق الطويل حتى صارا صغيريْن مثل حبَّتي حنطة، ثمَّ انعطفا فجأة إلى اليمين صوب طريق برِسْتُل، واختفيا عن الأنظار.

«كان رجلا لطيفًا، ورحل،» قالت لنفسها. «لم أكن شيئًا في نظره، وليس هناك من سبب يجعله يقول لي وداعًا.»

هذه الفكرة الساذجة التي طافت في مخيِّلتها حملت شعورًا خفيًّا بالتجاهل، وكان مردُّها الحقيقة البسيطة الآتية: حين خرج الاسكُتلندي من الباب رفع رأسه ورمقها مصادفةً، ثم نظر بعيدًا دون إيماءة أو ابتسامة أو كلمة.

«أما زلت تفكرين يا أمّي؟» قالت عندما استدارت إلى الداخل.

«بلى، أفكِّر في إعجاب السَّيِّد هِنْشَرْد المفاجئ بذلك الشَّابّ. طالما كان

كذلك، فإذا كان يرحِّب بحرارة بأشخاص لا يمتُّون إليه بِصلة إطلاقًا، ألن يرحِّب بالحرارة نفسها بأشخاص من أقاربه؟»

وإذ هما تناقشان هذا السؤال مرَّ موكب من خمس عربات كبيرة، محمَّلةً بأكوام تبن وصل ارتفاعه إلى نوافذ حجرة النوم. كانت قادمةً من القرية، ولعلَّ الجياد المُجهدة كانت تعدو شطرًا كبيرًا من اللَّيل. وقد عُلِّقت لوحة صغيرة على دعامة كلِّ عربة وكُتِب عليها بحروف بيضاء: «هِنْشَرْد، تاجر الحنطة والتبن.» لقد عزَّز هذا المشهد اعتقاد زوجته بِألَّا تدَّخر وُسعًا في العودة إليه من أجل ابنتها.

استُئنِف النقاش في أثناء تناول الإفطار، وفي نهايته قرَّرت السَّيِّدة هِنْشَرْد، سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ، أن ترسل إلِزَابث جيْن إلى هِنْشَرْد وتحمل إليه رسالة مفادها أن قريبته سُوزَنْ، أرملة بحَّار، في البلدة، وتترك له القول إن عرفها أم لا. أمران جعلاها في الأغلب تتَّخذ هذا القرار؛ وصفه بأنه أرمل وحيد، واعترافه بخجله من فَعْلة أقدم عليها في ماضي حياته. وكان ثمَّة ما يبشِّر بالخير في كلا الأمرين.

«إن قال لا،» قالت بنبرة آمرة حين وقفت إلِزَابث جيْن، ووضعت قبَّعتها على رأسها لتَهُمَّ بالمغادرة، «أو إن اعتقد أنَّ المنزلة الرفيعة التي بلغها في البلدة لا تجعله يعترف بنَسَبِه البعيد هذا ولا يحقُّ لنا الاتصال به، فقولي: إذًا يا سيِّدي، من الخير ألا نزعجك، سنترك كاسْتربرِدْج بهدوء كما دخلناها وسنعود إلى بلادنا. أحسُّ أنَّني أُفضِّل أن يقول ذلك لأنَّني لم أره منذ سنوات طويلة جدًّا، وقرابتنا به بعيدة جدًّا!»

«وإن قال نعم؟» سألت الأخرى الأكثر تفاؤلًا.

«في تلك الحال،» أجابت السَّيِّدة هِنْشَرْد بحذر. «اطلبي إليه أن يكتب إليَّ ملحوظة يقول فيها متى يرانا وكيف يرانا، أو يراني.»

تقدَّمت إلِزَابث جيْن بضع خطوات نحو الباب. «وقولي له،» أردفت

أمُّها، «أنني أدرك جيِّدًا بأنني لا أطالبه بشيء، وأنني مسرورة أن أجده ناجحًا، وأنني أرجو له حياة سعيدة مديدة. هيَّا اذهبي.» وهكذا، برغبة تعوزها الحماسة، وبنفور خانق، أرسلت المرأةُ المسكينة المُسامِحة ابنتَها الغافلة في هذه المهمة.

كانت الساعة تشرف على العاشرة، وكان اليوم يومَ سُوق عندما صعدت إلِزَابث إلى شارع «هاي»، دون عجلة كبيرة، لاعتقادها بأنها مجرَّد قريبة فقيرة أُوفِدت للبحث عن قريب ثريّ. كانت الأبواب الأماميَّة للمنازل الخاصة غالبًا ما تُترَك مفتوحةً في هذا الوقت الدافئ من الخريف، حيث لا يوجد سارقو مظلات يعكِّرون صفو أفكار الأثرياء الوادعين. وهكذا، كانت المداخل تنفتح على أروقة طويلة مستقيمة بوسع المرء أن ينظر عبرها وكأنه ينظر عبر أنفاق إلى الحدائق المكسُوَّة بالطحالب في الفناء الخلفي والمزدانة بأزهار السَّلْبوت، والفُوشِيَّة، وإبرة الراعي، والمنثور الأصفر، والخَطْميَّة، والأضاليا، وقد كانت هذه البقعة المتوهِّجة بالزُّهور والمُسوَّرة بحجارة رماديَّة متقشِّرة هي كلُّ ما تبقَّى من كاسْتربِرِدْج أخرى أصبحت أكثر نأيًا عن تلك البلدة المَهيبة التي يراها المرء في الطريق. وكان لهذه المنازل واجهات عتيقة الطراز وخلفيات موغلة في القِدَم، وقد قامت الواجهات على الرصيف مباشرة، وبرزت منها النوافذ المقوَّسة مثل أبراج قلاع تَختِم على العابر المتعجِّل بسبب ضيق وقته أن يأتي بعد كل بضعة ياردات حركاتٍ تشبه حركات رقصة شاسيه دِيشاسيه[23] المُبهجة. ومن المُحتَم عليه كذلك أن يأتي حركاتٍ راقصةً أخرى في ما يخصُّ درجات عتبات الأبواب، ومماسح المداخل، وفتحات الأقبية، وأعمدة الكنيسة، والزوايا الحادَّة الناتئة في الحيطان والتي كانت مستوية في الأصل ولكنها اتخذت فيما بعد شكل ساقيْن مقوَّستيْن.

إضافةً إلى هذه العقبات الثابتة التي تدل بمرح على انعتاق الفرد

---

23) chassez-déchassez: رقصة فرنسية يحرِّك فيها الرَّاقص قدميه سريعًا حركة جانبية بطريقة تلاحق فيها إحداهما الأخرى يمنةً ويسرة.

من القيود، كانت هناك عقبات متحرّكة تشغل الدُّروب والطرقات إلى حدٍّ يبعث على الاضطراب، فقد كانت هناك عربات النقل الداخلة إلى كاستربرِدْج والخارجة منها، التي تَفِد بأعداد كبيرة من مِلْستُوك، ووذَرْبِري، وذي هِنتوكس، وشيرتون آباس، وكِنغزبِر، وأوفركومب، وغيرها من البلدات والقرى المحيطة. لقد كانت أعداد أصحاب هذه العربات هائلة إلى حدٍّ يمكن عدُّهم قبيلة، ولهم سَحْنة تميُّزهم إلى حدٍّ يمكن عدُّهم عِرقًا وحدهم. كانت عرباتهم قد وصلت توًّا، وأُوقفت على جانبي الطريق في صفٍّ متراصٍّ حيث شكَّلت في بعض الأماكن حائطًا بين الرَّصيف والطريق. فضلا عن ذلك، وضع كل تاجر نصف ما يحويه متجره على مناصّ وصناديق نُصِبت على حافة الرَّصيف، وأخذت تتقدَّم في كل أسبوع أكثر وأكثر إلى الطريق كلَّما زاد المعروض، وذلك بالرَّغم من اعتراض الشُّرطيَّيْن العجوزيْن الواهنيْن، إلى أن لم يتبقَّ سوى معبر ضيِّق ملتوٍ للعربات في وسط الطريق منح فرصة سانحة لسائقي العربات لاستعراض مهارتهم في استخدام ألجمة الخيول. وفوق الرَّصيف عند الجانب المشمس من الطريق، عُلِّقت فوق المتاجر مَظَالٌ أخذت تلطم قبَّعات المارَّة بخفَّة وتُطيِّرها من رؤوسهم كما تفعل الأيدي الخفية لِغُولِبن بيْج، خادم كرانستُون الشهير في القصص الخيالية[24].

كانت الخيول المعروضة للبيع مربوطة في طوابير، وقوائمها الأمامية على الرَّصيف والخلفية على الطريق في هيئة تجعلها تلامس أكتاف الصبية الصغار بين الحين والآخر وهم في طريقهم إلى المدرسة. وقد اتَّخذ تجَّار الخنازير المواضع الخالية أمام البيوت القائمة في الخلف بعيدًا عن الطريق العام حظائرَ لحيواناتهم.

كان مُلَّاك الأراضي، والمزارعون، واللَّبَّانون، وأهالي البلدات الذين

24) في قصيدة سير وولتر سكوت «أنشودة المُغنّي الأخير» كان أحد خدم اللورد كرانستون قزمًا يشتهر بالخبث والخداع.

قدِموا لإنجاز أعمالهم في هذه الطرقات القديمة يتحاورون في ما بينهم بطرق أخرى غير الكلام، فإنَّك إذا لم تسمع كلمات مُحدِّثك في مراكز العواصم فلن تدرك شيئًا ممَّا يقصد. أمَّا هنا فيتحدَّث الوجه والذراعان والقبَّعة والعصا والجسد على حدٍّ سواء مع اللِّسان. فإذا أراد رجل السُّوق في كاسْتربِرِدْج أن يعبِّر عن رضاه فإنَّه إضافة إلى ما يقول يلجأ إلى شدِّ وجنتيه، وتضييق عينيه، وإلقاء كتفيه إلى الوراء، وكلُّ هذا يمكن رؤيته بوضوح من الطرف الآخر للطريق. وعندما يتعجَّب – مع أن جميع عربات هِنْشَرْد ومركباته تخشخش وهي تعبر قريبًا منه – فإنك تعرف ذلك من رؤية باطن فمه القرمزي، ودوران عينيه. ويسفر عن طريقة تداول الحديث هذه هجومٌ عشوائي بطرف عصاه على الطحالب العالقة على الجدران المتجاورة، وتَزَحْزُحُ قبَّعته عن وضعها الأفقي، وإحساسٌ بالضجر يظهر في طريقة انحناء الرَّجل صانعًا بركبتيه فجوة على شكل مُعيَّن ومُثنيًا ذراعيْه. لا يكاد يوجد مجال للخداع والحيل في طرقات هذه البلدة الصادقة حسبما يظهر، ويُقال إنَّ المحامين في مبنى المحكمة القريب كانوا عندما يدافعون عن قضاياهم في بعض الأحايين يقيمون حُججًا قويَّة على الطرف الآخر كرمًا خالصًا منهم، وإن بدا ذلك لسوء طالع خصومهم.

وهكذا كانت كاسْتربِرِدْج في معظم النواحي عمادَ الحياة الرِّيفيَّة المحيطة وبؤرتَها وعَصَبَها، وتختلف عن كثير من البلدات الصناعية التي تبدو مثل أجساد غريبة تشبه جلاميد من الصخر على سهل منبسط في عالم أخضر لا تشترك معه في شيء. وكانت كاسْتربِرِدْج تعيش على الزراعة، فهي أقرب إلى منبع النهر من القرى المجاورة ولا تبعد عنه إلا بمقدار درجة واحدة. وكان أهاليها على دراية بأيِّ تقلُّبات تنتاب حالة الطَّقس في الرِّيف، لأنها تؤثِّر في أحوالهم الماديَّة كما تؤثِّر في أحوال العمَّال، ولهذا السبب نفسه كانوا يخبرون أتراحًا وأفراحًا دفعت العائلات الأرستقراطيَّة إلى الانتقال عشرات الأميال بعيدًا عن البلدة. وحتى في حفلات عشاء العائلات في البلدة، كان النقاش

يدور حول الحنطة، وأمراض الماشية، والبَذْر والحصاد، والتسييج والزَّرع، وكانت نظرتهم إلى الشؤون السياسية من وجهة نظر جيرانهم الرِّيفيِّين تفوق أهميةً نظرتَهم إليها من وجهة نظر أهل المدن على ما يتمتعون به من حقوق وامتيازات.

كانت الاختراعات المَهيبة المُحيرة التي تبهج العين بجمالها الأخَّاذ وإلى حدٍّ معقول في هذه البلدة العتيقة النادرة، بِدَعًا عصريَّة في عيني إلزابث جيْن غير المُدرَّبتيْن اللتين لم تخبِرا أكثر من حياكة شباك الصَّيد في كوخ على شاطئ البحر. ولم تكن بحاجة إلى كثير من الأسئلة لإرشاد خطواتها، فقد كان منزل هِنْشَرْد من بين أفضل المنازل، واجهته من القرميد القديم الأحمر والرَّمادي. وكان الباب الأمامي مفتوحًا، وكما في المنازل الأخرى استطاعت أن ترى عبر الرواق الحديقةَ التي تبعد ربع ميل تقريبًا.

لم يكن السَّيِّد هِنْشَرْد في المنزل، وإنما في فناء المخزن، فأُدخِلت إلى الحديقة الطُّحلبيَّة ومنها عبر باب مثبَّت في الجدار ومرصَّع بمسامير صدئة، وكانت الحديقة تحكي عن أجيال من أشجار الفاكهة التي زُرِعت ونَمَت هناك. كان الباب مفتوحًا على الفناء فتُركت هناك لتبحث عنه بنفسها. كانت تتوزَّع في المكان صوامع التبن الممتلئة بأطنان من حُزَم العلف المُفرَغة من العربات التي رأتها تمرُّ قريبًا من النُّزُل في ذلك الصباح. وفي أنحاء أخرى من الفناء كانت هناك صوامع خشبيَّة مرفوعة فوق دعامات حجريَّة يمكن الوصول إليها بواسطة سلالم قصيرة، إضافةً إلى مخزن يرتفع عدة طوابق. وكلما فُتِحت أبواب هذه الأماكن أمكن رؤية كتل ممتلئة من أكياس الحنطة تقف في الداخل وكأنها مُهيَّأةٌ لمجاعة لن تَحِلّ.

أخذت تتجوَّل في المكان وهي تفكِّر بقلق في المقابلة وشيكة الحدوث، إلى أن ضجرت من البحث وتجرَّأت على سؤال صبيٍّ عن المكان الذي تجد فيه السَّيِّد هِنْشَرْد، فدلَّها على مكتب لم تره سابقًا، وعندما طرقت الباب أجابتها

صيحة: «ادخل.»

أدارت إلزابث المقبض، ولم يكن الشخص الذي وقف أمامها منحنيًا على بعض أكياس عيّنات الحنطة فوق المنضدة تاجرَ الحنطة، بل كان الشاب الاسكُتلندي السَّيِّد فَارْفرَي، وقد انشغل بإفراغ بعض حبوب الحنطة من يدٍ إلى أخرى. كانت قبعته معلَّقة على مشجب خلفه، وكانت الورود المنقوشة على حقيبته تلمع في زاوية الغرفة.

بعد أن كانت قد هدأت ورتَّبت في شفتيها الكلمات التي ستقولها للسَّيِّد هِنْشَرْد، له وحده، أخذها الارتباك لحظةً.

«نعم، ما الأمر؟» قال الاسكُتلندي مثل رجل امتلك سلطةً دائمة هناك.

فقالت إنها تودُّ أن ترى السَّيِّد هِنْشَرْد.

«آه نعم، هلَّا انتظرت دقيقة؟ إنه مشغول الآن»، قال الشاب الذي بدا أنه لم يدرك بأنها الفتاة التي رآها في النُّزُل. ناولها مقعدًا وعرض عليها الجلوس، ثم التفت إلى أكياس العيِّنات مرَّةً أخرى. في الوقت الذي تجلس فيه إلزَابث جيْن منتظرةً وهي في دَهَش كبير من حضور الشاب، سنشرح بإيجاز كيف جاء إلى هنا.

عندما اختفى الرفيقان الجديدان عن الأنظار في ذلك الصباح في جهة طريق باث وبرِسْتُل، مضيا صامتيْن عدا ما تبادلاه من بضع ملاحظات عادية حتى بلغا جادَّة عند أسوار البلدة يُطلق عليها «ممشى تشوك» وتفضي إلى بقعة يلتقي عندها الجُرفان الشمالي والغربي. من هذه البقعة المرتفعة من التحصين التُّرابيِّ يمكن رؤية امتداد شاسع للبلدة. وكان ثمَّة ممشى شديد الانحدار يفضي إلى المُنحدر الأخضر، ثمَّ يمتدُّ من المتنزَّه المظلَّل بمحاذاة الجدران إلى طريق في أسفل المنحدر. وعلى هذا الممشى كان على الاسكُتلندي أن يهبط.

«حسنٌ، أرجو لك النجاح»، قال هِنْشَرْد وهو يمدُّ يمناه وقد اتكأ

يُسراه على البوابة الصغيرة التي تحمي الممشى الهابط. كان ذلك السلوك تعوزه أناقة شخص مكبوت المشاعر ومهزوم الأمانيّ. «سأفكِّر كثيرًا في هذه اللحظة، وكيف أتيت في اللحظة المناسبة لتُنير ظلمتي.»

كان ما زال ممسكًا بيد الشَّابِّ عندما توقَّف وأضاف بتروٍّ: «إنني لستُ بالرَّجل الذي يخسر قضيَّة ولا يقول شيئًا. وقبل أن ترحل إلى الأبد سأتكلَّم. مرَّة أخرى، هلا بقيت؟ هاك، بصراحة وببساطة. إنك ترى أنها ليست الأنانية ما يجعلني أُلحُّ عليك، لأن تجارتي ليست ذات جوانب علميَّة لتتطلَّب شخصًا متخصِّصًا من خارج العامة تمامًا. آخرون سيفعلون ذلك دون شكّ. ولعلَّ هناك بعض الأنانيَّة، ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك وليس عليَّ أن أكرِّر قولي. تعال وابقَ معي وضع شروطك الخاصة. سوف أوافق عليها عن طيب خاطر ودون اعتراض، هاك يا فَازْفرَي، فقد أحببتك كثيرًا!»

بقيت يد الشَّابِّ مستقرَّة في يد هِنْشَرْد بضع لحظات. أخذ يتطلَّع إلى البلدة الخصبة الممتدة تحتهما، ثم إلى الممشى المظلَّل المفضي إلى أعلى البلدة، وتورَّد وجهه.

«لم أتوقَّع هنا، لم أتوقَّعه،» قال. «إنها المشيئة الرَّبَّانيَّة! هل بإمكان المرء أن يعارضها؟ لا، لن أذهب إلى أمريكا، سأبقى وأكون مساعدك!»

استجابت يده التي كانت هامدة في يد هِنْشَرْد وشدَّت على قبضته.

«اتفقنا،» قال هِنْشَرْد.

«اتفقنا،» قال دونَلْد فَازْفرَي.

أشعَّ وجه هِنْشَرْد بابتسامة راضية بدت عنيفة تقريبًا في قوَّتها. «والآن أنت صديقي!» هتف. «لنعد إلى منزلي، ولنحسم الأمر فورًا بشروط واضحة لكي تستريح عقولنا.» التقط فَازْفرَي حقيبته وعاد من حيث أتى إلى الجادَّة الشمالية الغربية بصحبة هِنْشَرْد. وامتلأ هِنْشَرْد ثقة في تلك الساعة.

«أنا أكثر الأشخاص برودًا في العالم حينما لا أكترث لشخص ما،»

قال. «ولكن عندما يروق لي الشخص فإنه يؤثّر فيَّ تأثيرًا قويًّا. والآن أنا متيقّن أنه يمكنك أن تتناول إفطارًا آخر؟ لا يمكنك أن تأكل كثيرا في الصباح الباكر، حتى لو كان لديهم شيء يقدِّمونه لك في ذلك المكان، ولكنهم لم يقدِّموا شيئًا، لذا تعال إلى منزلي لِنلْتَهِم ما يمنحنا القوَّة ونضع الشروط كتابةً إن شئت، مع أنني أفي بالوعد. دائمًا ما تكون هناك وجبة طيِّبة لديَّ في الصباح، وهناك فطيرة حمَام لذيذة الآن. ولك أن تشرب جِعة منزليَّة إن شئت.»

«من الباكر جدًّا أن نتناول ذلك في الصباح،» قال فَارْفرَي مبتسمًا.

«حسنٌ، لا أعرف ذلك بالطبع لأني لا أشرب الجِعة بسبب القسم الذي أقسمت، ولكنَّني مُلزم بتخمير الخمر من أجل عمَّالي.»

وهكذا كان حديثهما في طريق العودة، ودخلا إلى منزل هِنْشَرْد من الطريق الخلفي أو مدخل العربات. بُتَّ الأمرُ على مائدة الإفطار، وقد ملأ هِنْشَرْد طبق الشَّابِّ الاسكُتلندي بسخاء. ولم يهدأ له بال حتى كتب فَارْفرَي رسالة يطلب فيها جلب حقيبته من برِسْتُل، وأودعها البريد. وعندما أُنجِز ذلك، أعلن هذا الرجل صاحب الاندفاعات القويَّة أن يتَّخذ صديقه الجديد بيته مسكنًا على الأقل إلى أن يجد له مسكنًا مناسبًا.

ثم أخذ فَارْفرَي في جولة وأراه المكان، وصوامع الحبوب، وغيرهما، حتى دخلا المكتب في نهاية المطاف حيث وجدت إلِزَابث أصغرَهما.

الفصل العاشر

بينما كانت جالسة تحت نظر الاسكُتلندي ظهر رجل عند الباب في الوقت الذي فتح فيه هِنْشَرْد باب المكتب الداخلي ليُدخِل إلِزَابث. خطا القادم الجديد إلى الأمام مثل أعرج بيت الرحمة[25] العَجول، ودخل بدلًا منها. كان بمقدورها سماع كلماته لهِنْشَرْد: «جوشوا جوب، المدير الجديد يا سيدي، جئت وفق موعد.»

«المدير الجديد! إنه في مكتبه،» قال هِنْشَرْد بفظاظة.

«في مكتبه!» قال الرجل بحنق.

«كان الموعد الخميس،» قال هِنْشَرْد، «ولأنك لم تأت في الموعد المحدَّد، فقد عيَّنت مديرًا آخر. وقد ظننته في البداية أنت. أتعتقد أنني سأنتظر والأمر يتعلَّق بتجارتي؟»

«لقد قلتَ الخميس أو السَّبت يا سيدي.» قال القادم الجديد وهو يُخرج رسالة.

«حسنٌ، لقد تأخَّرت كثيرًا،» قال تاجر الحنطة. «ولا يمكنني قول المزيد.»

«ولكنك ربطتني بموعد،» تمتم الرجل.

«بناءً على مقابلة أجريتُها،» قال هِنْشَرْد. «أنا آسف لأجلك، آسف جدًّا حقًّا ولا يمكنني فعل شيء.»

ولم يكن هناك المزيد ليُقال، فخرج الرجل وصادف إلِزَابث جيْن في طريقه. لاحظت ارتعاش فمه من الغضب، وكانت خيبة الأمل المريرة بادية

25) المريض الأعرج الذي شَفاه يسوع المسيح كما ورد في الإصحاح الثالث من الكتاب المُقدَّس.

على قَسَمات وجهه كلِّها.

والآن دخلت إلِزَابث جيْن ووقفت أمام سيِّد المكان. كانت مقلتاه السوداوان – اللتان دائمًا ما بدتا وكأنَّ ثمَّة بريقًا أحمر فيهما، مع أنه بالكاد يمكن أن يكون ذلك حقيقة جسدية – تدوران بلا مبالاة تحت حاجبيه الأسودين حتى استقرَّتا على هيئتها. «والآن، ما الأمر يا سيِّدتي الصغيرة؟» قال بلطف.

«هل بوسعي التَّحدُّث إليك في غير التجارة يا سيِّدي؟» قالت.

«نعم، أظنُّ ذلك،» ونظر إليها باهتمام.

«لقد أُرسِلت لأخبرك يا سيِّدي،» استطردت ببراءة، «بأنَّ قريبة لك من بعيد، تُدعى سُوْزَنْ نيُوسن، أرملة بحَّار، موجودة في البلدة، وأن أسألك إن كنت تودُّ أن تراها.»

ظهر على ملامحه المتلوِّنة بحمرة وسواد[26] تغيُّر طفيف. «أوه، سُوْزَنْ لا تزال على قيد الحياة؟» سأل ببعض الجهد.

«نعم يا سيِّدي.»

«هل أنتِ ابنتها؟»

«نعم يا سيدي، ابنتها الوحيدة.»

«ما اسمك، اسمك الأول؟»

«إلِزَابث جيْن يا سيدي.»

«نيوسن؟»

«إلِزَابث جيْن نيُوسن.»

أوحى ذلك فورًا لِهنْشَرْد بأنَّ الصفقة التي عقدها في حياته الزوجية الماضية في سوق وِيدون لم تُسجَّل في تاريخ العائلة. كان ذلك أكثر مما توقَّع. لقد عاملته زوجته بلطف مقابل معاملته القاسية، ولم تعلن خطأه لابنتها

26) في الأصل بالفرنسية: rouge et noir ، يرمز هذان اللونان في الأسطورة إلى الشيطان.

وللعالم.

«أنا مهتمٌّ كثيرًا بأخبارك،» قال. «ولأنَّ هذا الموضوع ليس متعلِّقًا بأعمالي وإنما بأمر مفرح، هيَّا بنا إلى الداخل.»

دعا إلِزَابث بطريقة دمثة أدهشتها إلى خارج المكتب، ثم إلى الغرفة الخارجية حيث كان دونَلْد فَازْفرَي يفحص الصناديق والعيِّنات مثلما يفعل مسؤول مبتدئ. تقدَّمها هِنْشَرْد إلى الباب المثبَّت في الجدار الذي انفتح فجأةً على مشهد الحديقة والأزهار، ومن ثمَّ إلى المنزل. كانت بقايا الإفطار السَّخيِّ المقدَّم إلى فَازْفرَي لا تزال على المائدة في صالة الطعام التي أدخلها إليها. كانت مؤثثة بترف بأثاث من خشب الماهوغني الثقيل ذي اللون الأحمر الغامق، ومناضد بمْبروك[27] ذات أجنحة متدلية إلى الأسفل تكاد تلامس الأرض، تقف بمحاذاة الجدار على قوائم وأرجل تشبه قوائم الفيل وأرجله، ورقدت على إحدى هذه المناضد ثلاثة مجلَّدات ضخمة من إنجيل العائلة، وكتاب «جوزِفَس»[28]، وكتاب «المهمة الكاملة للإنسان.» وعند زاوية المدفأة شبكة حديدية لها ظهر مجوف شبه دائري نُقشت عليه أوانٍ وأكاليل.

وكانت هناك مقاعد من ذلك النوع الذي ألقى في ذلك الحين بريقًا على اسمي شِبنديْل وشِراتون[29]، مع أن نقوشها في الواقع لم يرها هذان النَّجَّاران اللامعان أو يسمعا بها.

«تفضَّلي بالجلوس يا إلِزَابث جيْن، تفضَّلي.» قال وفي صوته رعشة وهو ينطق اسمها، وعندما جلس ترك يديه متدلِّيتيْن بين ركبتيْه وهو ينظر إلى السجاد. «أمُّك إذًا بخير؟»

«إنها منهكة بعض الشيء يا سيدي، من السَّفر.»

27) Pembroke tables موائد صغيرة رباعية الأقدام ذات دُرْج واحد وجناحين اثنين. المورد الأكبر

28) تاريخ اليهود الذي كتبه فلافيَس جوزِفَس في القرن الأول الميلادي.

29) مصمِّما أثاث إنجليزيَّان شهيران.

«أرملة بحَّار، متى فارق الحياة؟»

«فُقِد أبي في الربيع الماضي.»

جفل هِنْشَرْد من تفوهها بكلمة «أبي». «هل أتيتما من خارج البلاد، من أمريكا أو أستراليا؟» سأل.

«كلا. إننا نقيم في إنكلترا منذ بضع سنين. كنت في الثانية عشرة عندما أتينا إلى هنا من كندا.»

«آه. تمامًا.» اكتشف من هذه المحادثة الظروف التي أحاطت بحياة زوجته وطفلتها بغموض تامٍّ إلى حدٍّ أنه اعتقد أنَّ الموت غيَّبهما منذ زمن بعيد. ولمَّا أصبحت هذه الأمور واضحة عاد إلى الحاضر.

«وأين تقيم أمُّك؟»

«في «البحَّارة الثلاثة».»

«وأنت ابنتها إلِزَابث جيْن؟» كرَّر هِنْشَرْد. نهض، اقترب منها، وألقى نظرة على وجهها. «أعتقد،» قال مُشيحًا بوجهه فجأة وعيناه رطبتان، «ستأخذين رسالة منِّي إلى أمِّك. أودُّ أن أراها... ألم يتركها زوجها الراحل في حال ميسورة؟» ووقعت نظراته على ملابس إلِزَابث، مع أنها كانت ملابس سوداء لائقة، وأفضل ما لديها، إلا أنها عتيقة الطراز من دون شكٍّ، حتى في عيون كاسْتربِرِدْج.

«ليست في حالة ميسورة.» قالت، وقد سرَّها أنه حزر ذلك دون أن تضطر إلى قوله بنفسها.

جلس إلى الطاولة وكتب بضعة أسطر، ثم أخذ من حافظته ورقة نقدية من فئة خمسة جنيهات ووضعها في الظرف مع الرسالة، وبعد تفكير أضاف إليها خمسة شلنات. ثم أغلق الظرف بحذر وكتب عليه «إلى السيدة نيوسن، نُزُل «البحَّارة الثلاثة»»، وناول إلِزَابث الرِّزمة.

«سلِّميها الرِّزمة بنفسك رجاء،» قال هِنْشَرْد. «أنا مسرورٌ برؤيتك يا

إلِزابث جيْن، مسرورٌ جدًّا. يجب أن نتحدَّث طويلًا، ولكن ليس الآن.»

أخذ يدها وهي تَهُمُّ بالمغادرة، وأمسكها بحرارة حتى إنها، هي التي لم تَخْبَرْ صداقة من قبل، تأثّرت كثيرا وهَمَلت عيناها الرَّماديَّتان اللامعتان. لحظةَ غادرتْ أصبحتِ الحال التي كان عليها هِنْشَرْد أكثر جلاءً، وعندما أغلق الباب جلس في صالة الطعام متصلِّبًا وأخذ يحدِّق إلى الحائط المقابل وكأنه يقرأ فيه تاريخ حياته.

«ربَّاه!» صاح فجأة قافزًا. «لم أفكِّر في ذلك. قد تكونان دجَّالتين وسُوْزَنْ وابنتها ميِّتتيْن على أيَّة حال!»

ولكنْ، شيء ما في إلِزابث جيْن سرعان ما طمأنه بأنَّه ليس ثمَّة من شكٍّ فيما يخصُّها هي على الأقل. وبعد ساعات قليلة ستبين هُويَّة أمِّها، لأنه ضرب موعدًا في ملحوظته ليراها في ذلك المساء.

«إنها لا تمطر أبدًا، ولكنها تهطل بغزارة!» قال هِنْشَرْد. بسبب هذا الحدث تعكَّر اهتمامه المتحمِّس بصديقه الاسكُتلندي الجديد، ولم يره دونَلْد فَارْفرَي إلا لمامًا فيما تبقَّى من ذلك اليوم، حتى إنه تعجَّب من مزاج صاحبه المفاجئ.

في الوقت نفسه وصلت إلِزَابث إلى النُّزُل. تأثَّرت أمُّها تأثّرًا شديدًا عندما رأت الورقة بدلًا من أن تأخذها بفضول امرأة فقيرة تتوقَّع المساعدة. لم تقرأها فورًا، وطلبت من إلِزَابث أن تصف لها استقباله لها وكلَّ كلمة قالها السَّيِّد هِنْشَرْد. كانت إلِزَابث مستديرةً إلى الخلف عندما فتحت أمُّها الرسالة. كانت الملحوظة تقول:

«قابليني في الثامنة هذا المساء، إن استطعتِ، في «الحلقة» على طريق بُدْموث. من السهل إيجاد المكان. لا أستطيع قول المزيد الآن. لقد ساءتني الأنباء. يبدو أن الفتاة لا تعرف شيئًا. لا تخبريها شيئًا حتى أراكِ.»

لم يقل شيئا عن الجنيهات المرفقة. كان المبلغ كبيرًا، لعلّه كان يقول

لها ضمنيًّا إنه قد استعادها. أخذت تترقَّب انقضاء النهار بقلق، وأخبرت إلِزَابث جيْن بأنَّ السَّيِّد هِنْشَرْد دعاها لزيارته، وأنها ستذهب وحدها. ولكنَّها لم تقل شيئًا يوضح أنَّ مكان اللِّقاء لن يكون في منزله، ولم تعط إلِزَابث الورقة.

الفصل الحادي عشر

كانت «الحلقة» في كاسْتربرِدْج مجرَّد اسمٍ محلِّيٍّ لأحد أجمل المسارح الرُّومانية المتبقِّية في بريطانيا، إنْ لمْ يكُن أجملها على الإطلاق.

كانت كاسْتربرِدْج تُفصِح عن روما القديمة في كلِّ شارع وممشى وضاحية. وقد بدت رومانيَّة، توحي بِفنِّ روما، وتُخبِّئ موتى روما. وقد كان من المحال الحفر حتى عمق يصل إلى أكثر من قدمٍ أو اثنتيْن في حقول البلدة وحدائقها دون العثور على رُفات جنديٍّ طويل القامة أو آخر من جنود الإمبراطوريَّة وقد هجع هناك في رقاده الصامت دون تطفُّل أحد منذ ألف وخمسمائة عام. وكان في الأغلب يُعثَر على هذا الجنديِّ مُمدَّدًا على جانبه على الحجر الكِلْسي في شكل مغرفة بيضيَّة مثل جنين دجاجة في بيضة، ركبتاه مرفوعتان إلى صدره، أحيانًا مع بقايا حرْبته على ذراعه، وإبزيم أو مشبك من البرونز على صدره أو جبهته، وجرَّة قرب ركبتيه، وإناء قرب حنجرته، وقِنِّينة قرب فمه، ونظرات مربكة تنسكب عليه من عيون صبية طرقات كاسْتربرِدْج ورجالها الذين يلتفتون لحظةً في أثناء عبورهم للتحديق إلى المنظر المألوف.

إنَّ أصحاب الخيال من قاطني البلدة الذين قد يساورهم شعور بالامتعاض إذا ما اكتشفوا هيكلًا حديث العهد نسبيًّا في حدائقهم، لم يكونوا ليتأثَّروا مطلقًا بهذه الأشكال العتيقة، فقد عاش أصحابها في عهد بعيد، وزمنهم يختلف كل الاختلاف عن الزمن الحاضر، وآمالهم ودوافعهم بعيدة جدًّا عن آمالنا ودوافعنا، وبينهم وبين الأحياء يمتد خليج شاسع لا يمكن حتى لروحٍ أن تعبرَه.

كان المسرح سياجًا دائريًّا ضخمًا، وكان ثمَّة صدْع في كل طرف من

طرفي قُطْره شمالًا وجنوبًا. وبالنظر إلى شكله المنحدر من الداخل يمكن تشبيهه بمِبْصَقة[30] الجوتون[31]. لقد كانت «الحلقة» لكاستربردج مثلما كان المسرح الكبير المتهدّم لروما الحديثة، إذ كانت تقريبًا بالأهميَّة ذاتها. وقد كان الغسق أنسب وقت لتلقّي تصوُّر حقيقي عن هذا المكان المُوحي، فعندما يقف المرء في وسط المسرح في ذلك الوقت تتضح له شيئًا فشيئًا ضخامة المكان الحقيقية، وهو الأمر الذي تخطئه النظرة العجلى من قمته في النهار. كانت هذه الحلقة التاريخية الكئيبة المَهيبة المنعزلة على سهولة الوصول إليها من أي ناحية في البلدة بقعةً مألوفة للقاءات ذات الطابع السِّرّيّ، فقد كانت المكائد تُحاك هناك، وهناك تُعقد الاجتماعات المؤقتة بعد الانقسامات والنزاعات. بيْد أنَّ ضربًا واحدًا من تلك اللقاءات – وهو الأكثر شيوعًا بينها – نادرًا ما كان يجد له مكانًا في المسرح؛ وهو لقاء العشّاق السُّعداء.

ومع أنَّ هذا المكان كان هواؤه منعشًا والوصول إليه يسيرًا فضلًا عن عزلته التي تجعله ملائمًا للقاءات الغرامية، لم يكن أكثر هذه اللقاءات بهجة يستلطف قطَّ تربةَ هذا المكان الخراب، وهو ما يجعله أمرًا مثيرًا للاستغراب. ربَّما لأنَّ هذا المكان يرتبط في نظر أصحاب هذه اللقاءات بأحداث تنذر بالشَّرّ، وقد أثبت تاريخه ذلك. وبعيدًا عن الطبيعة الدَّمويَّة للألعاب التي كانت تُلعَب هنا، فقد ارتبطت بهذا المكان في الماضي أحداث كهذه: عشرات من السنين انتصبت مشنقة البلدة في إحدى زوايا المسرح، وفي عام 1705 قتلت امرأة زوجها فشُنِقت حتى كادت تلفظ أنفاسها ثم أُحرِقت هناك على مرأى عشرة آلاف متفرّج. وتذكر المرويَّات أنَّ قلبها في حينٍ ما في أثناء الحرق انفجر وقفز من بين ضلوعها أمام رعب الجميع، وأنَّه منذ ذلك الحين لم يجرؤ أحد من أولئك العشرة آلاف على الإقدام على أكل اللحم المشوي الساخن على وجه الخصوص. إضافةً إلى هذه الأحداث التَّراجيديَّة القديمة، كانت ألعاب

30) وعاء يُبصَق فيه كان يُستخدم في القرن التاسع عشر خصوصًا عند مضغ التبغ.

31) Jotuns: الجوتون: أحد أفراد جيل من العمالقة أو الجبابرة في الميثولوجيا الإسكندنافيَّة. المورد الأكبر

الملاكمة حتى الموت تجري في تلك الحلبة المعزولة حتى وقت قريب، وكانت غير مرئيَّة تمامًا من العالم الخارجي إلا بالصعود إلى أعلى السياج، وفي حياة أهل البلدة اليومية لم يكن يتكبَّد عناء الصعود سوى عدد قليل منهم. ولذلك كان يمكن أن تُرتَكب الجرائم فيه في وَضَح النهار دون أن يراها أحد على قرب المكان من الطريق العام.

وقد حاول بعض الصبية في عهد قريب بعث بعض المرح في أنقاض المكان باستخدام حلبته الوسطى ملعبًا للكرِكت. ولكن سرعان ما كان اللعب يتراجع عادة للسبب المذكور آنفًا، أي العزلة الكئيبة التي فرضتها تلك الدائرة الأرضية، حاجبةً أنظار كل عابر ممتدِح، وكل إطراء من الغرباء في الخارج، وكل شيء ما عدا السماء، ولذا كان اللعب في ظروف كهذه مثل التمثيل في مسرح خالٍ من النَّظَّارة. وربَّما أيضًا لأنَّ الصبية كانوا يخافون، ذلك أنَّ بعض المسنين ذكروا أنَّه في لحظات معينة في الصيف في رابعة النهار كان بعض الأشخاص الذين يجلسون لقراءة كتاب أو لأخذ غفوة في حلبة المسرح، يرون عندما يرفعون أبصارهم فيلقًا من جنود «هادْريان»[32] مصطفًّا على المدرجات وكأنه يتفرَّج على مصارعة، ويسمعون أصواتهم المتحمسة الصاخبة، ولم يكن المشهد يلبث لحظة إلا ويختفي مثل وميض برق.

وكان يُروى أنَّه ما زالت باقيةً تحت المدخل الجنوبي حجيراتٌ مقوسة كانت تُستخدم لاستقبال الحيوانات البرِّيَّة والرياضيين المشاركين في الألعاب. كانت أرض الحلبة لا تزال ناعمة ودائرية وكأنه لم يمضِ زمنٌ بعيدٌ جدًّا منذ استخدامها لأغراضها الأصلية. وكانت المسارات المنحدرة التي ينزل منها المتفرِّجون إلى مقاعدهم ما زالت تُستخدم مسارات. بيْد أنَّ العشب نَمَا عليها وقد استحال الساعةَ في أواخر الصيف مرجًا ذابلًا يتموَّج مع هبوب الريح، فيُعيد إلى الآذان المصغية أنغامًا عُولُسيَّة[33]، ويحتفظ لحظات بكتل زَغَب الشوك الطائرة.

---

32) هادريان (76–138 م): إمبراطور روماني وحَّد الإمبراطورية الرُّومانية ووطَّد أركانها.

33) منسوب إلى عُولُس، إله الرياح في الميثولوجيا اليونانيّة. قيثارة عولس أو قيثارة الريح آلة موسيقية عريقة تطلق

اختار هِنْشَرْد هذه البقعة لأنها أكثر المناطق أمانًا وبعدًا عن العيون التي فكَّر فيها للقاء زوجته المفقودة منذ زمن بعيد، وفي الوقت ذاته، لأنه مكان من السهل لغريب أن يهتدي إليه بعد حلول الظلام. وبصفته عمدة البلدة الذي يتمتع بسمعة ينبغي الحفاظ عليها لم يتمكَّن من دعوتها إلى منزله إلى أن يضع خطة محدَّدة.

قبل الثامنة بقليل اقترب من التحصينات الرملية المهجورة ودخل من الطريق الجنوبي الذي كان ينحدر فوق حطام الحجيرات القديمة. واستطاع في غضون لحظات أن يتبيَّن هيئة امرأة تلج عبر الفجوة الشمالية الضخمة أو المدخل العام. تقابلا في منتصف الحلبة. لم يتحدث أيٌّ منهما لأول وهلة، فلم يكن ثمَّة داع للحديث، ومالت المرأة المسكينة ناحية هِنْشَرْد الذي أسندها بذراعيه.

«لا أعاقر الخمر،» قال بصوت منخفض متلعثم يفيض اعتذارًا. «أتسمعين يا سُوْزَنْ؟ لا أعاقر الخمر، لم أفعل منذ تلك الليلة.» كانت تلك كلماته الأولى.

شعر بها تومئ برأسها إقرارًا بأنها فهمت ما قاله. بعد دقيقة أو اثنتين بدأ مجدَّدًا: «لو أنني كنت أعلم أنك على قيد الحياة يا سُوْزَنْ! ولكن كان كلُّ شيء يدعو إلى الاعتقاد بأنك والطفلة ميتتان. لقد اتخذت كل خطة ممكنة للعثور عليكما، سواءً بالسفر أم بالإعلان. واستقرَّ بي الرأي في النهاية على أنكما قد سافرتما إلى إحدى المستعمرات مع ذلك الرجل وغرقتما في أثناء الرحلة. لماذا صَمَتِّ هكذا؟»

«أوَّاه يا مايكل! بسببه هو، أي سبب غير هذا كان يمكن أن يكون؟ لقد اعتقدت أنني مدينة بالإخلاص له حتى نهاية حياة أحدنا، لقد صدَّقت بحماقة أنَّ هناك شيئًا مَهيبًا ومُلزِمًا في الصفقة. اعتقدت أنه ليس من الشرف

ضروبًا من النَّغم حالما تهبُّ الريح عليها.

أن أُقدم على هجره وقد دفع الكثير من أجلي بحس نيَّة. وإنّني ما لقيتك الآن إلا بصفتي أرملته، هكذا أعدُّ نفسي، ولا أطالبك بشيء. ولو لم يمت ما كنت لأعود مُطلقًا! كُن على ثقة من ذلك.»

«كيف يمكن أن تكوني ساذجة إلى هذا الحدّ؟»

«لا أدري. ولكنه سيبدو أمرًا خبيثًا لو لم أفكِّر هكذا!» قالت سُوْزَنْ وهي على وشك البكاء.

«بلى بلى هكذا هو الأمر. هذا فقط ما يجعلني أشعر أنك امرأة بريئة، ولكن كيف دفعتِني إلى هذا كلِّه؟»

«ماذا يا مايكل؟» سألت مُرتاعةً.

«أقصد صعوبة أن نعود للعيش معًا والزابث جيْن أيضًا. لا يمكن إخبارها بكلِّ شيء، ستبغضنا معًا، ولا أطيق ذلك!»

«لهذا نشأت وهي لا تعلم بأمرك. لم أكن لأطيق ذلك أيضًا.»

«إذن، يجب أن نتحدَّث عن خطة تُبقيها على اعتقادها الحالي، وأن نصلح الأمر بالرَّغم من ذلك. ألعلَّك سمعتِ بأنَّني صاحب تجارة كبيرة هنا وبأنني عمدة البلدة ووكيل الكنيسة ولا أعرف ماذا أيضًا؟»

همهمت: «بلى.»

«إنَّ هذه الأشياء وكذلك الخوف من اكتشاف الفتاة ما اقترفناه من عار تحتم علينا التَّصرُّف بحرص شديد. ولا أعرف كيف يمكنكما العودة علنًا إلى منزلي زوجةً وابنةً أسأت إليهما يومًا وأقصيتهما عنِّي، وتلك هي المعضلة.»

«سنرحل من فوْرِنا. ما أتيت إلا لأرى...»

«لا، لا يا سُوْزَنْ، لن ترحلا، لقد أسأتِ فهمي!» قال بصرامة مشوبةٍ باللُّطف. «لقد فكَّرت في هذه الخطة: أن تتَّخذي والزابث منزلًا لكما في البلدة بصفتكما الأرملة السيدة نيوسن وابنتها، وأن ألتقيكِ وأتودَّد إليك وأتزوَّجكِ، وتعيش إلزابث جيْن في منزلي بصفتها ربيبتي. الأمر طبيعيٌّ وسهل للغاية إلى حدٍّ

أنَّ نصفه يتحقَّق لمجرَّد التفكير فيه. ذلك سيُبقي حياتي المُريبة العنيدة المُخزية في شبابي سرِّيَّةً تمامًا، وسيبقى السِّرُّ بيني وبينك فقط، وسأحظى بالسعادة عندما أرى ابنتي الوحيدة معي تحت سقف بيتي، وكذلك زوجتي.»

«أنا بين يديك تمامًا يا مايكل.» قالت بخنوع، «ما جئت إلى هنا إلا لأجل إلزابث، وأمَّا أنا، فإن أمرتني أن أغادر صباح الغد ولا أقترب منك مُطلقًا فسأكون راضيةً بالرحيل.»

«كفى، كفى، لا نريد سماع ذلك.» قال هِنْشَرْد بلطف. «بالطبع لن ترحلي مرَّةً أخرى. فكِّري بضع ساعات في الخطة التي اقترحتها، وإن لم تتمكَّني من التوصُّل إلى أفضل منها فسنأخذ بها. لسوء الحظ، عليَّ أن أسافر خارج البلدة يومًا أو يومين لإنجاز عمل، ولكن يمكنك في هذه الأثناء إيجاد سكن، وأفضل سكن يلائمك تجدينه قرب متجر الأواني الصينية في شارع «هاي»، ويمكنك أيضًا البحث عن منزل.»

«إذا كان المسكن في شارع «هاي» فأظن أنه سيكون باهظ الثمن؟»

«لا عليكِ. يجب أن تبدئي بداية لائقة إن كنَّا سننفِّذ خطتنا. اعتمدي عليّ في المال. هل لديك ما يكفي إلى أن أعود؟»

«كافٍ جدًّا» قالت.

«وهل أنتما مُرتاحتان في النُّزُل؟»

«بلى.»

«وهل الفتاة في مأمن تمامًا من معرفة العار الذي لحق بها وبنا؟ هذا ما يقلقني أكثر من أي شيء آخر.»

«ستُدَهش إن عرفتَ كم يبدو أمرًا بعيد الاحتمال أن تحلم إلزابث بالحقيقة. أنَّى لها أن تفكِّر في أمر كهذا؟»

«حقًّا!»

«تروقني فكرة أن نعيد زواجنا» قالت السيدة هِنْشَرْد بعد صمت.

«وتبدو السبيل الصحيح الوحيد على أيَّة حال. والآن يجب أن أعود إلى إلزابث جيْن وأخبرها بأنَّ نسيبنا السَّيِّد هِنْشَرْد يدعونا بصدر رحب إلى أن نقيم في البلدة.»

«عظيم جدًّا. سوِّي هذا الأمر بنفسك. سأرافقك في الطريق قليلا.»

«لا، لا. لا تجازف!» قالت زوجته بقلق. «سوف أجد طريق العودة، ما زال الوقت باكرًا. أرجو أن تدعني أمضي وحدي.»

«حسنٌ. ولكن دعيني أقول شيئًا واحدًا فقط. هلا غفرتِ لي يا سُوْزَنْ؟» قال هِنْشَرْد.

همهمت وبدا أنها وجدت صعوبة في صياغة إجابتها.

«لا عليك، كل شيء في الوقت المناسب،» قال. «احكمي عليَّ من أفعالي في المستقبل، وداعًا!»

تراجع ووقف عند الجانب العلوي من المسرح، في حين عبرت زوجته الطريق السفلي وهبطت سائرةً تحت الأشجار صوب البلدة. ثمَّ مضى هِنْشَرْد نفسه إلى جهة منزله، مسرع الخطى، حتى كان في الوقت الذي وصل فيه إلى باب المنزل على مسافة قريبة من المرأة الغافلة التي انفصل عنها توًّا. أخذ يرقبها وهي تصعد الطريق ثم استدار داخلا منزله.

الفصل الثاني عشر

عند دخوله منزله بعد أن اختفت زوجته عن الأنظار سار العمدة في المعبر الشبيه بالنفق باتجاه الحديقة، ومنها إلى الباب الخلفي المفضي إلى المستودعات وصوامع الحبوب. لمع ضوء من نافذة المكتب، ولمَّا لم تكن هناك ستارة تحجب ما بالداخل فقد تمكَّن هِنْشَرْد من رؤية دونلد فَارْفرَي الذي كان ما زال جالسًا في مكانه مثلما تركه، وهو يطّلع على العمل الإداري مُنقِّبًا في الدفاتر التجارية. دخل هِنْشَرْد وعلَّق ببساطة: «لن أقاطعك إن كنت ستبقى إلى وقت متأخر.»

وقف خلف مقعد فَارْفرَي يرقب براعته في توضيح الأرقام الغامضة التي اكتظت بها دفاتر هِنْشَرْد إلى حدٍّ أنها أربكت حتى فطنة الاسكُتلندي نفسه. ظهر على سيماء تاجر الحنطة بعض الإعجاب، ولكنه كان إعجابًا مشوبًا ببعض الشفقة إزاء ذائقة أي شخص يحمِّل عقلَه عناء الاهتمام بتفاصيل ثانويَّة كهذه. كان هِنْشَرْد نفسه غير قادر ذهنيًّا وبدنيًّا على التنقيب عن التفاصيل في الورق الملطّخ، فقد تلقَّى التعليم نفسه الذي تلقّاه أخيل بالمعنى الحديث للكلمة[34]، ووجد فن الخط فنًّا معذِّبًا.

«كفاك عملا الليلة،» قال أخيرًا وهو يضع يده الكبيرة فوق الورق. «هناك وقت كاف في الغد. تعال إلى الداخل معي وتناول بعض العشاء. ستفعل الآن! أنا مصرٌّ على ذلك.» أغلق دفاتر الحساب بقوة، ولكنها لا تخلو من اللطف.

---

34) تلقّى أخيل، بطل الأسطورة الإغريقية، تعليمه في الطب وفنون القتال والموسيقى والشعر، ولكنه لم يتعلّم الكتابة التي كانت مهارة نادرة جدًّا في ذلك العهد.

كان دونلد يودُّ الذهاب إلى مسكنه، ولكنه رأى أنَّ صديقه وربَّ عمله رجلٌ لا يعرف الاعتدال في مطالبه واندفاعه، فاستسلم لطلبه بكياسة. لقد أحبَّ لطفَ هِنْشَرْد، حتى إن ضايقه ذلك، فهذا الاختلاف الكبير بين شخصيتيهما يزيد المحبة.

أغلقا المكتب، فتبع الشَّابُّ شريكه عبر الباب الخاص الصغير المفضي مباشرة إلى حديقة هِنْشَرْد، وقد أتاح الانتقالَ من المنفعة إلى الجمال في خطوة واحدة. كانت الحديقة صامتة ونديَّة ومضمَّخةً بالعطر، وكانت تمتد امتدادًا طويلًا خلف المنزل، وتبدأ بالمَرْجِ وأحواض الزهور، ثم تأتي حديقة الفاكهة التي نمت فيها العُرُوش الطويلة المعقودة والقديمة قِدَم البيت نفسه، نمت قويَّة ومتينة وكثيرة العُقد إلى حدٍّ أنها نزعت أوتادها من الأرض ووقفت مشوَّهة ومتلوِّية من ألم رتيب مثل تمثال لاوكون[35]. ولم يكن من الممكن التمييز بين الزهور الزَّكيَّة الرائحة، وعبر الرجلان بينها إلى داخل المنزل.

تكرَّر كرم الضيافة الذي كان في الصباح، وعندما فرغا قال هِنْشَرْد: «اسحب مقعدك قريبًا من المدفأة يا رفيقي العزيز ولنوقد النار، فلا شيء أبغض إليَّ من موقد أسود، حتى في سبتمبر.» أشعل النار فانتشر وهج مبهج حولهما.

«من الغريب،» قال هِنْشَرْد، «أن يلتقي رجلان مثلنا لأسباب بحتة تتعلَّق بالتجارة، ثم يحدث في نهاية اليوم الأوَّل أن أرغب بالتحدّث إليك في شأن عائلي. ولكن، سحقًا! أنا رجل وحيد يا فَارْفرَي، ما مِن أحد أتحدَّث إليه فلِمَ لا أُخبرك؟»

«سأُسَرُّ بالإصغاء إليك إن كان باستطاعتي إسداء أي خدمة إليك.» قال دونلد وعيناه تنظران النقوش الخشبية الدقيقة في أعلى المدفأة، والتي تمثِّل قيثارات متوَّجة ودروعًا وسهامًا على جانبي جمجمة ثور معلَّقة، وبجانبها

35) تمثال الكاهن الطروادي لاوكون وابنيه وهم يصارعون أفاعي بحريَّة، حيث يبدون هم والأفاعي في صراعهم كأوراق الشجر الملتفة.

رأسا أبولّلو ودَيَانا[36] بنقش نافر.

«لم يكن حالي في الماضي كحالي اليوم،» أردف هِنْشَرْد بصوت عميق ثابت لا يهتزُّ أبدًا. لقد كان جليًّا أنه كان تحت ذلك التأثير الغريب الذي يدفع المرء أحيانًا إلى الوثوق بصديق لا يزال حديث العهد به وائتمانه على أسرار لا يخبر بها صديقًا قديمًا.

«لقد بدأت حياتي تبّانًا وعندما بلغت الثامنة عشرة تزوجت استجابة لنداء القوة. هل خطر ببالك أني متزوج؟»

«سمعت في البلدة أنك أرمل.»

«أجل، هذا ما ستسمعه بطبيعة الحال. لقد فقدت زوجتي منذ ثمانية عشر عامًا، وكان ذلك خطئي... سأقصُّ عليك كيف حدث ذلك. ذات مساء صيفي سافرت بحثًا عن عمل وكانت تسير إلى جانبي حاملةً الطفلة، طفلتنا الوحيدة. دخلنا إلى خيمة في سوق إحدى القرى، وكنت أعاقر الخمر حينها.»

توقف هِنْشَرْد لحظةً، تراجع إلى الخلف وأراح ذراعيه على المائدة، وحجب جبهته بكفّه، ولكن ذلك لم يُخفِ علامات الصلابة في ملامحه وهو يسرد التفاصيل الكاملة لوقائع تلك الصفقة مع البحّار. اختفت مسحة اللامبالاة التي ظهرت في البداية على ملامح الاسكُتلندي.

تابع هِنْشَرْد حديثه وهو يصف محاولاته للعثور على زوجته، والقسم الذي أدّاه، وحياة العزلة التي عاشها في السنوات اللاحقة.

«لقد وفيت بقسمي تسعة عشر عامًا،» تابع قائلًا، «وقد وصلت إلى ما تراني عليه الآن.»

«آه!»

«وإذًا، لم أسمع عن زوجتي طوال تلك المدة، ولأنني بطبيعتي كارهٌ

36) أبولّلو إله الجمال والشعر والموسيقى والنبوءة، وأخته التوأم ديانا آلهة العذرية والخصوبة وحامية الحيوانات البرّيّة.

للنساء لم أجد مشقَّة في الابتعاد عمومًا عن الجنس الآخر. أقول إنني لم أسمع عنها حتى هذا اليوم. وها قد عادت الآن.»

«عادت!»

«هذا الصباح، هذا الصباح تحديدًا، وما الذي يمكنني فعله؟»

«ألا يمكنك أن تأخذها وتعيش معها وتعوِّضها؟»

«هذا ما خطَّطت له واقترحته عليها. ولكن يا فَازْفرَي،» قال هِنْشَرْد بكآبة: «إنَّني إذ أُنصف سُوْزَنْ أظلم امرأة أخرى بريئة.»

«كيف ذلك؟»

«من طبيعة الأمور يا فَازْفرَي أنه يكاد يكون مستحيلًا لرجل مثلي أن يحالفه الحظ في سعيه في حياة تمتد عشرين عامًا دون أن يرتكب أكثر من خطأ فادح. اعتدت سنوات عديدة أن أتوقَّف في جيرسي في طريقي للتجارة، ولاسيَّما خلال موسم زراعة البطاطا والجذور، إذ لي تجارة كبيرة في هذا المجال. وإذًا، عندما توقَّفت هناك ذات خريف مرضت مرضًا شديدًا، وغرقت في أثناء ذلك في واحدة من نوبات الكآبة تلك التي أعانيها بين الفينة والأخرى بسبب العزلة التي كنت أحياها، فيبدو العالم كلُّه جحيمًا، وألعن اليوم الذي وُلدتُ فيه كما فعل أيُّوب.»

«آه ما خَبَرْتُ ذلك قط.» قال فَازْفرَي.

«إذًا ادعُ الرَّبَّ ألا يحدث ذلك أبدًا أيُّها الشاب. عندما كنت في تلك الحال، أشفقت عليَّ امرأة، شابَّة عليَّ أن أقول، كانت من عائلة طيبة، حسنة التربية ومثقفة. كانت ابنة عسكري طائش وقع في ضائقة وصودرت أمواله. كان قد فارق الحياة وكذلك أمُّها، فبقيت وحيدة مثلي. كانت هذه المخلوقة الشابة تقيم في النُّزُل ذاته الذي كنت أقيم فيه، وعندما وقعتُ فريسة المرض أخذت تعتني بي. ومن هناك أُعجبت بي إعجابًا أحمق. الرَّبُّ وحده يعلم لماذا، فلم أكُن أستحقُّ ذلك. ولكن، لمَّا كنَّا في النُّزُل نفسه وكانت مشاعرها دافئة

فقد نمت بيننا علاقة وثيقة بطبيعة الحال. ولن أخوض في تفاصيل العلاقة، وسأكتفي بالقول بأننا عزمنا بإخلاص على الزواج. وعندئذ افتُضِح أمرنا، ولم يسبِّب لي ذلك أي ضرر، ولكنه مؤكد أضرَّ بها. ومع أنني يا فَارْفرَي، وذلك بيني وبينك كرجل لرجل، أقسم بأغلظ الأيمان بأنَّ التَّودُّد إلى الجنس اللطيف لم يكن من فضائلي ولا من رذائلي. لقد كانت لامبالية تمامًا بالمظاهر، ولعلّي كنت كذلك أكثر منها بسبب وضعي الكئيب، وبسبب ذلك سرت الفضيحة. وعندما تعافيت أخيرًا عدت. لقد عانت بسبي كثيرًا عندما رحلت ولم تنس أن تخبرني بذلك في رسالة تلو أخرى، حتى شعرت أخيرًا بأنني مدين لها، ولأنني لم أعرف شيئًا عن سُوْزَنْ منذ زمن بعيد اعتقدتُ أنه يمكنني ردُّ الاعتبار لها بما أستطيع وأطلب منها الزواج إن كان بمقدورها المجازفة في حال كانت سُوْزَنْ على قيد الحياة (وكان ذلك غير أكيد كما كنت أعتقد). وَثَبتْ فرحًا وكنَّا على وشك الزواج قريبًا من دون شكٍّ، ولكن، انظر، ظهرت سُوْزَنْ!»

أبدى دونلد قلقه الشديد إزاء مسألة معقَّدة تعدَّت تجاربه البسيطة.

«أترى أيُّ ضرر يسبِّبه المرء من حوله! حتى بعد ذلك الإثم الذي اقترفتُه في السوق عندما كنتُ شابًا، لو لم أكن أنانيًا جدًّا لأجعل هذه الفتاة الطائشة تُوطِّن نفسَها لي في جيرسي ولو لم أُلطِّخ اسمها لكان كل شيء على ما يرام. ومع ذلك، وكما هو الأمر الآن، سأسبِّب خيبة أمل مريرة لإحدى هاتين المرأتين، وستكون الثانية. واجبي الأول نحو سُوْزَنْ، لا شك في ذلك.»

«كلتاهما في وضع محزن، وهذا صحيح!» تمتم دونلد.

«بلى إنهما كذلك! أمَّا بخصوص وضعي فلا أبالي، كل هذا سينتهي يومًا ما، ولكنْ، هاتان المرأتان.» توقَّف هِنْشَرْد مستغرقًا في التفكير: «أشعر أنني لا أودُّ أن أعامل الثانية أقلَّ من الأولى كما يفعل رجل نبيل في موقف كهذا.»

«آه، حسنٌ، يبدو أمرًا محيِّرًا!» قال الآخر بحكمة وأسى. «يجب أن

تكتب إلى المرأة الشَّابَّة وأن تذكر في رسالتك بوضوح وصدق أنها لا يمكن أن تصبح زوجتك لأن الأولى قد عادت وأنك لا تستطيع رؤيتها مرة أخرى وأنك تتمنى لها الخير.»

«لن يجدي ذلك، يجب أن أفعل أكثر من ذلك! مع أنها طالما تبجَّحت بعمِّها أو عمَّتها الثَّرِيَّة، وتوقُّعها منهما، يجب أن أرسل إليها حفنة معتبرة من المال، تعويضًا ضئيلًا وحسب، ياللفتاة المسكينة!... والآن، هلَّا ساعدتني في ذلك وكتبت شرحًا لها لكل ما أخبرتك به مفصَّلًا بلطف قدر استطاعتك؟ أنا سيئ جدًّا في كتابة الرسائل.»

«بلى سأفعل.»

«ولكنني لم أخبرك بكل شيء بعد. إنَّ مع زوجتي سُوْزَنْ ابنتي، الطفلة التي كانت بين ذراعيها في السوق، ولا تعرف الفتاة شيئًا عني أكثر من أنني قريب لهما بطريقة أو بأخرى بالزواج. لقد ترعرعت وهي تظن أنَّ ذلك البحَّار الذي سلَّمتُه أمَّها والذي فارق الحياة هو أبوها وزوج أمِّها. ما رأته أمُّها دومًا ويراه كلانا الآن أننا لا نستطيع كشف عارنا للفتاة وإخبارها بالحقيقة. ما الذي كنتَ ستفعله لو كنت مكاني؟ أريد نصيحتك.»

«أظن أنني سأجازف وأخبرها بالحقيقة. ستغفر لكما.»

«أبدًا!» قال هِنْشَرْد. «لن أخبرها بالحقيقة. أمُّها وأنا سنتزوج ثانيةً، ولن يساعدنا ذلك على حفظ ماء وجه ابنتنا وحسب، بل سيكون الأنسب أيضًا. إنَّ سُوْزَنْ تَعُدُّ نفسها أرملة البحَّار ولن ترضى العيش معي كما في السابق دون إقامة مراسم دينية مرة أخرى، وهي محقَّة في ذلك.»

عند هذا الحدِّ لم يقل فَارْفرَي المزيد. صاغ الرسالة إلى المرأة الشابة في جيرسي بحذر وانتهت المقابلة، وحين همَّ الاسكُتلندي بالمغادرة قال هِنْشَرْد: «إنه لفرح كبير يا فَارْفرَي أن أخبر صديقًا بهذا! إنك ترى الآن أنَّ عمدة كاستربرِدْج لا ينعم بعقل مرتاح كما هو حال جيبه.»

«بلى، وإنني آسف جدًّا لأجلك!» قال فَازْفري.

وعندما غادر نسخ هِنْشَرْد الرسالة، وضمَّ إليها شيكًا مصرفيًّا وحمله إلى مكتب البريد ثم عاد يمشي وهو غارق في التفكير.

«هل يمكن أن يمضي الأمر بيُسر!» قال. «ياللمسكينة! يعلم الرَّبّ! والآن فلأُصلح الأمر مع سُوْزَنْ!»

الفصل الثالث عشر

كان البيت الذي اكتراه مايكل هِنْشَرْد لزوجته سُوْزَنْ باسم نيوسن عملًا بخطتهما، يقع في الجزء العلوي أو الغربي من البلدة، قريبًا من السور الرُّوماني والجادَّة التي كانت تلقي بظلالها على السور. وكانت شمس المساء أشدَّ اصفرارًا هناك من أي مكان آخر في هذا الخريف، وقد نشرت أشعتها مع تقدُّم الساعات تحت أغصان شجر الجُمَّيْز المنخفضة، وغمرت أرضية الدار ذات النوافذ الخضراء بسطوعها من بين أوراق الشجر في الأجزاء العلوية. ومن صالة المعيشة يمكن أن يرى الناظر تحت أشجار الجُمَّيْز هذه عبر أسوار البلدة المتاريس والحصون الرملية في النُّجود البعيدة، التي جعلت من المكان بقعةً جذَّابة تشوبها تلك المسحة المعتادة من الكآبة التي تمنحها الآثار القديمة.

حالما استقرَّت الأمُّ والابنة بارتياح ومعهما خادمة ذات مئزر أبيض، ذهب هِنْشَرْد لزيارتهما وجلس إلى وقت الشاي. وفي أثناء الزيارة كانت إِلِزَابث مخدوعةً بالنبرة العامة التي سادت النقاش، وهو أمر أسبغ بعض الظرافة في نظر هِنْشَرْد، غير أنَّ زوجته لم يسرَّها ذلك على الإطلاق. حدثت الزيارة مرارًا وتكرارًا بتصميم عمليٍّ من العمدة الذي بدا أنه طوَّع لنفسه اتخاذَ مسارٍ آليٍّ صارم إزاء هذه المرأة صاحبة الحق الأسبق، مهما كلَّفه ذلك من تضحية بالأخرى وبعواطفه.

ذات نهار لم تكن الابنة في المنزل عندما جاء هِنْشَرْد، وقال بصوت جافٍّ: «هذه سانحة جيدة جدًّا لكي أطلب إليك أن تحدِّدي اليوم السعيد يا سُوْزَنْ.»

ابتسمت المرأة المسكينة بوهن، ولم تستَسِغ المُزاح في موقف وضعت

فيه نفسها فقط من أجل سمعة ابنتها. وفي الواقع لم تكن تحب الدُّعابات كثيرًا، حتى إنَّ المرء ليعجب لِمَ أيَّدت هذه الحيلة أساسًا، ولم تواتِها الشجاعة لإخبار الفتاة بماضيها. بيْد أنَّ الجسد واهن والتفسير الصحيح أتى في الوقت المناسب.

«أوه يا مايكل،» قالت، «أخشى أن هذا يستنفد وقتك ويسبِّب لك الإزعاج وأنا ما توقَّعت شيئا كهذا!» ونظرت إليه وإلى ملبسه كرجل يرفُل في بحبوحة من العيش، ونظرت إلى الأثاث الذي زوَّد به الغرفة وكان مزخرفًا ومترفًا في عينيها.

«كلا، إطلاقًا،» قال هِنْشَرْد بلطف لا يخلو من جفاف. «إنَّه كوخ وحسب، لم يكلِّفني شيئًا. أمَّا بشأن استنفاد وقتي،» وهنا أضاءت سحنته التي خالطتها الحمرة والسواد بالرضا، «فلديَّ رفيق رائع يشرف على تجارتي الساعة، رجل لم أتمكَّن من العثور عليه من قبل. سأترك له قريبًا كلَّ شيء لأجد المزيد من الوقت لنفسي لم أجده في السنوات العشرين الأخيرة.»

كثرت زيارات هِنْشَرْد وأصبحت منتظمة، وسرعان ما بدأ الناس يتهامسون في كاستربِرْدج ثم يقولون علنًا أنَّ عمدة البلدة المستبدَّ القاهر أَسَرتْهُ وأَضْعفتْهُ الأرملة اللطيفة، السيدة نيوسن. لقد عُرِف عنه لامبالاته بالجنس اللطيف وترفُّعه عن مصاحبة النساء وتجنُّبه الصامت الحديثَ معهن، وهو ما طبع حدَّةً على علاقة لم تكن رومانسيَّة بما يكفي. وقد بدا أمرًا متعذِّرًا تفسيره في نظر الناس أن يقع اختياره على امرأة مسكينة وهشَّة كهذه، إلا إن كانت خطبتهما شأنًا عائليًّا لا يدعُ مجالًا للعاطفة، ولا سيَّما أنهم عرفوا أنَّ صلة قرابة كانت تجمعهما بطريقة ما. كانت السيدة هِنْشَرْد شاحبة جدًّا حتى إنَّ الصبية أطلقوا عليها «الشبح». كان هِنْشَرْد يسمع أحيانًا هذا النعت عندما يعبران معًا طريق «ذي والكس»، كما كان يُطلق على الجوادِّ الواقعة على ذلك الطريق، فيكفهرُّ وجهه وتعلوه نظرة تدميرية تجعل المتحدث يتطيَّر من النظر

إليه، ولكنَّه لم يكن يقول شيئًا.

عجَّل في الإعداد للزواج، أو بالأحرى في لمِّ شمله بهذه المخلوقة الشاحبة، بروح عنيدة ثابتة تُؤكِّد نقاء ضميره وسلامة طويَّته. وما كان بوسع أحد أن يدرك من مسلكه الخارجي أنه لم تكن ثمَّة نار غرام تضطرم وعاطفة تجيش داخله وتحفِّز الصَّخب الذي كان يدور في منزله الكبير الموحش، لم يكن هناك إلا ثلاثة قرارات كبيرة، أوَّلها تسوية وضع سُوْزَنْ المهجورة، وثانيها تأمين مسكن مريح لإلِزَابث جيْن تحت عينه الأبويَّة، وثالثها معاقبة نفسه بوخز الأشواك التي جلبتها معها هذه الأفعال التعويضية في طريقها، ومنها الحطُّ من منزلته في عين الرأي العام بزواجه من امرأة متواضعة بعض الشيء.

ركبت سُوْزَنْ هِنْشَرْد عربة خاصة أوَّل مرة في حياتها وهي تخطو نحو عربة البَرْهام[37] الفسيحة التي وقفت أمام الباب في يوم العُرس لتقلَّها وإلِزابث جيْن إلى الكنيسة. كان صباحًا ماطرًا غير عاصف ودافئًا من أصباح نوفمبر، وكان المطر يهمي مثل ذرات طحين أخذت تحطُّ على زغب القبعات والمعاطف. واجتمعت حفنة من الأشخاص عند باب الكنيسة مع أنَّ المكان في الداخل يسعهم. وكان الاسكتلندي الذي قام بدور الوصيف الشخصَ الوحيد بين الحضور من يعرف الوضع الحقيقي للطرفين المتعاقدين. بيْد أنَّه بجانب الجِدِّ من الموضوع كان أكثر غَرارةً ومراعاةً وحصافةً ووعيًا من أن يَلِج المشهد بشكله الدرامي. ذلك كان يقتضي العبقرية الخاصة لكريستوفر كُوني، وسولومُن لونغوَيْز، وبُزْفورد ورفاقهم، ولكنَّهم مع ذلك لم يكونوا على علم بالسِّرّ. وعندما حان وقت الخروج من الكنيسة اجتمعوا عند الرصيف المحاذي وراحوا يُفسِّرون الموضوع من وجهات نظرهم.

«لقد عشت خمسة وأربعين عامًا في هذه البلدة،» قال كُوني، «ولكنِّي لم أرَ قطُّ رجلًا ينتظر طويلًا ليحصل على أقلِّ القليل! هنالك فرصةٌ حتى

---

37) Brougham مركبة خيل خفيفة مقفلة، تتَّسع لشخصين أو أربعة، ويتَّخذ سائقها مقعده خارجها.

لكِ أنتِ يا نانْس مُوكرِدْج بعد هذا.» كان التعليق موجَّهًا إلى امرأة تقف خلف كتفه، وهي المرأة ذاتها التي شهَّرت بخبز هِنْشَرْد على الملأ عندما دخلت إلِزابث وأمُّها كاستربرِدْج.

«فلتحلَّ عليَّ اللعنة إن تزوجت رجلًا مثله أو مثلك،» أجابت تلك المرأة. «أمَّا أنت يا كريستوفر، فنعرف ما خطبك وخير الكلام ما قلَّ ودلّ. أمَّا هو، (قالت بصوت منخفض) فيُقال إنه كان فقيرًا معدمًا، وما كنتُ لأقول ذلك، ولكنَّه بدأ حياته فقيرًا معدمًا لا يملك شيئًا.»

«وأمَّا الآن فيساوي الكثير،» همهم لونغويْز، «وحين يُقال أنَّ رجلًا يساوي الكثير فهو رجل جدير بأخذه بعين الاعتبار!»

وحين التفت رأى وجهًا دائريًّا متغضِّن القسمات وتعرَّف فيه ابتسامةَ المرأة البدينة التي طلبت غناء أغنية أخرى في نُزُل «البحَّارة الثلاثة». «وإذًا أيتها الأم كُكْسُم،» قال، «ما رأيك؟ تلك هي السيدة نيوسن، مجرد هيكل عظمي، ولكنها ظفرت بزوج آخر يعتني بها، في حين إنَّ امرأة بوزنِك لم تحظَ بمثله.»

«بلى لم أحظ بمثله، ولا بآخر يضربني... أجل، لقد انقضت أيَّام كُكْسُم، وكذلك ستنقضي السنون العجاف!»

«بلى، بعون الرَّبِّ ستنقضي السنون العجاف.»

«لا يليق بامرأة في سنِّي أن تفكِّر في زوج آخر،» أردفت السيدة كُكْسُم. «ولكنني أُقسم أنني كريمة المنبت شأني شأنها.»

«صدقتِ، فقد كانت أمُّك امرأةً صالحة، أتذكَّرها. لقد كافأتها الجمعية الزراعية لأنها أنجبت أكبر عدد من الأطفال الأصحَّاء دون مساعدة الأبرشية، إلى جانب فضائل رائعة أخرى فيها.»

«ذلك ما أبقانا في الحضيض، تلك العائلة الكبيرة الجائعة.»

«أجل، عندما تكثر الخنازير يقلُّ الطعام.»

«أَوَتذكر كيف كانت أمِّي تغنِّي يا كريستوفر؟» تابعت السيدة كُكْسُم

وقد هاجت بها الذكرى، «وعندما ذهبنا معها إلى الحفلة في ملستوك، هل تذكر؟ في منزل العجوز دَيم لِدْلُو، عمَّة المزارع شِنَر، أتذكر؟ لقد كنَّا ندعوها جلد الضفدع لأنَّ وجهها كان أصفرَ ومنمَّشًا، أتذكر؟»

«أذكر، هِي هِي، أذكر!» قال كريستوفر كُوني.

«إنَّني أذكر ذلك جيدًا، فقد كنت في سنِّ الزواج في ذلك الحين، وكنت نصف فتاة ونصف امرأة كما يقولون. ولا أنسى،» همزت كتف سولومُن بطرف أصبعها في حين لمعت عيناها بين شقَّي جفنيها: «لا أنسى نبيذ الشّيري ومطافئ الشموع الفضية، وعندما سكرت جوان دَمِت ونحن في طريقنا إلى البيت، فاضطُرَّ جاك غريغز إلى حملها وهو يمشي على الطين ثم أفلتها لتسقط في حظيرة أبقار ديريمان سويت أبل، وقمنا بتنظيف ثوبها بالعشب، ألا تتذكَّر تلك الورطة التي ما رأيتُ مثلها؟»

«بلى أذكر ذلك، هِي، هِي، كم كانت تلك الأيام الخوالي حافلة بالحماقات حقًّا! آه، كم من الأميال كنت أقطع حينها! واليوم لا أكاد أستطيع القفز على شقٍّ في الأرض!»

انقطع حبل ذكرياتهم بظهور الزوجين الملتمِّ شملهما. كان هِنْشَرْد ينظر حواليه إلى المتسكِّعين بنظراته المبهمة تلك، والتي بدت في لحظة ما نظرة رضا، وفي لحظة أخرى نظرة ازدراء مُستعِر.

«حسنٌ، هنالك فرق بينهما حتى وإن نعت نفسه بالممتنع عن المسكرات،» قالت نانْس مُوكرِدْج. «ستتمنَّى لو لم تتخذ خطوةَ تغييرِ وضعِها. في عينيه نظرةٌ تشبه نظرةَ ذي اللحية الزرقاء[38] وسوف تظهر في الوقت المناسب.»

«هُراء! إنه جيِّد بما يكفي! بعضهن لا يقنع أبدًا مهما كُنَّ محظوظات. لو كان لي خيار بسعة المحيط لما تمنَّيت رجلًا أفضل منه. إنه عَطِيَّة إلهيَّة

38) أحد النبلاء في إحدى قصص الموروث الشعبي الفرنسي وكان يقتل زوجاته واحدةً بعد الأخرى ويخبّئ جثثهن في غرفة سرّيّة في قصره.

لامرأة مسكينة مغلوبة على أمرها مثلها ولا تملك شيئًا يحفظ لها ماء وجهها.»

انطلقت عربة البَرْهام الصغيرة شاقّة الضباب فتفرَّق المتسكّعون.

«حسنٌ، إننا بالكاد نحسن النظر إلى الأمور في هذا الزمان!» قال سولومُن. «هناك رجل سقط ميتًا البارحة، ليس بعيدًا جدًّا عن هنا. وماذا بشأن ذلك وهذا الطقس الرطب! إنه أمر لا يستحق العناء أن يقوم المرء بعمل ذي أهمية اليوم. إنني في مزاج نفسي سيئ ولم أشرب طوال الأسبوع أو الأسبوعين الماضيين إلا شرابًا رخيصًا بتسع بنسات، ولذا سأعرج في طريقي على «البحَّارة الثلاثة» طلبا للشراب والدفء.»

«لا أدري، ولكنني سأرافقك أيضًا يا سولومُن،» قال كريستوفر. «أحسُّ جسدي باردًا ورطبًا مثل حيوان رخويّ.»

الفصل الرابع عشر

في يوم القديس مارتن ذات صيف بدأ فصل جديد في حياة السيدة هِنْشَرْد وهي تدخل منزل زوجها الكبير وفَلَك حياته الاجتماعية المحترمة، وكان صيفًا من أبهى الأصياف. وخشية أن تتطلَّع إلى عاطفة أعمق مما يمكنه منحها إياها، فقد حرص على إظهار بعض من العاطفة في أفعاله الخارجية، وعمد من بين أشياء أخرى إلى طلي الدرابزين الحديدي بطلاء أخضر مبهج بعدما كان حزينًا وباهتًا من الصدأ طوال الثمانين عامًا الأخيرة. وبعث الحياة في النوافذ الجورجية الثقيلة الأعمدة ذات الألواح الصغيرة وطلاها بطبقات ثلاث من الطلاء الأبيض. لقد كان كريمًا معها بقدر ما بوسع رجلٍ وعمدةٍ ووكيلِ كنيسة أن يفعل. كان المنزل كبيرًا، والحجرات واسعة، والسلالم عريضة، وبالكاد أدخلت المرأتان المتواضعتان إضافات ملموسة إلى محتوى المنزل.

أمّا إلِزابث جيْن فقد كان هذا الوقتُ من أكثر الأوقات ظفْرًا وبهجةً لها، فالحريَّة التي خبرتها، والدَّلال الذي لاقته فاقَا توقُّعها. كانت الحياة الهادئة والسهلة والموسرة التي أتاحها لها زواج أمِّها، في الحقيقة، بدايةَ تغيير كبير في إلِزابث، فقد وجدت أنَّ لها أنْ تطلب ما تشاء من ممتلكات شخصية وحُلِيٍّ، كما يجري المَثَل في العصور القديمة: «خُذ واملك واحتفظ، إنَّها لكلمات مبهجة.» ومع راحة البال أتى التَّطوُّر، ومع التَّطوُّر جاء الجمال. لم تكن تنقصها المعرفة التي كانت نتيجة فطنة طبيعية كبيرة، لكنَّها، واأسفاه! كانت تفتقر للعلم والبراعة، ولكن مع انقضاء الشتاء والربيع امتلأ وجهها وجسدها النحيلان بانحناءات مستديرة وناعمة، وتلاشت الخطوط والغضون فوق

جبينها الصغير، وبفضل وفرة الأشياء الجميلة توارت عن بَشَرَتها تلك الكُدْرة التي اعتقدت أنها قدرها بالطبيعة، وتورَّدت وجنتاها. وقد تُظهر أيضًا عيناها الرماديتان الثاقبتان أحيانًا بهجة ماكرة، لكنَّ ذلك كان نادرًا، فالحكمة المشعَّة من مقلتيها لا تتفق وهذه الأمزجة الخفيفة بسهولة. ومثل جميع الأشخاص الذين عرفوا أزمنة شاقَّة، بدا لها من غير العقلاني والمنطقي الانغماس في الجذل إلا بقدر جرعات طائشة بين الحين والآخر، ذلك أنها رُوِّضت باكرًا جدًّا على التفكير القلِق ولا يمكنُها التَّخلِّي عن هذه العادة بغتةً. لم تَخْبَرْ أيًّا من تلك الأمزجة النفسية المبهجة والمثبطة التي تنتاب الكثيرين دونما سبب، و– تحويرًا عن شاعر حديث– لم تكن ثمَّة كآبة قطّ تقبض روح إلزابث حيْن إلَّا وتعرف مصدرها، وتتسق بهجتها الآن تمامًا ويقينها الراسخ بوجود سبب لهذه البهجة.

لعلَّ المرء يظن أنَّ فتاةً أخذ جمالها يتفتَّح سريعًا، وأحوالها تتحسَّن، ولأول مرَّة في حياتها تحصل على مال جاهز، ستندفع بحماقة وتنغمس في اقتناء الثياب. ولكن كلا، إن اعتدال إلزابث في كل شيء تفعله تقريبًا كان أكثر وضوحًا في مسألة الثياب هذه من أي شيء آخر. ذلك أنَّ الامتناع عن اغتنام الفُرص للانغماس في الملاذّ لَهُوَ عادةٌ حميدة تضاهي عادةَ اغتنام الفرص في شؤون العمل والاجتهاد. وقد فعلت هذه الفتاة البسيطة ذلك بفطنة فطريَّة تكاد تكون عبقريَّة. وهكذا أحجمت عن التفتُّح كزهرة ماء في ذلك الربيع وعن ارتداء الثياب المنتفخة والحِلى الصغيرة التافهة كما قد تفعل معظم فتيات كاستربِرْدج في مثل حالها. لقد هدَّأ الحذر من بهجة انتصارها، وما زالت تحتفظ بذلك الخوف الذي يشبه خوف فأر الحقول من سكِّين القَدر على الرَّغم من الوعود العادلة، وهذا أمرٌ شائع بين عميقي التفكير الذين عانوا الفقر والظلم باكرًا.

«لن أبالغ في المرح مهما يكن،» كانت تقول لنفسها. «لأنَّ ذلك سيغري

الأقدار بالإطاحة بي وبأمّي وبابتلائنا مرة أخرى كما اعتادت أن تفعل في الماضي.»

أصبحنا نراها الآن تعتمر قبعة حريرية سوداء، وترتدي وشاحًا مخمليًّا أو سترة حريرية، وثوبًا أسود، حاملة مظلة ذات حافّات بسيطة وأهداب ولها حلقة عاجيّة صغيرة لغلقها. كانت غريبةً تلك الحاجة المُلحّة إلى مظلة، إذ اكتشفت أنه مع صفاء بشرتها وبروز وجنتيها الورديتين أصبح إحساس جلدها بأشعة الشمس مفرطًا، فأخذت تحمي هاتين الوجنتين وقد ارتأت أنَّ صفاء البشرة جزء من الأنوثة.

أصبح هِنْشَرْد مولعًا جدًّا بها، وراحت تخرج معه أكثر من خروجها مع أمها. كان مظهرها ذات يوم في غاية الجاذبيَّة، حتى إنه راح ينظر إليها بإمعان.

«لقد صادف أنْ كان الشريط قريبًا مني فقمتُ بلفّه»، قالت بتلعثم معتقدة أنه غير راضٍ عن الشريط المزركش الزاهي الذي كانت ترتديه للمرة الأولى.

«ما من شك، أكيد،» أجاب بطريقته المستأسدة. «افعلي ما تشائين، أو كما تنصحك أمُّك بالأحرى. لا شيء لدي أقوله!»

وحين تكون داخل المنزل، تظهر بشعرها مقسومًا بمَفرِق يمتد مقوَّسًا مثل قوس قزح أبيض من الأذن إلى الأخرى. النصف الذي أمام المَفرِق مغطّى كلُّه بخُصَلٍ كثيفة مجعَّدة، والنصف الذي خلفه مُمسَّد كلُّه ومربوط برباط.

ذات يوم كان أفراد العائلة الثلاثة جالسين إلى مائدة الإفطار، وكان هِنْشَرْد ينظر بصمت كما يفعل عادة، إلى شعرها الذي كان بنّيًا فاتحًا وليس داكنًا. «ظننتُ أنَّ شعر إلِزابث جيْن... ألَم تخبريني عندما كانت إلِزابث جيْن طفلةً أنَّ شعرها سيكون داكنًا؟» قال لزوجته.

بدت مشدوهة، وهزّت قدمه محذّرة وغمغمت: «هل قلتُ ذلك؟»

حالما انصرفت إلِزابث إلى حجرتها أردف هِنْشَرْد: «يا إلهي! كدت أنسى

نفسي! ما عنيتُه أنَّ شعر الفتاة عندما كانت طفلة كان يوحي بأنه سيغدو داكنًا.»

«بلى، لكنَّ اللون يتغيَّر،» أجابت سُوْزَنْ.

«أعرف أنَّ شعر الأطفال يصبح أغمق فيما بعد، لكنني لم أكن أعرف مُطلقًا أنَّ لونه يمكن أن يصبح فاتحًا!»

«أوه بلى.» وبدا على وجهها التعبير المضطرب ذاته الذي يحمل المستقبل مفتاحَه. ولكنَّ الموقف سرعان ما عبر عندما تابع هِنْشَرْد قائلًا: «ليكن، هكذا أفضل. والآن يا سُوْزَنْ، أودُّ أن أدعوها الآنسة هِنْشَرْد وليس الآنسة نيوسن. الكثيرون يفعلون ذلك بلا مبالاة، وهذا اسمها الشرعي، ولذا يمكن أن يكون اسمها المعتاد كذلك. لا أحبُّ ذلك الاسم أبدًا لابنتي من لحمي ودمي. سوف أعلن الاسم في صحيفة كاستربرِدْج. هكذا يفعلون، ولن تعترض هي.»

«لا، ولكن..»

«حسنٌ إذن، سأفعل ذلك،» قال بطريقة حاسمة. «مؤكَّد إن رغبت هي، ألا تتمنَّين ذلك كما أتمنَّاه؟»

«بلى، إن وافقت فلنقم بذلك قطعًا،» أجابت.

تصرَّفت السيدة هِنْشَرْد بطريقة متناقضة نوعًا ما، يمكن وصفها بالمُضلِّلة، إلَّا أنَّ سلوكها كان عاطفيًا ومفعمًا بإخلاص شخص يرغب بفعل الصحيح في موقف خطِر للغاية. ذهبت إلى إلِزابث جيْن ووجدتها تحيك في حجرتها في الأعلى، وأخبرتها بالاقتراح بشأن لقبها. «هل توافقين، ألن يكون سيِّئًا في حقِّ نيوسن وقد مات ورحل الآن؟»

فكَّرت إلزابث مليًّا. «سأفكِّر في الأمر يا أمي.» أجابت.

وعندما رأت هِنْشَرْد لاحقًا في ذلك اليوم، أشارت إلى الأمر مباشرةً بطريقة أظهرت شعورها حيال الموضوع منذ أن أثارته أمُّها. «هل ترغب كثيرًا

في هذا التغيير يا سيِّدي؟» سألت.

«أرغب فيه؟ الرحمة لأسلافي، ما بالكنَّ أنتنَّ النساء تُثِرن لغطًا من لا شيء! اقترحت ذلك وحسب وهذا كلُّ ما في الأمر. والآن يا إلِزابث جيْن افعلي ما يحلو لك. لتحلَّ عليَّ اللعنة إن كنت أعبأ بما تفعلين. افهمي، لا توافقي على الأمر إرضاءً لي.»

وعند هذا الحد أُغلق الموضوع ولم يُقَل شيء آخر وظلَّت إلِزابث تُعرَف بالآنسة نيوسن وليس باسمها الشرعي.

في الوقت نفسه أخذت تجارة الحنطة والتبن الكبيرة التي يرأسها هِنْشَرْد تزدهر تحت إدارة دونلد فَارْفرَي ازدهارًا لم تشهده من قبل. في السابق كانت تتقدَّم بقدر ضئيل، والآن أصبحت تتقدَّم بسرعة. جرى التَّخلُّص من نظام هِنْشَرْد الشفاهي[39] القديم الجلف عندما كان كلُّ شيء يعتمد على الذاكرة وكانت الصفقات تُعقد باللسان وحده. حلَّت الرسائل والحسابات محلَّ كلمات من قبيل «سأفعل» و«هو لك»، وفي مسائل القروض، اختفت الطريقة القديمة الفظَّة ومضايقاتها.

كانت حجرة إلِزابث جيْن تقع في مكان في البيت عالٍ نوعًا ما، حيث تطلُّ على مخازن التبن الممتدة عبر الحديقة، وقد منح ذلك إلِزابث فرصة الملاحظة الدقيقة لما يدور هناك. رأت دونلد والسيد هِنْشَرْد لا يفترقان. عندما يسيران معًا كان هِنْشَرْد يضع ذراعه بأُلفة على كتف مدير أعماله، وكأن فَارْفرَي أخوه الأصغر، متَّكئًا بثقله عليه إلى حدَّ أنَّ جسد الشاب الهزيل ينحني تحت ثقله. وكانت تسمع بين حين وآخر ضحكة مُدوِّية من هِنْشَرْد بسبب شيء قاله دونلد الذي كان يبدو بريئًا جدًّا ولا يضحك مطلقًا. بدا جليًّا أنَّ هِنْشَرْد بعد حياة العزلة التي عاشها وجد متعة في رفقة الشاب مثلما وجد فائدة في استشارته. لقد أثار ذكاء دونلد الفكري في تاجر الحنطة الإعجابَ منذ الساعة

39) في الأصل باللاتينية: viva voce، (المترجمة)

الأولى للقائهما. كان يضمر ازدراءً – لم ينجح في إخفائه – إزاء جسد فَارْفرَي النحيل وضآلة قوته، غير أنَّ احترامه الكبير لعقله فاق ازدراءه هذا بكثير.

استطاعت إلِزابث ببصيرتها النافذة أن تميِّز عاطفة هِنْشَرْد الجارفة نحو الشاب، ورغبته الدائمة في أن يكون فَارْفرَي بقربه، والتي تفضي بين الفينة والأخرى إلى ميل هِنْشَرْد إلى السيطرة، إلا أنَّه سرعان ما يكبحها في اللحظة التي يُظهر فيها دونلد علامات استياء حقيقي. ذات يوم، بينما كانت تنظرهما من الأعلى وهما واقفان عند مدخل الباب بين الحديقة والفناء سمعت دونلد يقول إنَّ عادتهما في السير والتَّنقُّل معًا تُحيِّد من قيمته ودورِه بوصفه عينًا أخرى ينبغي أن تُستخدم في أماكن أخرى حيث لا يوجد المسؤول الرئيس. «اللعنة!» صاح هِنْشَرْد، «ما يهمُّ! أحبُّ أن يكون لديَّ رفيق أتحدَّث إليه. والآن هَلُمَّ معي وتناول بعض العشاء ولا تفكِّر كثيرًا في أمور كهذه وإلا دفعتني إلى الجنون.»

ومن جهة أخرى، عندما تسير مع أمِّها، كانت كثيرًا ما ترى الاسكتلندي ينظر إليهما باهتمام وفضول. إنَّ حقيقة أنَّه قابلها في «البحَّارة الثلاثة» لم تكن كافية لتفسير اهتمامه، لأنَّه لم يرفع ناظريه قطُّ في الأوقات التي دخلت فيها حجرته. إضافةً إلى ذلك، كان ينظر إلى أمِّها أكثر مما كان ينظر إليها، مما سبَّب لإلِزابث جيْن خيبة أمل بسيطة لم تدركها تمامًا ولعلَّها غفرتها له. ولهذا لم تستطع أن ترجع ذلك الاهتمام إلى جاذبيتها هي، فانتهت إلى أنَّه ربما كانت تلك طريقة السَّيِّد فَارْفرَي في تقليب نظراته وحسب.

لم تكن لتحدِس بذلك التفسير المُسهِب لسلوكه دون غرور شخصي، وهو حقيقة أنَّ دونلد كان مستودعَ أسرار هِنْشَرْد فيما يخص معاملته في الماضي لهذه الأمِّ الشاحبة العفيفة التي تسير إلى جوارها. ولم تذهب بها الظنون بذلك الماضي إلى أبعد من مجرد تخمينات واهية تستند إلى أشياء سمعتها ورأتها عرضيًّا، مجرد تخمينات بأنَّ هِنْشَرْد وأمَّها ربَّما كانا حبيبيْن في شبابهما، ثمَّ

نشبَ بينهما خلاف فافترقا.

كانت كاستربرِدْج، كما أسلفنا، مكانًا مُودَعًا داخل كتلة مربعة في حقل من الحنطة. لم تكن هناك ضواحٍ بالمعنى الحديث أو تمازج انتقالي بين البلدة والرِّيف. وبالنظر إلى الأرض الخصبة الواسعة المحاذية لها، وقفت البلدة بيِّنةً وواضحةً مثل رقعة شطرنج على مفرش مائدة أخضر، فقد كان بمقدور ابن المزارع أن يجلس تحت جرن الشعير ويرمي نافذة مكتب أمين السجل البلدي بالحجارة، وأن يومئ الحُصَّاد بين حزم التبن برؤوسهم لمعارفهم الواقفين على زاوية الرصيف، وأن يدين القاضي صاحب الرداء الأحمر سارقَ الخراف وينطق بالحكم على نَغَمِ الثغاء الآتي من النافذة من القطيع الذي يرعى في الجوار، وعند تنفيذ أحكام الإعدام كان بمقدور الحشد أن يقف منتظرًا أمام المشنقة مباشرة على مرْج سُحبت منه الأبقار مؤقتًا لإفساح الطريق أمام المتفرِّجين.

كانت الحنطة النامية في النُّجود المرتفعة من البلدة يجمعها المزارعون الذين كانوا يقطنون شارعًا شرقيًّا محاذيًا يُطلق عليه ديرنوفر. وهنا ترتفع أكداس الحنطة وتبرز من الشارع الروماني القديم دافعة أطنافها قبالة برج الكنيسة، وأمَّا صوامع الحبوب المسقوفة بالقش الأخضر فقد انفتحت أبوابها التي تشبه في ارتفاعها بوابات هيكل سليمان، مباشرة على الطريق الرئيس. وقد كانت هذه الصوامع من الكثرة بحيث برزت بعد كل ستة بيوت على طول الطريق. وهنا يعيش أهل البلدة الذين يقطعون الأرض المحروثة كل يوم، ورعاة الماشية الذين انحشروا في مكان ضيِّق. إنَّه شارع يقطنه المزارعون، شارع يحكمه عمدةٌ ومجلس بلدي، ولكنْ تتردَّد فيه أصوات مداقِّ الحنطة، والمذاري، وخرخرة الحليب في السُّطول، شارع لا شيء فيه يشير إلى المدنيَّة، كان هذا شارع ديرنوفر في كاستربرِدْج.

كان هِنْشَرْد بطبيعة الحال يتاجر إلى حدٍّ كبير مع هذه المجموعة أو

تلك من صغار المزارعين الذين وجدهم في متناول اليد، وكثيرًا ما كانت عرباته تتردَّد على ذلك الشارع. ذات يوم، بينما كانت الترتيبات تجري لجلب الحنطة من إحدى المزارع المذكورة آنفًا، تلقَّت إلزابث جيْن إطْلاعًا باليد يطلب كاتبُه أن تصنع جميلًا وتذهب فورًا إلى إحدى صوامع الحنطة في ديرنوفر. ولمَّا كان هِنْشَرْد يفرِّغ تلك الصومعة مما فيها، ظنَّت أنَّ الطلب يتعلق بهذه الأعمال، فهمَّت بالذهاب إلى هناك حالما اعتمرت قبعتها. كانت الصومعة في فناء المزرعة وقد قامت على دعائم حجرية ذات ارتفاع كاف ليسير الشخص أسفلها. كان الباب مفتوحًا ولا أحد بالداخل، لكنها دخلت وراحت تنتظر. رأت في تلك اللحظة شخصًا يقترب من الباب فإذا به دونلد فَارْفرَي. رفع بصره إلى ساعة الكنيسة ودخل. مدفوعةً ببعض حياء غير قابل للتفسير وبعدم رغبتها في أن تقابله هناك وحدها، ارتقت سريعًا درجات السُّلَّم المفضية إلى باب الصومعة ودخلت قبل أن يراها. تقدَّم فَارْفرَي ظانًّا أنه وحده، وبدأت قطرات المطر بالسقوط فانتقل ووقف تحت قاعدة الصومعة حيث كانت تقف. وهنا اتكأ على إحدى الدَّعائم وبدأ صبره ينفد. ببساطة، كان هو أيضًا ينتظر أحدًا، هل يمكن أن تكون هي؟ إن كان كذلك، فلماذا؟ بعد بضع دقائق نظر إلى ساعته، ثم سحب إطلاعًا، نسخة من تلك التي تلقَّتها.

بدأ الأمر يتَّخذ وضعًا مربكًا، وكلما طال انتظارها صار الموقف أكثر إرباكًا. أن تخرج من باب فوق رأسه مباشرة وتهبط السلالم وتُظهر أنها كانت تختبئ في الداخل، سيكون أمرًا في غاية الحماقة، فواصلت الانتظار. كانت مِذراة الحبوب تقف إلى جانبها، ولكي تهدِّئ من رَوْعِها حرَّكت مقبض الآلة برفق، فطارت سحابة من نخالة الحنطة على وجهها وغطَّت ثيابها وقبعتها وعلقت بفرو شالها. لا بدَّ أنه سمع الحركة الطفيفة لأنه نظر للأعلى ثم صعد السلالم.

«آه، إنها الآنسة نيوسن،» قال حالما استطاع أن يرى داخل الصومعة.

«لم أعلم أنك هنا. لقد جئتُ في الموعد وأنا تحت خدمتك.»

«أوه يا سيد فَازْفرَي،» قالت متلعثمة، «وأنا كذلك. لكنني لم أعرف أنك أنت من أراد مقابلتي، وإلا...»

«أردت مقابلتك؟ كلَّا، على الأقل هكذا، أخشى أنَّ هناك خطأً ما.»

«ألم تطلب أن آتي إلى هنا؟ ألم تكتب هذه؟» أخرجت إلِزابث الإطلاع.

«كلَّا. حقًّا، لم أفكِّر في ذلك إطلاقًا! وأنت، ألم تكتبي إليّ؟ أليس هذا ما كتبته؟» وأخرج الإطلاع الذي لديه.

«إطلاقًا.»

«حقًّا! إذن لعلَّ أحدًا ما يودُّ مقابلة كلينا. لعلّنا نحسن صنعًا لو انتظرنا أكثر.»

تريَّثا أخذًا بهذا الرأي. احتفظ وجه إلِزابث جيْن برباطة جأش استثنائية، في حين راح الشاب الاسكتلندي، عند كل خطوة يسمعها في الطريق، ينظر من تحت الصومعة إن كان هناك أيُّ عابر على وشك الدخول وإعلان نفسه صاحب الرسالة. أخذا يراقبان بضع قطرات من المطر تنزلق على سطح كومة القش المقابلة، قشة إثر قشة، إلى أن تصل للأسفل، لكنَّ أحدًا لم يأتِ، وبدأ سطح المخزن يقطر.

«لن يأتي هذا الشخص على الأرجح،» قال فَازْفرَي. «لعلَّها مزحة، وإن كان كذلك فمن المؤسف أن نهدر وقتنا هكذا وهناك الكثير ينبغي فعله.»

«إنه انتهاك كبير،» قالت إلِزابث.

«صحيح يا آنسة نيوسن. ثقي أننا سنسمع أنباءً عن هذا يومًا ما وعمَّن فعل ذلك. لا يزعجني أنَّ ذلك عرقلني، ولكن أنت يا آنسة نيوسن..»

«لا أعبأ بذلك كثيرا،» أجابت.

«وأنا كذلك.»

ركنا إلى الصمت مجدَّدًا. «أظن أنك تتطلَّع إلى العودة إلى اسكتلندا يا

سيد فَارْفرَي؟» سألته.

«كلا يا آنسة نيوسن. ولِمَ أفعل ذلك؟»

«ظننتُ ذلك عندما سمعت الأغنية التي غنَّيتَها في «البحَّارة الثلاثة» عن اسكتلندا والوطن، أعني... أنك كنت تغني من أعماق قلبك، وتعاطف جميعنا معك.»

«آه، بلى غنَّيت هناك، غنَّيت.. ولكن يا آنسة نيوسن،» وهنا أخذ صوت دونلد يتردَّد موسيقيًّا بين نغمتين كما يحدث دائمًا عندما يصبح جادًّا، «من الجميل أن يشعر المرء بأغنية دقائق معدودة وتدمع عيناه، ولكنه ما إن يفرغ منها حتى لا يعود يعبأ بها أو لا يفكِّر فيها ثانية وقتًا طويلًا. لا، لا أودُّ العودة! ومع ذلك سأغنِّي لك الأغنية بكل سرور كلما رغبت. أستطيع أن أغنيها الآن، ولا يزعجني ذلك مطلقًا!»

«شكرًا لك حقًّا. ولكنني يجب أن أنصرف، سواءٌ أمطرت أم لا.»

«آه! إذن يا آنسة نيوسن، من الأفضل ألا تخبري أحدًا بهذه المزحة، ولا تعيريها اهتمامًا. وإن قال لك صاحبها شيئًا كوني لطيفة معه أو معها وكأنك لم تهتمي حتى تفسدي على ذلك الشخص الذكي مزحته تلك.» وهو يتحدث وقع نظره على ثوبها الذي كانت نخالة الحنطة لا تزال متناثرة عليه. «ثمَّة نخالة حنطة وغبار على ثوبك. لعلَّك لا تعرفين؟» قال بنبرة بالغة الرِّقَّة. «ومن السَّيِّئ جدًّا أن تسقط حبوب المطر على ثوب يَعْلَقُ به القش. ستبلِّل الثوب وتفسده. دعيني أساعدك، أفضل طريقة هي النفخ.»

ولمَّا لم تُبدِ إلِزابث موافقةً أو اعتراضًا، بدأ دونلد فَارْفرَي ينفخ في شعرها من الخلف ومن الجانب، وعلى عنقها وقمة قبعتها وفرو شالها، وعند كل نفخة كانت إلزابث تقول: «أوه، شكرًا لك.» أخيرًا بدا ثوبها نظيفًا، مع أنَّ فَارْفرَي لم يَبدو متعجلًا الانصراف بعد أن تخلَّص من قلقه الأول حيال الموقف.

«والآن سأذهب وآتيك بمظلة،» قال.

بيْد أنها رفضت العرض، فخطت إلى الخارج وانصرفت. مشى فَارْفرَي ببطء خلفها وهو ينظر مفكِّرًا إلى هيئتها المتلاشية ويصفر بصوت خفيض مردِّدًا: «بينما كنت أهبط الطريق إلى كانوبي.»[40]

40) أغنية اسكتلندية شعبية قديمة.

الفصل الخامس عشر

في البداية، لم يكن جمال الآنسة نيوسن المتفتِّح يسترعي اهتمام أحد في كاستربرِدْج. وصحيحٌ أنَّ دونلد فَارْفرَي انجذب إلى الابنة الربيبة للعمدة كما يدعوها الناس، لكنَّه لم يكن إلا شخصًا واحدًا وحسب. والحقيقة أنها لم تكن أكثر من مثال توضيحي بائس للتعريف الخبيث الذي أورده المتنبِّئ باروك: «عذراء تحبُّ الزينة.»[41]

عندما تتمشَّى في الخارج، تبدو منشغلة بأفكارها الداخلية وتبدو حاجتها للأشياء الظاهرة ضئيلة. لقد كوَّنت قرارات لافتة للنظر في التَّحكُّم في ذوقها للثياب، لأنه سيكون أمرًا مناقضًا لحياتها الماضية أن تبالغ في زينتها بمجرد أن تملك المال. ولكن لا شيء أكثر إغواءً من تطوُّر الأمانيِّ من أوهام مجرَّدة والحاجات من أمانيَّ مجرَّدة. ذات يوم ربيعي قدَّم هنْشَرْد لإلزابث جيْن صندوقًا من زوج قفازات ذات ألوان بهيجة. أرادت أن ترتديهما لتظهر تقديرها لكرمه، ولكنَّها لم تكن تملك قبعة توافقها. وبوصفها رغبة جمالية، فكَّرت أن تحصل على قبعة كهذه. وعندما حصلت على قبعة تلائم القفازيْن لم يكن لديها ثوب يوافق القبعة، فأصبح ضروريًّا للغاية الآن أن تُكمل، فجلبت الثوب المطلوب، ثمَّ وجدت أنها لا تملك مظلة تلائم الثوب. ولم يكن ليوقفها شيء، فابتاعت المظلة واكتمل البناء كلُّه أخيرًا.

فُتِن الجميع، وقال بعضهم أنَّ بساطتها السابقة كانت فنًّا يخفي فنًّا، والبساطة «خداعٌ ناعم» بحسب روشفوكو[42]، وأنها أحدثت أثرًا، فرقًا، وأنها

41) سِفر باروك، الإصحاح السادس، الكتاب المقدس، دار المشرق، بيروت، 2007.

42) فيلسوف فرنسي ساخر اشتهر بالحِكم والمذكرات.

فعلت ذلك بقصد. وفي الحقيقة لم يكن ذلك صحيحًا، ولكنَّه أدَّى إلى نتيجة، ذلك أنَّ أهالي كاستربرِدْج عندما أدركوا فنَّها رأوا أنها تستحق الانتباه. «إنها المرة الأولى في حياتي التي أحظى فيها بإعجاب كبير» قالت لنفسها، «مع أنه قد يكون إعجابًا من طرف أشخاص لا يستحقون امتلاكه.»

بيْد أنَّ دونلد فَارْفرَي أُعجب بها أيضًا، فقضت وقتًا مثيرًا جدًّا، إذ لم تعبِّر جاذبيتها الأنثوية عن نفسها بهذه القوَّة من قبل، ولعلَّها لم تكن تحفل بإنسانيتها كثيرًا في سابق عهدها فلم يكن يتملَّكها إحساس واضح بأنوثتها. ذات يوم، بعد أن حقَّقت نجاحًا غير مسبوق دخلت المنزل وصعدت إلى حجرتها، وانكبَّت على سريرها ووجهها للأسفل ناسيةً تمامًا التسبُّب في تجعيد ثوبها وإلحاق الضرر به. «ربَّاه!» همست قائلة، «هل يمكن ذلك؟ ها أنا ذي أصبح جميلة البلدة!»

وحين أمعنت التفكير في الأمر ولَّد خوفها المعتاد من المبالغة في المظاهر حزنًا عميقًا داخلها. «ثمَّة خطأ في هذا كلِّه،» قالت متفكِّرةً. «لو أنهم يعلمون أيَّ فتاة جاهلة أنا! إنني لا أتحدَّث الإيطالية ولا أستخدم الكرة الأرضية ولا أظهر أيًّا من الأعمال البارعة التي يتعلّمونها في المدارس الداخلية، كم سيحتقرونني! من الخير أن أبيع كل هذه الأثواب المزركشة وأبتاع لنفسي كتب قواعد وقواميس وكتبًا عن تاريخ الفلسفات جميعها!»

نظرت من النافذة فرأت هنْشَرْد وفَارْفرَي في الفناء يتبادلان الحديث بتلك المودَّة المندفعة من جانب العمدة والتواضع اللطيف من جانب الشاب، وقد أصبح ذلك ملحوظًا عمومًا في معاملة أحدهما الآخر. كانت صداقة بين رجل ورجل، أيُّ قوَّةٍ عاصفة فيها يُظهِرها هذان الرجلان! ومع ذلك، فإنَّ البذرة التي كان لها أن تقوّي أساس هذه الصداقة أخذت في تلك اللحظة تترسَّخ في صَدْع في بنائها.

كانت الساعة تقارب السادسة، وقد أخذ الرجال ينسحبون واحدًا

تلو الآخر عائدين إلى بيوتهم. وكان آخر المغادرين شابًّا مائل الكتفين، طارف العينين، يناهز التاسعة عشرة أو العشرين من عمره، ويفغَر فمه عن آخره عند أقلّ إثارة، وذلك، في ما يبدو، لعدم وجود ذقن يسنده. صاح هنْشَرْد مناديًا إيَّاه وهو يخطو خارجًا من البوابة: «تعال هنا يا أَيْبل وِتل!»

التفت وِتل وهُرِع راجعًا بضع خطوات. «نعم يا سيدي»، قال لاهثًا وكأنه يدرك ما سيحدث لاحقًا.

«أقول لك مرَّةً أخرى، احضر في الوقت المناسب غدًا صباحًا. إنك ترى ما ينبغي عمله وتسمع ما أقول وتعلم أنني لن أُبدِّد وقتي معك مرة أخرى.»

«نعم يا سيدي.» ثم انصرف أيْبل وِتل وكذلك هنْشَرْد وفَارْفرَي ولم تعُد إلِزابث تراهم.

لقد كان ثمَّة مبرِّر ليصدر هنْشَرْد هذا الأمر، فقد كان لأيْبل المسكين كما كان يُطلَق عليه، عادة عنيدة في الاستغراق في النوم والحضور متأخِّرًا إلى عمله. وطالما كان ذا إرادة توَّاقة لأن يكون بين المبكرين، لكنَّ هذه الإرادة تصبح هباء منثورًا إذا نسي رفاقه سحب الخيط الذي كان يعقده دائمًا حول إبهام قدمه ويتركه متدليًا من النافذة لذلك الغرض. لم يكن ليصل في الوقت المناسب.

ولأنَّه كان كثيرًا ما يساعد في وزن التِّبن، أو في الرافعة التي ترفع أكياس التبن، أو يكون أحد أولئك الذين يرافقون العربات إلى القرية لحمل الأكياس التي ابْتِيْعَتْ، فإنَّ محنته هذه تسبِّب إزعاجًا كثيرًا. وفي أثناء هذا الأسبوع وليومين في الصباح ترك الآخرين ينتظرون ساعةً تقريبًا، ولهذا جاء تهديد هنْشَرْد. ويبقى الآن انتظار ما يحدث في الغد.

دقَّت الساعة السادسة وما من أثر لوِتل. وفي السادسة والنصف دخل هنْشَرْد الفناء، وقد أُعدَّت العربة التي سيرافقها أَيْبل، وكان الرجل الآخر ينتظر منذ عشرين دقيقة. أخذ هنْشَرْد يشتم، وفي تلك اللحظة أتى

وِتل لاهثًا. التفت إليه تاجر الحنطة وأقسم أنَّها المرة الأخيرة وأنَّه إن تأخَّر مرة أخرى، بحقِّ الرَّبِّ، سيأتي ويسحبه من سريره.

«هناك خطأ ما فيَّ أيها السَّيِّد المبجَّل!» قال أَيبل، «ولا سيَّما في داخلي، فلا أكاد أتلو صلواتي حتى يتعطَّل مُخي البليد وأرقد كالميت. أجل، يحدث هذا منذ أن كنت صبيًّا، قبل أن أصبح عاملًا يتلقّى أجرًا، حيث إنني لا أنعم بالنوم أبدًا، فحالما أضطجع على فراشي سرعان ما يأخذني النوم وسرعان ما عليَّ أن أستيقظ. لقد أقلقني هذا كثيرًا يا سيدي، ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ الليلة الماضية قبل أن أخلد إلى النوم لم أتناول سوى قطعة جبن و...»

«لا أريد سماع ذلك!» زأر هنْشَرْد. «غدًا تبدأ العربات بالانصراف في الرابعة، حذارِ إن لم تأت. سأُهينك!»

«ولكن دعني أوضح لك وجهة نظري يا سيدي المبجَّل...»

انصرف هنْشَرْد.

«سألني ولا يريد سماع وجهى نظري!» قال أَيبْل موجِّهًا حديثه للفِناء عمومًا. «سأقضي الليلة بطولها وأنا أرتعد خوفًا منه!»

كانت الرحلة التي تتجه فيها العربات في اليوم التالي إلى بطحاء بلاكمُور طويلة، وفي تمام الرابعة كانت الفوانيس تجوب الفناء، لكنَّ أَيْبل لم يكن هناك. وقبل أن يتمكَّن أيٌّ من الرجال من الإسراع إلى أَيبل وتحذيره، ظهر هنْشَرْد عند مدخل الحديقة. «أين أَيْبل وِتل؟ ألم يأت بعد كلِّ ما قلت؟ قسمًا بروح أسلافي سأُوفِيَنَّ بوعدي الآن، ولا شيء سينقذه! سأتجه صوب ذلك الطريق.»

ذهب هنْشَرْد ودخل منزل أَيبل الذي كان كوخًا صغيرًا في شارع باك، وبابه لا يُقفَل أبدًا لأنَّ قاطنيه لم يكن لديهم شيئًا يفقدونه. وحين اقترب تاجر الحنطة من فراش وِتل، صاح بصوت جهير قوي جعل أَيْبل يهبُّ من فوره، ولمَّا رأى هنْشَرْد واقفًا صُعِق وسيطرت عليه حركات تشنُّجية لم تمهله

ليرتدي ملابسه.

«اترك الفراش أيُّها السيد وفورًا إلى المخزن وإلا اترك عملك معي اليوم! سألقّنك درسًا. تقدَّم، ولا تهتم بينطالك!»

ارتدى وِتل التعِس سترته وتمكَّن من ارتداء حذائه عند أسفل السُّلَّم في حين ألقى هنْشَرْد قبعته على رأسه. كان وِتل يهرول على طول شارع باك وهنْشَرْد يمشي وراءه متجهِّمًا.

في هذه اللحظة خرج فَارْفرَي من البوابة الخلفية وكان قد ذهب إلى منزل هنْشَرْد بحثًا عنه، ورأى شيئًا أبيض يرتعش في الغَبَش، وسرعان ما أدرك أنه جزء من قميص أَيْبل الذي بان أسفل سترته.

«بحقِّ الرَّبِّ، ما الذي يحدث؟» قال فَارْفرَي وهو يتبع أَيْبل في الفناء، وكان هنْشَرْد بعيدًا بعض الشيء في الخلف في هذه الأثناء.

«أترى يا سيد فَارْفرَي،» بربر أَيْبل وقد علت وجهه ابتسامة رعب واستسلام، «لقد قال إنه سيُهينني إن لم أستيقظ باكرًا، وها هو يفعل ذلك! أترى لا يمكن فعل شيء يا سيد فَارْفرَي، الأشياء تحدث أحيانًا على نحو غريب! أجل، سأذهب إلى بطحاء بلاكْمُور نصف عارٍ لأنه أمر بذلك، ولكنني سأقتل نفسي بعدها! فلا طاقة لي بهذا الخزي، سترى النساء ما أنا عليه من خزي من نوافذهن على طول الطريق وسيضحكن ويسخرن من رجل بلا بنطال! لو تعلم شعوري حيال هذه الأمور يا سيد فَارْفرَي وكيف تتملَّكني الأفكار البائسة. أجل، سأؤذي نفسي، أُحس بذلك آتيًا قريبًا.»

«عُد إلى المنزل وارتدِ بنطالك ثم تعال واعمل كالرجال! وإن لم تفعل فسترى موتك ماثلًا هناك!»

«أخشى أنني لا أستطيع! لقد قال السيد هنْشَرْد ...»

«لا يهمُّني ما قال السيد هنْشَرْد أو أيُّ شخص آخر! من الحماقة فعل هذا. انصرف وارتدِ ملابسك فورًا يا وِتل.»

«هيَّا، هيَّا!» قال هنْشَرْد وهو مقبلٌ من الخلف. «مَن أشار إليه بالعودة؟»

نظر جميع الرجال نحو فَازْفرَي.

«أنا،» قال دونلد. «أقول إنَّ هذه المزحة ذهبت بعيدًا بما يكفي.»

«وأنا أقول إنها لم تفعل! اصعد إلى العربة يا وِتل.»

«لن يفعل لأنني المدير هنا،» قال فَازْفرَي. «إمَّا أن يعود إلى البيت أو أخرج أنا من هذا الفناء إلى الأبد.»

نظره هنْشَرْد بوجه صارم مُحْمَرٍّ، ولكنَّه توقَّف لحظة فالتقت عيونهما. اقترب منه دونلد لأنه رأى في نظرة هنْشَرْد أنه قد بدأ يندم على فعلته.

«تعال،» قال دونلد بهدوء، «يجدر برجل في مقامك أن يتصرَّف بطريقة أفضل يا سيدي! إنه تصرُّف استبدادي ولا يليق بك.»

«ليس استبداديًّا!» غمغم هنْشَرْد مثل صبي نكِد. «هذا يجعله يتذكَّر!» أضاف بنبرة شخص أُهين على نحو مرير: «لِمَ تحدَّثت إليَّ هكذا أمامهم يا فَازْفرَي؟ كان يمكنك الانتظار حتى نكون وحدنا. آه، أعرف لماذا! لقد أفضيتُ إليك بسرِّي، كم كنت أحمق لأنني لم أفكِّر بأنك ستستغلُّ ذلك!»

«لقد نسيت سرَّك،» قال فَازْفرَي ببساطة.

طأطأ هنْشَرْد رأسه ولم يقل المزيد وانصرف. في أثناء ذلك اليوم عَلِم فَازْفرَي من الرجال بأنَّ هنْشَرْد قد زوَّد والدة أَيْبل العجوز بالفحم طوال الشتاء الفائت، مما جعل أَيْبل أقل عداء لتاجر الحنطة. لكنَّ هنْشَرْد استمر في مزاجه وصمته، ولمَّا سأله أحد الرجال عمَّا إذا كان ينبغي رفع بعض الشعير إلى الطابق العلوي للمخزن قال باختصار: اسأل السيد فَازْفرَي. فهو المدير هنا!»

من الناحية الأخلاقية كان فَازْفرَي هو المدير دون شك. بعد أن كان هنْشَرْد حتى ذلك الحين أكثر الرجال إثارة للإعجاب في دائرته، لم يعد كذلك الآن. ذات يوم، أرادت بنات مزارع متوفى من ديرنوفر رأيًا حول قيمة كومة

من التبن، فأرسلن رسولًا يسأل السيد فَازْفري أن يتكرَّم بالإدلاء برأيه. قابل الرسول، وكان طفلًا، هنْشَرْد في الفناء وليس فَازْفري.

«حسنٌ جدًّا،» قال هنْشَرْد. «أنا سآتي.»

«ولكن رجاء، ألن يأتي السيد فَازْفَري؟» قال الطفل.

«أنا في طريقي إلى هناك... فلماذا السيد فَازْفَريّ؟» قال هنْشَرْد وفي عينيه نظرة ثابتة. «لِمَ يريد الناس السيد فَازْفَريّ دائما؟»

«أعتقد لأنهم يحبُّونه، هذا ما يقولونه.»

«أوه، فهمت، أهذا ما يقولون؟ إنَّهم يحبونه لأنه أذكى من السيد هنْشَرْد ولأنه يعرف أكثر، وباختصار لا يضاهيه السيد هنْشَرْد في شيء، أليس كذلك؟»

«بلى، تمامًا يا سيدي، هذا بعض مما يقولون.»

«أوه، أهناك المزيد؟ بالطبع هناك المزيد! ماذا بعد؟ هيًّا، هاك ست بنسات للتَّسوُّق.»

«ويقولون إنه ألطف طبعًا وهنْشَرْد أحمق مقارنة به، وعندما كانت مجموعة من النسوة في طريقهن إلى منازلهن قلن: إنه رجل من الماس، وإنه قويٌّ، وإنَّه الأفضل، وإنَّه الحصان الذي يُراهَن عليه بالمال، وقلن أيضا أنه أكثر الرجلين فهمًا بكثير. ويقولون نتمنى لو كان هو السَّيِّد بدلًا من هنْشَرْد.»

«سيقولون الكثير من الهراء،» أجاب هنْشَرْد وقد غشيته كآبة. «حسنٌ، يمكنك الانصراف الآن، وسآتي لتقدير قيمة التبن، أتسمع؟» انصرف الصبي وتمتم هنْشَرْد: «يتمنون لو كان هو العمدة هنا، أهذا ما يتمنَّونه؟»

ومضى صوب ديرنوفر. وفي طريقه صادف فَازْفَري، فسارا معًا وكان هنْشَرْد مطأطِئ الرأس معظم الوقت.

«لا تبدو على طبيعتك اليوم؟» سأله فَازْفَري.

«بلى، أنا على أحسن ما يرام،» قال هنْشَرْد.

«ولكنك تبدو مهمومًا قليلًا، مؤكَّدٌ أنك مهموم، عجبًا! لا شيء يستحق الغضب! لقد حصلنا على مردود رائع من بطحاء بلاكْمُور. بهذا الخصوص، يريد قوم ديرنوفر تقدير قيمة تِبنِهم.»

«أجل. أنا ذاهب إلى هناك.»

«سأذهب معك.»

لم يردَّ هنْشَرْد، فراح دونلد يدندن لحنًا موسيقيًا بصوت هامس[43] حتى اقتربا من منزل عائلة الفقيد ووقف وقال: «آه، والدهم متوفى وما كان ينبغي أن أمضي في الدندنة هكذا. كيف نسيت ذلك؟»

«وهل تأبه كثيرًا عندما تجرح مشاعر الآخرين؟» علّق هنْشَرْد ساخرًا. «إنك تأبه، أعرف، ولا سيَّما بمشاعري!»

«آسف إن كنت قد جرحت مشاعرك يا سيدي.» أجاب دونلد وقد تسمَّر في مكانه وعلى وجهه تعبيرٌ عن مشاعر الأسف. «لِمَ تقول ذلك ولِمَ تظنُّ ذلك؟»

انزاحت الغشاوة عن جبين هنْشَرْد، ولمَّا أنهى دونلد حديثه استدار تاجر الحنطة إليه ناظرًا إلى صدره لا إلى وجهه.

«لقد سمعت كلامًا أزعجني،» قال. «وهو ما جعلني جافًّا في سلوكي، وجعلني أغفل حقيقتك. والآن، لا أودُّ الدخول إلى هناك بشأن التبن يا فَارْفرَي، يمكنك القيام بذلك خيرًا مني. ثمَّ إنهم قد أرسلوا في طلبك أنت. وأنا عليَّ أن أحضر اجتماعًا لمجلس البلدية في الحادية عشرة وقد اقترب أوانه.»

وهكذا افترقا وقد جدَّدا صداقتهما، وأمسك دونلد عن سؤال هنْشَرْد عن مقاصد لم تكن واضحة له. أمَّا هنْشَرْد من جانبه فقد هدأ، ومع ذلك، كان كلما فكَّر في فَارْفرَي فكَّر فيه برهبة غامضة، وكثيرًا ما ساوره النَّدم لأنه أفضى للشاب بمكنون قلبه وائتمنه على أسرار حياته.

---

43) في الأصل بالإيطالية sotto voce. (المترجمة)

الفصل السادس عشر

من أجل هذا أصبح سلوك هنْشَرْد إزاء فَارْفرَي أكثر تحفظًا على نحو غير محسوس. فقد كان كيِّسًا، مفرطًا في الكياسة، حتى دُهِش فَارْفرَي كثيرًا من خصلة الكياسة هذه التي نشأت أول مرة الآن بين خصال رجل ظنَّه حتى اللحظة رجلًا غير منضبط النفس، وإن كان ودودًا وصادقًا. أصبح تاجر الحنطة نادرًا ما يضع ذراعه على كتف الشاب حتى لا يثقل عليه بضغط صداقة آليَّة. وتوقَّف عن الذهاب إلى مسكن دونلد والهتاف في الرُّواق: «هوي، فَارْفرَي، أيها الفتى تعال وتناول العشاء معنا! لا تجلس هنا في حبسك الانفرادي!»، ولكن كان ثمَّة تغيُّر طفيف في روتينهما اليومي في العمل.

وهكذا مضت حياتهما حتى جاء يوم فرح شعبي على مستوى البلاد كلِّها احتفالًا بمناسبة وطنية.

وبسبب طبيعتها البطيئة لم تستجب كاستربرِدْج بعض الوقت. ثم أثار فَارْفرَي الموضوع في أحد الأيام أمام هنْشَرْد بسؤاله إن كان لا يعترض أن يعيرهم بعض أغطية التبن لأنهم يعتزمون تنظيم حفل في ذلك اليوم المزعوم، ويريدون نصب وقاء لهذا الغرض حيث يمكنهم وضع رسوم لدخول الحفل لكل شخص.

«خذوا ما شئتم من الأغطية،» أجاب هنْشَرْد.

وحين انصرف مدير أعماله إلى إنجاز هذا العمل اتَّقد هنْشَرْد بحمى المنافسة. وفكَّر في أنه يقينًا كان توانيًا كبيرًا منه بوصفه عمدة عندما لم يدعُ إلى اجتماع قبل هذا لمناقشة ما الذي ينبغي فعله في هذه المناسبة. غير أنَّ فَارْفرَي كان سريعًا للغاية ولم يترك للأشخاص عتيقي الطراز ممن هم في

السلطة فرصة المبادرة. ومع ذلك لم يفُت الأوان بعد، وعندما أعاد النظر عزم على أن يحمل على عاتقه مسؤولية تنظيم بعض الأنشطة الترفيهية إذا ترك له أعضاء المجلس الآخرون الموضوع. وقد وافقوا على الفور على ذلك، وكان غالبيتهم طاعنًا في السِّنِّ ممن ألِف العيش من دون قلق.

بدأ هنْشَرْد في الإعداد لشيء باهر حقًّا، شيء يليق بالبلدة المَهيبة. أمَّا استعداد فَارْفرَي التافه فقد نسيه هنْشَرْد تقريبًا ولا يتذكَّره إلَّا بين الحين والآخر ويقول لنفسه: «وضع رسوم دخول لكل شخص! إنه تصرُّف رجل اسكتلندي! من ذا الذي سيدفع لكل شخص؟» ستكون التسالي التي ينوي العمدة تقديمها مجانية تمامًا.

لقد كان كثير الاعتماد على دونلد إلى حدٍّ أنه كاد يعجز عن مقاومة الرغبة في مناداته لأخذ مشورته، إلَّا أنَّه كان يتراجع بدافع إكراه ذاتي محض. كلَّا، فكَّر في نفسه، سيقترح فَارْفرَي تعديلًا هنا وهناك بطريقته المستنيرة اللعينة رغمًا عنه هو، هنْشَرْد، الذي سينحدر دوره ليكون ثانويًّا ولا يعود بوسعه سوى إطراء مواهب مدير أعماله.

رحَّب الجميع بالأنشطة الترفيهية التي اقترحها العمدة، ولا سيَّما عندما غدا معروفًا أنه ينوي التَّكفُّلَ بالدفع كلِّه بنفسه.

كان هناك قريبًا من البلدة بقعة خضراء مرتفعة تحيط بها تحصينات رمليَّة مربعة الشكل وأخرى غير مربعة أخذت تنتشر بكثرة مثل ثمار العُلَّيْق. في هذه البقعة، كان سكان كاستربرِدْج عادة ما يقيمون أفراحهم واجتماعاتهم أو أسواق بيع الماشية التي تتطلَّب مساحة أوسع من الطُّرق. تميل هذه البقعة من أحد جوانبها على نهر فرُوم، ومن أي نقطة فيها يمكن رؤية محيط القرية على مدى أميال عديدة. كان هذا النَّجْدُ اللطيف هو المكان الذي اختاره هنْشَرْد لمأثرته.

راح يعلن في البلدة في لوافت طويلة ورديَّة اللون أنواعًا شتى من الألعاب

التي ستُقام هنا، وجعل كتيبة من الرجال تعمل تحت إشرافه، فأقاموا أعمدة ناعمة الملمس للتَّسلُّق وعلَّقوا فوق رؤوسها شرائح لحم خنزير مدخَّنًا وأجبانًا محلِّيَّة. ووضعوا صفوفًا من الحواجر للقفز فوقها، ومدُّوا فوق النهر عمودًا زلقًا ربطوا بأحد طرفيه خنزيرًا حيًّا جلبوه من الجوار ليصبح ملك الرجل الذي يستطيع السير على العمود للوصول إلى الخنزير. كما جلبوا عجلات يدوية وحميرًا للسباق، وحلبة للملاكمة والمصارعة وإراقة الدماء عمومًا، وأكياسًا للقفز. إضافةً إلى ذلك، لم ينسَ هنْشَرْد أصول الضيافة، فأعدَّ حفل شاي ضخمًا. دعا إليه كلَّ قاطني البلدة للمشاركة دون أن يدفعوا شيئًا. ووُضعت الموائد محاذية للمنحدر الداخلي للتحصينات، ونُصبت المظلات فوقها.

بينما كان العمدة يتجوَّل ذهابًا وإيابًا رأى البناء الخارجي غير الجذَّاب الذي أقامه فَارْفرَي في الممشى الغربي، وأغطية التبن مختلفة الأحجام والألوان التي عُلِّقت على الأشجار دون أي مراعاة للمنظر. كان مرتاح البال لأنَّ استعداداته فاقت ذلك كلَّه بكثير.

أقبل الصباح، فإذا بالسماء التي كانت صافيةً جدًّا يومًا أو يومين تتلبَّد بالغيوم، والجوُّ يكفهرُّ، والريح تحمل قطرات تنذر بالمطر بشكل جليّ. تمنَّى هنْشَرْد لو أنه لم يطمئنَّ كثيرًا إلى استمرار الطقس الصحو، ولكنَّ الوقت متأخِّر كثيرًا عن القيام بأيِّ تعديل أو تأجيل، فاستمر التحضير. وفي الثانية عشرة بدأ المطر بالهطول في شكل قطرات صغيرة ومنتظمة راحت تزيد تدريجًا حتى أصبح من الصعب تحديد متى انتهى الطقس الجاف وبدأ الماطر. وفي غضون ساعة تحوَّلت القطرات الصغيرة إلى ضربات رتيبة سَحَّتْها السماء على الأرض سحًّا، وأمطرت وابلًا لا يمكن التَّكهُّن بنهايته.

وتجمَّعت ثُلَّة من الناس على نحوٍ بطوليٍّ في الساحة، ولكن عند الساعة الثالثة أدرك هنْشَرْد أنَّ مشروعه محكوم عليه بالفشل. أخذت قطع لحم الخنزير المعلَّقة على الأعمدة تقطر سائلًا بنِّيًا، وراح الخنزير يرجف من

البرد، وبانت حُبيبات أسطح الموائد تحت المفارش الملتصقة بها لأن المظلات سمحت لقطرات المطر بالتدفُّق من خلالها، وبدت تغطية جوانب المظلات في هذه الساعة مهمة عديمة الجدوى. تلاشى المنظر الطبيعي فوق النهر، وأخذت الريح تلعب بحبال الخيمة وكأنها تعزف ألحانًا عُولُسيَّة، وأخيرًا زادت قوتها حتى مالت الخيمة كلُّها على الأرض، وأخذ أولئك الذين احتموا بها يزحفون من تحتها على أيديهم وركبهم.

ولكنَّ العاصفة خفتت عند السادسة، وهبَّ نسيم جاف نفض قطرات الماء عن الأعشاب. وبدا ممكنًا مواصلة الحفل على كل حال، فأُعيد نصب المظلات، ودُعيت الفرقة إلى الخروج من مخبئها، وطُلب إليها بدء العزف، وأزيحت الموائد لإفساح المجال للرقص.

«ولكن أين الجمع؟» قال هنْشَرْد بعد انقضاء نصف ساعة وقف خلالها رجلان وامرأة فقط للرقص. «المتاجر كلها مغلقة، فلِمَ لا يأتون؟»

«إنهم في حفل فَارْفرَي في الممشى الغربي.» أجاب أحد أعضاء المجلس البلدي الذي كان يقف في الحقل مع العمدة.

«القليل منهم أعتقد!، أين البقية؟»

«الجميع خرج إلى هناك.»

«ليسوا أكثر من حمقى!»

وابتعد هنْشَرْد منزعجًا. تقدَّم شابان بشجاعة وتسلَّقا الأعمدة لإنقاذ قطع لحم الخنزير، ولمَّا لم يكن هناك متفرِّجون وكان المشهد بأكمله يوحي بمظهر كئيب، أصدر هنْشَرْد أوامره بوقف الإجراءات وإغلاق أماكن الترفيه وتوزيع الطعام بين فقراء البلدة. وفي غضون وقت قصير لم يتبقَّ شيء في الحقل سوى بضعة حواجز والخيام والأعمدة.

عاد هنْشَرْد إلى منزله وتناول الشاي مع زوجته وابنته، ثم خرج. كان الوقت غسقًا. لقد رأى أنَّ جميع المتنزهين كانوا يتجهون صوب بقعة معينة

على الطريق، وأخيرًا اتجه هو نفسه إلى هناك. كانت ألحان فرقة موسيقية تصل من المكان الذي نصبه فَارْفرَي، الجناح كما أطلق عليه. وعندما وصل أدرك أنَّ خيمة ضخمة نُصبت ببراعة هناك ومن دون أعمدة أو حبال. لقد اختار فَارْفرَي أكثر البقع كثافة بأشجار الجُمَّيز، حيث صنعت الأغصان عُقدًا متشابكة في الأعلى عُلِّقت فيها أقمشة الكتَّان فكانت النتيجة سقفًا أسطوانيًا مستديرًا. كان الجانب المفتوح على الريح مغلقًا، في حين بقي الجانب الآخر مفتوحًا. دار هنْشَرْد ونظر داخل المكان.

بدا البناء في شكله مثل صحن كاتدرائية أُزيل أحد أسقفه، لكنَّ المشهد في الداخل لم يكن مشهد عبادة مطلقًا. كان المجتمعون في تلك الأثناء يؤدون رقصة اسكتلندية، وكان فَارْفرَي، الرَّزين عادةً، في الوسط بين الراقصين بزيٍّ قاطني المرتفعات الاسكتلندية، يتمايل ويدور مع الألحان. لم يتمالك هنْشَرْد نفسه من الضحك وهلةً، ولكنه رأى بعد ذلك الإعجاب الكبير بالاسكتلندي في وجوه النساء. وعندما انتهى هذا العرض بدأت رقصة جديدة، واختفى دونلد لحظات ليعود في ثيابه المعتادة، كان أمامه خيارات غير محدودة من الفتيات شريكات للرقص، فقد كانت كل واحدة تميل إلى الرقص مع شابٍّ مثله يدرك جيِّدًا شعرية الحركة.

تدافع الناس كلهم صوب الطريق، ولم تخطر ببالهم قطُّ مثل هذه الفكرة اللطيفة بإقامة حفل راقص من قبل. كان بين بقية المتفرجين إلِزابث وأمُّها، وبدت الأولى متحفِّظة ولكنها مهتمَّة، كانت عيناها تشعان ببريق وتوق دائم، وكأن كُرِّجو[44] أوحى للطبيعة بخلقهما. كان الرقص يتقدَّم بحماسة لا تخمد، ومضى هنْشَرْد وانتظر حتى يحين وقت انصراف زوجته إلى المنزل. لم يأبه بالوقوف في الضوء، وعندما وقف في الظلام كان الوضع أسوأ، ذلك أنه

44) Correggio رسّام إيطالي شهير برع في تصوير وجوه النساء.

سمع تعليقات متكررة كثيرًا: «حفل السيد هنْشَرْد لم يصمد أمام هذا،» قال أحدهم. «لا بد أن يكون شخصًا أحمق من يعتقد أنَّ الناس سيذهبون إلى ذلك المكان الكئيب اليوم.»

أجاب الآخر بأنَّ الناس قالوا إنَّ العمدة لم يكن يبغي مثل هذه الحفلات. «ما الذي كان سيحلُّ بتجارته لولا هذا الرفيق الشاب؟ لقد ساقه الحظ بلا ريب إلى هنْشَرْد. لقد كانت حساباته غير منتظمة مثل أغصان العُلَّيق عندما قدم السيد فَارْفرَي. وقد اعتاد أن يَعُدَّ الأكياس بالشطب بالطباشير في صف واحد مثل أسوجة الحدائق، ويقيس أكداس الحنطة بفرد ذراعيه، ويزن الحُزَم برافعة، ويُقيِّم التبن بمضغه. ولكنَّ هذا الشاب البارع ينجز ذلك كله الآن بالحساب والقياس. ثم تلك الحنطة التي كان لها مذاق الفئران عندما تُحوَّل إلى خبز بالكاد كان الناس يُسمُّونه خبزًا، وأوجد فَارْفرَي خطة لتنقيتها بطريقة لم يكن لأحد أن يحلم يومًا أنَّ تلك الحيوانات الصغيرة قد سارت عليها مرة. بلى، كُلُّهم معجب به، والسيد هنْشَرْد مؤكَّدٌ أنه مرغم على إبقائه!» وأنهى الرجل كلامه.

«ولكنه لن يبقيه طويلًا،» قال الآخر.

«لا!» قال هنْشَرْد لنفسه من وراء الشجرة. «وإن فعل فسوف يجرِّد من شخصيته والوضع الذي بناه طوال هذه الأعوام الثمانية عشر!»

قفل إلى جناح الرقص. كان فَارْفرَي يرقص رقصة ظريفة قصيرة مع إلِزابث جيْن. كانت الرقصة شعبية قديمة، الوحيدة التي تعرفها، ومع أنه خفَّف إلى حد بعيد من حركاته ليماشي حركاتها الخفيفة، بدت المسامير الصغيرة اللامعة في باطن حذائه واضحة للمتفرجين. أغراها اللَّحن بالرقص، ولا سيَّما أنه كان لحنًا متصل الحركة، وثَّابًا وقافزًا مثل صعود سلَّم وهبوطه. كان اسم المقطوعة «الآنسة ملويد من بلدة آير»[45] كما قال السيد فَارْفرَي،

45) "Miss M'Leod of Ayr" أغنية اسكتلندية قديمة رقص هاردي على لحنها عندما كان صغيرًا وعزف أبوه اللحن على الكمان. وقد كان هذا اللحن من أكثر الألحان التي تأثَّر بها لدرجة البكاء.

وأنها معروفة كثيرًا في بلده.

وسرعان ما انتهت الرقصة، ونظرت الفتاة إلى هنْشَرْد طلبًا للموافقة، لكنَّه لم يمنحها، وبدا كأنَّه لم يرها. «اسمع يا فَارْفرَي»، قال وكأنَّ عقله في مكان آخر، «سأذهب غدًا بنفسي إلى سوق بورت برِدي الكبير. ولك أن تبقى لتُعِدَّ حقائبك وتستعيد قواك بعد نزواتك.» وحدج دونلد بنظرة عدائية بدأها بابتسامة.

أقبل بعض رجال البلدة وتنحَّى دونلد جانبًا. «ما خطبك يا هنْشَرْد»؟ قال تَبَر، عضو المجلس البلدي، موجِّهًا إبهامه إلى تاجر الحنطة التي بدت أشبه بأداة تذوُّق عيِّنات الجبن. «ألأنه شخص مرح يختلف عنك؟ لقد أصبح العامل خيرًا من رئيسه، أليس كذلك؟ قطع عليك دربك، أليس كذلك؟»

« أترى يا سيد هنْشَرْد،» قال المحامي، وهو صديق ودود آخر، «كيف مضيت بعيدًا في غيِّك! كان ينبغي أن تفيد من خبرته وتقيم حفلك في مكان مغطًى كهذا. ولكنك لم تفكِّر في ذلك، في حين إنه فكَّر ومن هنا تفوَّق عليك.»

«سوف يتفوَّق عليك قريبًا ويرأس كل شيء،» أضاف السيد تَبَر المزَّاح.

«كلَّا،» قال هنْشَرْد بكآبة. «لن يفعل لأنَّه سيتركني قريبًا.» نظر نحو دونلد الذي اقترب ثانيةً. «عَمَلُ السيد فَارْفرَي مديرًا لأعمالي يدنو من النهاية، أليس كذلك يا فَارْفرَي؟»

وافق الشاب بهدوء وقد أصبح الآن بمقدوره قراءة الخطوط والغضون على وجه هنْشَرْد البارز الملامح وكأنها نقوش مكتوبة واضحة. وحين أسف الناس على هذه الحقيقة وسألوه عن السبب أجابهم ببساطة بأنَّ السيد هنْشَرْد لم يعد بحاجة إلى مساعدته.

ومضى هنْشَرْد إلى منزله راضيًا كما بدا. ولكنَّه في الصباح، حين تلاشى طبعه الغيور شعر بالأسف على ما قال وفعل. وصار أكثر انزعاجًا عندما أدرك أنَّ فَارْفرَي عازمٌ هذه المرة على أخذ كلامه على محمل الجدّ.

الفصل السابع عشر

أدركت إلِزابث جيْن من سلوك هنْشَرْد أنها ارتكبت خطأ من نوع ما عندما وافقت على الرقص. ولبساطتها لم تعرف ما هو الخطأ حتى فهمت من إيماءة من أحد معارفها. عرفت أنَّ كونها ربيبة العمدة لم تكن في وضع يتيح لها الرقص بين حشد كهذا يملأ جناح الرقص.

ولذلك توهَّجت أذناها ووجنتاها وذقنها مثل جمر ملتهب لمجرد بزوغ فكرة أنَّ ذوقها لم يكن ملائمًا لوضعها مطلقًا وأنها ستجلب العار لنفسها.

لقد جعلها ذلك بائسة جدًّا، وراحت تبحث عن أمها، بيْد أنَّ السيدة هنْشَرْد التي كانت أقل دراية من إلِزابث نفسها بهذه التقاليد، كانت قد غادرت تاركة ابنتها لتعود متى شاءت. اتجهت إلِزابث إلى جادة كثيفة قديمة مظلمة أو بالأحرى ناحية أشغال الخشب التي تمتد على طول حدود البلدة، ووقفت تفكِّر.

بعد دقائق معدودة تبعها رجل، واستطاع معرفتها لأن وجهها كان ناحية الضوء القادم من الخيمة. كان ذلك فَارْفرَي، وبالكاد قد خرج من ذلك الحوار مع هنْشَرْد الذي أفاد بطرده.

«أهذه أنت يا آنسة نيوسن؟ لقد كنت أبحث عنك في كل مكان!» قال مُغالبًا الحزن الذي ألمَّ به بسبب النفور الذي أبداه تاجر الحنطة. «هلا سمحت لي بالسير معك حتى زاوية الطريق؟»

اعتقدت أنَّ ثمة خطأ في ذلك، ولكنها لم تتفوَّه بأيِّ اعتراض. ولذا سارا معًا، أولًا إلى أسفل الطريق الغربي، ثم إلى طريق بولينغ، حتى قال فَارْفرَي: «يبدو أنني سأتركك عمَّا قريب.»

قالت بتلعثم: «لماذا؟»

«إنَّه شأن يتعلق بالعمل وحسب ولا شيء آخر. ولكننا لن نزعج أنفسنا بذلك، إنَّه الحل الأفضل. تمنَّيت أن أرقص رقصة أخرى معك.»

قالت إنها لم ترقص بطريقة جيدة. «لا، ولكنك ترقصين جيدًا! إنه الإحساس ما يجعل الراقصين سعداء أكثر من تعلُّم الخطوات... أخشى أنني سبَّبت الأذى لوالدك بفعل هذا! والآن، لعلَّني سأرحل إلى مكان آخر من العالم!»

بدا ذلك أمرًا محزنًا جدًّا حتى إنَّ إلِزابث جيْن أفلتت تنهيدة في زفرات متقطعة حتى لا يسمعها. بيْد أنَّ الظلام يجعل الناس صادقين، وأردف الاسكتلندي باندفاع، فلعلَّه سمعها على أية حال: «أتمنى لو كنت أكثر ثراء يا آنسة نيوسن، ولو لم أزعج والدك، لكنتُ طلبت منك شيئًا في فترة قصيرة، لكنتُ طلبته الليلة. لكنَّ ذلك ليس بيدي!»

ولم يقل لها ما الذي كان سيطلبه منها، وبدلًا من تشجيعه ظلَّت صامتة. كان كلاهما متهيِّبًا من الآخر، فواصلا سيرهما بمحاذاة السور حتى اقتربا من أسفل طريق بولينغ، عشرون خطوة وينتهي سياج الأشجار، وتراءت ناصية الطريق والمصابيح. وعندما تبيَّنا ذلك وقفا.

«لم أعرف قط من الذي أرسلنا إلى مخزن الحبوب في ديرنوفر في مهمة كاذبة ذلك اليوم،» قال دونلد بنبرته المتموجة. «هل عرفت شيئًا عن ذلك يا آنسة نيوسن؟»

«مطلقًا،» قالت.

«أتعجَّب لِم فعلوا ذلك!»

«رُبَّما للتسلية.»

«ربما لم يكن للتسلية. لعلَّهم أرادوا لنا أن نبقى هناك ننتظر ليحدِّث أحدنا الآخر؟ حسنٌ، أرجو ألَّا تنسوني أنتم يا أهالي كاستربرِدْج عندما أرحل.»

«متيقّنة أننا لن ننساك!» قالت بصدق. «أتمنى ألَّا ترحل أبدًا.»

وصلا إلى حيث المصابيح. «سأفكر في الأمر،» قال دونلد فارْفرَي. «لن أقترب من باب منزلك، وسأفترق عنك هنا خشية أن يتفاقم غضب والدك.»

افترقا، وعاد فَارْفري إلى طريق بولينغ المظلم وصعدت إلِزابث جيْن الطريق. ودون وعي منها بما تفعل بدأت بالجري بكل ما أوتيت من قوة حتى بلغت باب منزل والدها. «يا إلهي ما الذي دهاني؟» فكرت وهي تقف لاهثة.

وفي الداخل راحت تخمّن معنى كلمات فَارْفري الغامضة بشأن ما لم يجرؤ أن يطلبه منها. إلِزابث، تلك المرأة الصامتة المتأمِّلة، لاحظت منذ مدة طويلة كيف أصبح أهالي البلدة يحبونه، ولأنها صارت تعرف طبيعة هنْشَرْد خشيت أنَّ أيام فَارْفري بوصفه مديرًا باتت معدودة، ولذا لم يفاجئها اعترافه كثيرًا. هل سيبقى السيد فَارْفري في كاستربرِدْج رغم ما قال ورغم طرد والدها إياه؟ لعلَّ مساره في هذا الشأن قد يكشف اعترافاته الغامضة لها.

كان اليوم التالي عاصفًا، عاصفًا جدًّا حتى إنها عندما كانت تتمشى في الحديقة التقطت مسوَّدة رسالة عمل بخط يد دونلد فَارْفري، كانت قد فرَّت من المكتب فوق الجدار. حملت القصاصة عديمة الجدوى معها إلى الداخل وبدأت تنسخ الخط الذي أُعجبت به أيَّما إعجاب. كانت الرسالة تبدأ بـ «عزيزتي السيدة،» وكَتبت على القصاصة «إلِزابث جيْن» واضعةً اسمها فوق «السيدة» لتصبح العبارة: «عزيزتي إلِزابث جيْن.» وعندما رأت الأثر سرعان ما احمرَّ وجهها وغمرها الدفء، مع أنه لم يكن هناك أحد ليرى ما فعلت. سارعت بتمزيق القصاصة ورميها. وبعد ذلك أحست بالبرودة وضحكت من نفسها، وتمشت في الحجرة وضحكت مرة أخرى، ولكن ليس بمرح، وإنما بجزع.

سرعان ما عُرف في كاستربرِدْج أنَّ فَارْفري وهنْشَرْد قرَّر كلٌّ منهما الاستغناء عن الآخر. وقد بلغ توْق إلِزابث جيْن إلى معرفة ما إذا كان فَارْفري

سيرحل حدًّا سبَّب لها الكَدَر، ذلك أنها لم تعد قادرة على إخفاء السبب عن نفسها. وفي نهاية المطاف بلغتها الأخبار بأنه لن يغادر المكان. كان هناك رجل يعمل في تجارة هنْشَرْد نفسها ولكن على مستوى ضئيل جدًّا قد باع تجارته لفَارْفري الذي بدأ من فوره يعمل تاجر حنطة وتبن لحسابه الخاص.

رفرف قلبها لهذه الخطوة التي اتخذها فَارْفري ليثبت أنه ينوي البقاء، ومع ذلك، هل يمكن رجلٌ أبدى لها بعض الاهتمام أن يُعرّض نفسه للخطر بإقامة تجارة تعارض تجارة هنْشَرْد؟ قطعًا لا، لا بدَّ أنها كانت نزوة عابرة وحسب قادته إلى مخاطبتها بذلك اللُّطف كلِّه.

ولكي تحلّ معضلة ما إذا كان مظهرها في ليلة الرقص تلك يثير حبًّا عابرًا من النظرة الأولى، ارتدت ثيابها وتأنَّقت بالطريقة نفسها في تلك الليلة، الثوب الحريري، السترة القصيرة، الخُفَّيْن، المظلة، وطالعت نفسها في المرآة. كانت الصورة المنعكسة في رأيها من النوع الذي يثير تمامًا ذلك الاهتمام العابر ولا شيء أكثر: «بطريقة كافية لتجعله يُعجَب بها، ولكنها لا تكفي ليبقى كذلك»، قالت بوضوح. وفكَّرت إلِزابث، بانتقاص أكثر، بأنَّه بحلول هذا الوقت سيكتشف كم كانت عاديَّة وبسيطة روحُ ذلك الجمال الخارجي.

وهكذا، كلما أحسَّت بقلبها يهفو إليه قالت لنفسها مازحة بسخرية مشوبة بألم: «لا، لا يا إلِزابث جيْن، أحلام كهذه ليست لكِ!» وحاولت منع نفسها من رؤيته ومن التفكير فيه. وقد نجحت إلى حدٍّ كبير في الأولى، ولكن ليس تمامًا في الثانية.

هنْشَرْد، الذي تألّم لَمّا عرف أنَّ فَارْفري لم يعد يحتمل تقلُّبات طبعه، استشاط غضبًا عندما علم بما فعله الشاب تعويضًا عن ذلك. كان ذلك في مجلس البلدية بعد الاجتماع عندما عرف أولَّ مرة عن خطوة فَارْفري المفاجئة بإقامة تجارته المستقلة في البلدة، وكان صوتُه يمكن أنْ يُسمَع حتى أقصى مضخة البلدة وهو يعبِّر عن مشاعره لرفاقه في المجلس البلدي. مع أنه

أصبح عمدة وحامي كنيسة وغير ذلك بسبب مدة طويلة من ضبط النفس، أبدت نبراته هذه أنه ما زال هناك بركان جامح تحت القشور الخارجية لمايكل هنْشَرْد مثلما حدث عندما باع زوجته في سوق وِيدون.

«حسنٌ، هو صديقي وأنا صديقه، وإن لم نكن كذلك فما نكون؟ يا إلهي! إن لم أكن صديقه فمن هو صديقه، أريد أن أعرف؟ ألم يأت إلى هنا حافي القدمين؟ ألم أُبقيه هنا وأساعده ليعمل؟ ألم أمدَّه بالمال وكلّ ما أراد؟ ولم أضع أيَّة شروط، قلت له: حدِّد المبلغ الذي تريده. كنت سأقاسم هذا الرفيق الشاب آخر كسرة خبز لي، فلقد أحببته كثيرًا. والآن ها هو يتحدَّاني! عليه اللعنة، سيكون بيننا صراع الآن في البيع والشراء في السوق، لاحظوا! في البيع والشراء في السوق! وإن لم أتمكن من مزايدة غلام مثله فسأكون عديم الجدوى! لسوف نثبت أنَّنا نجيد عملنا كما يجيده أي شخص هنا وهناك!»

ولم يُجِب رفاقه، على الأخص، في المجلس، فقد أصبح هنْشَرْد أقلَّ شعبية الآن مما كان عليه قبل عامين عندما انتُخب رئيسًا للقضاة بسبب ما تمتَّع به من طاقة مدهشة. وفي حين إنهم استفادوا جميعًا من هذه الخصلة في تاجر الحنطة، كان كل فرد منهم يجفل منه في أكثر من مناسبة. خرج من قاعة المجلس ومضى في الطريق وحيدًا.

عندما بلغ المنزل تذكَّر شيئًا برضا يشوبه غضب، فنادى إلِزابث جيْن. ارتاعت لمَّا دخلت ورأت ما عليه من حال.

«لا شيء يقلق» قال ملاحظًا قلقها. «أردت فقط أن أحذِّرك يا عزيزتي. الأمر يتعلَّق بذلك الرجل، فَارْفري. رأيته يحادثك مرتين أو ثلاثًا، ورقص معك في الحفل، وأتى إلى المنزل معك. والآن لا ألومك. ولكن اصغي إليّ: هل قطعت له بأي عهد أحمق؟ هل كان هناك ما هو أكثر من اهتمام؟»

«كلَّا. لم أعِده بشيء.»

«جيِّد. خيرٌ كلُّ ما ينتهي بخير[46]. إنني أتمنى خصوصًا ألا تقابليه ثانيةً.»

«حسنٌ يا سيدي.»

«أتعدينني؟»

تردَّدت لحظة ثم قالت: «بلى، إن كنت ترغب ذلك بشدَّة.»

«بلى أرغبه. إنه عدوُّ بيتنا!»

ولمَّا انصرفت جلس وكتب بيد ثقيلة إلى فَارْفري:

«أيُّها السَّيِّد، أطلب إليك أن تكون وربيبتي من الآن فصاعدًا غر يبًا أحدكما عن الآخر. هي من جانبها تعهَّدت بألَّا تقبل أيَّ تودُّد منك، وأثق أنك كذلك لن تحاول أن ترغمها على ذلك.»

م. هنشَرْد

إنَّ المرء ليخال أنَّ هنْشَرْد يتمتَّع بدهاء يجعله يرى أنَّه ما من طريقة مُثلى لتسوية الخلاف[47] بينه وبين فَارْفري أفضل من تشجعيه على أن يصير صهرًا له. لكنَّ خطة شراء المنافس هذه لا يمكن اقتراحها على عقل العمدة العنيد، فقد كان يعارض ضروب الدهاء هذه، وله دبلوماسية عنيدة في حبِّ رجل أو كرهه تشبه عناد جاموس، ولأسباب كثيرة، لم تجرؤ زوجته على اقتراح هذه الخطة التي ترحِّب هي بها.

في الوقت ذاته فتح دونلد فَارْفري أبواب تجارته لحسابه الخاص في بقعة على تل ديرنوفر، بعيدًا قدر الإمكان عن متاجر هنْشَرْد، وبِنيَّة خالصة في الابتعاد عن صديقه السابق وزبائنه. بدا للشاب أنَّ ثمَّة مُتَّسعًا لكليهما. البلدة صغيرة، ولكنَّ تجارة الحنطة والتبن كانت كبيرة نسبيًّا، وبفطنته الأصيلة رأى فرصة أن يكون له نصيب في ذلك.

---

46) All's Well That Ends Well مسرحية شكسبير.

47) في الأصل باللاتينية modus vivendi، (المترجمة)

لقد عقد العزم على عدم فعل شيء من شأنه أن يسبِّب خصامًا تجاريًا مع العمدة، حتى إنه رفض أوَّل زبون يأتيه، وكان مزارعًا معروفًا ذا سمعة حسنة، ذلك لأنَّ هنْشَرْد وهذا الرجل عملا معًا في الأشهر الثلاثة الماضية.

«لقد كان صديقي ذات يوم،» قال فَارْفري، «وليس من طباعي أن آخذ تجارته منه. إنني آسف لأنني أخيِّب أمَلَك، ولكنني لا أستطيع أن أفسد تجارة رجل كان كريمًا معي.»

رغم هذا الموقف الجدير بالإطراء والثناء، ازدهرت تجارة الاسكتلندي. وسواء كانت طاقته الشمالية قوة متفرِّدة بين وجهاء وِسكس السَّهلي القياد، أو كانت مجرد حظ، تبقى حقيقة أنَّ كل ما كان يلمسه يُزهر. وكان مثله مثل يعقوب في فدَّان آرام[48]، لا يكاد يحصر نفسه في تجارة متواضعة حتى تكثر وتكبر.

إلا أنَّ للحظِّ تَدخُّلًا قليلًا في ذلك على الأرجح. الشخصيَّةُ قَدَر، كما قال نوفاليس[49]، وكانت شخصية فَارْفري على النقيض تمامًا من شخصية هنْشَرْد الذي لن يكون من غير الملائم وصفه كما وُصِف فاوست[50] بأنَّه كائن كئيب عنيف هجر طرق الناس العاديين من دون نور يُرشده إلى طريق أفضل.

تلقَّى فَارْفري طلب قطع اهتمامه بإلِزابث جيْن بالطريقة الملائمة. كان سلوكه حيال هذا الأمر هادئًا جدًّا حتى إنَّ ذلك الطلب بدا فائضًا تقريبًا. ومع ذلك، كان يشعر بإعجاب كبير نحوها، وبعد بعض التفكير قرَّر أنه من الأفضل ألا يؤدي دور روميو، وذلك من أجل الفتاة وليس من أجل نفسه. وهكذا أُخمِد التَّعلُّق الأولي.

حاول قدر الإمكان تجنُّب الاصطدام بصديقه السابق، ولكن جاء الوقت الذي أُرغم فيه فَارْفري على مواجهة هنْشَرْد، دفاعًا عن النفس، في

48) حسب سِفر التكوين. (المترجمة)

49) فيلسوف وشاعر ألماني. (المترجمة)

50) الشخصية الرئيسة في مسرحية «فاوست» للكاتب الألماني غوته. (المترجمة)

صراع تجاري كبير. لم يعُد قادرًا على صدّ الهجوم العنيف الذي شنَّه الأخير بسبب تجنُّبه إياه. وحالما بدأت حرب الأسعار بينهما أبدى الجميع اهتمامه، والقليل منهم حدس بالنهاية. كانت الحرب إلى حدٍّ ما صراعًا بين حكمة شماليَّة وعناد جنوبي، بين الخنجر[51] والهراوة، وكان سلاح هنْشُرد إن لم يُطِح بخصمه عند الضربة الأولى أو الثانية فإنَّه يضعه لاحقًا تحت رحمة خصمه.

كانا يتواجهان كل يوم سبت تقريبًا وسط حشد من المزارعين الذين يتجمهرون في السوق خلال الدورة الأسبوعية لتجارتهم. كان دونلد على أهبة الاستعداد دومًا، ومتحمّسًا أيضًا ليقول بضع كلمات ودودة، ولكنَّ العمدة كان يرمقه بنظرات غاضبة ثابتة وكأنه قاسى وخسر بسببه، ولا يمكنه أن يغفر الخطأ بأي حال من الأحوال، وما كان حتى سلوك فَارْفري الحائر والمتجاهِل ليهدِّئه مُطلقًا. كان لكل من كبار المزارعين وتجار الحنطة والطَّحانين والدلّالين وغيرهم أكشاكٌ في قاعة سوق الحنطة، وأسماؤهم مكتوبة عليها، وكانت سلسلة الأسماء المألوفة تضم هنْشَرْد، وإفردين، وشينار، ودارتون، وغيرها، وعندما أُضيف اسم فَارْفري بحروف جديدة لامعة وَخَزَ هنْشَرْد شعور بالمرارة، مثل بِلروفون[52]، فابتعد عن الحشد متقرّح الروح.

ومنذ ذلك اليوم قلَّما أصبح يُذكر اسم دونلد فَارْفري في منزل هنْشَرْد. إن حدث في أثناء الإفطار أو العشاء أن أومأت والدة إلِزابث جيْن دون قصد إلى شأن يخصُّ فَارْفري، توسَّلت إليها الفتاة بنظرة كي تلزم الصمت، فيقول زوجها: «ما خطبك، أأنت عدوتي أيضًا؟»

---

51) الخنجر كان يحمله سكّان مرتفعات اسكتلندا.

52) بطل يوناني في الأساطير الإغريقية قتل شقيقه فغضبت عليه الآلهة وهام على وجهه وهجر مجتمع البشر.

الفصل الثامن عشر

ها قد حلّت صدمة حَدَستها إلِزابث منذ بعض الوقت، مثلما يحدس سائق عربة هزّة آتية بسبب أخدود على الطريق العام.

مرضت أمُّها مرضًا شديدًا أقعدها عن مغادرة حجرتها. وكان هنْشَرْد يحسن معاملتها إلا في لحظات غضبه، وقد أرسل فورًا في طلب أغنى الأطباء وأنشطهم ممن يظنُّ أنه الأفضل. وعندما حان وقت النوم أوقدوا الشموع طوال الليل. ثمَّ تعافت بعد يوم أو يومين.

بقيت إلِزابث مستيقظة طوال الليل ولم تكن على مائدة الإفطار في صباح اليوم التالي، فجلس هنْشَرْد وحيدًا. جفل عندما رأى رسالة له من جيرسي مكتوبة بخط يعرفه جيِّدًا ولم يتوقَّع أن يراه مرة أخرى. أخذ الرسالة بين يديه ونظر إليها كما ينظر إلى صورة، أو طيف، أو مشهد من تمثيلية ماضية، ثم أخذ يقرأها ليزيح عنه ما ساوره من ظنون.

قالت الكاتبة إنها أدركت أخيرًا استحالة استمرار الاتصال بينهما لأنه تزوج مرة أخرى، وأنَّه كان عليها أن تعترف بأنَّ لمَّ الشمل هذا كان الطريق الواضح الوحيد أمامه.

لذا، بعد تفكير هادئ [تابعت] أستطيع أن أغفر لك تمامًا المأزق الذي وضعتني فيه، واضعة في الاعتبار أنك لم تُخْفِ عني شيئًا قبل تعارفنا الطائش، وأنك بَسَطت أمامي بطريقتك الكئيبة حقيقة أن تكون هناك مجازفة ما في أي اتصال بك وإن كانت بعيدة الاحتمال بعد صمت زوجتك خمسة أو ستة عشر عامًا. ولهذا أَنظر إلى الوضع بأكمله باعتباره حظي السيئ وليس خطأك.

ولذلك يجب أن أطلب إليك يا مايكل أن تتغاضى عن تلك الرسائل

التي بعثتها إليك يومًا بعد آخر في غمْرة فورة مشاعري. لقد كتبتُها عندما ظننت أنَّ مسلكك معي كان قاسيًا، ولكنني الآن أعرف المزيد عن تفاصيل وضعك وأرى كم كان عتابي طائشًا.

والآن، أنا متيقِّنة من أنك تدرك أنَّ الشرط الوحيد الذي يجعل سعادتي ممكنة مستقبلًا هو أن نجعل العلاقة الماضية بيننا سرًّا خارج هذا المكان. أعلم أنك لن تبوح بالأمر، وأثق أنك لن تكتب عنه. بقي احتراس واحد لم أذكره؛ وهو ألَّا تبقي بحوزتك أي رسائل لي أو أشياء تخصُّني، سواء بالإهمال أو النسيان. أطلب منك أن تعيدها إليّ، ولا سيَّما الرسائل المكتوبة في بداية تهاجُرنا.

أشكرك بإخلاص على المبلغ الكبير الذي أرسلته إليّ ليكون ضمادة للجرح.

أنا الآن في طريقي إلى برِسْتُل لأزور قريبتي الوحيدة. إنها ثريَّة وأرجو أن تفعل شيئًا من أجلي. سوف أعود عبر كاستربرِدْج وبُدموث حيث سأستقل مركبة البريد. هلَّا قابلتني ومعك الرسائل والحاجات الأخرى؟ سأكون في العربة التي تستبدل الخيل عند نُزُل أَنتِلوب في الخامسة والنصف مساء الأربعاء. سأكون في شال بَيْزلي[53] ذي حزام أحمر حيث يسهل أن تجدني. أُفضِّل خطة تسلُّم الرسائل بدلًا من أن ترسلها إليّ.

المُخلِصة. لُوسِتا

تنهَّد هنْشَرْد بصعوبة. «ياللمسكينة! ليتها لم تعرفني! أقسم بقلبي وروحي، لو وُضعتُ في موقف يتيح لي الزواج بك لفعلت، لفعلت حقًّا!»

كان الاحتمال الذي وضعه في خاطره، حتمًا، وفاة السيدة هنْشَرْد.

وكما طلبت إليه، ختم رسائل لُوسِتا ووضع الرزمة جانبًا ريثما يحين

53) نسيج صوفي مزركش بالرسوم. المورد الأكبر

الموعد الذي حدَّدته، وقد بدت خطة إعادتها باليد ماكرة بعض الشيء لكي تتمكَّن الشابة من أن تبادله كلمة أو اثنتين حول الماضي. كان يُفضِّل ألَّا يراها، ولكنَّه رأى أن لا ضير في الإذعان للأمر، فذهب في الغسق ووقف مقابل مكتب العربات.

كان المساء باردًا وجاءت العربة متأخرة. قطع هنْشَرْد الطريق إلى الجانب الآخر عندما كان يجري تبديل الخيول، ولكنه لم يرَ لُوسِيتا داخل العربة ولا خارجها. وعندما انتهى إلى أنَّ ثمَّة ما يكون قد حدث وجعلها تغيِّر خطتها يئس من الانتظار وانصرف، ولكن بإحساس بالارتياح.

في تلك الأثناء كانت السيدة هنْشَرْد تزداد وهنًا على نحو ملحوظ، ولم تعُد قادرة على الخروج من المنزل. ذات يوم وبعد تفكير ممضٍّ ملأها حزنًا قالت إنها تريد أن تكتب شيئًا، فوُضعت منضدة قريبًا من سريرها وعليها قلم وورقة، وتُركت وحدها نزولًا عند رغبتها. بقيت تكتب بعض الوقت، ثم طوت الورقة بعناية ونادت إلِزابث جيْن لتجلب لها شمعة، وختمت الورقة رافضة المساعدة وعنونتها ووضعتها في درج المنضدة. كتبت عليها الكلمات الآتية:

إلى السيد مايكل هنْشَرْد. لا تُفتَح إلى يوم زواج إلِزابث جيْن.

حرصت هذه الأخيرة على الجلوس قرب أمها ليلة إثر ليلة بكلِّ ما أوتيت من قوة. ولكي تتعلَّم كيف تأخذ العالم على محمل الجِد، ليست هناك من طريقة أسرع من أن تكون «أرِقًا» كما يقول القرويون. خلال الساعات التي انصرف فيها آخر السكارى وانتفض أوَّل عصفور، لم يقطع صمتَ كاستربرِدْج – عدا صوت الحارس – في أذني إلِزابث إلا ساعة حجرة النوم الجدارية التي كانت تتكّ تكًّا محمومًا مع تكّات الساعة المعلَّقة فوق السلالم، وراحت تتكّ أكثر فأكثر حتى بدا وكأنها تُقعقع مثل ناقوس، وكلُّ هذا كان حينما أخذت الفتاة الرَّهيفة الرُّوح تسأل نفسها لماذا وُلِدَت، ولِمَ تجلس في حجرة وتطرف عينها أمام شمعة، ولِمَ تأخذ الأشياءُ من حولها شكلًا بعينه دونًا عن أي شكل

ممكن آخر؟ لماذا تحدجها الأشياء بيأس وكأنما تنتظر لمسةَ عصا سحريَّة تحرِّرها من قيودها الدنيوية؟ ما تلك الفوضى المسمَّاة وعيًا، تلك التي تموج داخلها في هذه اللحظة كدُوَّامة؟ أطبقت جفنيْها، كانت مستيقظة، ولكنَّها نائمة في الوقت ذاته.

أيقظتها كلمة من أمِّها. من دون مقدمة قالت السيدة هنْشَرْد وكأنَّ مشهدًا متصلًا كان قد بدأ في عقلها: «أتذكرين ذلك البلاغ الذي أُرسِل إليك وإلى السيد فَارْفري يطلب منكما أن تقابلا شخصًا ما في ديرنوفر بارتن، واعتقدتما أنه كان خدعة للاستهزاء بكما؟»

«بلى.»

«لم يكن الأمر للاستهزاء بكما، لقد كان من أجل الجمع بينكما. كنت أنا من فعل ذلك.»

«لماذا؟» قالت إلِزابث جافلةً.

«أردتك أن تتزوجي السيد فَارْفري.»

«أوه يا أمي!» أطرقت إلِزابث جيْن برأسها طويلًا حتى إنها كانت تنظر في حِجْرها. ولأنَّ أمَّها لم تواصل الحديث قالت: «ما السبب؟»

«حسنٌ، لدي سبب، ستعرفينه يومًا ما. تمنَّيت لو أنه يحدث في حياتي! ولكن لا شيء يحدث كما نتمنَّى! وهنْشَرْد يكرهه.»

«لعلَّهما يصيران صديقين مرةً أخرى،» تمتمت الفتاة.

«لا أعلم، لا أعلم.» بعد هذا صمتت أمُّها وغفت ولم تعُد تتحدَّث في الأمر.

ولاحقًا بعد مضي بعض الوقت، عرَّج فَارْفري على منزل هنْشَرْد ذات صباح يوم أحد عندما لاحظ أنَّ الستائر كانت مسدلة كلَّها. قرع الجرس بلطف شديد حتى إنه أصدر نغمة رقيقة واحدة، ثم أُخبِر بأنَّ السيدة هنْشَرْد فارقت الحياة، فارقت الحياة الآن في هذه الساعة.

عندما عبر فَارْفري مضخة البلدة كانت تتجمَّع هناك ثُلَّة من أهل البلدة الذين كانوا يأتون إلى هناك لجلب الماء كلَّما أرادوا، كما حدث في هذه اللحظة لأنَّ الماء أكثرُ نقاء في ذلك الينبوع الأصلي منه في آبارهم. كانت السيدة كُكْسُم واقفة هناك تحمل جرَّتها منذ وقت غير معلوم، وكانت تسرد واقعة موت السيدة هنْشَرْد كما سمعتها من الممرضة.

«وكانت بيضاء كالرُّخام،» قالت السيدة كُكْسُم. «كما كانت امرأة مُراعية، المسكينة، وطلبت الاعتناء بكل شيء بعد موتها. نعم، قالت: عندما أموت وأُسلِم آخر أنفاسي افتحي الدُّرج العلوي في الخزانة في الحجرة الخلفية قرب النافذة وستجدين كَفَني، وملاءة لتُوضع تحت جسدي وأخرى صغيرة تحت رأسي، وجوربيَّ الجديديْن، إنهما مطويّان جنبًا إلى جنب، مع جميع أشيائي الأخرى. وهناك أربع أُواقٍ، أثقل ما استطعت إيجاده، مربوطة في مِزَق من قماش الكتان، اثنتان توضعان على عيني اليمنى واثنتان على اليسرى. وعندما تستخدمينها ولا تعود عيناي تفتحان ادفني الأواقي ولا تنفقيها لأنني لا أحبُ ذلك. وافتحي النوافذ حالما يحملونني خارجًا واجعلي المكان بهيجًا ما استطعتِ من أجل إلِزابث جيْن.»

آه، يا للقلب المسكين!»

«حسنٌ، لقد فعلت مارثا ما طلبته منها ودفنت الأواقي في الحديقة. ولكن لكم ألَّا تصدقوا، أتى ذلك الرجل كريستوفر كُوني وحفر وأخذ الأواقي وأنفقها في نُزُل «البحَّارة الثلاثة». لقد قال: عجبًا! لِمَ ينبغي أن يسرق الموت أربع أواقٍ من الحياة؟ ليس الموت بتلك السمعة الحسنة حتى نحترمه إلى هذا الحد، هكذا قال.»

«إنه فعل وحشي!» استنكر السامعون.

«حبًّا بالرَّبِّ، لا أكره هذا الفعل،» قال سولومُن لونْغوَيْز. «أقول هذا اليوم وهو صباح أحد، ولن أتحدَّث ظلمًا عن نصف شلن في هذا الزمن.

لا أرى ضررًا في ذلك. احترام الميت أمر ديني، ولن أبيع هيكلًا عظميًا، هيكلًا عظميًّا محترمًا على الأقل لغرض التشريح إلا إذا كنت بلا عمل. ولكنَّ المال قليل والحناجر جافة، فلِمَ يسرق الموت أربع أواقٍ من الحياة؟ أرى أنه لا خيانة في ذلك.»

«حسنٌ، المسكينة، إنها الآن أعجز من أن تمنع ذلك أو أيَّ شيء آخر» أجابت الأم كُكْسُم. «وكل مفاتيحها اللامعة ستؤخذ منها، وخزانتها ستُفتح وأشياؤها الصغيرة التي لا تودُّ أن يراها أحد سيراها الجميع، وكل رغائبها وأمانيِّها ستصبح لا شيء!»

الفصل التاسع عشر

جلس هنْشَرْد وإلِزابث جيْن يتبادلان الحديث قرب المدفأة. كانت قد مضت ثلاثة أسابيع على جنازة السيدة هنْشَرْد، لم تكن الشموع مُضاءة، وكان ثمَّة لهب مرتعش يتراقص بحركات بهلوانية متطايرًا فوق الفحم، ويعكس على الحيطان ظلال أشكال شتَّى، كمرآة الحائط القديمة بأعمدتها المذهَّبة وسطحها المعمَّد الكبير، وأُطُر الصور، والمقابض والنتوء المختلفة، والحُليّ النحاسية في أسفل حبال الجرس المتدلية على جانبي المدفأة.

«إلِزابث، هل تفكرين كثيرًا في الأيام الخوالي؟» قال هنْشَرْد.

«أجل يا سيدي، كثيرا،» قالت.

«ومن ترين فيها؟»

«أمِّي وأبي، ولا أحد آخر تقريبًا.»

طالما بدا هنْشَرْد كمن يغالب ألمًا كلَّما تحدثت إلِزابث جيْن عن ريتشَرَد نيُوسِن على أنَّه أبوها. «آه! وأنا خارج ذلك كلِّه،» قال... أليس كذلك؟ هل كان نيُوسِن أبًا طيِّبًا؟»

«بلى يا سيدي، كان طيِّبًا جدًّا.»

علا وجهَ هنْشَرْد تعبيرٌ يوحي بعزلة بلهاء أخذ يتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى شيء أكثر لطفًا. «لنفرض أنني والدك الحقيقي،» قال. «هل كنت ستهتمين لأمري مثلما تهتمين بريتشَرَد نيُوسِن؟»

«لا أستطيع تخيُّل ذلك،» قالت بسرعة. «لا أستطيع التفكير في أبٍ آخر غير أبي.»

لقد فرَّق الموت بين هنْشَرْد وزوجته، وباعد النُّفور بينه وبين صديقه

ومساعده، والجهل بينه وبين إلِزابث جيْن. وبدا له أنَّ واحدًا منهم فقط يمكن استعادته، وكان الفتاة. وأخذ عقله يترجَّح بين رغبته في كشف نفسه لها وبين ترك الأمر كما هو، حتى لم يعُد قادرًا على الجلوس، فراح يذرع المكان جيئةً وذهابًا، ثم جاء ووقف وراء مقعدها وهو ينظر إلى رأسها. ولم يعُد قادرًا على كبح جِماح نفسه فسألها: «ماذا قالت لكِ أمُّكِ عني، وعن ماضي حياتي؟»

«أنك قريب لها بالزواج.»

«كان ينبغي أن تقول المزيد قبل أن تعرفيني! حتى لا تكون مهمتي شاقَّةً هكذا... إلِزابث، أنا أبوك وليس ريتشرَد نيوسِن. العار وحده منع والديك البائسيْن من إخبارك بهذا عندما كان كلاهما على قيد الحياة.»

بقي رأس إلِزابث ساكنًا ولم تُبْدِ كتفاها أيَّ حركة توحي بتنفُّسها. تابع هنْشَرْد: «إنني أفضِّل توبيخك لي أو خوفك أو أيَّ شيء على جهلك بي، وهذا ما أمقُت! أنا وأمُّك كنَّا زوجين عندما كنَّا شابيْن. وما رأيتِه كان زواجنا الثاني. كانت أمُّك صادقة للغاية. اعتقد كلٌّ منَّا أنَّ الآخر مات، فأصبح نيُوسِن زوجها.»

كانت هذه أقرب طريقة استطاع هنْشَرْد أن يُوصل بها الحقيقة الكاملة. وبقدر ما يعرفه شخصيًّا لم يُخفِ شيئًا عنها، ولكنَّه أظهر احترامًا لكونها أنثى وللسنوات التي استحقَّت خلالها أن يرعاها رجل أفضل.

ولمَّا استرسل في سرد تفاصيل عزَّزتها على نحو غريب ولا يؤخذ بالاعتبار وقائعُ طفيفة في حياتها الماضية، باختصار، لمَّا صدَّقت قصته انفعلت انفعالًا شديدًا واستدارت إلى الطاولة مسقطةً رأسها عليها وراحت تنتحب.

«لا تبكِ، لا تبكِ،» قال هنْشَرْد بانفعال شديد، «لا أطيق ذلك، لن أطيق ذلك. أنا أبوك، فلِمَ تبكين؟ هل أنا مخيف وبغيض؟ لا تكرهيني يا إلِزابث جيْن!» صاح ممسكًا يدها المبلَّلة بالدَّمع: «لا تكرهيني، مع أنني كنت سكِّيرًا ذات يوم وعاملت أمَّك بقسوة، سأكون أكثر لطفًا معك! لو عَدَدْتِني

والدَكِ لفعلتُ أيَّ شيء!»

حاولت أن تقف وتواجهه بثقة، ولكنها لم تستطع، فقد أربكها حضوره مثلما ارتبك إخوة يوسف أمامه.

«لا أريدك أن تعودي بغتةً،» قال هنْشَرْد وهو يرتعش ويهتزُّ مثل شجرة ضخمة في مهبِّ الريح. «كلَّا يا إلِزابث، لا أريد ذلك. سأنصرف ولن أراك حتى الغد، أو عندما تشائين، ثم سأطلعُك على وثائق تثبت قولي. سأنصرف الآن ولن أزعجك مرة أخرى...

لقد كنت أنا من اختار اسمك يا ابنتي، كانت أمُّك تريد تسميتك سُوْزَنْ. لا تنسي أنني أنا من منحك اسمك!» خرج وأغلق الباب بلطف، وسمعته يمضي إلى الحديقة. ولكنه لم يفعل ذلك، فقبل أن تتحرك أو تتعافى من أثر اعترافاته ظهر مجدَّدًا.

«كلمة أخرى يا إلزابث،» قال. «ستحملين اسمي الآن، أليس كذلك؟ لقد عارضت أمُّك ذلك، ولكنَّه سيسعدني كثيرًا. إنه اسمك القانوني كما تعرفين، ولكن لا حاجة لأحد إلى معرفة ذلك. ستحملينه باختيارك. سأتحدَّث إلى المحامي، فلا أعرف الإجراءات القانونية تحديدًا، ولكن هلَّا فعلت هذا، هلَّا سمحتِ لي أن أكتب للصحيفة بضعة أسطر أنَّك ستتخذين هذا الاسم؟»

«إذا كان هذا اسمي فيجب أن أتَّخذه، أليس كذلك؟» سألت.

«حسنٌ، حسنٌ، العُرف هو كل شيء في هذه الشؤون.»

«أتعجَّب لِمَ لَمْ تُرِدْ أمي ذلك؟»

«إنها نزوة روح مسكينة، والآن اجلبي ورقة واكتبي ما أمليه عليك. ولكن دعينا نحضر شمعة.»

«أستطيع أن أرى تحت ضوء النار،» أجابت. «أُفضِّل ذلك.»

«حسنٌ جدًّا.»

جلبت ورقة وانحنت على سياج المدفأة وراحت تكتب ما يمليه من

كلمات بدا أنه حفظها عن ظهر قلب من الإعلانات أو غيرها، كلمات تقول إنها هي، الكاتبة، التي تُعرَف حتى اللحظة بإلزابث جيْن نيُوسِن، ستطلق على نفسها اسم إلِزابث جيْن هنْشَرْد من الآن فصاعدًا. كُتب الإعلان وطُويت الورقة وأُرسلت إلى مكتب صحيفة « كاستربرِدْج كرونيكل.»

«والآن،» قال هنْشَرْد وقد علا مُحيَّاه بريق الرضا الذي يُشع منه دائمًا عندما ينجز عملًا ما، إلّا أنَّ اللطف ليَّن هذا المُحيَّا هذه المرَّة. «سأصعد إلى الطابق العلوي وأبحث عن بعض الوثائق التي تثبت كل ما قلته لك. لكنني لن أزعجك بها حتى الغد. طابت ليلتك يا ابنتي إلِزابث جيْن!»

كان قد انصرف قبل أن تدرك الفتاة المذهولة مغزى ذلك كلِّه، أو تؤلف بين إحساسها الأبوي وبين مركز الجاذبية الجديد. كانت ممتنَّةً أن تركها وحدها في المساء، فجلست قرب المدفأة. وهنا بقيت صامتة وراحت تبكي، ليس رحيلَ أمِّها، وإنما البحَّار الطَّيِّب ريتشَرَد نيُوسِن الذي بدا أنها تخطئ في حقه.

في تلك الأثناء، صعد هنْشَرْد إلى الطابق العلوي. فتح دُرْجًا في حجرته يضمُّ أوراقًا. وقبل أن يقلب الأوراق مال إلى الوراء وغرق في تفكير هادئ. لقد أصبحت إلِزابث ابنته أخيرًا، وتملك من رجاحة العقل وطيب القلب ما يجعله واثقًا بأنها ستحبُّه. كان من أولئك الأشخاص الذين يعدُّون وجود كائن بشري يُشرعون له أبواب قلوبهم – سواء بسكب عواطفهم أو صبِّ جام غضبهم– أمرًا ضروريًا. لقد كان توقُه إلى إعادة هذا الرابط الإنساني الحنون شديدًا عندما كانت زوجته على قيد الحياة، وقد استسلم الآن لسطوة هذا التَّوْق بلا مقاومة أو خوف. وانحنى على الدُّرْج ثانية وواصل بحثه.

وُضِعَ بين تلك الأوراق ما تضمُّه المنضدة الصغيرة لزوجته، والمفاتيح التي سُلِّمت إليه نزولًا عند طلبها. ووجد الرسالة الموجَّهة إليه مع التحذير: «لا تُفتح إلى يوم زواج إلِزابث جيْن.»

مع أنها كانت أكثر علمًا من زوجها، لم تكن السيدة هنْشَرْد عمليَّة في فعل الأشياء، فعندما ختمت الورقة التي طوتها وأودعتها الدُّرْج دون مغلَّف، كما يحدث بالطريقة التقليدية، غطَّت ثنيتي الورقة المطويَّة بوضع كتلة كبيرة من الشمع عليها، دون ضغط، كما يجب، فتشقَّق الختم وانفتحت الرسالة. لم يكن لدى هنْشَرْد سبب يجعله يعتقد أنَّ المنع عظيم الشأن، ولم تكن مشاعره نحو زوجته الراحلة تحمل احترامًا عميقًا. «أظنُّ أن هذا بعضًا من أوهام سُوْزَنْ المسكينة»، قال، ومن دون فضول سمح لعينيه بقراءة الرسالة:

عزيزي مايكل،

من أجلنا نحن الثلاثة أخفيتُ عنك سرًّا حتى الآن. أرجو أن تقدِّر السبب، وأظن أنك ستفعل، مع أنك قد لا تغفر لي. ولكن يا عزيزي مايكل، لقد فعلت ذلك لأنه الأفضل. سأكون في قبري عندما تقرأ هذه الرسالة، وسيكون لإلِزابث جيْن بيت. لا تلعنِّي يا مايك، وفكِّر فيما كان عليه وضعي. إنني بالكاد أستطيع كتابة ذلك، ولكن هاك. إلِزابث جيْن ليست بابنتك إلِزابث جيْن التي تعرف، تلك الطفلة التي كانت بين ذراعيَّ عندما بعتَني. كلَّا، لقد فارقت الحياة بعد ثلاثة أشهر من ذلك، وهذه الفتاة التي على قيد الحياة هي ابنة زوجي الآخر. لقد عمّدتُها بالاسم ذاته الذي منحناه ابنتنا الأولى، وقد سدَّت الفراغ الذي شعرت به بفقدان الأخرى. مايكل، إنني أُحْتَضَر وكان من الممكن أن أمسك لساني لكنني لم أستطع. لك أن تخبر زوجها بهذا أو لا، حسبما تراه، وإن استطعت سامح امرأة أسأتَ إليها كثيرًا يومًا ما، كما سامحتُك.

شُوْزَنْ هنْشَرْد.

ناظر زوجها الورقة وكأنها زجاج نافذة يرى عبرها مسافة أميال. ارتعشت شفتاه وبدا أنه كان يضغط جسده ليصمُد. لم يكن ديدنه أن يفكِّر فيما إذا كان القدر قاسيًا عليه، ففي المصائب يصبح طبعه كئيبًا وحسب،

قال: «أعلم أنه مقدَّر عليَّ أن أعاني. وهذا العذاب الشديد، هل هو مقدَّر عليّ؟» ولكنَّ هذه الفكرة أخذت تعصف برأسه المنفعل الآن: أنَّه نال جزاء هذا الكشف المُدوِّي.

أصبح اعتراض زوجته الشديد على تغيير اسم الفتاة من نيوسن إلى هنْشَرْد جليًّا تمامًا الآن، وقدَّم دليلًا آخر على الإخلاص في الخيانة الذي اتسمت به شخصيتها في أمور أخرى.

بقي مُثار الأعصاب وبلا هدف بضع ساعات حتى قال بغتةً: «آه، أتعجَّب إن كان ذلك صدقًا!»

قفز على حين غرَّة، ركل نعليه ومضى إلى حجرة إلِزابث جيْن حاملًا شمعدانًا، ووضع أذنه على ثقب المفتاح وأصاخ السمع. كانت تتنفس بعمق. أدار هنْشَرْد قفل الباب برفق ودخل، حجب ضوء الشمعدان بيده واقترب من السرير. أخذ يخفي الشمعدان شيئًا فشيئًا وراء الستارة وأمسكه بطريقة تتيح للضوء بالسقوط بشكل مائل على وجهها من دون أن يسطع على عينيها. وراح يتأمَّل ملامحها بإمعان.

كانت سحنتها شقراء وسحنته داكنة. لكنَّ ذلك كان تمهيدًا غير مهم. في النوم تطفو على السطح حقائق نَسَبِيَّة مدفونة، وسحناء الأسلاف، وملامح الأموات التي تحجبها حركة النهار وتغمرها. وفي سكون ملامح الفتاة المنحوتة كتمثال في تلك اللحظة انعكست ملامح ريتشرْد نيوسن على نحوٍ جليّ. لم يُطِق النظر إليها فأسرع خارجًا.

لقد علَّمه البؤس أن يتحمَّله ويتحدَّاه. ولأنَّ زوجته قد صارت في عداد الأموات، تلاشى أول اندفاع للانتقام مع فكرة أنها أصبحت خارج سيطرته الآن. نظر إلى الليل في الخارج وكأنه ينظر إلى شيطان. كان هنْشَرْد، شأنه شأن جميع أشباهه، يؤمن بالخرافات، فما انفكَّ يفكِّر أنَّ سلسلة الأحداث التي وقعت هذا المساء لم تكن سوى مكيدة دبَّرتها بعض القوى الشريرة عقابًا

له. بيْد أنَّ هذه الأحداث وقعت على نحو طبيعي، فلو أنه لم يكشف ماضيه لإلِزابث لما بحث عن الأوراق في الدُّرْج. ومن سخرية الأقدار، أنَّه ما كاد يعلِّم الفتاة أن تعيش في كنف أبوَّته حتى اكتشف أنها لا تمُتُّ إليه بصلة.

أثار غضبَه هذا التسلسلُ الساخرُ للأشياء وكأنه خدعة شيطانية دبَّرها امرؤ من بني جلدته. ومثلما حدث مع برستر جون، ما إن أُعِدَّت مائدته حتى أقبلت الخفافيش الجهنَّميَّة وخطفت الطعام[54]. خرج من المنزل متجهِّم الوجه وسار على الرصيف حتى بلغ الجسر في أسفل شارع «هاي». وهناك انعطف نحو معبر على ضفة النهر المتاخم للحدود الشمالية الشرقية للبلدة.

كانت هذه الأنحاء تجسِّد الجوانب الحِداديَّة في حياة كاستربِرِدْج، في حين جسَّدت الجوادُّ الجنوبية جوانبها البهيجة. الطريق إلى هناك بلا شمس حتى في الصيف، وفي الربيع يسود الصقيع الأبيض هنا في الوقت الذي يتصاعد البخار في أماكن أخرى من شدة الحرارة، وأما في الشتاء فهو مرتع الآلام كلِّها، وأوجاع الروماتزم، والتشنجات التي تستمر طوال العام. ولا بدَّ أنَّ أطباء كاستربِرِدْج كانوا سيصابون بالأسى من قلَّة ما يجنون من مال لولا تقلُّبات الأنواء في هذه الناحية الشمالية الشَّرقيَّة.

كان النهر ينساب بطيئًا وهادئًا ومظلمًا – نهر كاستربِرِدْج الأسود[55] – تحت جرف منخفض، وقد شكَّل الاثنان حاجز دفاع جعل الحيطان والتحصينات الاصطناعية غير ضرورية على هذا الجانب. هنا تقع أطلال دير فرنسيسكاني وطاحونة متصلة بها يهدر فيها الماء هديرًا يشبه صوت الهدير في أرض خراب. وفي أعلى الجرف وخلف النهر نهضت كومة من الأبنية، وأمام الكومة كتلة مربعة تمتد إلى السماء أشبه بقاعدة تفتقر إلى تمثالها. هذا الشيء المفقود، الذي بقي التخطيط غير مكتمل من دونه، كان في الحقيقة

---

54) تروي الأسطورة أن برستر جون كان ملكًا عاقبته الآلهة بتسليط مخلوقات شريرة عليه تخطف طعامه.

55) النهر الأسود، وهو أيضًا اسم نهر في بولندا. في الأصل بالألمانية Schwarzwasser

جثة رجل، لأنَّ الكتلة المربعة شكَّلت قاعدة مشنقة، وأمَّا الأبنية الممتدة في الخلف فكانت سجن المقاطعة. في الحقل الذي يسير عليه هنْشَرْد الآن كانت الحشود تجتمع كلَّما نُفِّذت عملية شنق، وتقف مراقبة المشهد على ألحان المياه الهادرة.

أضفت الظلمة كآبة مفرطة على هذه المنطقة وهو ما أثَّر في هنْشَرْد أكثر مما توقَّع. كان هذا التناغم الحزين بين هذه البقعة وبين وضعه ملائمًا تمامًا له، هو الذي كان يضيق ذرعًا بالآثار والمناظر والظلال. لقد خفَّف هذا التناغم من حرقة فؤاده وجعله يميل إلى الكآبة، فصاح: «لِمَ أتيتُ إلى هنا بحقِّ الشيطان!» وعَبَرَ في مشيه البيتَ الذي قطنه العجوز الشانق وقضى نحبه فيه في زمن قبل أن يحتكر تلك المهنة رجلٌ واحد في أنحاء إنكلترا كلِّها، ثم صعد هنْشَرْد طريقًا خلفيًّا منحدرًا يفضي إلى البلدة.

لقد كان جديرًا بالشفقة في معاناته تلك الليلة التي سبَّبتها خيبة أمله المريرة. بدا مثل شخص شبه مغمًى عليه، ليس بقادر على التعافي ولا باستطاعته إكمال إغماءته. لقد ألقى باللوم على زوجته ولكن ليس في قلبه، ولو أنه أطاع التعليمات الحكيمة على ظهر رسالتها لادَّخر هذا الألم مدةً طويلة وربَّما إلى الأبد، ولا سيَّما أنَّ إلِزابث جيْن لا تظهر أيَّ طموح إلى ترك عُزُوْبَتِها الآمنة والمنعزلة من أجل الزواج.

أقبل الصباح بعد تلك الليلة المُضنية ومعه برزت الحاجة إلى وضع خطة. كان أكثر عنادًا من أن يتراجع عن موقفه، ولا سيَّما أنه ينطوي على خزي. لقد وافق أن تبقى ابنته وأن تظن نفسها ابنته دائمًا، أيًّا كان ما ينطوي عليه ذلك من نفاق.

بيْد أنه لم يكن مستعدًّا للخطوة الأولى في هذا الوضع الجديد. لحظة دخوله حجرة الإفطار تقدَّمت إليه إلِزابث بثقة وأمسكت بذراعه.

«لقد فكَّرت طوال الليل في الأمر» قالت بصراحة. «وأرى أنَّ كل شيء

ينبغي أن يكون مثلما تقول. وسوف أنظر إليك كأبٍ لي ولن أدعوك السيد هنْشَرْد مرة أخرى. الأمر واضح جدًّا لي الآن. حقًّا، يا أبي، إنه واضح. لأنني لو كنت ربيبتك وحسب لم تكن بطبيعة الحال لتفعل نصف الأشياء التي فعلتها من أجلي، ولم تكن لتتركني أتصرف كما أشاء، وتبتاع لي الهدايا! أمَّا هو، السيد نيوسن الذي تزوجتْه أمِّي مرتكبة هذا الخطأ الغريب (سُرَّ هنْشَرْد لأنه مَوَّه هذا الأمر) فكان طيبًا جدًّا، طيبًا جدًّا! (كانت تتحدث وعيناها تدمعان)، لكنَّ ذلك ليس كالأب الحقيقي أبدًا. والآن يا أبي، الإفطار جاهز!» قالت مبتهجةً.

مال هنْشَرْد وقبَّل وجنتها. هذه اللحظة والفعل اللذان تأمَّلهما أسابيع بانفعال وفرح، ليسا أكثر من تفاهة بائسة له الآن. عندما أعاد أمَّها إلى كنفه ما كان ذلك إلا من أجلها، ولكنَّ الخطة كلَّها أسفرت الآن عن غبار ورماد.

الفصل العشرون

قلَّما تصادف فتاة أمرًا مُلغِزًا كذلك الأمر الذي أعقب اعتراف هنْشَرْد لإلزابث بأنَّه أبوها. لقد فعل ذلك بحماسة وحرارة ألقتا في نفسها شيئًا من التأثُّر، ولكن، ياللعجب! فمنذ صباح اليوم التالي فصاعدًا صار سلوكه متكلّفًا على نحو لم تره من قبل قط.

وسرعان ما تحوَّل بروده إلى تقريع صريح، فقد كان في إلِزابث عيب كبير، وهو استخدامها بين الحين والآخر كلمات عاميَّة على نحوٍ ظريف وجميل، ولكنَّه كان دلالة صارخة على الفرق بين العامة والنبلاء.

كان الوقت عشاءً – إذ لم يكونا ليجتمعا إلا في أثناء الوجبات – فحدث أن قالت وهو يهمُّ بالنهوض إنها راغبة في إطلاعه على شيء ما: «الزم مكانك لحظة يا أبي، سأجلبه.»

«الزم[56] مكانك!» صاح بحدة. «ما الذي دهاكِ! ألا تصلحين إلا لحمل طعام الخنازير حتى تستخدمي كلمات كهذه؟»

احمرَّ وجهها خزيًا وحزنًا.

«لقد قصدت هلَّا انتظرت مكانك يا أبي،» قالت بصوت منخفض ذليل. «كان عليَّ أن أكون أكثر حرصًا.»

ولم يُجب وخرج من الحجرة.

ولم يذهب التقريع الشديد سُدًى، وتمكَّنت مع مرور الوقت من قول «نجح» بدلا من «فاي»[57]، ولم تعد تقول «دمبلدورز»[58] وإنما

56) استخدمت إلزابث كلمة bide وهي كلمة عاميّة. (المترجمة)

57) fay

58) dumbledores

«النَّحل الطنان»، كما لم تعد تقول عن شاب وشابة «يمشيان معًا» بل إنهما «مخطوبان»، وأصبحت تقول «زنابق برية» بدلا من الاسم الذي نشأت على ترديده «غرغلز»[59]. وعندما كانت تقضي ليلة سيئة لم تعد تقول للخدم بلطف في الصباح أنها كانت «هاغ-رِد»[60] وإنما «عانت عسر الهضم.»

ومع كل هذا التَّحسُّن الذي أصابته، كان هناك المزيد في القصة. هنْشَرْد، الذي لم يكن هو نفسه مثقَّفًا، كان أقسى ناقدي الفتاة الطيبة على هفواتها التي غدت أقلَّ الساعة، لأنها أقبلت على القراءة بنهم. وكان بانتظارها محنة لا مسوِّغ لها فيما يخص خطَّها. عبرت ذات مساء قريبًا من باب حجرة الطعام وعنَّت لها حاجة لجلبها من هناك. ولم تكد تفتح الباب حتى فطنت إلى وجود العمدة بصحبة رجل كان يعقد وإيَّاه صفقة تجارية.

«تعالي يا إلِزابث،» قال ملتفتًا إليها، «واكتبي ما أقول، بضع كلمات عن عقد بيني وبين هذا السيد لنوقِّعه، فأنا سيئ في الكتابة.»

«اللعنة! وكذلك أنا،» قال السَّيِّد.

جلبت دفتر ورق النَّشَّاف وورقة وحبرًا وجلست.

«والآن، أُبرِم هذا العقد في هذا اليوم السادس عشر من أكتوبر، اكتبي هذا أولًا.»

وشرعت تكتب ببطء شديد عبر الورقة. كان خطًّا دائريًّا بديعًا جريئًا من ابتداعها، خطًّا يجعل من المرأة مِنيرفا[61] عصرها في عهد متقدِّم، إلّا أنَّ أفكارًا أخرى كانت سائدة آنذاك. وكان هنْشَرْد يعتقد أنَّ على الفتيات المهذَّبات أن يكتبن بطريقة السيدات، وكان يؤمن بأنَّ الحروف الواقفة الخشنة عنصر غريزي في النساء المهذبات ولا ينفصل عنهن، كالأنوثة نفسها. ولذا بدلًا من أن

59) greggles

60) hag–rid

61) إلهة الحكمة وربّة الفنون عند قدماء الرومان.

تكتب إلِزابث كالأميرة إيدا[62]:

بخطٍّ كأنَّه حقل قمح

تميل سنابله كلُّها أمام الريح الشرقية الهادرة،

بدلًا من ذلك، كتبت إلِزابث جيْن سطرًا أشبه بسلاسل وأكياس رمل، فاستشاط غضبًا وقال على نحوٍ قاطع: «لا بأس، سأنهيه بنفسي،» وصرفها على الفور.

ولقد أصبح اهتمامها بالغير شَرَكًا لها الآن. وينبغي الاعتراف بأنَّها كانت ترغب أحيانًا، بطريقة مغيظة وبلا داعٍ، أن تزعج نفسها بأعمال يدويَّة. فكانت تذهب إلى المطبخ بنفسها بدلًا من أن تقرع الجرس «حتى لا تتعب فُوَيب بالصعود مرتين.» وكانت تركع على ركبتيْها والمجرفة في يدها كلما قلبت القطة دلو الفحم، فضلًا عن ذلك، كانت تشكر الخادمة باستمرار على كل شيء حتى انفجر هنْشَرْد ذات يوم حالما خرجت الخادمة من الحجرة: «عجبًا! لِمَ لا تتوقَّفين عن شكر تلك الفتاة وكأنَّ إلهةً ولدتها! ألا أدفع لها دزينة من الجنيهات في العام لتقوم على خدمتك؟» وانكمشت إلِزابث بسبب صراخه على نحو واضح حتى إنه ندم بعد دقائق معدودة وقال أنَّه لم يقصد أن يكون فظًّا.

كانت هذه المواقف مثل صخورٍ ناتئة صغيرة توحي بما في العمق أكثر مما تفصح عنه. بيْد أنَّ غضبه كان أقلَّ رعبًا لها من جفائه. لقد أنبأها تكرارُ حدَّة مزاجه أنباءً حزينة بأنَّه يكرهها كرهًا متزايدًا. وكلما صار مظهرها وسلوكها أكثر جاذبية بفضل ما استطاعت أن تملك من وسائل راحة ويُسر، وبفضل ما تتمتع به من حكمة، بدا أكثر نأيًا عنها. وكانت تنتبه إليه أحيانًا

62) بطلة قصيدة «الأميرة» للشاعر الإنجليزي ألفرِد تِنيسون التي أنشأت جامعة خاصة بالنساء. لا يصف هذا المقطع خطَّ الأميرة إيدا، وإنَّما خط رجل متنكِّر في زيّ امرأة حتى يتمكَّن من دخول الجامعة. وقد كتب إلى الأميرة بخطّ أنثوي حسبما ظنَّ هو نفسه.

ينظر إليها بتجهُّم يشقُّ عليها احتماله. ولأنها لم تدرك سرَّه، فقد كانت سخرية قدَرِيَّة قاسية أن تثير بغضه لها للمرة الأولى بعد أن حملت اسمه.

بيْد أنَّ القدر كان يحمل لها بلاء أشد فظاعة، إذ اعتادت إلِزابث في الآونة الأخيرة أن تقدِّم في الأصيل نبيذًا أو مِزرًا وخبزًا وجبنًا إلى نانْس مُوكرِدْج التي كانت تعمل في الفناء في ربط حُزَم التبن. وكانت نانْس تتلقَّى هذا العرض شاكرة في البداية، ثم كأمر طبيعي. وذات يوم عندما كان هنْشَرْد في الأنحاء رأى ربيبته تدخل مخزن التبن لتؤدي هذه المهمة، ولمَّا لم يكن هناك مكان فارغ تضع عليه المؤونة، أخذت على عاتقها فورًا وضع حزمتي تبن كمنضدة، وفي تلك الأثناء كانت مُوكرِدْج واقفةً ويداها على خاصرتيها، تنظر بارتياح إلى الترتيب المعدِّ من أجلها.

«إلزابث، تعالي هنا!»، قال هنْشَرْد فأطاعته.

«لِمَ تَحُطّي من قدْرك إلى هذا الحد؟» قال وهو يكظم غضبه. «ألم أحدِّثك في ذلك خمسين مرة؟ هاه؟ أتجعلين من نفسك خادمة لعاملة سوقيَّة كهذه! لماذا؟ إنك لتمرِّغين اسمي في التراب!»

عندما قال هذه الكلمات كان صوته عاليًا بما يكفي ليصل إلى نانْس داخل المخزن، والتي انفجرت غاضبةً من فورها على هذه الإهانة لشخصها. وقفت بالباب وصاحت غير آبهة بالعواقب: «لا يتوقَّف الأمر عند هذا يا سيد مايكل هنْشَرْد، أستطيع أن أخبرك بأنها قامت على خدمة من هم أقل شأنًا مني!»

«إذن لا بدَّ أنها قامت به إحسانًا لا تعقُّلًا،» قال هنْشَرْد.

«أوه لا، لم تفعل. لم يكن بدافع الإحسان وإنما عملت بأجر وفي نُزُل عمومي في هذه البلدة!»

«ليس صحيحًا!» صاح هنْشَرْد ساخطًا.

«اسألها وحسب،» قالت نانْس طاوية ذراعيها العاريتيْن بطريقة

أتاحت لها حكَّ مرفقيها بارتياح.

رمق هنْشَرْد إلِزابث جيْن التي كانت بشرتها متورِّدة بيضاء لكثرة ملازمتها المنزل، وفقدت كلَّ لون الساعة. «ما الذي يعنيه هذا؟» قال لها. «أيعني شيئًا أم لا شيء؟»

«إنه صحيح،» قالت إلِزابث جيْن. «لكنَّه كان فقط...»

«هل قمت بذلك أم لا؟ وأين كان؟»

«في نُزُل «البحَّارة الثلاثة»، ذات مساء لبعض الوقت عندما أقمنا هناك.»

رمقت نانْس هنْشَرْد منتصرةً وانسلَّت إلى المخزن، ولأنها اعتقدت أنها سرعان ما ستُطرَد من العمل عزمت على أن تفيد من انتصارها قدر المستطاع. لكنَّ هنْشَرْد لم يقل شيئًا بشأن طردها. ومن فرط إحساسه إزاء أمور كهذه بسبب ماضيه، بدا مسحوقًا تمامًا تحت وطأة الإهانة. وتبعته إلِزابث إلى داخل المنزل مثل متهم بجريمة، ولكنها لمَّا خطت إلى الداخل لم تره، ولم تره مرة أخرى في ذلك اليوم.

كان هنْشَرْد مقتنعًا أنَّ ضررًا ماحقًا لحق بسمعته ومنصبه في البلدة بسبب هذه الحادثة، مع أنه لم يبلغ مسامعَه شيءٌ من ذلك، لهذا كلما رآها أصبح يبدي نفورًا كبيرًا من وجود هذه الفتاة التي ليست بابنته. وأخذ يتناول طعامه غالبًا مع المزارعين في السوق في أحد النُّزُليْن الرئيسيْن، تاركًا إيَّاها في عزلة تامة. لو أنه رأى كم أفادت من هذه الساعات الصامتة لربَّما وجد سببًا يجعله يغيِّر حكمه على سلوكها. فقد راحت تقرأ وتدوِّن الملاحظات باستمرار، متمكِّنة من المعلومات بمشقة بالغة، ولكن من دون أن تحجم عن المهمة التي فرضتها على نفسها. وشرعت في تعلُّم اللاتينية وقد حرَّضتها الملامح الرومانية للبلدة التي كانت تعيش فيها. «إن لم أكن حسنة الاطلاع فلن يكون هذا خطئي،» كانت تقول لنفسها والدموع تنهمر على وجنتيْها

الخوخيَّتيْن كلما أربكها ذاك الغموض الهائل الذي يكتنف العديد من تلك الكتب التعليمية الكثيرة.

وهكذا واصلت العيش، كائنًا أخرس عميق المشاعر واسع العينين لا يدرك كنهه شخص مقرَّب، كابحةً بصبر حبَّها الأول لفَازفري لأنَّه بدا لها حبًّا من طرف واحد، وغير حكيم. حقًّا، فلأسباب تعرفها حق المعرفة، انتقلت، منذ طَرْدِ فَازفري، من الحجرة الخلفية المطلَّة على الفناء (تلك التي قطنتها بمتعة كبيرة) إلى الحجرة الأمامية المطلَّة على الشارع، وأمَّا الشاب، فكلما مرَّ بالمنزل قلَّما كان يلتفت، أو أنه لا يلتفت أبدًا.

أقبل الشتاء تقريبًا، وقد جعلها الطقس المتقلِّب أكثر اعتمادًا على مواردها الداخلية، ولكن، كانت هناك تلك الأيام الأولى من شتاء كاستربرِدْج، الأيام التي تكون فيها السماء مُجهدةً بعد العواصف الجنوبية الغربية الغاضبة، حيث تشرق الشمس ويكون الهواء مخمليًّا ناعمًا. كانت تنتهز تلك الأيام لتقوم بزياراتها الدَّوريَّة إلى البقعة التي ترقد فيها أمُّها، في مقبرة البلدة البريطانية الرُّومانية العتيقة التي كانت لا تزال تُستخدم، والتي تتمثَّل ميزتها المثيرة للفضول في استمرار كونها مقبرة. وقد اختلط تراب ضريح السيدة هنْشَرْد بتراب أضرحة النساء اللاتي رقدن مُزيَّنات بدبابيس الشعر الزجاجية وقلائد الكهرمان، وأضرحة رجال يطبقون في أفواههم على عملات معدنية تحمل وجوه هادريَن وبوستُمس وقسطنطين[63].

كانت العاشرة والنصف صباحًا الساعة التي تقصد فيها هذه البقعة، عندما تكون جوادُّ البلدة مهجورة مثل جوادِّ الكَرنْك[64]. وكان الناس قد بدأوا أعمالهم منذ وقت بعيد ولم يحِن أوان التَّنزُّه. ولذا أخذت إلِزابث جيْن تمشي وتقرأ أو تنظر من على حافة الكتاب مفكِّرةً حتى بلغت فناء الكنيسة.

---

63) هادريَن وبوستُمس وقسطنطين الأول والثاني والثالث: أباطرة رومانيون حكموا انجلترا قديمًا.

64) تقع منطقة الكرنك في مدينة طيبة المصريّة (الأقصر حاليًا) حيث تكثر آثار المعابد والقصور التي بناها الفراعنة.

وحين اقتربت من ضريح أمِّها رأت هيئة سوداء وحيدة في الممشى المفروش بالحصى. كان ذلك الشخص يقرأ أيضًا، ولكن ليس كتابًا، وإنما الكلمات المنقوشة على شاهد ضريح السيدة هنْشَرْد. وكان امرأة في ثياب حِداد مثلها، في عمرها وحجمها تقريبًا، وكان من الممكن أن تكون طيفها أو صورة بديلة عنها لولا حقيقة أنها كانت امرأة في ثياب أكثر أناقة منها. حقًّا، ذلك صحيح مقارنةً بلامبالاة إلِزابث جيْن بالأناقة إلا لنزوة مؤقتة أو لغرض ما، وقد فُتِنت عيناها بالكمال الفني لمظهر المرأة. كما كان في مشيتها مرونة تبتعد عن الحركة الخرقاء، وبدا ذلك بدافع الفطرة أكثر منه تصنُّعًا. وقد كشف ذلك لإلِزابث أنَّ البشر قد يبلغون هذه المرحلة من التطور الخارجي، وقد كان كشفًا لم تفكِّر فيه من قبل قطّ. وشعرت بأنَّ كلَّ النضارة والطلاوة قد سُلِبت منها على الفور لأنَّها تجاور سيدة غريبة كهذه. وهذا في مواجهة حقيقة أنَّ إلِزابث كانت اللحظةَ بالغة الجمال في حين إنَّ تلك المرأة الشابة لم تكن إلا جميلة وحسب.

لو كانت إلِزابث حسودًا لكرهت المرأة، ولكنها لم تفعل، بل أتاحت لنفسها لذة الإحساس بالافتتان، فقد تعجَّبت من أين أتت المرأة، فالمشية الثقيلة الجادة التي اتَّسَمَ بها أهالي البلدة البسطاء هي التي كانت سائدة هناك، كما أنَّ طرازين فقط من الثياب كانا رائجيْن، البسيط منهما والمترف، وهذا كلُّه يؤكِّد أنَّ تلك المرأة لم تكن من نساء كاستربرِدْج مطلقًا، حتى وإن لم يوحِ بذلك كتاب تحمله يشبه دليلًا للسائحين.

ابتعدت الغريبة عن شاهد ضريح السيدة هنْشَرْد، واختفت خلف زاوية الجدار. واتجهت إلِزابث إلى الضريح، وكانت بجانبه آثار قدمين واضحة على الرمل توحي بأنَّ المرأة وقفت هناك مدة طويلة. ثمَّ عادت أدراجها صوب المنزل وهي تتفكَّر فيما رأت وكأنَّما كانت تتأمَّل قوس قزح أو أضواء شمالية(65)

65) الأضواء القطبية الشمالية هي مزيج من الألوان التي تتشكَّل على القطب الشمالي.

أو فراشة نادرة أو حجرًا كريمًا.

وبقدر ما كانت الأوضاع مبهجة في الخارج، كان يومها في المنزل أسوأ أيامها. كانت السنتان اللتان يرأس فيهما هنْشَرْد البلدية على وشك الانقضاء، وقد أُبلِغ بأنَّه لن يُنتَخب ليملأ فراغًا في قائمة أعضاء المجلس البلدي، وبأنَّه من المرجَّح أن يصبح فَارْفري أحد أعضاء المجلس. وقد جعل هذا من الاكتشاف المشؤوم لعملها خادمة في البلدة التي كان هو عمدتها سببًا لإثارة المزيد من الزوابع في عقله. لقد علم حين أخذ يتحرَّى الأمر بنفسه أنَّ دونلد فَارْفري – ذلك المغرور الخائن – هو من أهانت نفسها بخدمته. ومع أنَّ السيدة ستانِدج لم تولي هذه الواقعة أهمية كبيرة، واستنفد الناس المرحون في «البحَّارة الثلاثة» النقاش في الأمر منذ مدة طويلة، عدَّ هنْشَرْد بروحه المتغطرسة ذلك العمل البسيط للاقتصاد في الإنفاق أمرًا لا يقلُّ أهمية عن كارثة اجتماعية.

منذ ذلك المساء الذي وصلت فيه زوجته وابنتها البلدة وهناك شيء ما قد غيَّر حظَّه. ذلك العشاء في نُزُل «الأسلحة الملكيَّة» مع رفاقه كان معركة أوسترليتز[66] التي خاضها هنْشَرد، فقد تحقّق له النجاح حينها، بيْد أنَّ مساره لم يعُد يمضي به صُعُدًا بعد ذلك. ولم يعُد في عداد أعضاء المجلس – أي أشراف البلدة – كما توقَّع، وإدراكه ذلك أثار غضبه اليوم.

«وإذن، أين كنتِ؟» قال لها باقتضاب فظ.

«كنت أتنزَّه في الممشى وفناء الكنيسة يا أبي إلى أن شعرت بالجوع.»[67] وضعت كفَّها على فمها، ولكن بعد فوات الأوان.

كان ذلك كافيًا لأن يغيظ هنْشَرْد بعد ما مرَّ به من مواقف في هذا اليوم. «لن أسمح لك بالتحدُّث هكذا!» هدَرَ صوته متوعِّدًا. «أتقولين (لِيري)؟ إنَّ المرء ليظن أنك تعملين في مزرعة! علمت يومًا أنك خدمت في مكان عمومي.

---

66) من أهم المعارك التي دارت في أوروبا وانتصر فيها نابليون على جيوش النمسا وروسيا في عام 1805، وبعدها لم يحقّق نصرًا بارزًا كهذا النصر.

67) استخدمت إلزابث كلمة عاميَّة هنا: لِيري leery، (المترجمة)

ثم أسمعك تتحدثين مثل ريفيَّة خرقاء. إنني غاضب، وإن استمر هذا الأمر فلن يسعَ هذا المنزل كلينا.»

كانت الطريقة الوحيدة لجلب فكرة مريحة واحدة تساعدها على الخلود إلى النوم بعد هذه الحادثة أن تفكِّر في المرأة التي رأتها في ذلك اليوم وتأمل أن تراها مرة أخرى.

في الوقت ذاته، كان هنْشَرْد مستيقظًا يفكِّر في غيرته الحمقاء لمَّا منع فَارْفري من التَّودُّد إلى هذه الفتاة التي لا تمُتُّ إليه بِصلة، فلو أنه سمح لهما بالاستمرار لما أُرهِق بوجودها. وأخيرًا قال لنفسه راضيًا وهو يقفز ويتجه إلى منضدة الكتابة: «آه! سيظن أنَّ ذلك يعني المصالحة ومبلغًا مقابل الزواج، وليس لأنني لا أرغب أن أزعج منزلي بها وليس ثمَّة من مبلغ مطلقًا!» وكتب الآتي:

أيُّها السَّيِّد، بعد النظر والتفكير، لا أودُّ التَّدخُّل في شأن تودُّدِك إلى إلِزابث جيْن إن كان يهمُّك أمرها. ولذلك أسحب اعتراضي آملًا ألا تجري لقاءاتكما في منزلي.» المخلص م. هنْشَرْد.

إلى السيد فَارْفري

كان اليوم التالي صحوًا، فذهبت إلِزابث جيْن مرة أخرى إلى فناء الكنيسة، ولكنَّها عندما كانت تبحث عن تلك المرأة جفلت لمَّا رأت فَارْفري يعبر خارجًا من البوابة. لقد رفع بصره لحظة من مفكرة جيْب كان يسجِّل عليها أرقامًا كما بدا وهو يمشي، ولم تبدر منه إشارة إن كان رآها أم لا، واختفى.

تملَّكتها كآبة مفرطة بإحساسها بأنها زائدة عن الحاجة، وفكَّرت في أنَّه ربما كان يحتقرها، فجلست على أحد المقاعد مغمومة النفس، وغرقت في تفكير ممضٍّ في وضعها انتهى بقولها بصوت عال: «أوَّاه، كم أتمنى لو متُّ مع أمي الحبيبة!»

كان خلف المقعد ممشى صغير يتمشى الناس عليه أحيانًا بدلًا من المشي على الممشى المفروش بالحصى. بدا وكأنَّ شيئًا لامس المقعد، فالتفتت، فإذا بوجه ينحني فوقها، وكان مُلثَّمًا، ولكن يمكن تمييزه. كان ذلك وجه المرأة الشَّابَّة التي رأتها بالأمس.

بدت إلِزابث جيْن مرتبكة لحظةً حين أدركت أنَّ صوتها كان مسموعًا، مع أنه كانت ثمَّة لذة في ارتباكها. «بلى، سمعتك،» قالت المرأة بصوت مفعم بالحيوية وهي تجيب نظراتها. «ما خطبك؟»

«لا.. لا أستطيع إخبارك»، قالت إلِزابث وقد وضعت يدها على وجهها لتخفي تورُّدًا سريعًا علا محياها.

لم تكن ثمَّة حركة أو كلمة ثوانيَ معدودة، ثم شعرت الفتاة بأنَّ المرأة الشابة جلست إلى جوارها.

«أظنُّ أنني أعرف ما خطبك،» قالت الأخيرة. «تلك كانت أمُّك.» ولوَّحت بيدها صوب شاهد الضريح. رفعت إلِزابث نظرها إليها وكأنها تسأل نفسها إن كان عليها أن تضع ثقتها فيها. وكان سلوك المرأة توَّاقًا وقلقًا حتى إنَّ الفتاة عزمت على أن تثق بها. «كانت تلك أمِّي،» قالت، «صديقتي الوحيدة.»

«ولكن ماذا عن أبيك السيد هنْشَرْد، أليس حيًّا يُرزَق؟»

«بلى، إنه على قيد الحياة،» قالت إلِزابث جيْن.

«أليس لطيفًا معك؟»

«لا أرغب أن أشكوَ منه.»

«هل هناك خلاف بينكما؟»

«قليلًا.»

«لعلَّك المُلامة،» قالت الغريبة.

«إنني المُلامة من نواحٍ كثيرة،» تنهَّدت إلِزابث الوديعة. «فقد كَنَست الفحم الذي كان ينبغي للخدم كنسه، وقلت إنني كنت «لِيري» فثارت ثائرته.»

بسبب ذلك الرَّدِّ، بدت المرأة متعاطفة معها. «أتعلمين أيَّ شعور منحتني كلماتك؟» قالت بصراحة، «بأنَّه رجل حامي الطبع، مغرور بعض الشيء، ولعلَّه طموح، ولكنه ليس سيِّئًا.» كان قلقها إزاء عدم إدانة هنْشَرْد وهي تساند إلِزابث مثيرًا للاستغراب.

«أوه كلَّا، مؤكد أنه ليس سيِّئًا،» قالت الفتاة الصادقة موافقة. «ولم يكن قاسيًا معي إلا مؤخرًا منذ وفاة أمِّي. ولكن كان عليَّ أن احتمل كثيرًا. أحسب أنَّ ذلك كله بسبب عيوبي، وعيوبي كانت بسبب ماضيّ.»

«وما ماضيك؟»

نظرت إلِزابث جيْن بحزن إلى سائلتها، فوجدت أنها كانت تنظر إليها فأخفضت عينيها ثم بدت مُكرهةً على النظر ثانيةً. «لم يكن ماضيَّ مبهجًا ولا جذَّابًا،» قالت. «ومع ذلك أستطيع أن أسرده لك إن أردت معرفته.»

أكَّدت لها المرأة أنها ترغب في معرفته، وعندئذ أخبرتها إلِزابث جيْن عن قصة حياتها كما تفهمها، والتي كانت عمومًا القصة الحقيقية ما خلا البيعَ الذي وقع في السوق إذ لم يكن جزءًا منها.

وعلى النقيض من توقُّع الفتاة، لم تُدهَش صديقتُها الجديدة. وقد أسعدها ذلك، ولم يتعكَّر صفوُ بالها إلا عندما فكَّرت في العودة إلى ذلك المنزل الذي كانت تُعامَل فيه بقسوة مؤخَّرًا.

«لا أعرف كيف أعود،» تمتمت. «إنني أفكِّر في الرحيل. ولكن ماذا عساي أفعل؟ وأين سأذهب؟»

«لعلَّه من الأفضل أن يحدث ذلك قريبًا،» قالت رفيقتها بلطف. «ولكي لا أذهب بعيدًا، ما رأيك في هذا: قريبًا سأكون بحاجة إلى من تقيم معي في منزلي كمدبرة منزل ورفيقة، هلَّا أتيت معي؟ ولكن ربَّما..»

«أوه بلى،» صاحت إلِزابث والدموع تغمر عينيها. «سأفعل حقًّا، سأفعل أي شيء لأكون مستقلَّة، لعلَّ أبي سيحبني بعد ذلك. ولكن، واحسرتاه!»

«ماذا»؟

«لست شخصًا ضليعًا، ومن ترافقك يجب أن تكون كذلك.»

« هذا ليس ضروريًّا.»

« ليس ضروريًّا؟ ولكنني لا أستطيع الكفَّ عن استخدام كلمات ريفيَّة أحيانًا عندما لا أقصد ذلك.»

«لا عليك، سيسرُّني معرفتها.»

«و... أوه، أعلم أنه لا ينبغي أن أستخدمها!» صاحت وهي تضحك بكآبة. «لقد تعلَّمتُ مصادفةً أن أكتب بخط دائري بدلًا من الكتابة بخط السيدات. وأنت قطعًا تريدين أحدًا يكتب لك كالسيدات؟»

«حسنٌ، كلَّا.»

«ماذا؟ أليس من الضروري الكتابة بخط السيدات؟» صاحت إلزابث السعيدة.

«لا، مطلقًا؟»

«ولكن أين تقطنين؟»

«في كاستربِرِدْج، أو بالأحرى سأقطن هنا بعد تمام الثانية عشرة اليوم.»

أبدت إلِزابث دهشتها.

«أُقيم في بُدْموث أيامًا معدودة ريثما يُعَدُّ منزلي. البيت الذي سأنتقل إليه يُدعى «المنزل العالي»، وهو البيت الحجري القديم المطلُّ على السوق. هناك غرفتان أو ثلاث غرف مناسبة لشغلها وليس جميعها. سأقضي الليلة هناك للمرة الأولى. والآن، هلَّا فكَّرت في اقتراحي وقابلتِني أول يوم من الأسبوع المقبل وأخبرتِني إن كنت ما زلتِ ترغبين في الأمر؟»

لمعت عينا إلِزابث إزاء هذا الأمل في تغيير وضع لم يكن محتملًا فوافقت بسعادة، وافترقت الاثنتان عند بوابة فناء الكنيسة.

الفصل الحادي والعشرون

ومثلما يُردِّد المرء عَفْوًا مَثَلًا سائرًا في طفولته ويبقى غير ملحوظ عمليًّا إلى أن تُعزِّزَه تجربة ناضجة، كذلك بدا «المنزل العالي» عندما ظهر للمرة الأولى في حياة إلِزابث جيْن، مع أنها سمعت اسمه يتردَّد في مئات المناسبات.

طوال ما تبقَّى من اليوم لم يشغل عقلَها شيءٌ سوى المرأة الغريبة والمنزل وفُرْصَتِها من العيش هناك. قُيِّض لها في النهار أن تُسدِّد بعض الفواتير وتبتاع بعض الحاجات في البلدة، وهناك علمت أنَّ ما كان اكتشافًا جديدًا لها أصبح حديثًا عامًّا في الطرقات. علمت أنَّ «المنزل العالي» كان يخضع للإصلاح، وأنَّ سيدة ستأتي للعيش هناك قريبًا، وعرف جميع الباعة بالأمر وقد حسموا أمر أن تكون زبونَهم.

لكنَّ إلِزابث جيْن استطاعت إضافة لمسة إلى الأنباء الجديدة تمامًا لها في أغلبيتها، فقالت إنَّ السيدة وصلت اليوم.

حينما أُضيئت المصابيح لم يكن الليل حالك السواد بعد ليحجب المداخن وعلالي المنازل وسطوحها، فعنَّ لفكر إلِزابث، وقد كاد يتملَّكها شوقٌ مُحبٌّ، أن تذهب وتنظر «المنزل العالي» من الخارج. وهكذا صعدت الطريق المؤدي إلى ذلك الاتجاه.

كان «المنزل» بوجهه[68] وشرفته الرماديتيْن المسكنَ الوحيد من نوعه القريب جدًّا من وسط البلدة. كان يتَّسم في المقام الأول بملامح بيت ريفي، إذ عشَّشت الطيور في مداخنه، ونمت الفُطريات في أركانه الرطبة، وشابت سطحَه الوعورةُ من أثر الطبيعة. وفي الليل تعكس المصابيح أشكال المارَّة

68) في الأصل بالفرنسية: façade (المترجمة)

فتبدو ظلالًا سوداء على حيطان المنزل الشاحبة.

هذا المساء، كانت هناك أعواد قشٍّ تتناثر حول المكان، وعلامات أخرى توحي بتلك الحالة الفوضوية التي ترافق دخول قاطن جديد. كان المنزل كلُّه مبنيًّا من الحجر، وكان مثالًا للرفاهية وإن لم يكن كبير الحجم. كما لم يكن أرستقراطيًّا تمامًا، فهو أقلُّ أهميةً من ذلك، ومع ذلك، فللغريب القديم الطراز أن يقول عنه بطريقة غريزية مهما كان رأيه مبهمًا عن تلك الكماليات: «بناه الكادحون بعرق جباههم ودمائهم ولكنَّ الأثرياء هم من يتنعَّمون به.»

وأمَّا عن التَّنعُّم بالمنزل فإنَّ الغريب يجانب الصواب، ذلك أنه حتى هذا المساء، عندما وصلت السيدة الجديدة، كان المنزل قد بقي فارغًا عامًا أو عامين، ولم يقطنه الناس قبل ذلك إلا في فترات متقطِّعة. بيْد أنَّ المرء سرعان ما يتبدَّى له سبب قلَّة سُكناه، فقد كانت بعض حجراته تطلُّ على السوق، ولم يكن مشهدٌ كهذا من منزل كهذا مُحبَّبًا أو ملائمًا للقاطنين المتوقَّعين.

رفعت إلِزابث ناظريها إلى الحجرات العلوية ورأت أضواءً هناك. كان واضحًا أنَّ السيدة قد وصلت. كان الأثر الذي تركته هذه المرأة بسلوكها البارع نسبيًّا في نفس الفتاة الحريصة عميقًا جدًّا، حتى إنه طاب لها الوقوف تحت المدخل المقابل فقط لتتخيَّل أنَّ السيدة الفاتنة هناك خلف الجدران المواجهة لها، ولتسأل نفسها عمَّا تفعله. وما أثار إعجابها فنُّ عِمارة تلك الجهة إلَّا بسبب تلك التي تقطن خلفها. إلا أنَّ تلك العِمارة جديرة وحدها بالإعجاب أو النظر على الأقل، فقد كانت من الطراز البالاذيوي[69]، وكانت على غرار معظم الأبنية المشيَّدة منذ العصر القوطي التي كانت مجموعة تخطيطات لا تخطيطًا بعينه. لكنَّه كان تخطيطًا معتدلًا لا بالغ الترف، بل كان تَرِفًا بقدْرٍ كافٍ. لقد أدرك الإنسان في الوقت المناسب مقدار ما بلغه من تفاهة فنِّيَّة

69) نمط أوروبي في الهندسة المعمارية مُستلهَم من تخطيطات المهندس الإيطالي أندريا بالاديو (1518 – 1580).

مُطلقة في العِمارة لا تقلُّ تفاهةً عن إنجازاته الأخرى، فتحاشى بذلك الترف الفنّي المفرط.

كان ثمّة رجال حتى وقت قريب يدخلون ويخرجون حاملين الرُّزم والصناديق وقد جعلوا من الباب والرَّدهة طريقًا عامًّا. هرولت إلِزابث إلى الباب المفتوح في الظلمة، ولكنها جفلت من مجازفتها هذه فسارعت بالخروج من باب آخر كان مفتوحًا في الحائط العالي من الفناء الخلفي. ومدهوشةً، وجدت نفسها في أحد تلك الأزقة المظلمة التي قلَّما يسلكها أحدٌ في البلدة. التفتت إلى الباب الذي خرجت منه فاستطاعت أن تراه في ضوء المصباح الوحيد المثبَّت في الزقاق مُقنطرًا عتيقًا، بل لعلَّه كان أقدم من المنزل نفسه. وكان مزيَّنًا بالمسامير، ونُحِت أعلى قنطرته قناع وجه هزليّ. كان القناع في الأصل يرسل نظرة شزراء ساخرة ما زال بالإمكان تمييزها، لكنَّ أجيالًا من صبية كاستربرِدْج راحت ترمي القناع بالحصى مستهدفةً فمه المفتوح، فكسَّر الضرب الشفتين والفكين فبانت وكأنَّ مرضًا خبيثًا أكلها. بدا مظهره مروِّعًا في وميض المصباح الخافت حتى إنها لم تحتمل النظر إليه، وكان ذلك أول ملمح مزعج لزيارتها.

لقد أوحى موقع الباب العتيق الغريب والوجه ذو النظرة الشزراء بشيء واحد فوق كل شيء آخر يتصل بماضي المنزل، أوحى بالمكيدة. كان يمكن للمرء أن يعبر ذاك الزقاق دون أن يراه أحد من أنحاء البلدة كلها، سواء من المسرح القديم أو من ميدان مصارعة الثيران، أو ساحة صراع الديكة، أو البركة التي كان يختفي فيها أطفال غير شرعيّين. وهكذا حُقَّ لـ«المنزل العالي» أن يفخر بما قُيِّض له من وسائل ترفيه من دون شك.

دارت لتسلك أقرب طريق يوصلها إلى بيتها، والذي كان في أسفل الزقاق، ولكنها سمعت وقع خطى يقترب، ولمَّا لم تكن ترغب في أن تُرى في مثل هذا المكان وفي هذا الوقت سارعت بالانسحاب. ولأنه لم يكن ثمَّة من مخرج آخر وقفت وراء عمود من الطوب ريثما يمضي الغريب في سبيله.

لو أنها نظرت لأخذتها الدهشة، ولرأت أنَّ العابر عندما أقبل صاعدًا الزقاق اتجه مباشرةً إلى الباب المُقنطر، ولمَّا وقف ويده على المزلاج سقط ضوء المصباح على وجهه فإذا به هنْشَرْد.

بيْد أن إلِزابث جيْن من فرط تشبُّثها بالزاوية التي لاذت بها لم تفطن إلى شيء من ذلك. ودخل هنْشَرْد جاهلًا وجودها مثلما جهلت هُويَّته، واختفى في الظلام. خرجت إلِزابث مرة ثانية إلى الزقاق وهُرِعت بأسرع ما يمكن عائدة إلى البيت.

لقد بعث فيها تأنيب هنْشَرْد خوفًا عصبيًّا من الإتيان بأي فعل يمكن أن يُفهم بأنه تصرف غير لائق بسيدة، وقد أثَّر ذلك بطريقة غريبة في جعل كل منهما مجهولًا لدى الآخر في لحظة حاسمة. كان تعرُّف أحدهما إلى الآخر يمكن أن يكشف الكثير، كان على الأقل سيثير استفهام كليهما بالطريقة ذاتها: ما الذي يمكن أن يفعله أو تفعله هناك؟

أيًّا كان شأن هنْشَرْد في منزل السيدة، فقد عاد إلى منزله بعد دقائق فقط من وصول إلِزابث جيْن. كانت خطتها هي أن تطرق في ذلك المساء موضوع تركها منزله، لأنَّ أحداث ذلك اليوم حثَّتها على سلوك ذلك السبيل. غير أنَّ تنفيذ هذه الخطة يتوقَّف على ما يكون عليه من مزاج، وراحت تترقَّب سلوكه نحوها بقلق، فوجدت أنَّه تبدَّل. لم يُبد أيَّ ميل إلى الغضب، بل أبدى شيئًا أسوأ، لامبالاة تامة حلَّت محل الغضب، وكان بروده شديدًا إلى حد أنه شجَّعها على الرحيل أكثر مما يفعله مزاجه الحادّ.

«أبي، هل لديك أيُّ اعتراض على رحيلي؟» سألته.

«رحيلك! لا، قطعًا. إلى أين ترحلين؟»

فكَّرت أنه من غير المرغوب ومن غير اللازم أن تقول الآن أي شيء عن وجهتها لشخص لا يعيرها إلا أقل اهتمام، وسيعرف مكانها قريبًا جدًّا. «سمعتُ عن فرصة تجعلني أكثر ثقافة وتهذيبًا وأقلَّ بطالةً،» أجابت بتردُّد.

«فرصة عمل في منزل يتيح لي التَّعلُّم واختبار حياة راقية.»

«إذن اغتنميها بحقِّ السماء إن لم تستطيعي التَّثقُّف هنا.»

«ألا تعترض؟»

«أعترض؟ لا، إطلاقًا.» قال بعد لحظة: «ولكن لن يكون بحوزتك مال كاف لهذه الخطة المبهجة من دون مساعدة كما تعلمين. إن شئت، سأخصص لك راتبًا حتى لا تكوني مضطرة إلى العيش بأجر زهيد من الممكن أن يدفعه لك الأغنياء.»

شكرته على هذا العرض.

«ينبغي فعل ذلك بطريقة لائقة،» أضاف بعد لحظة صمت. «أجر سنوي صغير هو ما أودُّ أن أعطيك إياه حتى تكوني مستقلة عني وأكون مستقلًّا عنك. هل يسرُّك ذلك؟»

«مؤكَّد.»

«إذن سأنظر في الأمر هذا اليوم تحديدًا.» بدا مرتاحًا للتَّخلُّص منها بهذه الطريقة، وسُوِّي الأمر بقدر ما يهمُّهما. وراحت الآن تنتظر رؤية السيدة ثانيةً.

حلَّ اليوم والساعة الموعودان، لكنَّ مطرًا خفيفًا أخذ يهمي. فكَّرت إلزابث جيْن وقد تبدَّل حالها من حياة الاستقلال البهيج إلى حياة الكدح والاعتماد على الذات، في أنَّ الطقس يلائم حظها العاثر، وخامرها الشَّكُّ في أن تتمكَّن صديقتها من احتمال هذا الطقس. ذهبت إلى خزانة الأحذية حيث كان قبقابها معلّقًا منذ أيام مجدها، تناولته وصقلت الجلد المتغيِّر لونه بالأسود ثم انتعلته كما كانت تفعل في الأيام الخوالي. وهكذا استعدَّت وتناولت معطفها ومظلتها وخرجت إلى مكان اللقاء عازمةً على أن تزور السيدة في منزلها إن لم تجدها هناك.

كان جانبٌ من فناء الكنيسة – الجانب المواجه للريح – محميًّا بحائط

عتيق من الطين والقش ارتفعت طُنُفه بمقدار قدم أو قدمين. وكان هناك خلف الحائط فناء يضمُّ مخازن الحبوب وصوامعه، وهو المكان الذي التقت فيه فازفري منذ أشهر عديدة. وتحت سقف القش الناتئ رأت شخصًا. لقد جاءت السيدة الشابة.

كان لوجود هذه السيدة أثر قويٌّ في تعزيز أعظم آمال الفتاة على نحوٍ استثنائي حتى كاد يغشاها الخوف من حظها السعيد هذا. إنَّ الهواجس لَتجد ملاذًا في أقوى النفوس. هنا في فناء كنيسة قديمة قِدَمَ الحضارة وفي أسوأ الطقوس، كانت امرأة غريبة ذات سحر عجيب لم يُرَ مثيل له من قبل في مكان آخر: لعلَّ ثمَّة روحًا شريرة تكتنف حضورها. بيْد أنَّ إلِزابث تقدَّمت نحو برج الكنيسة الذي كان على قمته حبل سارية علم يهتزُّ في الريح، وهكذا جاءت إلى الحائط.

كان مظهر السيدة مبهجًا في الرَّذاذ المتساقط حتى إنَّ إلِزابث نسيت هواجسها. «وإذن،» قالت السيدة وقد لاح بعض بياض أسنانها في الشَّال الأسود الذي لفَّت به رأسها وهي تلفظ كلماتها: «هل قرَّرتِ؟»

«نعم، مؤكَّد،» قالت الأخرى بحماسة.

«هل وافق والدك؟»

«أجل.»

«إذن تعالي.»

«متى؟»

«الآن، أو في أقرب وقت تشائين. خطر ببالي أن أرسل في طلبك للقدوم إلى منزلي لأنني ظننت أنك لن تجازفي بالمجيء إلى هنا في هذا الطقس. ولكن لأنني أحبُّ الخروج للتَّنزُّه فكَّرت أن آتي وأرى أولًا.»

«هذا ما كنت أفكِّر فيه أيضًا.»

«هذا يعني أننا سنكون على وفاق. إذن هل تستطيعين المجيء اليوم؟

منزلي فارغ وموحش وأودُّ كائنًا حيًّا يؤانس وحدتي.»

«أظن أنني أستطيع،» قالت الفتاة وهي تفكّر.

في تلك اللحظة حملت إليهما الريح أصواتًا من الجانب الآخر للحائط على وقْع قطرات المطر. تناهت إليهما كلمات مثل «أكياس»، و«مكاييل»، و«درس الحنطة»، و«ذرّ الحَب»، و«سوق السبت المقبل»، وقد شوَّش عصْفُ الريح كلَّ جملة مثلما يتشوَّش وجه منعكس في مرآة مشروخة. أصغت كلتا المرأتين.

«من هؤلاء؟» قالت السيدة.

«أحدهم أبي. إنه يكتري الفناء والمخزن.»

بدت السيدة وقد نسيت الأمر العاجل وهي تصغي إلى فنون تجارة الحنطة. وأخيرًا قالت بغتةً: «هل أخبرته إلى أين أنت ذاهبة؟»

«كلَّا.»

«عجبًا! وكيف ذلك؟»

«اعتقدت أنه من الأسلم أن أغادر أولًا، لأنَّ مزاجه لا يؤتمَن جانبه.»

«لعلك محقَّة... كما أنني لم أخبرك باسمي. اسمي الآنسة تمبلمان... هل غادر الأشخاص الذين في الناحية الأخرى؟»

«كلَّا. لقد صعدوا إلى المخزن وحسب.»

«حسنٌ، لقد أصبح المكان رطبًا هنا. سأنتظرك اليوم، هذا المساء، لنقل في السادسة.»

«أي طريق عليَّ أن أسلك يا سيدتي؟»

«الطريق الأمامي من البوابة، فلا يوجد غيره حسبما أعلم.»

كانت إلِزابث جيْن تفكّر في الباب المفضي إلى الزقاق.

«لأنك لم تذكري له وجهتك، فلعلَّه من الأفضل أن تُبقي الأمر طيَّ الكتمان حتى تغادري. من يعلم، فلعلَّه يبدِّل رأيه.»

هزَّت إلِزابث جيْن رأسها. «عندما أفكِّر في الأمر لا أخشى ذلك، فقد غدا بارد المشاعر نحوي برودًا شديدًا.»

«حسنٌ إذن. نلتقي في السادسة.»

عندما خرجتا إلى الطريق المفتوح وافترقتا وجدتا أنَّ عليهما الإمساك جيِّدًا بمظلتيْهما المنحنيتيْن في الريح. ومع ذلك، نظرت السيدة إلى أبواب فناء المخزن وهي تعبر أمامها وتوقَّفت لحظة على إحدى قدميْها، ولكنها لم ترَ شيئًا سوى عَرَم القمح، والصومعة المحدودِبة المتوسِّدة بالطحالب، ومخزن الغلال وقد علا محاذيًا برج الكنيسة في الخلف حيث كان الحبل ما زال يضرب سارية العلم.

لم يخامر هنْشَرْد أدنى شك في أنَّ انتقال إلِزابث جيْن سيكون حثيثًا هكذا، فقد أخذته الدهشة حين وصل إلى المنزل قبل السادسة ورأى أمام الباب عربة من عربات نُزُل «الأسلحة الملَكية»، وربيبتَه تصعد إليها ومعها جميع حاجاتها وصناديقها الصغيرة.

«ولكنك قلت يمكنني الرحيل يا أبي؟» قالت شارِحةً له الأمر من نافذة العربة.

«قلت! بلى، ولكنني ظننتك تقصدين الشهر المقبل أو العام المقبل. إنك لا تضيِّعين الفرصة! هكذا إذن تعاملينني بعد كل ما عانيته من أجلك؟»

«أوَّاه يا أبي! كيف تقول ذلك؟ هذا ليس عدلًا!» قالت بانفعال.

«حسنٌ، حسنٌ، افعلي ما شئتِ،» أجاب.

دخل إلى المنزل، ولمَّا لاحظ أنَّ حاجاتها لم تُجلب جميعها إلى الطابق السفلي بعد صعد إلى حجرتها ليرى. لم يدخلها منذ أن شغلتها هي. رأى في أنحاء الحجرة أدلَّة جليَّة على اهتمامها وجهودها لتطوير نفسها بين كتب ورسوم وخرائط وترتيبات بسيطة لإضافة الذوق. لم يكن هنْشَرْد يعرف شيئًا عن هذه الجهود. حدَّق في الأشياء، ثم استدار بغتةً ونزل إلى الأسفل متجهًا

إلى الباب.

«اصغِ إليَّ،» قال بصوت متغيِّر، ولم يكن قد ناداها باسمها حتى تلك اللحظة. «لا ترحلي عني. ربَّما تحدَّثت إليك بفظاظة، لكنني تعذَّبت إلى أبعد حد بسببك، وهناك سبب لذلك.»

«بسببي؟» قالت بقلق شديد. «ماذا فعلت؟»

«لا أستطيع إخباركِ الآن، ولكن إن توقفتِ وواصلتِ العيش معي كابنتي سأخبرك كل شيء في الوقت المناسب.»

لكنَّ عرضه أتى متأخرا عشر دقائق، فقد كانت في العربة، وكان خيالها قد سرح بها وطار إلى منزل السيدة التي فُتِنت بسلوكها أيَّما افتتان. «أبي،» قالت مُراعيةً شعوره قدر ما استطاعت. «أظنُّ أنه من الأفضل لكلينا أن أذهب الآن. عليَّ ألا أبقى طويلًا، لن أكون بعيدة من هنا، وإن كنت في حاجة ماسَّة إليَّ فبمقدوري أن أعود إليك مرة أخرى.»

أومأ برأسه قليلًا متلقِّيًا قرارها لا أكثر. «تقولين إنك لن تكوني بعيدة، ما عنوانك إن رغبتُ أن أكتب إليك؟ أم أنه ليس عليَّ أن أعرف؟»

«بلى، مؤكَّد. إنه في البلدة وحسب، في «المنزل العالي.»

«أين؟» قال هنْشَرْد وقد تجمَّدت ملامحه.

كرَّرت الكلمات، فلم يتحرَّك أو يتكلَّم، ولوَّحت له بيدها بلطف بالغ، ثم أشارت إلى سائق العربة بالانطلاق.

الفصل الثاني والعشرون

لنعد لحظةً إلى الليلة الفائتة لنوضِّح موقف هنْشَرْد.

في الساعة التي كانت إلِزابث جيْن تفكِّر بالقيام بنزهتها الاستطلاعية المُسترَقة إلى مسكن سيِّدة أحلامها، لم يكن تعجُّب هنْشَرْد قليلًا عندما تلقَّى رسالة باليد مكتوبة بخط لوسِتا الذي كان يعرفه جيِّدًا. وقد تلاشى ذاك التَّحفُّظ واليأس اللذان أبدتهما في رسالتها السابقة، وكتبت بشيء من تلك الخفَّة الطبيعية التي ميَّزت شخصها في أثناء تعارفهما الأول.

«المنزل العالي»

عزيزي السيد هنْشَرْد،

لا تأخذنَّك الدهشة، إنَّه من أجلك وأجلي، كما آمُل، أتيت للعيش في كاستربرِدْج، إلى متى؟ لا أستطيع القول. ذلك يتوقَّف على شخص آخر، وهو رجلٌ، وتاجرٌ، وعمدةٌ، وصاحب الحقِّ الأول في محبَّتي. أقول لك جادّةً يا صديقي[70]، أنني لست مسرورة كما قد يبدو من هذا. جئت إلى هنا حينما سمعت بوفاة زوجتك التي كنتَ تعتقد أنها قد ماتت منذ سنوات عديدة قبل ذلك! ياللمسكينة! يبدو أنها عانت كثيرًا، لكنها ما كانت لتشكو، ومع أنها كانت متواضعة التفكير إلا أنها لم تكن بلهاء. أنا مسرورة لأنك كنت مُنصفًا لها. وحالما علمتُ بوفاتها، دفعني ضميري دفعًا إلى السعي لتبديد الشكوك التي ألقى طيشي[71] بظلالها على سمعتي، بأن أطلب إليك أن تفي بوعدك لي. أرجو أن توافقني الرأي، وأن تتخذ الخطوات اللازمة لهذا الغرض. ولأنني لم أعرف ما وضعك أو ما حدث منذ انفصالنا عقدت العزم على المجيء والاستقرار هنا

70) في الأصل بالفرنسية: mon ami، (المترجمة)

71) في الأصل بالفرنسية: étourderie، (المترجمة)

قبل الاتصال بك.

لعلَّك تشعر كما أشعر حيال هذا الأمر. سأراك في غضون يوم أو يومين. وإلى ذلك الحين وداعًا.

المخلصة لوسِتا

ملحوظة: لم أتمكَّن من الإيفاء بموعد لقائك بضع دقائق في أثناء مروري بكاستربرِدْج ذلك اليوم، فقد تغيَّرت خطتي بسبب حدث عائلي ستعجب منه عندما تعرفه.»

كان هنْشَرْد قد سمع من قبل أنَّ «المنزل العالي» كان يُعَدُّ لأحد المستأجرين. قال بشيء من الحيرة لأول شخص صادفه: «من القادم للإقامة في المنزل؟»

«أظن أنها سيدة تدعى تِمبلمان يا سيدي،» قال الآخر.

فكَّر هنْشَرْد وقال لنفسه: «أعتقد أنَّ لوستا قريبة لها. بلى، يجب أن أعاملها بالطريقة المناسبة بلا شك.»

لم يعُد بأي حال من الأحوال مُثقلًا بفكرة الواجب الأخلاقي التي رافقته من قبل، بل أصبح الآن يتطلَّع إليها باهتمام، إن لم يكن بشوق. حين عرف أنَّ إلِزابث جيْن لم تكن ابنته، وأنَّه رجل أبتر لا ذرية له، أُصيب بخيبة أمل مريرة تركت في نفسه فراغًا عاطفيًّا أخذ يتوق إلى ملئه دونما وعي منه. وعلى حالته الذهنية تلك، وإنَّما من دون مشاعر جيَّاشة، مشى في الزقاق المعتم ودخل «المنزل العالي» من الباب الخلفي الذي كادت إلزابث أن تصادفه عنده. ومن ثمَّ ذهب إلى الفناء ورأى رجلًا كان يُفرغ صندوقًا من أوان خزفية، فسأله عمَّا إذا كانت الآنسة «لو سير» تقيم هناك، وهذا الاسم كان الاسم الذي عُرِفت به لوستا، أو «لوست» كما كانت تدعو نفسها في ذلك الحين.

أجاب الرجل بالنفي، وبأنَّ الآنسة تمبلمان هي التي أتت وحسب.

انصرف هنْشَرْد وقد انتهى إلى أنَّ لوسِتا لم تصل بعد.

كان في مرحلة الاهتمام بالبحث هذه عندما شهد رحيل إلِزابث جيْن في اليوم التالي. ولمَّا سمعها تخبره بالعنوان، تملَّكته على حين غرَّة فكرةٌ غريبة بأنَّ لوسِتا والآنسة تمبلمان هما الشخص نفسه، لأنه تذكَّر فترة علاقتهما وأنَّ قريبتها الثَّريَّة التي ظنَّها شخصية وهميَّة ابتدعتها كانت تُدعى تمبلمان. ومع أنه لم يكن صائد ثروات، غير أنَّ إمكانية أن تكون لوسِتا قد سَمَت شأنًا لتغدوَ سيدة ثريَّة بفضل وصيَّة سخيَّة من تلك القريبة، أضافت سحرًا إلى صورتها ما كانت لتبلغه لولا ذلك. لقد كان هنْشَرْد في سبيله إلى بلوغ ذلك الطريق المسدود في منتصف العمر عندما تستحوذ المادة على العقل على نحو متزايد.

بيْد أنَّ هنْشَرْد لم يُترَك طويلًا في شكوكه. في الواقع، كانت لوسِتا مدمنةَ كتابةٍ، كما بدا من سيل رسائلها إثر إخفاق خطة زواجهما، ولم تكد إلِزابث تغادر حتى وصلت إلى بيت العمدة رسالة أخرى من «المنزل العالي».

لقد استقرَّ بيَ المقام [قالت] وهنِئتُ بالسُّكنى رغم ما لقيت من عناء في الانتقال إلى هنا. لعلَّك تدري ما سأقوله لك أم أنك لا تدري؟ تُوفيت عمتي الطيبة تمبلمان، أرملة صاحب المصرف، التي طالما ارتبتَ في مجرد وجودها وأكثر من ذلك في ثرائها، وقد أورثتني بعض أملاكها. لن أخوض في التفاصيل إلا لأقول إنني اتَّخذت اسمها اسمًا لي كوسيلة للهروب من اسمي وما يكتنفه من خطايا.

أنا الآن سيدة نفسي، وقد اخترت الإقامة في كاستربرِدْج، واكتريت «المنزل العالي»، وهذا على الأقل لن يسبِّب لك عناء إن رغبت في رؤيتي. كانت نيتي الأولى أن أبقيك على جهل بما طرأ من تغيُّر في حياتي حتى تلقاني مصادفةً في الطريق، لكنني فكَّرت بطريقة أفضل من ذلك. لعلَّك تعلم بخطتي مع ابنتك، وستضحك بلا شك من.. ماذا أسميها؟ مِزاحًا سمِجًا (لكنَّه كان بدافع المودَّة) لكي تأتي للعيش معي. غير أنَّ أول لقاء بيننا كان مصادفة

بحتة. أترى يا مايكل لِمَ فعلتُ ذلك؟ لألتمس لك عذرًا للمجيء إلى هنا وكأنك تزورها، ومن ثمَّ يبدو تعارفنا طبيعيًا. إنها فتاة لطيفة عزيزة، وتعتقد أنك عاملتها بقسوة لا تستحقُّها. لعلَّك فعلت ذلك في غمرة استعجالك، ولكنني واثقة أنك لم تتعمَّده. ولمَّا كانت النتيجة أنْ أحضرها معي إلى هنا فأنا لا أنوي إلقاء اللوم عليك.

على عجل، المخلصة دائمًا لوسِتا.

لقد أثارت هذه الكلمات في نفس هنْشَرْد الكئيبة سعادةً غامرة، فجلس إلى مائدة الطعام طويلًا وعلى نحو حالم، ولَكأنَّ عواطفه انتقلت انتقالًا تلقائيًا مُذ نضَب مَعينُها إثر القطيعة بينه وبين إلِزابث جيْن ودونلد فارْفري، لِتلتئم حول لوسِتا قبل أن تجفَّ تمامًا. كان جليًا أنها كانت تميل كثيرًا إلى الزواج. ولكن، ما عسى امرأة مسكينة أن تفعل وقد منحته وقتها وقلبها بلا تفكير في ذلك الحين حتى فقدت سمعتها بسببه؟ لعلَّه الضمير أكثر من العاطفة ما أتى بها إلى هنا. وعلى أيَّة حال لم يكُن لِيَلُمها.

«يا للمرأة الصغيرة الماكرة!» قال مبتسمًا (إشارةً إلى براعة لوسِتا وسلوكها اللطيف مع إلِزابث جيْن).

عندما شعر هنْشَرْد برغبة في رؤية لوستِا همَّ بالذهاب إلى منزلها، فلبس قبَّعته ومضى. كانت الساعة بين الثامنة والتاسعة عندما وصل إلى باب منزلها، وتلقَّى ردًّا بأنَّ الآنسة تمبلمان في انشغال ذلك المساء، ولكنها ستكون مسرورة أن تراه في اليوم التالي.

«كأنما تتظاهر بالأهمية!» فكَّر. «وبالنظر إلى علاقتنا..» وعلى أيَّة حال، كان جليًا أنها لم تتوقَّع زيارته وحسب، فتلقَّى رفضها بهدوء. ومع ذلك عقد العزم على ألا يزورها في اليوم التالي. «ما بال هؤلاء النساء اللعينات، لا يقرُّ لهن قرارا!»

هيَّا بنا نقتفي مسار تفكير السيد هنْشَرْد وكأنه دليلنا، ولننظر داخل «المنزل العالي» في هذا المساء تحديدًا.

إثر وصول إلِزابث جيْن طلبت منها عجوز بفتور أن تصعد إلى الطابق العلوي لتبديل ملابسها، فأجابتها بجدٍّ بالغ بأنه لا أهمية لذلك، وعلى الفور جرَّدت نفسها من قبعتها ومعطفها في المعبر. ثم قادتها العجوز إلى أول باب عند بسطة السُّلَّم، وتركتها لتلمس طريقها وحدها.

تبدَّت للعين حجرة مؤثَّثةٌ تأثيثًا جميلًا كمخدع أو بهو استقبال صغير، وعلى أريكة ذات مِخدَّتين أسطوانيتيْن اتَّكأت امرأة جميلة، سوداء الشعر، واسعة العينين، تتحدَّر من أصول فرنسية بلا شك من أحد طرفي أبويها. ربَّما كانت تكبر إلزابث بضع سنين، وكان ثمَّة بريق في عينيها. كانت أمام الأريكة منضدة صغيرة تناثرت عليها حزمة من أوراق اللعب وُجُوهها للأعلى.

كانت في حالة انغماس شديدة حتى إنها قفزت مثل زُنبرك لدى سماعها الباب وهو يُفتح.

عندما أدركت أنها كانت إلِزابث اطمأنَّت وأقبلت نحوها واثبةً بخفَّة كادت تثير صخبًا لولا أن حالت كياستُها الفطريَّة دون ذلك.

«لقد تأخَّرت،» قالت وهي تمسك بيدي إلِزابث جيْن.

«كان عليَّ إنجاز بعض الأمور الصغيرة.»

«وتبدين فاقدة الحيوية ومتعبة. دعيني أحاول بعث بعض الحيوية فيك ببعض الحيل الرائعة التي تعلَّمتُها لقتل الوقت. اجلسي هناك ولا تتحركي.» جمعت أوراق اللعب وسحبت المنضدة أمامها وبدأت توزِّعها بسرعة وطلبت من إلِزابث أن تختار بعضًا منها.

«هل اخترت؟» سألتها طارحة البطاقة الأخيرة.

«لا،» أجابت إلزابث بتلعثم منتبهةً من تأمُّلها. «لقد نسيت تمامًا، كنت أفكر فيكِ وفيَّ وكم يبدو غريبًا أنني هنا.»

نظرت الآنسة تمبلمان في اهتمام إلى إلِزابث جيْن ووضعت أوراق اللعب. «آه! لا بأس،» قالت. «سأستلقي هنا واجلسي بقربي ولنتحدَّث.»

اقتربت إلِزابث بصمت من رأس الأريكة والسرور بادٍ عليها. كان يمكن للمرء أن يرى أنها أصغر من مضيفتها سنًّا ولكنَّها أكبر حكمةً منها في سلوكها ونظرتها العامة. استقرَّت الآنسة تمبلمان على الأريكة متخذةً وضعها السابق، وقد ألقت ذراعها فوق جبينها – في وضعية تشبه بعض الشيء إحدى لوحات تيتيان[72] الشهيرة – وراحت تتحدَّث إلى إلِزابث جيْن من وضعها المعكوس ذاك عبر جبهتها وذراعها.

«يجب أن أخبرك شيئًا،» قالت. «وإنني أتعجَّب إن كنتِ قد ارتبتِ في أمري. لم أصبح سيدة منزل كبير وصاحبة ثروة إلا منذ حين فقط.»

«منذ حين فقط؟» تمتمت إلِزابث وقد غامت ملامحها قليلًا.

«عندما كنت صبيَّة عشت في بلدات ذات حاميات عسكرية وفي بلدات أخرى مع أبي حتى غدوتُ طائشة لا يقرُّ لي قرار. كان أبي ضابطًا في الجيش. وما كنت لأذكر هذا لولا أنني ارتأيتُ أنَّه من الأفضل أن تعرفي الحقيقة.»

«بلى. بلى،» وقلَّبت ناظريها في أرجاء الغرفة مفكِّرةً. نظرت إلى البيانو المربَّعة الصغيرة المرصَّعة بالنحاس، وإلى ستائر النافذة، وإلى المصباح، وإلى صور الملوك والملكات البيض والسود على منضدة لعب الورق، وأخيرًا إلى وجه لوسِتا تمبلمان التي كان لعينيها البراقتين الواسعتين أثر عجيب وهي مستلقية في وضعها المعكوس.

كان عقل إلِزابث مأخوذًا باكتساب العلم إلى حدٍّ مَرضيّ. «إنك تتحدثين الفرنسية والإيطالية بطلاقة دون شك،» قالت. «وأمَّا أنا فلم أتمكَّن من اتقان أكثر من بعض لاتينية رديئة.»

«إنَّ تحدُّث الفرنسية لا يعني الكثير في موطني، إنَّ الأمر بالأحرى

---

72) رسام إيطالي (1485 – 1576)

يجري بطريقة معاكسة.»

«وأين يقع موطنك؟»

أجابت الآنسة تمبلمان مُكرهةً بعض الشيء: «جيرسي. هناك يتحدثون الفرنسية في جانب من الشارع والإنجليزية في الجانب الآخر، وما بين الجانبين يتحدثون بلسان مختلط. ولكنَّ زمنًا طويلًا مضى منذ أن غادرت ذلك المكان. باث هي المدينة التي تنتمي إليها عائلتي في الواقع، مع أنَّ أسلافي في جيرسي لا يقلُّون شأنًا عن أي شخص في إنكلترا. كانوا يُعرَفون بآل لو سير، وهي عائلة عريقة حقَّقت أمجادًا عظيمة في عهدها. عدت وعشت هناك بعد وفاة أبي. غير أنني لا أبالي كثيرًا بهذا الماضي، وأنا إنجليزية حتى النُّخاع في مشاعري وذائقتي.»

تخلَّى لسان لوسِتا لحظة عن تكتُّمه. لقد وصلت إلى كاستربرِدْج بصفتها سيدةً من باث، وكان ثمة أسباب واضحة وراء إسقاطها جيرسي من حياتها. بيْد أنَّ إلزابث أغرتها بالتَّحرُّر من تحفُّظها، وتخلَّت عن قرار كانت قد اتَّخذته عمدًا.

ولكن ما كان يمكن التَّخلِّي عن هذا القرار في رفقة تطمئن إليها. إلا أنَّ لوسِتا لم تمض بكلامها إلى أبعد من ذلك، وأصبحت منذ ذلك اليوم شديدة الحرص حتى لم تعُد هناك فرصة لتعرُّف هُويَّة امرأة جيرسي الشَّابَّة التي كانت رفيقة هنْشَرْد العزيزة في وقت عصيب. ولم يكن أقلَّ طرافة بين ما اتَّخذته من تدابير أن تتجنَّب بحزم قول أي كلمة فرنسية إذا ما أتت على لسانها مصادفة أسرع من نظيرتها الإنجليزية. كانت تتنصَّل منها تنصلًا سريعًا كما فعل الحَواريُّ الضعيف إزاء تهمة: «إنَّ لهجتك تفضح أمرَك!»[73]

بدا ترقُّب لوسِتا واضحًا في صباح اليوم التالي. وقد تزيَّنت من أجل

73) الإشارة إلى بطرس، أحد تلامذة يسوع الاثني عشر، الذي أنكر صلته به في أثناء المحاكمة إلا أنّ الأعضاء الحاضرين عرفوه من لهجته (إنجيل متى 62: 37): وبعد قليلٍ دنا الحاضرون وقالوا لبطرس: «حقًّا أنت أيضًا منهم، فإنَّ لهجتك تفضح أمرك.» الكتاب المقدّس، دار المشرق، بيروت، 2007.

السيد هنْشَرْد، وراحت تترقَّب زيارته بقلق قبل منتصف اليوم، ولمَّا لم يأتِ واصلت انتظارها إلى ما بعد الظهر. بيْد أنها لم تخبر إلِزابث أنَّ الشخص المنتظَر كان زوج أمِّها.

جلستا عند نافذتين متجاورتين في الحجرة ذاتها في منزل لوسِتا الحجري الكبير، تخيطان وتنظران السوق الذي كان يشكِّل مشهدًا نابضًا بالحياة. استطاعت إلِزابث أن تتبيَّن قمة قبعة زوج أمِّها بين حشد القبعات هناك في الأسفل، ولم تكن تدري أنَّ لوسِتا كانت ترقب الشخص نفسه، ولكن باهتمام أكبر. كان يتنقَّل في زحام هذه البقعة التي كانت تعجُّ بالحركة مثل مملكة نمل، في حين كان هدوء البقعة الأخرى أكثر ولا يقطعه إلا أكشاك الفاكهة والخضروات. وكان المزارعون يفضِّلون الميدان المفتوح مكانًا لعقد صفقاتهم رغم ازدحامه بالتدافع والتصادم وخطورة العربات العابرة للطريق، بدلًا من قاعة السوق المعتمة المسقوفة المتاحة لهم. في هذا اليوم من الأسبوع يحتشد المزارعون هنا مشكِّلين عالمًا صغيرًا من الطّماقات والعصيّ وأكياس العيِّنات، فهناك رجال بكروش بارزة ومائلة وكأنها خواصر جبل، ورجال تتمايل رؤوسهم وهم يمشون مثل أشجار تتمايل في عواصف نوفمبر، وكانت هيئاتهم تتبدَّل كثيرًا إذ يتبادلون الأحاديث، فيخفضون أجسادهم مباعدين بين ركبهم ويحشرون أيديهم في جيوب بعيدة في أصدرتهم الداخلية. كانت وجوههم تشعُّ دفئًا استوائيًّا، ومع أنَّ سحنتهم تتبدَّل عندما يكونون في بيوتهم بتبدُّل المواسم، فإنها تتوقَّد حماسةً عندما يكونون في السوق على مدار العام.

لم يكن الناس هنا يجدون راحة في ارتداء الملابس الخارجية، بل يعدُّونها ضرورة معوقة. كان بعض الرجال يبدون في حُلَّة جيدة، بيْد أنَّ أغلبهم لم يكن ليعير ذلك اهتمامًا، فيظهرون في بِذَل كأنها سجلات تاريخية لأعمال مرتديها، وقد لوَّحتها الشمس وأرهقها كفاحها اليومي منذ سنوات عديدة خلت. ومع

ذلك، كان كثيرون منهم يحملون دفاتر حسابات متغضِّة في جيوبهم مقيَّدة في المصرف القريب بأرصدة لا تقلُّ عن أربعة أرقام أبدًا. في الواقع، كان ما تمثِّله هذه الهيئات البشرية غير المتناسقة على وجه الخصوص هو المال الحاضر، المال الحاضر على نحو مُلحٍّ، وليس ذلك المال الذي يكون حاضرًا ومُعدًّا للعام المقبل كأموال النبلاء، ولا يكون غالبًا حاضرًا وفي المتناول في المصرف وحسب مثل أموال أصحاب المهن، ولكنه حاضرٌ في أيديهم الضخمة السمينة.

حدث في ذلك اليوم أن سمقت وسط هؤلاء جميعهم شجرتان أو ثلاث من أشجار التفاح الباسقة التي وقفت هناك وكأنها نَمَت في الحال، إلى أنْ تبيَّن أنَّ رجالًا من مقاطعة التفاح كانوا يحملونها وقد أتوا لبيعها جالبين طين مقاطعتهم على أحذيتهم الطويلة. قالت إلِزابث جيْن التي كانت كثيرًا ما تراها: «أتعجَّب إن كانت الأشجار ذاتها تأتي كل أسبوع؟»

«أية أشجار؟» قالت لوسِتا التي كانت مستغرقة في البحث عن هنْشَرْد.

أجابت إلِزابث بغموض لأنَّ شيئًا استوقفها، إذ كان يقف خلف إحدى الأشجار فارْفري، يناقش مزارعًا بخفَّة في كيس عيِّنات. أقبل هنْشَرْد وصادف الشاب الذي بدا وجهه مستفسرًا يقول: «هل يتحدَّث أحدنا إلى الآخر؟»

رأت إلِزابث زوج أمِّها وهو يرمقه بنظرة مجيبة بقول«لا!»، فتأوَّهت متحسِّرةً.

«أتُراكِ معنيَّة بأمر شخص ما هناك على وجه الخصوص؟» قالت لوسِتا.

«كلَّا،» قالت رفيقتها وقد اصطبغ وجهها حُمرةً بغتةً.

من حسن الحظ أنَّ فارْفري توارى فورًا وراء شجرة التفاح.

نظرت إليها لوسِتا بإمعان. «أواثقة أنت؟» قالت.

«أجل،» قالت إلِزابث جيْن.

نظرت لوسِتا مجدَّدًا إلى الخارج. «أظن أنهم جميعًا مزارعون؟»

«كلَّا. ذلك السيد بُلج، إنه تاجر نبيذ، وذاك بنيامِن برونلت، تاجر أحصنة، وكيتسن، مربي الخنازير، ويوبر الدَّلَّال، إضافة إلى تجَّار الشعير والطحانين وغيرهم.» وقف فارْفري الآن مرئيًّا بوضوح تام، ولكنها لم تأتِ على ذكره.

وهكذا انقضى نهار السبت على نحو متقطع، فتحوَّل السوق من ساعة عرض العينات إلى ساعة الخمول قبل العودة إلى المنازل، الساعة التي تُسرَد فيها القصص. لكنَّ هنْشَرْد لم يزُر لوسِتا، مع أنه كان واقفًا قريبًا جدًّا. وقد فكَّرت أنَّه ربَّما كان مشغولًا جدًّا، وسيأتي يوم الأحد أو الاثنين.

ومضى اليومان ولم يأتِ الزائر، مع أنَّ لوسِتا كرَّرت زينتها بعناية فائقة الدقة. وقد أُصيبت بخيبة أمل. لعلَّه يمكن القول على الفور أنَّ لوسِتا ما عادت تكنُّ لهنْشَرْد كل ذلك الإخلاص الحارَّ الذي كانت تتسم به في بداية تعارفهما، فقد أخمدت الأحداث المؤسفة اللاحقة أُوارَ الحبِّ الخالص إلى حدٍّ بعيد. ولكن، بقيت هناك أمنيَّة يمليها الضمير بجمع شملهما، إذ لم يعد هناك ما يحول بينها وبين تصحيح وضعها، وهذا في حد ذاته أمرٌ يجعلها تتنهَّد فرحًا. كانت ثمَّة أسباب اجتماعية قويَّة من جانبها تدفعها إلى إتمام زواجهما، وأمَّا من جانبه هو فلم يكن ثمَّة من سبب دنيوي يدعوه إلى تأجيل الزواج وقد غدت صاحبة ثروة.

كان يوم الثلاثاء عيد مريم العذراء الكبير. في أثناء الإفطار قالت لوسِتا لإلِزابث جيْن بفتور شديد:

«أظن أنَّ والدك سيأتي ليراك اليوم. أعتقد أنه يقف قريبًا من ساحة السوق مع بقية تجار الحنطة؟»

هزَّت رأسها نفيًا. «لن يأتي.»

«لماذا؟»

«إنه يكرهني،» قالت بصوت أجش.

«يبدو أنَّ ما بينكما من خلاف أكبر مما أعرف.»

«نعم.» قالت إلِزابث وهي تتمنَّى أن تُبرّئ الرجل الذي كانت تعتقد أنه أبوها من أي تهمة كراهية غير طبيعية.

«وإذن، هو يتجنَّب المكان الذي تكونين فيه من دون جميع الأماكن؟»

أومأت إلِزابث بحزن.

بدت لوسِتا مشدوهةً، وارتعش حاجباها وشفتاها الجميلتان فانفجرت تبكي بكاء عصبيًّا. تلك كانت كارثة، فقد مُنيت خطتها الحاذقة بفشل ذريع!

«عزيزتي الآنسة تمبلمان، ما الخطب؟» صاحت رفيقتها.

«أحب رفقتك كثيرًا!» قالت لوسِتا حالما استطاعت الحديث.

«بلى، بلى، وأنا كذلك أحب رفقتك!» قاطعتها إلزابث مهدئةً من رَوْعها.

«لكن، لكن..» ولم تستطع إكمال العبارة التي كانت تعني بطبيعة الحال أنه إن كان هنْشَرْد يضمر كراهية عميقة للفتاة هكذا كما بدا عليه الحال الآن، فلا بُدَّ من التَّخلُّص من إلِزابث جيْن، وتلك ضرورة مزعجة.

وكان أن خطرت لها ذريعة مؤقتة. «آنسة هنْشَرْد، هلَّا ذهبت لقضاء حاجة لي حالما ينتهي الإفطار؟ آه، ذلك لطف كبير منك. هلا ذهبت وطلبت..» وراحت تعدِّد أشياء كثيرة في متاجر عديدة تُشغل بها وقت إلِزابث ساعة أو ساعتين على الأقل.

«هل زرت المتحف من قبل؟»

إلِزابث جيْن لم تفعل ذلك.

«إذن ينبغي أن تزوريه في الحال. يمكنك قضاء بقيَّة الصباح بالذهاب إلى هناك. إنه منزل قديم في شارع خلفي، نسيت أين، ولكنك ستجدينه وفيه

أشياء كثيرة ممتعة، جماجم، أسنان، قدور وأوعية قديمة، أحذية عتيقة، بيض طيور، كلُّها أشياء تثقيفية على نحو أخَّاذ. ثقي بأنك ستبقين هناك حتى يداهمك الجوع.»

ارتدت إلِزابث ملابسها باستعجال وخرجت. «أتعجَّب لِمَ تريد التَّخلُّص مني اليوم!» قالت بأسًى وهي تنصرف. بدا جليًّا لإلِزابث الساذجة أنَّ غيابها كان هو المطلوب أكثر من خدماتها وتثقيفها، ولكن كان من الصعب عليها أن تجد دافعًا وراء هذه الرغبة.

لم تكد تمضي عشر دقائق على خروجها حتى أرسلت لوسِتا إحدى خادماتها إلى هنْشَرْد حاملةً رسالة. كان مضمونها باختصار:

عزيزي مايكل،

ستكون اليوم واقفًا قبالة منزلي ساعتين أو ثلاث ساعات وأنت تتفقَّد أعمالك، ولذا أرجو أن تأتي لزيارتي. لقد خيَّبت أملي عندما لم تزرني من قبل، كيف لي أن أحتمل قلقي إزاء علاقتي المُريبة بك؟ ولا سيَّما أنَّ ثروة عمتي جعلتني الآن أكثر ظهورًا في المجتمع؟ لعلَّ وجود ابنتك هنا هو سبب تجاهلك لي، ولذا أرسلتها خارج المنزل طوال الصباح. قل إنك أتيت من أجل عمل ما وسأكون وحدي تمامًا.

لوسِتا

عندما عادت الخادمة وجَّهت إليها سيدتها الأوامر بأنه عندما يأتي سيد للزيارة فلتدخله في الحال، ثم جلست تترقَّب النتائج.

من الناحية العاطفية، لم تكن لتهتم برؤيته، فقد سئمت تأخُّره، لكن رؤيته كانت ضروريَّة، وأطلقت تنهيدة وهي تجلس على نحو جذَّاب على مقعدها، مرَّةً بهذه الطريقة ثم بتلك بحيث يسقط الضوء على رأسها. ثم ألقت بنفسها على الأريكة في وضعية الانحناء التي تلائمها، وذراعها فوق

جبينها، وراحت تنظر نحو الباب. قرّرت أنّ هذا الوضع هو الأفضل على كل حال، وهكذا بقيت حتى سمعت وقع خُطَى رجل على السلالم. عندئذ، نسيت لوسِتا هيئة الانحناء (فالطبيعة كانت أكثر قوة من التَّفنُّن) وبحياء غريب قفزت وركضت لتختبئ خلف إحدى الستائر. وعلى الرغم من خُبُوّ عاطفتها كان الموقف مريكًا، ذلك أنها لم تر هنْشَرْد منذ انفصاله العارض (المزعوم) عنها في جيرسي.

تمكّنت من سماع الخادمة وهي توجّه الزائر للدخول إلى الحجرة ثم تغلق الباب وراءها وتذهب وكأنها تبحث عن سيدتها. أزاحت لوسِتا عنها الستارة وهي ترحّب بالزائر بتوتُّر، ولكنَّ الرجل الذي كان أمامها لم يكن هنْشَرْد.

الفصل الثالث والعشرون

كانت فكرة أنَّ الزَّائر قد يكون شخصًا آخر قد برقت في ذهن لوستا حقًّا في لحظة اندفاعها من وراء الستارة، ولكنَّ أوان التراجع كان قد فات.

كان الزائر يصغر عمدة كاستربردج بأعوام، وكان حسن المظهر، نظِرًا، ووسيمًا على نحو مرهف. كان يرتدي طماقًا أنيقًا بأزرار بيضاء، وحذاء عاليًا لامعًا بثقوب كثيرة للأربطة، وبنطالا من القيطان الخفيف تحت معطف مخملي أسود وصدار، ويحمل في يده عصا فضية التاج. تورَّد وجه لوسِتا حياءً وقالت وعلى وجهها مزيج غريب من الاستياء والضحك: «لقد ارتكبتُ خطأ ما!»

وعلى النقيض منها لم يبتسم الزائر أقل ابتسامة.

«ولكن أنا آسف جدًّا!» قال بنبرة تأسُّف. «جئت سائلًا عن الآنسة هنْشَرْد فقادوني إلى الصعود إلى هنا، ولو كنت أعلم لما باغتُّك بهذه الطريقة الفظة!»

«أنا مَن كنت الفظة،» قالت.

«ولكن هل جئتُ إلى المنزل الخطأ يا سيدتي؟» قال السيد فارْفري وعيناه تطرفان بعض الشيء من الذهول وهو ينقر طماقه بعصاه متوتِّرًا.

«كلَّا يا سيدي، تفضَّل بالجلوس. أمَا وقد وصلت فعليك بالجلوس الآن.» أجابت لوسِتا بلطف لتخفِّف من حرجه. «ستكون الآنسة هنْشَرْد هنا في الحال.»

لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا، ولكن كان ثمَّة شيءٌ في الشاب يوحي بهشاشة أهل الشمال وصلابتهم وسحرهم، وكأنه آلة موسيقية مشدودة

الأوتار، شيءٌ أثار اهتمام هنْشَرْد وإلِزابث جيْن ومجموعة «البحَّارة الثلاثة» المَرحة، ذاك الشيء هو ما جعل مثوله غير المتوقَّع جذَّابًا في عيني لوسِتا. تردَّد ونظر المقعد وفكَّر أنه ما من خطر فيه (مع أنَّ خطرًا كان فيه) فجلس.

كان دخول فارْفري المفاجئ بيساطة نتيجة سماح هنْشَرْد له برؤية إلِزابث إن كان يرغب في التَّودُّد إليها. في البداية لم يُلْقِ بالًا لرسالة هنْشَرْد الفظة، غير أنَّ صفقة تجارية موفقة على نحو رائع جعلت علاقته بالجميع جيدة، وكشفت له أنَّ باستطاعته الزواج على نحو لا يمكن إنكاره إن شاء ذلك. ثمَّ مَن تلك التي تضاهي إلِزابث جيْن لطفًا وحكمةً وإرضاءً من جميع النواحي؟ وبصرف النظر عن فضائلها الشخصية، فإنَّ تصالحًا ما بينه وبين صديقه السابق هنْشَرْد سينتج عن زواج كهذا في المسار الطبيعي للأمور. ولذلك صفح عن فظاظة العمدة، وجاء إلى منزلها هذا الصباح في طريقه إلى السوق وعَلِم أنها تقيم في منزل الآنسة تمبلمان. استاء بعض الشيء لمَّا لم يجدها مستعدة ترتقب مجيئه – يالأوهام الرجال! – فسارع إلى «المنزل العالي»، وهناك لم يصادف إلِزابث، بل سيدتها نفسها.

«يبدو السوق نشطًا اليوم،» قالت حينما زاغ بصرهما تلقائيًا إلى المشهد الضَّاجِّ في الخارج. «إنَّ معارضكم وأسواقكم الكبيرة تثير اهتمامي. ما أكثر ما يخطر ببالي عندما أراقب من هنا!»

بدا في حيرة من أمره كيف يجيب، وهما جالسان كانت الثرثرة تأتيهما من الخارج كأنها أمواج تتلاطم، وبين الفينة والأخرى تعلو إحداها على الأخريات. «هل تطالعين السوق كثيرًا؟» سألها.

«أجل، غالبًا.»

«هل تبحثين عن أحد تعرفينه؟»

لِمَ أجابته بتلك الطريقة؟

«إنني أطالع السوق كما أطالع صورة وحسب، ولكن،» أردفت

ملتفتةً بلطف إليه. «لعلّني سأفعل الآن، لعلّني سأبحث عنك. أنت دائمًا هناك، أليس كذلك؟ آه، لا أقصد ذلك جادّةً! ولكنه أمرٌ مسلٍّ أن يبحث المرء في الزحام عن شخص يعرفه حتى إن كان لا يريده. إنه يزيح الغمَّ المريع الذي يصيب المرء عندما يكون محاطًا بحشد، وليس ثمّة من رابط يجمعه حتى إلى شخص واحد.»

«أتُراك تشعرين بوحدة كبيرة يا سيدتي؟»

«لا أحد يعلم كم أنا وحيدة!»

«ولكنك ثريّة كما يقولون؟»

«إن كنت كذلك فأنا لا أعرف كيف أنعم بثرائي. أتيت إلى كاستربرِدْج معتقدة أنَّ العيش سيحلو لي هنا. ولكنني أتعجَّب إن كان ذلك ممكنًا.»

«من أين جئتِ يا سيدتي؟»

«من باث المجاورة.»

«وأنا من نواحي إدنبرة،» تمتم قائلًا. «من الأفضل أن يبقى المرء في الوطن، وهذا صحيح، ولكنَّ عليه أن يقيم حيثما يكسب رزقه. إنه لأمرٌ مؤسفٌ جدًّا، ولكنَّه حال الدنيا! ومع ذلك فقد أبليتُ حسنًا هذا العام. نعم، نعم.» استطرد في حماسة ساذجة. «أترين ذاك الرجل في المعطف الكشميري[74] الأسمر؟ لقد ابتعت منه كثيرًا في الخريف عندما تدنَّى ثمن الحنطة، ثم عندما ارتفع قليلًا بعتُ كلَّ ما لديّ! وقد جلب لي ذلك بعض الربح اليسير، في حين احتفظ المزارعون بما لديهم متوقعين ارتفاعًا أكبر في الأثمان، أجل، مع أنَّ الفئران أخذت تقرض عُرَم الحنطة عن آخرها. وعندما بعتُ ما لديَّ انخفضت أسعار السوق، فابتعت القمح من أولئك الذين احتفظوا به بثمن أقل مما اشتريت به سابقًا. وبعد ذلك،» صاح فارْفري باندفاع وقد

74) Kerseymere الكشمير نسيج صوفي ناعم ويحتفظ بالرطوبة، ولذا يبدو غريبًا أن يرتديه مزارع من مقاطعة دورست للسوق. لعلّ هاردي ارتكب خطأ شائعًا خالطًا بين هذا النسيج ونسيج الكِرْزيّ kersey، وهو نسيج صوفي خشن.

توهَّج وجهه، «بعته بعد أسابيع قليلة عندما ارتفع الثمن مجدَّدًا! وهكذا قنعت نفسي بأرباح قليلة مرارًا وتكرارًا، ثمَّ سرعان ما جنيت خمسمائة جنيه، أجل!» (ضرب المنضدة بيده ناسيًا تمامًا أين كان) في حين لم يجنِ الآخرون شيئًا على الإطلاق عندما احتفظوا بحنطتهم!»

نظرت إليه لوسِتا باهتمام بالغ. لقد كان ضربًا جديدًا تمامًا من الناس في عينها. وأخيرًا وقعت عينه على عيني السيدة فالتقت نظراتهما.

«لعلَّني أرهقتك!» هتف قائلًا.

«كلَّا، مطلقًا» قالت وقد تضرَّج خدَّاها.

«ماذا إذن؟»

«على النقيض تمامًا. أنت مثير للاهتمام كثيرًا.»

كان فازفري من تورَّد حياءً الآن.

«أعني جميعكم أنتم معشر الاسكتلنديين،» أضافت مُصحِّحةً على عجل. «إنكم متحرِّرون من تطرُّف أهل الجنوب. نحن الأشخاص العاديون جميعنا على طرفي نقيض، إمَّا دافئون وإمَّا باردون، إمَّا عاطفيون وإمَّا جُفاة. أمَّا أنتم فجمعتم كلا الطبعيْن في آنٍ واحد.»

«ولكن ماذا تقصدين بذلك؟ هلَّا أوضحتِ يا سيدتي؟»

«في لحظة تكون مفعمًا بالحيوية فتنطلق انطلاقًا، وفي اللحظة التالية تغدو حزينًا فتفكِّر في اسكتلندا والأصدقاء.»

«أجل. أفكِّر في موطني أحيانًا!» قال ببساطة.

«وكذلك أنا قدر استطاعتي، لكنَّ المنزل الذي ولدت فيه كان قديمًا ثم هدموه للإصلاح، ولذا أكاد أكون بلا وطن أفكِّر فيه الآن.»

لم تضف لوسِتا -كما يجدر بها أن تفعل- أنَّ المنزل كان في سانت هيلير وليس في باث.

«ولكن الجبال، والضباب، والصخور، كلُّها هناك! ألا تبدو وطنًا؟»

هزَّت رأسها.

«إنها في نظري وطن، إنها كذلك.» تمتم قائلًا. وبدا وكأنَّ عقله طار بعيدًا نحو الشمال. سواء كان منبع ذلك شعورًا وطنيًّا أو شخصيًّا، فقد كانت لوستِا محقَّةً تمامًا في قولها، ذلك أنَّ الطرائق الطريفة المزدوجة المنتظمة في خيط حياة فارْفري – التجارية والعاطفية – كانت جليَّة جدًّا في بعض الأحيان. ويمكن رؤية هذه التناقضات متشابكةً غير متمازجة وكأنها حبل تزيِّنه الألوان.

«لعلَّ نفسك تهفو إلى العودة،» قالت.

«آه، كلا يا سيدتي،» قال فارْفري مستفيقًا من غشيته بغتةً.

في الخارج كان السوق في هذه اللحظة يزداد زِحامًا وصخبًا، وكان هو السوق الرئيس الذي يُقام سنويًّا لتأجير العمَّال، ويختلف تمامًا عن سوق الأيام القليلة الماضية. كان في الواقع يضم حشدًا أرقطَ خالط سُمرتَه بياض، وهم مجموعة العمال المنتظرين لتشغيلهم. وهناك النساء بقبعاتهن الطويلة كعروش العربات، وأثوابهن القطنية وشيلانهن بأشكالها المربعة، وقد اختلطت جميعها بأردية سائقي عربات النقل، فحتى هؤلاء النسوة جئن طلبًا للعمل أجيرات. ووقف بين البقيَّة عند زاوية الرصيف راعٍ مُسنٌّ جذب بسكونه أنظار لوسِتا وفارْفري. بدا واضحًا أنَّه كان رجلًا معذَّبًا، لاقى ما لاقى من صروف الدَّهر، ذلك أنَّه كان ضئيل الجسد، أحنى العملُ الشَّاقُّ والسنون ظهرَه، حتى إنَّ رؤية رأسه لتكاد تصعب إذا ما اقترب منه شخص من ورائه. غرز ساق عصاه في البالوعة واتكأ على حَنِيَّتها التي كانت مصقولة بلون فضي فاقع من فرط احتكاكها الطويل بيديه. لقد نسي فارْفري تمامًا أين كان ولِمَ جاء، فأطرق. وليس ببعيد عنه كان يدور نقاش بشأنه، إلَّا أنَّه لم يكن ليسمعه، وجالت في خاطره رؤًى سارَّة عمَّا حقَّق من نجاح في حرفة التأجير في مطلع شبابه حينما أتاحت له مهارته فرصة الحصول على أية مزرعة يطلبها.

كان النقاش يدور بين مزارع من مقاطعة بعيدة وبين ابن الرجل العجوز. وكانت ثمَّة مشكلة، فالرجل ما كان ليأخذ قشرة الصفقة من دون لُبِّها، وبعبارة أخرى، فمن يكون الرجل العجوز من دون الشاب، وكان للابن حبيبة في مزرعته في الوقت الحاضر، وكانت حبيبته تقف جانبًا مرتقبةً وقد شحبت شفتاها.

«أنا آسف لأنني سأتركك يا نِلي،» قال الشاب منفعلًا. «ولكن كما ترين، لا أستطيع ترك أبي يتضوَّر جوعًا ولا يجد عملًا في عيد العذراء. المكان يبعد خمسةً وثلاثين ميلًا وحسب.»

ارتعشت شفتا الفتاة وغمغمت: «خمسة وثلاثون ميلًا! يا ويلتاه! حسبي هذا! لن أراك ثانيةً أبدًا.» وفي الواقع كانت هذه المسافة أبعد من أن تطالها سهام السَّيِّد كيوبِد[75] على نحوٍ ميؤوس منه، لكنَّ الشباب هم الشباب أنفسهم، سواء في كاستربرِدْج أو سواها.

«أوه لا، لا. لن أراك ثانيةً.» ألحَّت عندما ضغط على يدها وأشاحت بوجهها نحو جدار منزل لوسِتا لتخفي دموعها. قال المزارع أنه سيمنح الشاب نصف ساعة حتى يمدَّه بالرَّدِّ، ثم مضى مبتعدًا وتاركًا المجتمعين في أساهم.

التقت عينا لوسِتا المُخضلَّتان عيني فارْفري. ومدهوشةً، كانت عيناه أيضًا مبلَّلتيْن بالدمع من أثر المشهد.

«إنه لأمر شاق،» قالت وقد غلبها الانفعال. «لا يجوز التفريق بين المُحبين هكذا! لو كان الأمر بيدي لجعلت الناس يحيون ويحبون كما يحلو لهم!»

«لعلَّني أستطيع تدبُّر أمر عدم افتراقهما،» قال فارْفرَيّ. «أنا في حاجة إلى سائق عربة وربما سآخذ العجوز معي أيضًا، أجل، لن يكلفني غاليًا، وسيؤدي غرضي بلا شك.»

---

75) إله الُحب في الميثولوجيا الرومانية.

« كم أنت طيِّب!» هتفت مبتهجة. «اذهب وأخبرهم، ثم أعلمني إن نجحت!»

خرج فازفري ورأته يتحدَّث إلى المجتمعين. أشرقت عيون الجميع وسرعان ما سُوِّيت الصفقة، ثم عاد فازفري إليها حالما انتهت الصفقة.

«لك قلب عطوف حقًّا،» قالت لوسِتا. «أمَّا أنا، فقد قررت أن أسمح لجميع خادماتي أن يكون لهنَّ أحبَّة إن شئن! فلتفعل ولتتخذ القرار نفسه!»

بدا فازفري أكثر جِدًّا، وهزَّ رأسه قليلًا قائلًا: «عليَّ أن أكون أكثر صرامة من ذلك.»

«لماذا؟»

«أنت امرأة ثريَّة، أمَّا أنا فلست إلا تاجر تبن وحنطة مكافحًا.»

«أنا امرأة طموحة جدًّا.»

«آه، حسن، لا أستطيع أن أشرح، فأنا لا أجيد التَّحدُّث إلى السيدات، طموحات كُنَّ أم لا، وهذا صحيح،» قال دونلد بأسف شديد. «أحاول أن أكون مهذبًا مع الآخرين لا أكثر!»

«أراك مثلما تقول،» أجابت بحكمة وقد كانت لها اليد الطُّولى في أمر تبادل تلك العواطف. وبفضل حكمتها المُلهِمة هذه تمكَّن فازفري من النظر خارج النافذة ثانيةً إلى زحام السوق.

تلاقى مزارعان وتصافحا، ولأنهما كانا قريبيْن كثيرًا من النافذة فقد أمكن سماع تعليقاتهما كما أمكن سماع الآخرين من قبل.

«هل رأيت السيد فازفري هذا الصباح؟» سأل أحدهما. «لقد وعد أن يقابلني هنا في تمام الثانية عشرة، ولكنني بحثت عنه في أنحاء السوق قرابة مرات ستٍّ وما من أثر له، مع أنه في الغالب رجل وفيٌّ بالعهد.»

«لقد نسيت الموعد تمامًا.» تمتم فازفري.

«يجب أن تذهب الآن، أليس كذلك؟» قالت.

«بلى،» أجاب، ولكنه بقي في مكانه.

حثَّته قائلة: «من الأفضل أن تذهب، وإلا خسرت زبونًا.»

«والآن يا آنسة تمبلمان، إنك ستثيرين غضبي،» صاح فارْفري.

«إذن لنفترض أنك لن تذهب، هلَّا بقيت قليلًا؟»

نظر قلِقًا إلى المزارع الذي كان يبحث عنه، والذي مشى على نحو ينذر بالسوء إلى حيث كان يقف هنْشَرْد. ثم انتقل بناظريه إلى الحجرة وإليها. «كنت أودُّ البقاء، ولكنني أخشى أن عليَّ الانصراف!» قال. «ينبغي عدم إهمال العمل، أليس كذلك؟»

«ولا لدقيقة واحدة.»

«ذلك صحيح. سآتي في وقت آخر، إن أذنت لي يا سيدتي؟»

«مؤكَّد،» قالت. «ما حدث لنا اليوم غريب جدًّا.»

«أمرٌ جدير بالتفكير عندما يخلو كلٌّ منَّا إلى نفسه، ألا يبدو كذلك؟»

«لست أدري. إنه أمر مألوف على أية حال.»

«كلَّا، لن أقول إنه كذلك. لا!»

«حسنٌ، أيًّا يكن، فقد انتهى الآن والسوق يدعوك للذهاب.»

«أجل، أجل. السوق، العمل!! أتمنى لو لم يكن هناك عمل في العالم.»

كادت لوسِتا تضحك، وكان يمكنها أن تضحك لولا أنَّ عاطفةً طفيفة سرت في أوصالها تلك اللحظة. «كم بدَّلت رأيك!» قالت. «لا ينبغي أن تبدِّل رأيك هكذا.»

«ما تمنيت مثل ذلك من قبل»، قال الاسكتلندي وفي عينيه نظرة اعتذار ساذجة وخجلى من ضعفه. «فقط عندما جئت إلى هنا ورأيتك!»

«إن كان الأمر كذلك، من الأفضل ألا تنظر إليَّ بعد الآن. يا ويلي! أحس أنني أربكتك كثيرًا!»

«ولكن سواء نظرت إليك أم لم أنظر، سأراك في فكري. وإذن، سأنصرف، شكرًا لك على شرف هذه الزيارة.»

«شكرًا لأنك بقيت.»

«ربما سأتمكن من التفكير في السوق عندما أخرج من هنا بعد دقائق،» تمتم. «ولكن لست أدري، لست أدري!»

قالت بحماسة وهو يهمُّ بالانصراف: «قد تسمعهم يتحدثون عني في كاستربرِدْج مع مرور الوقت. إذا قالوا لك أنني امرأة مِغنَاج، وهذا ما سيقوله بعضهم، بسبب ما وقع من أحداث في حياتي، فلا تصدقهم، لأنني لست كذلك.»

«أقسم أنني لن أصدقهم!» قال بانفعال شديد.

وهكذا كان حال الاثنين. لقد أشعلت حماسةَ الشاب حتى غدا مُترعًا بالمشاعر، وأمَّا هو فقد أيقظ فيها همومًا وهواجس جادَّة لمجرَّد أن أتاح لها ضربًا جديدًا من تزجية الوقت. لِمَ حدث ذلك؟ ما كان يمكنهما القول.

لم تكن لوسِتا كشابة صغيرة لتعير تاجرًا أي أهمية، لكنَّ تصاريف الدهر إضافةً إلى حماقاتها مع هنْشَرْد جعلتها لا تلقي بالًا للمنزلة الاجتماعية. لقد قابلها المجتمع الذي كانت تنتمي إليه بالصَّدِّ وهي في فقرها، ولم تعد لديها حماسة كبيرة لتجديد اتصالها به، فقلبها يتوق إلى ملاذ ما تطير إليه وتجد راحة فيه، وسواء كان قاسيًا أم مريحًا ما كان يهمُّها، طالما كان دافئًا.

خرج فارْفري وقد فاته تمامًا أنَّه إنَّما قدم لرؤية إلِزابث. راحت لوسِتا ترقبه من النافذة وهو يشقُّ طريقه في متاهة المزارعين وعمَّالهم. استطاعت أن تلحظ من مشيته أنه كان مدركًا نظراتها، فعطف قلبها عليه لحيائه، ولكنَّ إحساسًا اعتراها بأنه من غير الملائم أن تسمح له بزيارتها ثانيةً. دخل ساحة السوق ولم تعد تراه.

بعد ثلاث دقائق من ابتعادها عن النافذة، تردَّدت في أرجاء المنزل

طرقات على الباب لم تكن كثيرة العدد ولكنها كانت قوية، فخفَّت الخادمة إلى الطابق العلوي.

«العمدة،» قالت.

كانت لوسِتا مضطجعةً تنظر حالمةً بين أصابع يديها. لم تُجب في الحال، فأعادت الخادمة قولها مضيفةً: «وقال إنه يخشى ألا يكون لديه ما يكفي من الوقت للبقاء.»

«عجبًا! إذن أخبريه أنني لن أعيقه اليوم لأنني أعاني صداعًا.»

نقلت الخادمة الرَّدَّ إلى الأسفل وسمعت لوسِتا الباب يُوصد.

لقد قدمت لوسِتا إلى كاستربرِدْج كي تلهب مشاعر هنْشَرْد نحوها، ولمَّا ألهبتها أصبحت غير مكترثة للأمر.

تبدَّل رأيها حول إلِزابث جيْن عندما عدَّتها عاملًا مزعجًا في الصباح، ولم تعد تشعر بضرورة التَّخلُّص من الفتاة من أجل زوج أمِّها. وعندما دخلت الفتاة وهي غير دارية بتغيُّر مسار الأحداث، تقدَّمت إليها لوسِتا وقالت بصدق تام: «أنا مسرورة جدًّا لقدومك، ستقيمين معي مدة طويلة، أليس كذلك؟»

يالها من فكرة جديدة! أن تجعل من إلِزابث كلب حراسة لمنع والدها من الاقتراب، ومع ذلك لم تكن فكرة مزعجة، فقد تجاهلها هنْشَرْد طوال هذه الأيام بعد أن قبلت بتلك التسوية المُذلَّة بطريقة لا توصف في الماضي. كان أقلَّ ما يمكنه فعله لمَّا ألفى نفسه حُرًّا وهي موسرة أن يستجيب لدعوتها بإخلاص وفي الحال.

أخذت مشاعرها تموج صعودًا وهبوطًا وقد غمرتها بحدس جامح إزاء فُجاءتها، وهكذا انقضت تجارب لوسِتا في ذلك اليوم.

الفصل الرابع والعشرون

شُعدت إلِزابث المسكينة لدى سماعها كلمات لوسِتا حول بقائها معها، ولم تكن تدري ما فعله طالعُها السيِّئ عندما نسف الإعجابَ الوليدَ الذي حظيت به من دونلد فارْفري.

ذلك أنه فضلًا على أنَّ منزل لوسِتا غدا سكنًا لها، فقد فتنها مرأى السوق الصاخب كما فتن لوسِتا. كانت ساحة السوق أشبه بمكان مفتوح للعروض المسرحية المذهلة، حيث تتكئ الأحداث على حياة السكان القاطنين جوار الساحة. كان يأتي إلى هنا مزارعون، وتجار، ولبَّانون، ومشعوذون، وباعة متجولون، من أسبوع لآخر، ويختفون مع انقضاء النهار. كانت هذه الساحة نقطة التقاء المدارات كلِّها.

وأصبح الزمن بين سبت وسبت كأنه بين يوم ويوم لهاتين الشابتين، فمن الناحية العاطفية لم تكونا تعيشان مطلقًا في الفترة ما بين هذين اليومين. ومهما خرجتا للتنزُّه في أيام أخرى كانتا تحرصان على البقاء في المنزل في يوم السوق. كانت كلتاهما تختلس النظر من النافذة إلى كتفي فارْفري ورأسه، وقلَّما كانتا تريان وجهه، لأنه كان يتحاشى النظر ناحيتهما حياءً أو لئلا يشوِّش تجارته.

وهكذا مضت الأحوال إلى أن جاء صباح يوم سوق حاملًا نبأً مثيرًا جديدًا. كانت إلِزابث ولوسِتا تجلسان إلى مائدة الإفطار عندما وصلت هذه الأخيرةَ رزمةٌ من لندن تحوي ثوبين. نادت إلِزابث[76] من إفطارها، وعندما

76) ثمّة بعض اللّبس في الصياغة الأصلية بسبب عدم وضوح الضمائر وغياب التسلسل. في الجملة الأولى تجلس الزابث ولوستا إلى مائدة الإفطار، ثم في الجملة الثانية تنادي لوستا إلزابث من إفطارها، وما بين الجملتين لا توجد إشارة إلى أنّ لوستا تركت مائدة الإفطار واتجهت إلى غرفتها ثم نادت إلزابث لتلحق بها. (المترجمة)

دخلت حجرة نوم رفيقتها رأت إلزابث الثوبين وقد بُسطا على السرير، أحدهما كان قِرمزيًا داكنًا، والآخر كان أفتح اللون، وكان ثمَّة قفاز عند طرف أكمام الثوبين، وقبعة فوق رقبة كل ثوب، ومظلة عند القفازات. وكانت لوسِتا تقف إلى جوار هذه الهيئة الآدمية متأمِّلة.

«ما كنت لأفكِّر طويلًا في الأمر.» قالت إلِزابث وقد لاحظت حيرة لوسِتا في المفاضلة بين الثوبين وأيُّهما يلائمها أكثر.

«لكنَّ اختيار الثياب الجيدة أمر مرهق جدًّا،» قالت لوسِتا. «فإمَّا أنك هذه الشخصية (مشيرة إلى أحد الثوبين) وإمَّا أنك تلك الشخصية المختلفة تمامًا (مشيرة إلى الثوب الآخر) طوال الربيع القادم: ولا تعرفين أيًّا منهما ربَّما لا يلائمك تمامًا.»

قرَّرت الآنسة تمبلمان أخيرًا أن تكون الشخصية القرمزية الداكنة مهما كلَّف الأمر. تبيَّن أنَّ الثوب كان ملائمًا، ومشت لوسِتا مرتدية الثوب إلى الحجرة الأمامية تتبعها إلِزابث.

كان الصباح مشرقًا على نحو استثنائي في وقت كهذا من العام، فقد سقطت أشعة الشمس مباشرة على المنازل والرصيف المقابل لمنزل لوسِتا فتدفَّقت ساطعة إلى حجرات المنزل. فجأةً، بعد أن تناهى إلى الأسماع صوت قرقرة عجلات، انعكست على سقف الحجرة إلى جانب الضوء الثابت سلسلةٌ غريبةٌ من الأشعة الدائرية، فالتفتت الرفيقتان نحو النافذة. كانت تقف في الجهة المقابلة مباشرة عربة غريبة الشكل، وكأنها وُضعت هناك للعرض.

كانت آلةً زراعيَّةً حديثة الطراز أُطلق عليها اسم «المحراث الآلي»، ولم تكن معروفة حتى ذلك الحين بشكلها الجديد في هذا الجزء من البلاد، حيث كانت الآلة البَذَّارة المَهيبة لا تزال تُستخدم للبَذْر مثلما كان الحال في العهد الهبتاركي[77]. وقد أثار وصولها إلى سوق الحنطة ما يثيره ظهور آلةٍ طائرة في

77) اسم كان يُطلق على الممالك السبع الإنجليزية الأنجلوسكسونية قبل توحيدها تحت اسم مملكة إنكلترا بين القرنين السادس والتاسع الميلاديين.

تشارينغ كروس[78]. احتشد المزارعون حولها، واقتربت منها النساء، وزحف الأطفال تحتها وداخلها. كانت الآلة مطليَّة بألوان مشرقة تراوحت بين الأخضر والأصفر والأحمر، وكانت تشبه في تركيبها دبُّورًا أو جُندُبًا أو روبيانًا، ولكنها أعظم حجمًا، أو يمكن تشبيهها بآلة موسيقية قائمة وقد أزيح وجهها. هكذا كان وقع مرآها على لوسِتا. «عجبًا! لكأنها آلة بيانو زراعية،» قالت.

«إنَّ لها علاقة بالحنطة،» قالت إلِزابث.

«أتعجَّب من الذي فكَّر بإحضارها إلى هنا؟»

دار في خَلَد الاثنتين أنَّ دونلد فارْفري كان مبتكر الآلة، فمع أنه لم يكن مزارعًا، كانت علاقته وطيدة بشؤون الزراعة. وكأنما استجابةً لأفكارهما، ظهر فارْفري في تلك اللحظة، ونظر إلى الآلة، ومشى حولها، وعالجها وكأنه يعرف شيئًا عن صنعها.

جفلت المراقبتان في داخلهما من مجيئه، وتركت إلزابث النافذة منسحبةً إلى آخر الحجرة ووقفت هناك وكأنها مستغرقة في تأمُّل ألواح الجدار. ولم تكد تدرك أنها تفعل ذلك حتى هتفت لوسِتا وقد ملأها حيويةً تزامنُ ثوبها الجديد ومرأى فارْفري: «هيَّا لنذهب ونرى الآلة، أيًّا تكن.»

وضعت إلِزابث جيْن قبَّعتها وشالها في لحظة وخرجتا. بدت لوسِتا الشخص الوحيد الجدير بملكيَّة الآلة الجديدة بين جميع المزارعين المحتشدين حولها، فهي الوحيدة من كانت تضاهيها في اللون.

راحتا تفحصان الآلة بفضول وتنظران صفوف الأنابيب التي بدت كالأبواق وقد دخل واحدها في الآخر، والمجارف الصغيرة الشبيهة بملاعق الملح الدَّوَّارة وهي تقذف البذور إلى أطراف الأنابيب العلوية التي كانت تلقيها بدورها على الأرض، حتى قال شخص ما: «عمتِ صباحًا يا إلِزابث جيْن.» رفعت

78) نقطة تقاطع تقع جنوب ميدان الطرف الأغرّ في وسط مدينة لندن. (المترجمة)

بصرها وإذ به زوج أمّها.

كانت تحيّته جافة وهادرة بعض الشيء، وكادت إلِزابث جيْن تفقد رباطة جأشها من شدة الحرج، فقالت متلعثمة وعلى نحو عشوائي: «هذه هي السيدة التي أقيم معها، يا أبي. الآنسة تمبلمان.»

وضع هنْشَرْد يده على قبعته وأنزلها بتلويحة كبيرة حتى لامست جسده عند الركبة. أومأت الآنسة تمبلمان مُحيّيةً. «تسرُّني معرفتك يا سيد هنْشَرْد،» قالت. «إنها آلة مثيرة للفضول.»

«أجل.» أجاب هنْشَرْد وشرع يشرح عمل الآلة بطريقة بها من التَّهكُّم ما بها.

«من جلبها إلى هنا؟» قالت لوسِتا.

«لا تسأليني يا سيدتي!» قال هنْشَرْد. «من المُحال أن يعمل هذا الشيء. جلبها أحد الصُّنّاع بناء على توصية شخص وقح يعتقد..» والتقت عيناه وجه إلِزابث جيْن المتوسّل فتوقَّف، ربما معتقدًا أنَّ التَّودُّد بينها وبين فارْفري كان في تقدُّم.

استدار لينصرف. ثم حدث شيء خُيِّل إلى ربيبته أنَّه لا بدَّ كان هَلْسًا أصابها، إذ بدا أنَّ همهمة بدرت من شفتي هنْشَرْد جعلتها تستبين هذه الكلمات: «رفضتِ رؤيتي!»، التي وجَّهها إلى لوسِتا موبِّخًا. لم يسعها التصديق أنَّ زوج أمّها هو من تلفظ بهذه الكلمات، إلا إن كانت في الواقع موجَّهة إلى أحد المزارعين ذوي الجراميق الصفراء الذين كانوا قريبين منه. بيْد أنَّ لوسِتا بقيت صامتة، ثم تشتَّت التفكير في هذا الموقف وسُمِعت دندنة أغنية بدت وكأنها تصدر من داخل الآلة. كان هنْشَرْد قد اختفى في ساحة السوق في تلك الأثناء، ونظرت كلتا المرأتين إلى آلة نثر الحبوب. استطاعتا أن تريا خلفها الظهر المنحني لرجل كان يدفع رأسه إلى الأجزاء الداخلية للآلة للتَّمكُّن من أسرارها البسيطة. واستمرت الدندنة:

كان ذلك ذات نهار صيفي
قبل مغيب الشمس بقليل
عندما أقبلت كِيتي في ثوبها البنّيّ
وصعدت التلال صوب غاوري[79]

عرفت إلِزابث جيْن المُغنِّي في لحظة، وبدا كأنها أحسَّت بالذنب من شيء لا تدري ما هو. ثم عرفته لوسِتا، وبدت أكثر تمالُكًا لنفسها وقالت بخبث: «أغنية «فتاة غاوري» تخرج من داخل آلة بَذَّارة؟ يا للعجب!»

عندما رضي عن فحصه الآلة أخيرًا، انتصب الشاب واقفًا ولاقت عيناه عيونهما من فوق الآلة.

«إننا ننظر إلى الآلة الجديدة العجيبة،» قالت الآنسة تمبلمان. «ولكنها، عمليًّا، شيء غبي، أليس كذلك؟» أضافت مستعينةً بما سمعته من هنْشَرْد.

«شيء غبي؟» قال فارْفري بصوت أجشّ. «كلَّا! إنها ستحدث ثورة في الزراعة في هذه الأنحاء! لن يكون هناك مزارعون ينثرون الحب في كل الاتجاهات، فيسقط بعضه على جوانب الطريق وبعضه بين الشوك وما إلى ذلك، بل ستذهب كل حبة مباشرةً إلى مكانها المقصود، وليس إلى أي مكان آخر أيًّا يكن!»

«وستنتهي قصة حُبِّ المزارع إلى الأبد،» علَّقت إلِزابث جيْن التي وجدت نفسها على وفاق مع فارْفري في قراءة الكتاب المقدَّس على الأقل. «مَنْ يَرْصُد الرِّيحَ لاَ يَزْرَع، وَمَنْ يَرقُب الغُيومَ لاَ يَحْصُد[80]. هكذا قال الحكيم، بيْد أنَّ كلماته لن تكون ذات مغزى بعد الآن. لكم تتغيَّر الأشياء!»

«أجل، أجل،... لا بدَّ من ذلك!» قال دونلد مُقرًّا وقد ثبَّت نظره بعيدًا في الفراغ. «لكنَّ الآلات أصبحت منتشرة جدًّا في شرق إنكلترا وشمالها.»

---

79) Lass of Gowrie أغنية اسكوتلندية كتبتها الشاعرة الغنائية ليدي نيرن (1766–1845).

80) سِفر الجامعة 11:4، الكتاب المقدَّس، دار المشرق، بيروت، 2007.

أضاف معتذرًا.

بدت لوسِتا خارج مسار هذا الحديث، وقد بدا اطلاعها على الكتب المقدَّسة محدودًا بعض الشيء. «هل الآلة لك؟» سألت فارْفري.

«كلا يا سيدتي،» قال وقد صار إلى حالة من الحرج والتَّحفُّظ لمَّا سمع صوتها، مع أنه كان أكثر ارتياحًا في حديثه إلى إلِزابث جيْن. «لا، لا، لقد أوصيت بجلبها وحسب.»

في لحظة الصمت التي أعقبت ذلك بدا فارْفري لا يدرك وجود أحد إلا لوسِتا، وقد انتقل من إدراكه وجود إلِزابث إلى عالم من الوجود أكثر إشراقًا لا تنتمي إليه. وعندما فطِنت لوسِتا إلى أنه كان مشوَّشًا ذلك اليوم، وحائر النفس بين شؤون تجارته وبين أحوال قلبه، قالت له بمرح: «حسنٌ، لا تهمل الآلة بسببنا»، وانصرفت إلى داخل البيت مع رفيقتها.

شعرت الأخيرة أنها تقف عقبةً في طريقهما، غير أنها لم تجِد لذلك تفسيرًا. وقد شرحت لوسِتا الأمر نوعًا ما عندما عادتا إلى حجرة الجلوس قائلة: «لقد سنحت لي فرصة التَّحدُّث إلى السيد فارْفري في ذلك اليوم ولذا عرفته هذا الصباح.»

كانت لوسِتا لطيفة جدًّا مع إلِزابث ذلك اليوم. شهدتا معًا عجيج السوق، ثمَّ وهو يَخِفُّ بمرور الوقت مع أفول الشمس شيئًا فشيئًا في الطرف العلوي من البلدة، وهي تبسط أشعتها على طول الطريق العام من أوَّله إلى آخره. اختفت العربات الخفيفة وعربات النقل الواحدة تلو الأخرى حتى لم تبقَ عربة واحدة في الطريق. وانقضى وقت عالم الراكبين وساد عالم الراجلين، فاندفعت أعداد غفيرة من عمَّال الحقول وزوجاتهم وأطفالهم من القرى من أجل التَّبضُّع الأسبوعي، وبدلًا من سماع أصوات قعقعة العجلات ووقع حوافر الجياد التي هيمنت على كلِّ الأصوات في وقت أبكر، لم يَعُد يُسمَع إلا صوت وقْع الأرجل الكثيرة. لقد ولَّت الآلات جميعها، والمزارعون جميعهم، والأثرياء

جميعهم، فتبدَّلت الملامح التجارية للبلدة من الكتلة الواحدة إلى أعداد وفيرة متنوِّعة، وصار البِنس عملة التداول الآن بعد أن كان الناس يتداولون الجنيهات في وقت باكر من اليوم.

تطلَّعت لوسِتا وإِلزابث إلى هذا كلِّه، ومع أنَّ الوقت كان ليلًا ومصابيح الشارع مُضاءة، تركتا مصاريع النوافذ مفتوحة، وفي الوميض الخافت لنار المدفأة راحتا تتحدثان بحرِّيَّة أكبر.

«كان والدك جافًّا معك،» قالت لوسِتا.

«أجل»، وكانت قد نسيت ما بدا كلامًا غامضًا وخاطفًا قاله هنْشَرْد للوسِتا، فاستطردت قائلة: «لأنه لا يظنُّ أنني جديرة بالاحترام. لقد بذلت قصارى جهدي لأكون كذلك إلى حدٍّ لا يمكنك تصوُّره، ولكن دون جدوى! كان انفصال أمي عن أبي شؤمًا لي. إنك لن تدركي ما يعنيه أن تُثقِل ظلال كهذه على حياتك.»

جفلت لوستا. «لا أدرك ذلك النوع على وجه التحديد،» قالت. «لكنك قد تشعرين بالخزي والعار بطرق أخرى.»

«هل شعرت بشيء كهذا من قبل؟» قالت الصغرى ببراءة.

«كلَّا،» سارعت لوسِتا قائلة. «وإنَّما فكَّرت فيما يحدث أحيانًا عندما تضع النساء أنفسَهُن في مواقف غريبة في عيون الآخرين دون ذنب اقترفنه.»

«لا بدَّ أن يجعلهن ذلك حزينات جدًّا فيما بعد.»

«إنَّه يجعلهن قلقات، ألن تحتقرهنَّ النساء الأخريات؟»

«لن تحتقرهنَّ تمامًا، ولكنهنَّ لن يحظيْن بحبِّهن واحترامهن.»

جفلت لوسِتا مرة أخرى. لم يكن ماضيها بمنأى عن البحث والتَّقصِّي على الإطلاق، حتى في كاستربرِدْج، ذلك أنَّ هنْشَرْد لم يُعِد إليها رِزْمة الرسائل التي كتبتها وأرسلتها إليه في غمرة حماستها الأولى. لعلَّه تخلَّص منها، لكنها تمنَّت لو لم تكتبها قطّ.

لقد كان للقاء لوسِتا فارْفري وسلوكه نحوها أثرٌ في جعل إلِزابث المتأمّلة أكثر مراقبة لرفيقتها الذّكيّة الودود، فبعد عدَّة أيام، التقت عيناها عيني لوسِتا وهي تَهُمُّ بالخروج، وأدركت بطريقة ما أنَّ الآنسة تمبلمان كانت تغذِّي أملًا داخلها برؤية الاسكتلندي الجذَّاب. لقد برزت تلك الحقيقة بجلاء كبير على وجنتي لوسِتا وعينيها لكل من يقرأ ملامحها كما بدأت إلِزابث جيْن تدرك ذلك. خرجت لوسِتا وأغلقت وراءها الباب المطلّ على الطريق.

تملَّكت إلِزابث روحٌ رائيَة حثَّتها على الجلوس قرب المدفأة والتنبؤ بأحداث أكيدة من الأدلة التي بحوزتها وكأنها تراها أمامها. وهكذا راحت تتبع لوسِتا في عقلها، فرأتها تقابل دونلد في مكان ما وكأنما مصادفة، ورأته وعلى محيَّاه تلك النظرة الخاصة التي يتسم بها حينما يلتقي النساء، ولكنَّ هذه النظرة كانت أكثر كثافة لأنَّ المرأة كانت لوسِتا. تصوَّرت سلوكه المشبوب العاطفة، ورأت حيرتهما بين كره الفراق وبين الرغبة في ألا يراهما أحد، وتخيَّلت أيديهما المرتعشة، وكيف افترقا بفتور في مظهرهما وحركاتهما العامة، مع أنَّ ملامحهما الدقيقة هي فقط ما يشي بشرارة العاطفة التي لا يدركها سواهما. ولم تكد هذه العرَّافة الفَطِنة الصامتة تفرغ من التفكير في هذا كلِّه حتى أقبلت لوسِتا بهدوء من خلفها وجعلتها تجفل.

كل شيء كان حقيقيًّا مثلما تخيَّلَته، وكان يمكنها أن تقسم بذلك، فقد كان ثمَّة ضوء عميق في عيني لوسِتا، فضلًا على تضرُّج وجنتيها.

«رأيتِ السيد فارْفري،» قالت إلِزابث بحياء.

«أجل،» قالت لوسِتا. «كيف عرفت؟»

ركعت إلى جانب المدفأة وأخذت يدي صديقتها بحماسة بين يديها. ولكنها لم تقُل على أيَّة حال متى أو كيف التقته أو ماذا قال.

قضت تلك الليلة مضطربة، وفي الصباح صارت شديدة الانفعال، وفي وقت الإفطار أخبرت رفيقتها أنَّ ثمة شيئًا يشغل فكرها، شيئًا يتعلَّق بشخص

يعنيها كثيرًا، فأبدت إلِزابث جِدًّها في الإصغاء والتعاطف.

«هذا الشخص، امرأة أحبَّت يومًا رجلًا حبًّا جمًّا،» قالت لوسِتا بتردُّد.

«آه!» قالت إلِزابث جيْن.

«في الواقع كانت علاقتهما حميمة نوعًا ما، ولكنَّه لم يكُن يبادلها قدر ما كانت تكنُّ له من مشاعر. بيد أنَّه في لحظة اندفاع، وبدافع التعويض وحسب، عرض عليها أن تكون زوجة له، فوافقت. ولكن كانت ثمة عقبة غير متوقَّعة حالت دون إتمام الزواج، مع أنها تعرَّضت للشبهة بسببه إلى حدٍّ أنها لم تتخيَّل أن تكون لرجل غيره قطُّ – بدافع الوازع الأخلاقي وحسب – حتى لو تمنَّت ذلك. بعد ذلك افترقا زمنًا طويلًا ولم يسمع أحدهما عن الآخر حتى ضاقت بها السُّبل.»

«ياللفتاة المسكينة!»

«لقد عانت كثيرًا بسببه، إلَّا أنني أضيف أنَّه لم يكن ليُلام تمامًا على ما حدث. وأخيرًا بفضل العناية الإلهيَّة زالت العقبة التي فرَّقتهما، وجاء ليتزوجها.»

«يا للبهجة!»

«ولكن، في تلك الأثناء، قابلت صديقتي المسكينة رجلًا آخر أحبَّته أكثر منه. والآن هنا القضية: هل بمقدورها رفض الأول؟»

«تقولين رجلًا أحبته أكثر منه؟ إنَّه لأمرٌ كريه!»

«أجل.» قالت لوسِتا وهي تطالع بألم من النافذة صبيًّا كان يؤرجح مقبض مضخة البلدة. «إنه كريه! ولكن ينبغي أن تتذكَّري أنها أُرغِمت على أن تكون في وضع مُريب مع الرجل الأول مصادفة، وأنه ليس على علم أو ثقافة مثل الثاني، وأنها اكتشفت بعض الصفات في الأول جعلته أقل جاذبية كزوج مما اعتقدته في البداية.»

«لا يمكنني الإجابة،» قالت إلِزابث جيْن مفكّرةً. «إنه أمرٌ عسير جدًّا، ويحتاج إلى أسقُفٍ ليبتّه!»

«ألعلك تفضّلين ألا تجيبي؟» أظهرت لوسِتا من نبرتها المستعطفة إلى أي حدٍّ كانت تعتمد على رأي إلزابث.

«بلى يا آنسة تمبلمان،» اعترفت إلِزابث. «أُفضِّل ألَّا أقول.»

ومع ذلك، بدت لوسِتا مطمئنة إلى الحقيقة البسيطة بأنها طرقت الموضوع قليلًا، وتماثلت للشفاء من صداعها شيئًا فشيئًا. «اجلبي لي مرآة. كيف أبدو للناس؟» قالت بوهن.

«حسنٌ، متعبة قليلًا.» أجابت إلزابث وهي تعاينها كما يعاين ناقد لوحةً فنِّيَّةً مريبة، ثمَّ أحضرت المرآة لتُمكِّن لوسِتا من رؤية وجهها، وقد فعلت لوسِتا ذلك بقلق.

«أتعجَّب إن كان جمالي سيصمد طويلًا مع مرور الزمن!» قالت بعد حين.

«بلى، بعض الشيء.»

«ما أسوأ بقعة في وجهي؟»

«تحت عينيك، ألاحظ اسمرارًا طفيفًا هناك.»

«أجل. تلك أسوأ بقعة فيَّ، أعرف. كم سنةً في اعتقادك تبقَّت لي قبل أن يذوي جمالي على نحو ميؤوس منه؟»

كان ثمَّة شيء مثير للفضول في الطريقة التي أدَّت بها إلِزابث دور حكيم خبير في هذا النقاش على صغر سنِّها. «لعلَّها خمس سنوات،» قالت بنبرة حصيفة. «أو ما يقرب عشر سنوات إن قضيت حياة هادئة، ومن دون حُبٍّ تستطيعين الاعتماد على عشر سنوات.»

بدا أنَّ لوسِتا تفكِّر في أنَّ ذلك الرأي صحيح غير قابل للتغيير.لم تخبر إلِزابث جيْن بالمزيد بعلاقتها الماضية التي أشارت بإيجاز إلى أنها تجربة

شخص ثالث، وأمَّا إلِزابث التي كانت رقيقة الفؤاد جدًّا على ما أظهرته من حكمة، فقد تأوَّهت تلك الليلة في فراشها عندما فكَّرت بأنَّ رفيقتها لوسِتا الثَّريَّة الجميلة لم تُسِرَّ إليها بثقة تامَّة بأسماء وتواريخ في اعترافاتها، ذلك أنَّ إلِزابث لم تنخدع بمن تكون المقصودة في القصة التي سردتها لوسِتا.

الفصل الخامس والعشرون

كانت المرحلة التالية من مراحل تبدُّل موضع هنْشَرْد في قلب لوسِتا هي اختبار زيارة قام بها فازفري بارتياب ظاهر. بطبيعة الحال، كان يتحدَّث إلى كلتيْهما، الآنسة تمبلمان ورفيقتها، ولكنَّ إلِزابث في الواقع كانت تقعد غير مرئيَّة في الحجرة. بدا أنَّ دونلد لم يكن يراها مطلقًا، وكان يجيب عن تعليقاتها الفطنة القليلة بكلمات أحاديَّة المقاطع مقتضبة ولامبالية، فقد كانت نظراته وحواسُّه معلَّقة بالمرأة التي كان بمقدورها التباهي بما تتَّسم به من سمات بروتيس[81] في التَّلوُّن والتَّقلُّب في أطوارها وأحوالها النَّفسيَّة وآرائها، بل وفي مبادئها كذلك أكثر مما تستطيع إلِزابث. أصرَّت لوسِتا على جرِّها إلى دائرة حديثهما، ولكنَّها بقيت مثل نقطة ثالثة خرقاء لا تمسُّها تلك الدائرة.

احتملت ابنة سُوْزَنْ هنْشَرْد ما أصابها من ألمٍ أحسَّته كالصقيع من هذه المعاملة كما احتملت ظروفًا أسوأ، وتدبَّرت أمرها في أسرع وقت فخرجت من تلك الحجرة، التي يسودها التنافر، من دون أن يفتقدها أحد. لم يعُد الاسكتلندي هو فازفري نفسه الذي رقص معها ومشى معها بوزن رهيف ترجَّح بين الحب والصداقة، وقد كانت تلك الفترة من قصة حبِّها الوحيدةَ التي يمكن وصفها بأنها لم تكن مشوبةً بالألم.

راحت تنظر بهدوء من نافذة حجرتها وتفكِّر مليًّا في قدرها وكأنه كان مكتوبًا على قمة برج الكنيسة المجاورة. «بلى»، قالت أخيرًا وهي تخفض راحة يدها على حافة النافذة مُربِّتةً: «هو الرجل الثاني في القصة التي سردتها لي!»

كانت مشاعر هنْشَرْد الخامدة نحو لوسِتا قد بدأت تتأجَّج طوال

81) إله البحر في الميثولوجيا الإغريقية.

هذه المدة وأخذ لهيبها يحتدم بتأثير ظروف الحالة. لقد اكتشف أنَّ المرأة الشَّابَّة التي شعر إزاءها مرَّةً بحرارة شفقة أخذت تخبو بعد تفكير وتأمُّل، أصبحت الكائن الوحيد الذي يمنحه الرضا في الحياة، ولا سيَّما بعد أن غدت بعيدة المنال وبات جمالها أكثر نضجًا. أثبت له صمتها، يومًا بعد يوم، أنه ما من جدوى في استمالتها بالبقاء بعيدًا، ولذلك فقد تنازل وذهب لزيارتها مجدَّدًا، ولم تكن إلِزابث جيْن في المنزل.

عبَر الحجرة متَّجهًا إليها بمشية ثقيلة خرقاء بعض الشيء، وحدجها بنظرة حادَّة متَّقدة كأنها الشمس إلى جانب القمر مقارنةً بنظرة فارْفري المتواضعة، إلَّا أنَّها حملت بعض الوُدِّ، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب حقًّا. بيْد أنَّ لوسِتا بدت مختلفة جدًّا بسبب تبدُّل وضعها الاجتماعي، ومدَّت له يدها بصداقة باردة حتى إنه بدا مُراعيًا وجلس فاقدًا سطوته إلى حدٍّ ملموس. ولم يكن يعرف الكثير عن الأناقة في الملبس، ولكنَّه كان يعرف ما يكفي ليجعله يشعر بأنَّ مظهره إلى جانبها لم يكن لائقًا، تلك التي كان حتى هذه اللحظة يحلم بأنها مِلْكٌ له. قالت شيئًا شديد التهذيب عن تلطُّفه بالزيارة، وقد جعله هذا يستعيد وزنه. طالع وجهها بغرابة وقد تخلَّص من رَوْعه.

«حتمًا أتيت للزيارة يا لوسِتا،» قال. «ماذا يعني هذا الهراء؟ تعلمين أنني ما كنت لأتمالك نفسي إن شئت، وإن لم أكن أتمتَّع بأي قدر من الطيبة. لقد جئتُ لأقول لك أنني مستعد حالما تسمح الأعراف أن أمنحك اسمي نظير إخلاصك وما فقدتِه في سبيل ذلك حين فكَّرتِ قليلًا بنفسك وكثيرًا بي، ولأقول لك أن تحددي اليوم أو الشهر الذي ترينه ملائمًا، وأنا موافق تمامًا، إنك لتعرفين هذه الأمور أكثر مني.»

«ما زال الوقت باكرًا جدًّا،» قالت متهرِّبةً.

«أجل، أجل، أظن ذلك. ولكنك تعلمين يا لوسِتا، فبعد وفاة سُوْزَنْ المسكينة المظلومة، وعندما لم أحتمل فكرة الزواج مرة أخرى، فكَّرت بعد

الذي كان بيننا أنه من واجبي ألا أسمح بحدوث أي تأخير غير ضروري قبل وضع الأمور في نصابها. ومع ذلك، لن أكون في عجلة من أمري، ولعلَّك تدركين شعوري حيال هذه الثروة التي وقعتِ عليها.» غاص صوته شيئًا فشيئًا، وأحسَّ أنَّ نبرته وسلوكه في هذه الحجرة قد اكتسيا بفظاظة لا تكون ملحوظة في الشارع. تطلَّع إلى أرجاء الحجرة وإلى الستائر الجديدة والأثاث الفاخر الذي أحاطت نفسها به.

«ربَّاه! لم أكن أعرف أنَّ أثاثًا كهذا يمكن ابتياعه في كاستربرِدْج،» قال.

«ذلك أمرٌ غير ممكن،» قالت. «ولن يمكن حتى تنقضي خمسون سنة أخرى من الحضارة في هذه البلدة. لقد كلَّفنا ذلك عربة وأربعة جياد لجلبه إلى هنا.»

«يبدو أنك تعيشين بإنفاق الكثير.»

«كلَّا، لا أفعل ذلك.»

«ذلك خيرٌ لك. ولكن، في الحقيقة إنَّ عيشك على هذا النحو يجعل سلوكي نحوك مُربكًا بعض الشيء.»

«لماذا؟»

لم يكن ثمَّة داعٍ لأي إجابة ولم يقدِّم هو إجابة. «حسنٌ،» تابع قائلًا. «ليس ثمَّة في العالم من تمنَّيت له أن ينعم بهذا الثراء سواك يا لوسِتا، وأنا على يقين أنه ما من أحدٍ يليق به هذا أكثر منك.» التفت إليها وعلى وجهه أمارة إعجاب مهنِّئة بلغت من الحماسة حدًّا جعلها تجفل بعض الشيء، مع أنها تعرفه معرفةً جيِّدة.

«إنني شاكرة جدًّا لك.» قالت بنزعة طقوسيَّة بعض الشيء. وأدرك هنْشَرْد بُخل المشاعر المتبادلة فأصابه الغمُّ فورًا، فلا أحد أسرع منه في إبداء ذلك.

«شكرتِ أم لم تشكري، مهما كان ما أقوله ينقصه الذَّوق الذي

أصبحت تتوقَّعينه مؤخَّرًا للمرة الأولى في حياتك، فهو حقيقي يا سيدتي لوسِتا.»

«إنها لفظاظة منك أن تتحدَّث إليَّ هكذا،» قالت لوسِتا وقد تجهَّمت وبدا الغضب عاصفًا في عينيها.

«مُطلقًا!» أجاب هنْشَرْد بحدَّة. «ولكن، مهلًا مهلًا، لا أودُّ مشاجرتك. لقد جئت أعرض عليك عرضًا صادقًا يُخرس أعداءك في جيرسي، وينبغي أن تكوني شاكرة.»

«كيف تتحدث إليَّ هكذا!» ردَّت بسرعة وقد استشاطت غضبًا. «وأنت تعلم أنَّ جريرتي الوحيدة كانت انغماسي في عاطفة طائشة معك دونما اهتمام بتقويم الأمر، وأنني بريئة طوال الوقت من نعتهم لي بالمذنبة، ما كان ينبغي أن تكون قاسيًا هكذا! لقد عانيت ما عانيت في المدة القلِقة تلك عندما كتبتَ إليَّ تخبرني بعودة زوجتك ونبذك لي المترتب على ذلك، وإن كنتُ قد نلتُ بعض الاستقلال الآن فهو بفضلي أنا حتمًا!»

«بلى إنه كذلك،» قال. «ولكنَّ الآخرين لا يحكمون عليك في هذه الحياة بما تُبطنين، بل بما تُظهرين، ولهذا أرى أنه ينبغي أن تقبلي بي حفاظًا على سمعتك، فما يعرفه الناس عنك في بلدتك جيرسي قد يُعرَف هنا.»

«كم تتحدَّث كثيرًا عن جيرسي! أنا إنجليزية!»

«أجل، أجل. وإذن، ما قولك بشأن عرضي؟»

لأول مرة منذ تعارفهما سنحت للوسِتا الفرصة لاتخاذ خطوة لكنَّها تراجعت. «في الوقت الحالي دع الأمور على حالها،» قالت في شيء من الحرج. «عاملني كواحدة من معارفك وسأفعل الشيء نفسه. ومع الوقت...» توقَّفت ولم يقل هو شيئًا لملء الفراغ الذي استمر قليلًا، فلم يكن ثمَّة داع لمعرفة ناقصة كهذه أن تدفعهما إلى الحديث دون رغبة منهما.

«هكذا تجري الرياح، أليس كذلك؟» قال أخيرًا بتجهُّم وأومأ برأسه مؤيِّدًا ما يجول في خاطره.

ثوانيَ معدودةً غمر الحجرةَ فيضٌ أصفر من ضوء الشمس المنعكس، وكان سببه مرور أحمال من أكوام التبن القادمة من القرية على عربة كُتِب عليها اسم فارْفري، وإلى جانبها كان فارْفري نفسه يمتطي صهوة جواده. تبدَّل وجه لوسِتا كما يتبدَّل وجه امرأة عندما يتجلَّى الرجل الذي تحبُّ أمام ناظريها وكأنه طيْف.

لو أنَّ التفاتةً حانت من هنْشَرْد، وألقى نظرة خاطفة من النافذة، لتبيَّن سرُّ عزوفها عنه. لكنَّ هنْشَرْد وهو يقيِّم حديثها كان مُطرقًا إطراقًا تامًّا ولم يلحظ الإحساس الدافئ الذي تجلَّى في وجه لوسِتا.

«ما كان ينبغي أن أتوقَّع ذلك، ما كان ينبغي أن أتوقَّعه من النساء!» قال مؤكِّدًا أخيرًا ونهض وقد عاوده نشاطه، في حين بلغ القلق بِلوسِتا مبلغًا شديدًا وهي تسعى إلى تشتيت أي شكوك قد تساوره بشأن الحقيقة، حتى إنها طلبت منه ألا يتعجَّل الانصراف. وجلبت له بعض التفاح وأصرَّت على أن تقشِّر له واحدة.

لكنه لم يأخذها. «لا، لا، مثل هذا ليس لي،» قال بجفاء واتَّجه إلى الباب، وبينما كان على وشك الخروج التفت إليها قائلًا: «حتمًا، لقد جئت للعيش في كاستربِرْدج من أجلي، ولكنْ، وقد أصبحت هنا الآن، ليس لديك ما تقولينه ردًّا على عرضي!»

لم يكد يهبط السُّلَّم حتى سقطت على الأريكة ثم قفزت مرة أخرى في نوبة يأس. «لسوف أحبُّه!» صاحت بانفعال. «أمَّا هو، فإنه حامي الطبع وقاسٍ وسيكون من الجنون أن أربط مصيري به وأنا أعرف ذلك. لن أكون عبدة للماضي، سأحبُّ من أشاء!»

ومع أنها عقدت العزم على الانفصال عن هنْشَرْد، قد يظن المرء أنها قادرة على التَّطلُّع إلى من هو أعلى مقامًا من فارْفري. بيْد أنَّ لوسِتا لم تكن لتصغي لصوت العقل، فقد كانت تخشى الكلام النَّابي الذي يأتيها من أولئك

الذين ارتبطت بهم سابقًا، ولم يتبقَّ لها أقارب، فتقبَّلت عن طيب خاطر وبخفَّة فطريَّة ما قدَّمه لها القدر.

لَمَّا كانت إلِزابث جيْن تعاين وضع لوسِتا بين عاشقيها الاثنين من وجهة نظر شفَّافة وصريحة، لم يكن خافيًا عنها ما كان عليه والدها، كما كانت تدعوه، ودونلد فارْفري من غرام شديد بصديقتها أخذ يزيد يومًا بعد يوم. فأمَّا فارْفري، فقد كان غرامه مدفوعًا بشغف الشباب المنطلق، وأمَّا هنْشَرْد، فقد تأجَّجت شهوة عمره الناضج على نحوٍ مصطنع.

كان الألم الذي عانته إلِزابث من تجاهل الاثنيْن التَّامِّ لوجودها يتبدَّد في بعض الأوقات بفضل إدراكها ما في الأمر من فكاهة، فعندما تُصاب لوسِتا بوخز في أصبعها يقلق كلاهما قلقًا شديدًا وكأنها على وشك الموت. أمَّا عندما تمرض هي مرضًا شديًدا أو تكون في خطر فإنهما يردِّدان كلمات تعاطف تقليدية ثم سرعان ما ينسيان الأمر كلَّه. ولكن، فيما يتعلَّق بهنْشَرْد، فقد سبَّب لها هذا الإدراك أيضًا أسًى بَنَوِيًّا، فما انفكَّت تسأل نفسها عمَّا اقترفت حتى يتجاهلها هكذا بعد ما أبداه من اهتمام. وأمَّا فيما يتعلَّق بفارْفري، فقد فكَّرت بعد تأمُّل صادق أنَّ ما حدث كان أمرًا طبيعيًّا تمامًا، فأين هي من لوسِتا؟ ليست إلَّا «نجمةً شحيحةً من نجوم الليل»[82] حين يبزغ القمر عاليًا في السماء.

لقد تعلَّمت درس التَّخلِّي، وألِفت تحطُّم الأمانيِّ كلَّ يوم كما تألف غروب الشمس. إن كان عملها الدنيوي قد علَّمها بعض فلسفات الكتب القليلة فقد درَّبها على الأقل تدريبًا جيِّدًا. ومع ذلك، فقد كان ما لقيته من خيبات أمل خالصة أكثر ممَّا حظيت به من تعويض لقاء ذلك. ولطالما حدث أنَّ ما ترغب فيه لا يوهَب لها، وما يوهَب لها لا ترغب فيه. ولهذا راحت تعاين برزانة تلك الأيام الغابرة حينما كان دونلد حبيبها الخفيَّ، وسألت نفسها عمَّا سترسله إليها الأقدار من شيء غير مرغوب عوضًا عنه.

---

82) كلمات السير هنري وُتون (1568–1639) متغزلا في الملكة إلزابث، ملكة بوهيميا.

الفصل السادس والعشرون

ذات صباح ربيعي صحو التقى هنْشَرْد وفارْفري مصادفةً في ممشى أشجار الكستناء الممتد بمحاذاة السور الجنوبي للبلدة. وكان كلاهما قد انتهى من فوره من إفطار مبكّر، ولم يكن ثمة من مخلوق سواهما هناك. كان هنْشَرْد يقرأ رسالة وصلته من لوسِتا ردًّا على أخرى منه، وقدّمت فيها بعض الأعذار عن عدم منحه فرصة مقابلة ثانية مباشرة كما كان يرغب.

لم يرغب دونلد في خوض أي حديث مع صديقه السابق بسبب وضعهما المتكلّف الحالي، ولا أن يعبر بقربه بصمت متجهّم. أومأ برأسه محيّيًا وفعل هنْشَرْد الشيء نفسه. وما كاد أحدهما يبتعد عن الآخر بضع خطوات حتى هتف صوت: «فارْفري!» كان ذلك صوت هنْشَرْد الذي وقف ينظر إليه.

«أتذكر،» قال هنْشَرْد وكأنَّ حضور الفكرة هو ما جعله يتحدث، لا حضور الرجل. «أتذكر حكايتي عن تلك المرأة الثانية التي عانت بسبب علاقتها الطائشة بي؟»

«أذكر،» قال فارْفري.

«أتذكر عندما أخبرتك كيف بدأت القصة كلُّها وكيف انتهت؟»

«أجل.»

«حسنٌ، لقد عرضت عليها الزواج وقد أصبحت قادرًا على ذلك، ولكنها رفضت أن تتزوجني. ما الذي تعتقده بشأنها، أترك الأمر لك؟»

« لم تعُد مدينًا لها بشيء الآن،» قال فارْفري بإخلاص.

«ذلك صحيح،» قال هنْشَرْد ومضى.

لقد رفع بصره عن الرسالة ليسأل فارْفري أسئلةً حجبت عن ذهنه تمامًا كلَّ شكٍّ في أن تكون لوسِتا هي المقصودة. وفي الواقع، فإنَّ وضعها الحالي يختلف اختلافًا كبيرًا عن وضع تلك المرأة الشابة في قصة هنْشَرْد، وكان هذا كافيًا لتعميته تمامًا عن حقيقة هويتها. أمَّا هنْشَرْد، فقد اطمأن إلى كلمات فارْفري وسلوكه إزاء شكٍّ خطر في باله، وأحسَّ أنه ليس بمنافس له.

بيْد أنَّه كان متيقِّنًا كلَّ اليقين أنَّ ثمَّة منافسًا ما. كان بمقدوره أن يشعر بذلك في الوضع المحيط بلوسِتا، وأن يراه في انعطافة قلمها. كانت ثمَّة قوة مضادَّة تعمل عملها، حتى إنه كلَّما حاول الاقتراب منها بدا كأنه يقف في تيار منحسر، وبات على يقين تام بأنَّ ما يراه في لوسِتا لم يكن نزوة فطرية وحسب. كانت نوافذ منزلها تعكس نورًا ساطعًا وكأنها تصدُّه، وبدت الستائر مُسدلةً بمكر، وكأنها تخفي وراءها شخصًا. ولكي يكتشف من يكون ذاك – أكان فارْفري حقًّا أم غيره – بذل قصارى جهده لرؤيتها ثانيةً، ونجح أخيرًا.

وبينما كانت تقدِّم إليه الشاي في أثناء لقائهما، ألقى استفسارًا حذِرًا عمَّا إذا كانت تعرف السيد فارْفري.

وأجابت بأنها تعرفه، وبأنها لم تملك إلا أن تعرف الجميع تقريبًا في كاستربرِدْج لأنها تقيم في منزل يُطلُّ على قلب البلدة وساحتها.

«إنه شاب لطيف،» قال هنْشَرْد.

«أجل،» قالت لوسِتا.

«كلتانا تعرفه،» قالت إلِزابث جيْن الطيبة لتُخفِّف من حرج رفيقتها.

وكان ثمَّة طرق على الباب، بل كانت فعلًا ثلاث طرقات كاملة تلاها طرق خفيف في النهاية.

«ذلك النَّوع من الطرق يعني بيْن بيْن، شخصًا يراوِح بين الرِّقة والوضاعة،» قال تاجر الحنطة لنفسه. «لذا لن أتعجَّب إن كان هو.» وحقًّا، في غضون ثوانٍ دخل دونلد.

تململت لوسِتا واضطربت بعض الشيء، وهو ما زاد من شكوك هنْشَرْد دون أن يتهيَّأ له أيُّ دليل خاص على صحتها. لقد تملَّكه غضب عارم لإحساسه بالوضع الغريب الذي وقف فيه إزاء هذه المرأة، المرأة التي عاتبته لأنه هجرها حين افترى الناس عليها بالقول، المرأة التي ألحَّت بمطالباتها وعاشت تنتظره، المرأة التي أتت إليه في أول فرصة سنحت لها طالبةً منه أن يتزوجها تداركًا للموقف المشين الذي وضعت نفسها فيه من أجله، هكذا كانت. وها هو الآن يجلس إلى مائدة شايها متحمسًا لكسب اهتمامها، وفي خضم غضبه الغرامي يشعر بأنَّ الرجل الآخر وغد، تمامًا مثلما يشعر أيُّ شاب عاشق أحمق.

جلسا جامدَيْن متجاورَيْن عند المائدة المعتمة مثل اللوحة التوسكانية التي رُسِم فيها مُريدا المسيح وهما يتناولان العشاء في عِمَّاوُس[83].

جلست لوسِتا قبالتهما لتشكِّل الشخص الثالث وقد أحاطت بها هالة، أمَّا إلِزابث جيْن فكانت خارج اللعبة وخارج المجموعة، وكان بوسعها مشاهدة كل شيء من بعيد وتسجيله وكأنها أحد كَتَبة الإنجيل: أنّ فترة طويلة من الصمت خيَّمت، لم يقطعها سوى صوت ملامسة الملاعق للأطباق الصينية، ووقع أقدام على الرصيف تحت النافذة، ومرور عربة يدوية أو عربة نقل، وصفير سائق العربة، وخرير الماء في دلاء أصحاب البيوت من مضخة البلدة المقابلة، وتبادل التحيات بين الجيران، وقعقعة النِّير فوق أعناق الماشية، وهكذا أخذوا يتناولون عشاءهم على وقْع هذه الأصوات.

«مزيدًا من الخبز والزبدة؟» قالت لوسِتا لهنْشَرْد وفارْفري على حدٍّ سواء، رافعةً بينهما صحنًا ممتلئًا بقطع خبز طويلة. تناول هنْشَرْد قطعة من أحد طرفيها وفارْفري من الطرف الآخر، وقد حسب كل منهما أنه الرجل المقصود، فلم يفلتا القطعة حتى انقسمت نصفين.

---

83) لوحة الرسَّام الإيطالي كارافاجيو ذات الخلفيّة المعتمة التي صوَّر فيها المسيح وقد تجلّى لُمريديْه وهما يتناولان العشاء في بلدة عِمَّاوُس.

«أوه أنا آسفة جدًّا.» صاحت لوسِتا وهي تضحك بعصبية. حاول فازْفري أن يضحك ولكنَّ ما كان به من وجْد جعله لا يرى الموقف إلا من وجهة كئيبة.

«ما أسخف هؤلاء الثلاثة!» حدَّثت إلِزابث نفسها قائلةً.

غادر هنْشَرْد المنزل وفي نفسه أطنان من التخمينات بأنَّ المعجب الغريم كان فازْفري، وإن لم يجد دليلًا واحدًا، ولذلك ما كان ليقرَّ له قرار. وأمَّا إلِزابث جيْن فكان واضحًا لها وضوح مضخة البلدة أنَّ دونلد ولوسِتا حبيبان في أوَّل مدارج الحب. وقد أُسقِط في يد لوسِتا أكثر من مرة، وعلى الرغم من حذرها، وهي تحاول كبح نظراتها عن الرفرفة إلى عيني فازْفري مثلما يرفرف طائر إلى عشِّه. ولكنَّ عقل هنْشَرْد كان يميل إلى رؤية الأشياء في مجالها الأوسع ولا يفطن إلى دقائق كهذه في ضوء المساء، وهي في نظره مثل تبيُّن نغمة حشرة لا يبلغها سمع الإنسان.

لكنه كان منزعجًا، فقد فاقمت هذه المنافسة الخفيَّة في علاقة الحب ما كان بينهما من منافسة ظاهرة في العمل، وأشعلت لهيب تلك المنافسة المادِّيَّة الجافة.

ومن ثمَّ اتَّخذ ذلك العداء الشديد صورة فعل حينما أرسل هنْشَرْد بحثًا عن جوب، المدير الذي حلَّ فازْفري محلَّه في الأصل لدى وصوله. وكان هنْشَرْد يصادف هذا الرجل أحيانًا في الطرقات ولاحظ كيف كانت أسماله تدلُّ على ما به من حاجة، وسمع أنه كان يقيم في مِكسِن لَيْن، حيِّ الفقراء الذي يقع في أطراف البلدة، وهو أسوأ[84] أحياء كاستربرِدْج، وهو في حدِّ ذاته بيِّنة على أنَّ الرجل يمكن أن يبلغ مبلغًا لا يعود يقيم فيه وزنًا لشيء.

بعد حلول الظلام جاء جوب عبر بوابة فناء المخزن وتلمَّس طريقه بين التبن والقش إلى المكتب الذي كان يجلس فيه هنْشَرْد في عزلة منتظرًا إياه.

---

84) في الأصل بالفرنسية pis aller. (المترجمة)

«إنني أبحث مجدَّدًا عن رئيس عمَّال،» قال تاجر الحنطة. «أتعمل في مكان ما؟»

«ليس أكثر من متسوِّل يا سيدي.»

«كم تطلب أجرًا يا جوب؟»

ذكر جوب السعر الذي كان متواضعًا جدًّا.

«متى يمكنك المجيء؟»

«منذ هذه الساعة واللحظة يا سيدي.» قال جوب الذي طالما وقف ويداه في جيبيه عند زاوية الشارع حتى أحالت الشمسُ لونَ كتفي معطفه إلى أخضر بلون أسمال فزَّاعة، فقد اعتاد أن يقف هناك مراقبًا هنْشَرْد في السوق، فاحصًا إيَّاه ومستقصيًا، بفضل ما أُتيحت له من قوَّة في وقوفه ذاك حتى عرفه أكثر مما يعرف هنْشَرْد المنهمك في عمله نفسَه. فضلًا عن ذلك، كانت لجوب تجربة ملائمة، فقد كان الوحيد في كاستربرِدْج، إلى جانب هنْشَرْد والِزابث المتكتِّمة، الذي يعرف أنَّ لوسِتا تنحدر في الواقع من جيرسي، ومن باث على وجه التقريب وحسب. «أعرف جيرسي أيضًا يا سيدي،» قال. «فقد كنت أقيم هناك عندما كنت في تجارتك في تلك الأنحاء. بلى، كنت كثيرًا ما أراك هناك.»

«حقًّا! حسنٌ جدًّا. إذن فقد اتفقنا. والشهادات التي أطلعتني عليها عندما أتيت المرة الماضية كافية.»

لم يدُر بخلد هنْشَرْد أنَّ النُّفوس تفسد في وقت الحاجة. قال جوب: «شكرًا لك.»، ووقف ثابتًا في مكانه وقد أحسَّ أنه أصبح أخيرًا ينتمي إلى هذه البقعة بصفة رسميَّة.

«والآن،» قال هنْشَرْد وهو يتفرَّس في وجه جوب بعينيه الثاقبتيْن، «ثمَّة شيء واحد ضروريٌّ لي بصفتي أكبر تاجر حنطة وتبن في هذه الأنحاء.

يجب التَّخلُّص من الاسكتلندي الذي يُحكم قبضته على تجارة البلدة بجرأة كبيرة، يجب إيقافه. أتسمع؟ أنا وهو لا يمكننا العيش جنبًا إلى جنب. هذا واضح وأكيد.»

«رأيت ذلك كلَّه،» قال جوب.

«أقصد أن يكون ذلك بالتنافس العادل حتمًا،» أردف هنْشَرْد. «ولكنَّه يجب أن يكون تنافسًا شديد البأس باترًا لا يلين بقدر ما هو عادل، إنَّنا إذا ما عرضنا ثمنًا أعلى من ثمنه لشراء محاصيل المزارعين فسنسحقه سَحْقًا وسنبيدُه شرَّ إبادة. واعلم أنَّني أملك رأس المال وبوسعي فعل ذلك.»

«إنني أشاطرك الفكرة نفسها تمامًا،» قال رئيس العمَّال الجديد.

إنَّ الكُره الذي يكنُّه جوب لفارْفري كونه الرجل الذي انتزع منه وظيفته مرَّةً، جعل منه أداة طيِّعة القِياد، كما جعله في الوقت ذاته زميلًا غير مأمون الجانب من الناحية التجارية، وأسوأ مَن اختاره هنْشَرْد.

«أفكِّر أحيانًا،» أضاف جوب. «أنه لا بدَّ يملك ما يشبه مرآةً بوسعه أن يرى فيها أحداث العام المقبل، إذ لديه من البراعة ما يجعل كلَّ شيء يجلب له الثروة.»

«إنَّه يفوق في عمقه فطنة أكثر الرجال إخلاصًا، ولكنَّنا سنجعله أكثر ضحالة، وسنبيع بسعر أقلَّ منه، وسنشتري بسعر أكثر منه، وهكذا نقضي عليه.»

ثم دخلا في تفاصيل محددة في العملية التي سيحقِّقان من ورائها هدفهما هذا، وافترقا في ساعة متأخرة.

سمعت إلِزابث جيْن مصادفةً أنَّ زوج أمِّها وظَّف جوب. كانت على قناعة تامَّة بأنه لم يكن الرجل المناسب لهذه لوظيفة، حتى إنَّها جازفت بإغضاب هنْشَرْد وعبَّرت له عن قلقها لمَّا التقيا، ولكن لم يسفر ذلك عن نتيجة، فقد أخرس هنْشَرْد حجَّتها موبِّخًا إياها بشدَّة.

بدا وكأنَّ طقس هذا الموسم يؤيِّد خطتهما. كان ذلك في السنوات التي سبقت مباشرةً الثورة التي أحدثتها المنافسة الأجنبية في تجارة القمح، عندما كانت أسعار الحنطة كما في العصور القديمة، لا تزال تعتمد من شهر إلى آخر تمامًا على المحصول المحلي، فقد كان المحصول السيئ أو المتوقَّع أن يكون سيئًا، يضاعف ثمن القمح في غضون أسابيع معدودة، وأمَّا إن كان المحصول جيِّدًا فإن سعره ينخفض بالسرعة نفسها. كانت الأسعار مثل طُرُقات تلك الحقبة، حادَّة في تدرُّجها، وتعكس في مراحلها الظروف المحلية، فهي بلا تخطيط أو تمهيد أو تناسُب.

وكان دخل المزارع يتوقَّف على محصول القمح ضمن أفقه المحلي، ومحصول القمح يتوقَّف على الطقس. وهكذا بات المزارع نفسه ضربًا من بارومتر حيٍّ ذي مجاسٍّ موجهة دائمًا نحو السماء والريح المحيطة به، فالطقس المحلي كل شيء في نظره، أما طقوس البلاد الأخرى فلا أهمية لها. كما كان الناس أيضًا، من غير المزارعين، أي القرويون، يرون في إله الطقس أهمِّيَّة لا يرونها اليوم. والحقُّ أنَّ إحساس الريفيين في هذا الشأن كان كثيفًا جدًّا إلى حدٍّ لا يمكن إدراكه في هذه الأيام الهادئة، فقد كان اندفاعهم يقترب من حدِّ إنهاك أنفسهم بالنُّواح والعويل إذا ما هطلت أمطار أو هبَّت عواصف غير متوقَّعة وحلَّت عليهم وكأنها الاستور[85] وهو ينتقم من أولئك الذين لم يكن جرمهم سوى أنهم فقراء.

بعد منتصف الصيف كانوا يراقبون دوَّارات الرياح كما يراقب الرجالُ في حجرة الانتظار الخادمَ ليأذن لهم بالدخول. كان بزوغ الشمس يبهجهم، والمطر الهادئ يبعث فيهم السكينة، وأمَّا أسابيع العواصف الماطرة فقد كانت تصيبهم بحالة من الذهول، فمظهر السماء الذي يعدُّونه اليوم مزعجًا وحسب كانوا يرونه شرِّيرًا.

---

85) إله الانتقام في الميثولوجيا الإغريقية.

كان ذلك في شهر يونيو، وكان الطقس غير مؤاتٍ مطلقًا، وقد أحاطت بكاستربرِدْج كآبة جليَّة، فهي، إن صحَّ القول، كانت أشبه بلوح أجراس تقرعها القرى المجاورة. وإذ لم تعُد هناك بضائع جديدة للعرض في وجوه المتاجر فقد أُخرجت مرةً أخرى تلك البضائع التي لم تلقَ إقبالًا الصيف الماضي، وعادت إلى الظهور المناجل العتيقة، والمجارف السيئة الشكل، والطماق البالية، والأحذية المقاومة للماء التي تصلَّبت بفعل الزمن، ورُمِّمت كلُّها لتبدو جديدة قدر الإمكان.

مستعينًا بجوب ظنَّ هنْشَرْد أنَّ المحصول سيأتي بكارثة، فعقد العزم على تنفيذ خطته ضد فارْفري بناء على هذا الظن. بيْد أنه قبل أن يُقدم على ذلك أراد كما يريد الكثيرون أن يتيقَّن من أنَّ ظنَّه ينطوي على إمكانية قويَّة. وقد كان يؤمن بالخرافات كما يفعل عادةً أمثاله من ذوي الطباع العنيدة، فراح يقلِّب فكرة في عقله حول هذا الأمر، ولم يبُح بها حتى لجوب.

في قرية صغيرة منعزلة تبعد بضعة أميال عن البلدة، قرية منعزلة جدًّا إلى حدٍّ أنَّ ما تُعرف بالقرى المنعزلة تبدو مزدحمةً مقارنة بها، كان يعيش رجل ذو سمعة مثيرة للفضول كونه كان عرَّافًا أو متنبِّئًا بالطقس. كان الطريق إلى منزله متعرِّجًا وموحلًا، بل كان صعبًا قطْعُه في هذا الموسم غير المُؤاتي. ذات مساء، أمطرت بغزارة إلى حدٍّ أنَّ أشجار اللبلاب والغار كانت تصدر ضجيجًا كأنه ضجيج طلقات بنادق بعيدة، حيث يمكن التماس العذر للرجل الخارج في هذا العراء أن يغطي جسده كله حتى أذنيه وعينيه. كان يمكن تبيُّن رجلٍ كهذا يغذُّ السير صوب أيكة البندق التي كادت تغطي بيت المتنبِّئ. وأصبح الطريقُ الرئيس معبرًا، والمعبرُ طريقَ عربات، وطريقُ العربات مجازًا لركوب الخيل، والمجازُ ممشى مكسوًّا بالعشب. كان السائر الوحيد تزلُّ به القدم هنا وهناك، ويتعثَّر بالحبال الطبيعية التي شكَّلتها شجيرات العُلَّيْق، حتى بلغ أخيرًا المنزل الذي كان وحديقته محاطيْن بسياج عالٍ كثيف. كان المنزل كوخًا

كبيرًا نسبيًّا بناه قاطنه من الطين بيده، كما بنى سقفه من القش بنفسه. عاش حياته كلَّها هنا، وهنا سيموت.

كان يسعى وراء أسباب معيشته من موارد خفيَّة، وقد كان أمرًا يدعو للعجب أن يجد المرء أغلب الناس في الجوار يسخرون من مزاعم هذا الرجل ويردِّدون العبارة المبتذلة «أقوال فارغة» بثقة تامَّة تتبدَّى على وجوههم، إلَّا أنَّ قلَّةً قليلة منهم لم تكن تؤمن به في أعماقها. كانوا إذا ما أخذوا مشورته قالوا إنهم يفعلون ذلك «هوايةً وتسليةً.» وإذا ما دفعوا له قالوا «شيء متواضع لعيد الميلاد وحسب»، أو «لعيد العذراء»، حسبما تكون الحالة.

لو كان زبائنه أكثر صدقًا وأقلَّ سخريةً وتصنُّعًا! كان يُفضِّل ذلك ولكنَّ إيمانهم القوي به كان عزاء له على ما يبدونه من سخرية مُفتعلَة. وكما أسلفنا، فقد كان يكسب قوته مما يجود به الناس مُديرين له ظهورهم. وقد كان يدركه العجب أحيانًا من قدرة هؤلاء الناس على الاعتراف بالقليل والإيمان بالكثير عندما يكونون في منزله، في حين إنهم يعترفون بالكثير ويؤمنون بالقليل عندما يكونون في الكنيسة.

بسبب سمعته كانوا يطلقون عليه «ويدوه»[86] من ورائه، وفي وجهه يدعونه «السيد» فول.

شكَّل سياج حديقته قوسًا على المدخل، ورُكِّب فيه باب كأنه في حائط. وقف المسافر الطويل القامة خارج الباب وقد لفَّ وجهه بمنديل وكأنه يعاني وجع أسنان، وصعد الدرب. لم يكن مصراعا النافذة مغلقين، فكان بمقدوره رؤية المتنبِّئ في الداخل وهو يُعِدُّ عشاءه.

أقبل فول إلى الباب ردًّا على الطرق وفي يده شمعة. تراجع الزائر عن ضوء الشمعة قليلًا للخلف وقال بنبرة ذات مغزى: «أيمكنني التحدث إليك؟»

---

86) Wide–oh أو Wido، وتعني يقظ أو حسن الاطلاع. كما إنها مشتقَّة من المصطلح العاميّ wide–boy أي البارع أو حتى المخادع أو المنخرط في الجرائم. (Eric Partridge, A Dictionary of Slang and Unconventional English, 8th edn, ed. Paul Beale [New York: Macmillan, 1984], p. 1337)

ردَّ عليه الآخر داعيًا إيَّاه إلى الدخول بعبارة أهل القرية: «هذا يكفي، شكرًا لك،» بعد أن لم يكن أمام صاحب المنزل من خيار إلا الخروج. وضع الشمعة على طرف من المائدة، وأخذ قبعته المعلَّقة على مسمار وموصدًا الباب وراءه انضم للغريب في الشرفة.

«لطالما سمعت أنك تستطيع فعل أشياء ذات أهمِّيَّة؟» بدأ الآخر حديثه وهو يحرص على إخفاء شخصيته قدر ما استطاع.

«ربما يا سيد هنْشَرْد،» قال المتنبِّئ بالطقس.

«عجبًا! لِمَ تدعوني بهذا الاسم؟» سأل الزائر جافلًا.

«لأنَّه اسمك. لقد شعرت بأنك ستأتي وانتظرتك. وفكَّرت أنك ستكون منهكًا من المشي فأعددت طبقين للعشاء، انظر هنا.» فتح الباب على مصراعيه كاشفًا عن مائدة العشاء التي أُضيف إليها مقعد آخر وسكين وشوكة وطبق وقدح مثلما قال.

شعر هنْشَرْد وكأنه شاوُل حين استقبله صموئيل[87]، فبقي صامتًا بضع لحظات، ثم نفض عن نفسه قناع التَّخفِّي الذي احتفظ به حتى اللحظة وقال: «إذن لم آتِ عبثًا... والآن، هل بوسعك أن تُرقي الثآليل مثلًا؟»

«من دون عناء.»

«وتُذهب الشَّرّ؟»

«وأمَّا هذا فقد فعلته، على أن يحرص المرء على وضع كيس الضفدع[88] ليلًا ونهارًا.»

«وهل تتنبَّأ بأحوال الطقس؟»

«بالجهد والوقت.»

---

87) شاول ابن قيس، من سبط بنيامين، هو أول ملوك إسرائيل الذي أوحى الرَّبُّ إلى النبي صموئيل أن يتوَّجه ملكًا. سِفر صموئيل الأول.

88) كتب هاردي في مذكراته أنَّ عجوزًا ساحرًا كان يضع أرجل الضفادع في أكياس صغيرة ويبيعها للناس على أنها تمائم تدفع داء الخنازير عندما توضع حول العنق.

«إذًا إليك هذا» قال هنْشَرْد، «إنها قطعة مُتوَّجة[89]. والآن أخبرني كيف سيكون موسم الحصاد بعد أسبوعين؟ متى يمكنني أن أعرف؟»

«لقد تنبَّأت بهذا من قبل ويمكنك معرفته في الحال.» (الحقيقة أنَّ خمسة مزارعين زاروه للغرض نفسه من أنحاء مختلفة من البلاد.) «باسم الشمس والقمر والنجوم، وباسم الغيم والريح والشجر والكلأ ولهب الشمع وطيور السنونو ورائحة الأعشاب، وكذلك باسم عيون القطط والغربان ودود العَلَق والعناكب وروث الماشية، سيكون الطقس في الأسبوعين الأخيرين من أغسطس ماطرًا وعاصفًا.»

«قطعًا إنك لست على يقين من ذلك؟»

«يقيني هو يقين أيِّ امرئٍ في عالم لا يمكن الجزم فيه بكل شيء. سيكون الأمر أكثر شبهًا بالعيش في سِفر الرؤيا[90] منه بالعيش في إنكلترا. أتودُّ أن أرسم لك خطة؟»

«لا، لا،» قال هنْشَرْد. «إنني لا أؤمن بالتَّنبُّؤات، وإنَّما أتيت بعد التفكير في الأمر مرارًا ولكنني...»

«بلى، بلى، مفهوم تمامًا،» قال «ويدوه» دونما ازدراء. «لقد نقدتني قطعة متوَّجة لأن معك منها الكثير. هلَّا شاركتني العشاء وقد صار بالانتظار؟»

لكان هنْشَرْد انضمَّ إليه بسرور، فرائحة الحساء كانت تطير من المنزل إلى الشرفة بوضوح مثير للشَّهيَّة، حتى إنَّه استطاع أن يُميِّز بأنفه رائحة اللحم والبصل والفلفل والأعشاب، كُلًّا منها على حِدة. بيْد أنَّ جلوسه بأريحيَّة هناك سيبعث على الظن بأنه أحد مُريدي هذا العرَّاف، فرفض وانصرف لحال سبيله.

ابتاع هنْشَرْد في يوم السبت التالي كمية هائلة من القمح حتى غدا هذا الأمر حديث الجيران والمحامي وتاجر النبيذ والطبيب، وهكذا كان دأبُه

89) عملة نقدية عليها تاج الملكة فِكتوريا.

90) آخر سِفر من أسفار العهد الجديد الذي تنبَّأ بنهاية العالم.

في اليوم التالي وكل يوم يُتاح له ابتياع المزيد. وعندما امتلأت مخازنه حتى الاختناق، صرَّت كلُّ دوَّارات الرياح في كاستربرِدْج ويمَّمت وجوهها في اتجاه آخر، وكأنها سئمت الاتجاه الجنوبي الغربي. وتبدَّل الطقس، وأمَّا ضوء الشمس الذي لبث أسابيع قاتمًا بلون الصفيح، فقد اتَّخذ لون الياقوت الأحمر. وتورَّدت سحنة السماء بعد أن كانت باهتة، وتيقَّن الجميع أنَّ حصادًا مبشِّرًا آتٍ، فانخفضت الأسعار تبعًا لذلك.

كلُّ هذه التَّحوُّلات التي بدت لطيفة للآخرين أزعجت تاجر الحنطة المخدوع أيَّما إزعاج. وقد ذكَّره هذا بما كان يعرفه جيِّدًا من قبل، وهو أنَّ الرجل قد يقامر بمساحات خضراء مربعة في حقل مثلما يقامر في قاعة لعب الورق.

لقد راهن هنْشَرْد على طقس سيئ فخسر خسرانًا مُبينًا، وأخطأ لمَّا حسب تحوُّل المدِّ جزرًا. وكانت معاملاته من الكثرة بحيث لم يكن بوسعه تأجيل أمر تسويتها، ولكي يسوِّيها اضطرَّ إلى بيع القمح الذي اشتراه منذ أسابيع معدودة فقط، بثمن بخسٍ جدًّا. ولكنه لم ير الكثير من القمح، إذ لم يُنقل من الصوامع التي كُدِّس فيها على مدى أميال، وهكذا خسر خسارة فادحة.

وفي يوم شديد الحرارة في مطلع أغسطس التقى هنْشَرْد وفارْفري في ساحة السوق. وكان فارْفري على علم بصفقته (لكنَّه لم يكن ليحدس بنيَّة هنْشَرْد في إلحاق الأذى به) وأقبل عليه مواسيًا، فمنذ تبادلهما الحديث في الممشى الجنوبي وكلٌّ منهما يتكلَّف الحديث إلى الآخر. أبدى هنْشَرْد لحظةً انزعاجه من هذا التعاطف، ولكنَّه التفت إليه بغتةً التفاتة لامبالية.

«لا لا! إنَّه ليس بالأمر الجسيم يا رجل!» صاح بمرح صاخب. «تحدث هذه الأمور دائمًا، أليس كذلك؟ أعلم ما يقال عن خسارتي مؤخرًا، ولكن هل هذا نادر الحدوث؟ إنَّ الحال ليس بالسوء الذي ربما يتحدَّث عنه الناس.

واعجبًا! لا بدَّ أن يكون المرء أحمق ليعبأ بمخاطر التجارة المعتادة!»

بيْد أنه كان عليه أن يدخل مصرف كاستربرِدْج في ذلك اليوم لأسباب لم تدفعه إلى هناك قطُّ من قبل، وأن يجلس وقتًا طويلًا في حجرة الشركاء كارهًا. وقد أُشيع بُعيد ذلك أنَّ جزءًا كبيرًا من الأملاك الحقيقية إضافةً إلى مخازن شاسعة من الغلال في البلدة وفي الجوار، التي كانت باسم هنْشَرْد، أصبح في الواقع في حوزة دائنيه.

بينما كان يهبط سلالم المصرف صادف جوب. لقد أشعلت المعاملات الكئيبة التي أُنجزت في الحال في الداخل أُوار اللسعة الأصلية التي سبَّبها تعاطف فارْفري ذاك الصباح، وجعلت هنْشَرْد يتخيَّل أنها كانت تهكُّمًا مبطَّنًا، فما كان لقاؤه وجوب لطيفًا. كان الأخير يهمُّ برفع قبعته ليمسح العرق عن جبينه وهو يقول لأحد معارفه: «يوم حارٌّ جميل.»

«يمكنك أن تمسح جبينك مرارًا وتقول (يوم حارٌّ جميل)، أليس كذلك!» صاح هنْشَرْد بنبرة فظة وقد حشر جوب بينه وبين حائط المصرف. «لولا نصيحتك اللعينة لكان يومًا جميلًا كفاية! لِمَ تركتني أمضي في الأمر، هاه؟ كلمة شكٍّ منك أو من أي شخص آخر كانت ستجعلني أفكر مرتين! فلا يمكنك التَّيقُّن مطلقًا من الطقس حتى ينجلي.»

«كانت نصيحتي يا سيدي أن تفعل ما تراه الأفضل.»

«رفيق مفيد حقًّا! كلما سارعت إلى مساعدة شخص آخر بتلك الطريقة كان أفضل!» تابع هنْشَرْد مخاطبة جوب بهذه الطريقة حتى انتهى الأمر إلى إقالته من عمله فورًا، ونكص هنْشَرْد على عقبيه تاركًا إيَّاه هناك.

«سوف تندم على هذا يا سيدي ندمًا ما ندمه إنسان!» قال جوب وقد وقف شاحب الهيئة يناظر تاجر الحنطة وهو يختفي بين حشود الناس في السوق القريب.

الفصل السابع والعشرون

كانت عشيَّة الحصاد، وكانت الأسعار منخفضة فراح فازْفري يشتري. وكما جرت العادة، اعتقد المزارعون المحلِّيُّون جازمين أنَّ الموسم سيكون مُجدبًا، فسلكوا مسلكًا متطرِّفًا، وكانوا (في رأي فازفري) يبيعون بتهوُّر شديد معوِّلين بثقة كبيرة على محصول وفير. وهكذا راح يشتري حنطة قديمة بثمن زهيد نسبيًّا، لأن غلَّة العام الفائت كانت عالية الجودة مع أنها لم تكن وفيرة.

عندما سوَّى هنْشَرْد شؤونه بطريقة كارثية وتخلَّص من مُشتراه الباهظ بخسارة فادحة، بدأ الحصاد. كانت هناك ثلاثة أيام من الطقس الممتاز، ثمَّ قال هنْشَرْد: «ماذا لو كان المشعوذ اللعين مُحقًّا رغم كل شيء!»

وفي الحقيقة أنه ما كادت المناجل تبدأ العمل حتى بدا الطقس بغتةً يمنح شعورًا وكأنَّ النبات سينمو فيه دونما ريٍّ واعتناء. ومثل نسيج رطب أخذ يدعك وجنات الناس عندما يخرجون من منازلهم. هبَّت ريح دافئة عاتية، ورصَّعت قطرات مطر متفرقة زجاج النوافذ وقد بدت مثل النجوم في تباعدها. وكان ضوء الشمس يشعُّ مثل مروحة تنفتح بسرعة، ليعكس ظلَّ النافذة على أرض الحجرة في تلألؤٍ عديم اللون، ثم سرعان ما يختفي بغتةً مثلما ظهر.

منذ ذلك اليوم والساعة كان جليًّا أنه لن يكون هناك حصاد ناجح على أيَّة حال. ولو أنَّ هنْشَرْد انتظر أكثر لتفادى الخسارة على الأقل مع أنه لم يربح. غير أنه بطبعه المندفع ذاك لم يكن ليطيق صبرًا. وعند انقلاب الموازين هذا لزم الصمت، وبدا أنَّ عقله كان أكثر ميلًا إلى تصديق فكرة أنَّ قوةً ما كانت تعمل مُخالِفة له.

«أتعجَّب،» سأل نفسه بارتياب مخيف. «أتعجَّب إن كان ثمَّة من يحرق صورة شمعيَّة لي، أو يقلِب مزيج خمر خبيثة لإرباكي! لا أؤمن بقوة كهذه، ومع ذلك، ماذا لو كان ثمَّة من يفعل ذلك!» ولم يتمكَّن حتى من الجهْر بأنَّ مقترف الجرم، إن كان ثمَّة أحد، قد يكون فارْفري. كانت هذه الساعات المتفرّقة من الإيمان بالخرافات تنتاب هنْشَرْد حين يكون في حالة من الكدر والكآبة وعندما تتسرَّب منه كلُّ رؤية وسعة أفق.

إبَّان ذلك كان نجاح فارْفري يزدهر، فقد ابتاع في فترة كساد السوق حتى إنَّ اعتدال الأسعار في الوقت الحاضر أتاح له أن تجتمع لديه أكداسٌ مكدَّسة من الذهب لم يكن لديه منها سوى القليل.

«ياللهول! سرعان ما سيصبح عمدة!» قال هنْشَرْد. إنه لأمر شاقٌّ حقًّا أن يكون على القائل، دون الجميع، أن يتبع موكب النصر الذي يحمل هذا الرجل إلى مبنى الحكم.

لقد اشتدت المنافسة بين السَّيِّديْن لتطال رجالهما.

هبط ليل سبتمبر على كاستربرِدْج، ودقَّت الساعة معلنة الثامنة والنصف، وبزغ القمر. واكتنف طرقات البلدة صمتٌ بدا غريبًا في مثل هذه الساعة الباكرة نسبيًّا. ثمَّ عبرت الطريق أصوات خشخشة أجراس الجياد والعجلات الثقيلة، تلتها أصوات غاضبة خارج منزل لوسِتا دفعتها وإلِزابث جيْن إلى الهرولة إلى النافذة ورفع الستارة.

كان مبنى السوق ودار البلدية المتجاوران يتاخمان جارتهما الكنيسة إلَّا من ناحية الطابق السفلي حيث يفضي طريق مقبَّب إلى ساحة كبيرة تُدعى «بُل ستيْك»، وقد قام في منتصفها عمود حجري كانت تُربَط إليه الثيران في الماضي لتعتلف مع الكلاب إلى أن يصبح لحمها طريًّا قبل سوقها إلى الذبح في المسلخ المجاور. وفي زاوية الساحة وقفت المواشي.

كان الطريق المفضي إلى هذه البقعة تعترضه في هذه اللحظة عربتان

يجرُّ كلًّا منهما أربعةُ جياد، وكانت إحداهما محمَّلة بأكداس من التبن، فلمَّا عبرت الجياد الأمامية متقاربةً تداخلت رؤوسها وذيولها. لكان مرور العربتين ممكنًا لو كانتا فارغتين، ولكنَّ ما كان في إحداهما من أكداس تبن بلغ نوافذ حجرة النوم فجعل عبور العربتين مستحيلًا.

«لا بدَّ أنكم فعلتم ذلك عن قصد!» قال حوذي فازفري. «ألم تسمعوا أجراس جيادنا على بعد نصف ميل في ليلة كهذه!»

«لو انتبهت لشؤونك بدلًا من أن تميس على الطريق على هذا النحو الأخرق لرأيتَني!» ردَّ حوذي هنْشَرْد وقد غضب غضبًا شديدًا.

ولكن، تبيَّن وفق قواعد الطريق الصارمة أنَّ حوذي هنْشَرْد كان على خطأ كبير، ولذلك حاول التراجع إلى الطريق العام. وفي أثناء قيامه بذلك، اصطدمت العجلة الخلفية للعربة بحائط ساحة الكنيسة فانقلبت الحمولة بأكملها، وارتفعت عجلتان من بين العجلات الأربع إلى الأعلى، وكذلك قوائم الجواد المربوط إلى عريش العربة.

وعوضًا عن التفكير في كيفية رفع الحمولة انصرف الرجلان إلى العراك بالأيدي، ولكن قبل أن توشك جولتهما الأولى على الانتهاء وصل هنْشَرْد إلى المكان بعد أن أسرع إليه أحدهم لإبلاغه.

أبعد هنْشَرْد الرجلين وهما يترنحان في اتجاهيْن متعاكسيْن ممسكًا بخناق كلٍّ منهما، ثم التفت إلى الجواد المنطرح أرضًا وخلَّصه بعد بعض العناء. بعد ذلك استفسر عن الأمر، ولمَّا رأى ما كانت عليه عربته وحمولتها من حال، شرع يوبخ حوذي فازفري توبيخًا شديدًا.

كانت لوسِتا وإلزابث جيْن وقتئذ قد نزلتا تجريان إلى ناصية الطريق، حيث رأتا أكداس التبن الجديدة اللامعة ترقد تحت ضوء القمر، وكان هنْشَرْد والحوذيان يمرَّان بها جيئة وذهابًا. وقد شهدت المرأتان ما لم يشهده أحد آخر، أي أصل الحادثة. وتكلَّمت لوسِتا.

«لقد رأيت كل شيء يا سيد هنْشَرْد،» صاحت، «وحوذيك هو المخطئ!»

توقَّف هنْشَرْد عن التوبيخ والتفت. «أوه، لم ألحظك يا آنسة تمبلمان،» قال. «أتقولين أن حوذيِّ هو المخطئ؟ آه، مؤكَّدٌ، مؤكَّد! ولكنني أستميحك عذرًا، فعربة الآخر هي الفارغة، ومن الأجدر أن يُلام هو على تقدُّمه في الطريق.»

«كلَّا، لقد رأيتهما أنا أيضًا،» قالت إلِزابث جيْن. «وأؤكد لك أنه لم يستطع تفاديه.»

«لا يمكنك أن تثق بعقليهما!» تمتم حوذي هنْشَرْد.

«لِمَ لا؟» سأل هنْشَرْد بحدَّة.

«ألا ترى يا سيدي أنَّ كل النساء يقفن في صف فارْفري كونه شابًّا غُنْدورًا ينسلُّ إلى قلوب العذارى مثلما تنسلُّ الدودة الدائخة إلى دماغ الخروف، فيجعل الأعوج مستقيمًا في عيونهن!»

«ولكن هل تعرف من تكون تلك السيدة حتى تتحدث عنها على هذا النحو؟ هل تعلم أنني أهتم بأمرها وكنت أهتم بأمرها منذ بعض الوقت؟ عليك أن تكون حذرًا!»

«كلَّا. لا أعلم شيئًا آخر يا سيدي سوى تلك الشلنات الثمانية التي أتقاضاها أسبوعيًّا.»

«وهل تعلم أنَّ السيد فارْفري يعرف ذلك جيِّدًا؟ إنه ذكيٌّ في التجارة، ولكنه لن يقوم بشيء وضيع كالذي ألمحت إليه.»

وسواءً سمعت لوسِتا هذا الحوار الخفيض أم لم تسمعه، فقد اختفت هيئتها البيضاء من أمام عتبة منزلها داخلَه، وأغلقت الباب قبل أن يتمكَّن هنْشَرْد من بلوغه للتَّحدُّث إليها أكثر. لقد خيَّب هذا أمَلَه، ذلك أنَّ ما قاله الرجل ساءه كثيرًا وتمنَّى أن يتحدث إليها عن كثَب. وبينما كان واقفًا أقبل الشرطي العجوز.

«احترس من أن يقود أحد عربته إلى جانب ذلك التبن والعربة الليلة يا ستَبرد،» قال تاجر الحنطة، «سيظلان هنا حتى الصباح لأن جميع العمَّال ما زالوا في الحقول. وإن أرادت عربة أو مركبة عبور الطريق فقُل لأصحابها أن يدوروا من الطريق الخلفي، وأْمُرهم بذلك... هل من قضايا في مجلس البلدية غدًا؟»

«أجل يا سيدي. قضية واحدة يا سيدي.»

«ما هي؟»

«إنها عجوز آثِمة يا سيدي، تشتم وتتبوَّل عند حائط الكنيسة وتسلك مسلكًا مدنِّسًا مقيتًا، وكأنَّ المكان ليس أكثر من حانة! هذا كل شيء يا سيدي!»

«أوه. العمدة خارج البلدة[91]، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي.»

«حسنٌ جدًّا، سأكون هناك إذن. لا تنسَ أن تحرس ذلك التِّبن. طاب مساؤك.»

وفي أثناء تلك اللحظات قرَّر هنْشَرْد تعقُّب لوسِتا رغمًا عن مراوغتها، فطرق الباب طالبًا إذن الدخول.

وتلقَّى الرَّدَّ بأنَّ الآنسة تمبلمان تعبِّر عن أسفها لعدم قدرتها على مقابلته مجدَّدًا ذلك المساء لأنَّ لديها ارتباطًا في الخارج.

ابتعد هنْشَرْد عن الباب إلى الجانب المقابل من الطريق ووقف إلى جانب تبنه مستغرقًا في التفكير وحيدًا، وقد مضى الشرطي إلى مكان آخر بعد أن نقل الجياد. ومع أنَّ القمر لم يكن وضَّاحًا بعْد، لم تُشعَل المصابيح، فوقف في عتمة أحد الأعمدة البارزة التي شكَّلت الطريق المفضي إلى ساحة «بُل ستيك»، ومن

91) هنا قد يلتبس الأمر على القارئ كونه يعرف أنَّ العمدة هو هنشرد نفسه، ويظن أنه ليس هناك من عمدة آخر غيره، ذلك أنّ هاردي لم يذكر في ما سبق صراحةً انتهاء رئاسة هنشرد للبلدية وتعيين عمدة جديد كما سيتبيَّن لاحقًا، ولكنّه يُلمِح إلى قرب انتهائها سابقًا في الفصل العشرين من الرواية، «كانت السنتان اللتان يرأس فيهما هنْشَرْد البلدية على وشك الانقضاء، وقد أُبلِغ بأنّه لن يُنتَخب ليملأ فراغًا في قائمة أعضاء المجلس البلدي،" (المترجمة)

هناك راح يرقب باب لوسِتا.

كانت أضواء الشموع تومض في حجرة نومها، وكان واضحًا أنها كانت ترتدي ملابسها استعدادًا للموعد أيًّا كانت طبيعته في مثل هذه الساعة. ثم تلاشت الأضواء، ودقَّت الساعة التاسعة، وفي تلك اللحظة تقريبًا جاء فارْفري من الزاوية المقابلة وطرق الباب.

كان أكيدًا أنها كانت تنتظره في الداخل، لأنها فتحت الباب بنفسها فورًا.

مضيا معًا في زقاق خلفي واتجها غربًا، تجنُّبًا للطريق الأمامي. ولمَّا خمَّن هنْشَرْد أين سيذهبان قرَّر اقتفاء أثرهما.

بسبب الطقس المتقلِّب تأخر موسم الحصاد كثيرًا، حيث ما إن يكون هناك يوم صحو حتى يشمِّر الجميع عن سواعد الجِدِّ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المحاصيل المتضررة. وبسبب القِصَرِ المتسارع للنهار صار الحُصَّاد يعملون تحت ضوء القمر، ولذا كانت حقول الحنطة المتاخمة على جانبي الساحة المربَّعة التي شكَّلتها بلدة كاستربِرِدْج، تعجُّ بأيدي الحُصَّاد الليلة. وصل صياحهم وضحكهم إلى هنْشَرْد وهو في مبنى السوق واقف هناك ينتظر، ولم يساوره شكٌّ في أنَّ فارْفري ولوسِتا كانا في طريقهما إلى تلك البقعة.

ذهب جميع أهالي البلدة تقريبًا إلى الحقول، حيث كان أهالي كاستربِرِدْج ما زالوا يحتفظون بعادتهم القديمة في أن يساعد بعضهم بعضًا وقت الحاجة، ولذلك، مع أنَّ الحنطة تخصُّ المزارعين في ذلك المجتمع الصغير الذي كان يقطن حيَّ ديرنوفر، لم يكن الباقون أقلَّ اهتمامًا بالعمل في حصادها.

عندما بلغ هنْشَرْد أعلى الزُّقاق عَبَرَ الجادَّة المظلَّلة بالأشجار، وانسلَّ إلى أسفل المتراس الأخضر ووقف بين جُذامات[92] الزَّرع. كانت أكداس الحنطة

---

92) الجُذامة من الزَّرع: ما بقي بعد الحصد. المورد الأكبر

تنهض مثل خيام في المدى الأصفر، وما كان بعيدًا منها أخذ يتلاشى في سديم ضوء القمر.

ولج بقعة معزولة عن مشهد العمل القائم، لكنَّ اثنيْن آخريْن دخلا ذلك المكان أيضًا، واستطاع أن يراهما يشقَّان طريقهما بين أكداس التبن. لم يُباليا بجهة سيرهما فراحا يغذَّان الخُطى في مسار متعرِّج حتى اتجها صوب هنْشَرْد. أحسَّ بأنَّ لقاء مُحرجًا كان على وشك الحدوث، فما كان منه إلا أن لاذ بأقرب فجوة في أكداس التِّبن وجلس هناك.

«إنِّي أمنحك الإذن،» كانت لوسِتا تقول بمرح، «قُل ما تشاء.»

«حسنٌ إذن»، أجاب فارْفري بنبرة العاشق الخالص الجليَّة التي لم يسمعها هنْشَرْد تتردَّد تردُّدًا كاملًا على شفتيه من قبل، «لا شكَّ أنكِ محطُّ أنظار الكثيرين لما أنت عليه من مركز اجتماعي وثراء وموهبة وجمال. ولكن، أبوسعك مقاومة إغراء أنك إحدى تلك السيدات اللاتي يقبل عليهن معجبون كثر، ثمَّ تقنعين بمعجب واحد عاديٍّ بسيط؟»

«وماذا عنه هو المتحدِّث؟» قالت ضاحكة. «حسنٌ جدًّا يا سيدي، ماذا بعد؟»

«آه! أخشى أنَّ ما أشعر به يجعلني أنسى لباقة التَّصرُّف!»

«إذن أرجو ألا تكون لبقًا، إن كانت اللَّباقة تنقصك فقط لذلك السبب.» وبعد بضع كلمات متقطعة لم يسمعها هنْشَرْد أضافت: «أمتيقِّن أنك لن تكون غيورًا؟»

بدا فارْفري وكأنه يطمئنها بأنه لن يفعل عندما أخذ يدها بين يديه.

«كن واثقًا يا دونلد بأنني لا أحبُّ أحدًا سواك،» قالت في الحال. «ولكنني أتمنى أن تكون لي طريقتي الخاصة في بعض الأمور.»

«بل في كل شيء! ولكن ماذا تعنين بالطريقة الخاصة؟»

«إن رغبتُ ألا أعيش دومًا في كاستربرِدْج، مثلًا، إن عرفتُ أنني لن أكون سعيدة هنا؟»

لم يسمع هنْشَرْد الرَّدَّ، وكان بوسعه أن يسمع المزيد، ولكنَّه لم يهتم بأداء دور من يسترق السمع. انصرفا باتجاه المشهد النشط حيث كانت تُوضَع حُزَم الحنطة، اثنتا عشرة حزمة كلَّ دقيقة، في العربات والمركبات لتحملها بعيدًا.

أصرَّت لوسِتا على الانفصال عن فارْفري عندما اقتربا من العمَّال. كان لديه بعض العمل معهم، فتوسَّل إليها أن تنتظره بضع دقائق، ولكنَّها كانت عنيدة فانطلقت بخفَّة صوب منزلها وحدها.

عند ذلك غادر هنْشَرْد الحقل ولحق بها. كان في حالة ذهنية جعلته لا يطرق الباب عندما بلغ منزل لوسِتا، بل فتحه وصعد مباشرة إلى حجرة المعيشة متوقِّعًا أن يجدها هناك، لكنَّ الحجرة كانت خاوية فأدرك أنه في عجلته تجاوزها في طريقه إلى هنا. غير أنَّه لم ينتظر دقائق كثيرة، إذ سرعان ما سمع حفيف ثوبها في الرَّدهة وأعقبه صوت إغلاق الباب بلطف. وفي لحظة ظهرت.

كان الضوء خافتًا جدًّا حتى إنها لم تلحظ هنْشَرْد في البداية. وحالما رأته أطلقت صيحة قصيرة، كانت صيحة ذعر تقريبًا.

«كيف تخيفني هكذا؟ صاحت وقد شاع الدَّم في وجهها. «لقد تجاوزت الساعة العاشرة ولا يحقُّ لك أن تباغتني هنا في هذا الوقت.»

«لا أعلم أنه لا يحقُّ لي. وعلى أي حال، فَلِيَ العُذر. هل من الضروري أن أتوقَّف لأفكِّر في اللياقة والأعراف؟»

«لقد تجاوزت زيارتك اللياقة وقد تلحق بي الأذى.»

«أتيت لزيارتك منذ ساعة ولم تقبلي لقائي، واعتقدت أنكِ موجودة عندما أتيت الآن. إنه أنت يا لوسِتا من يقترف الخطأ، ولا يليق بك أن ترفضيني

هكذا. أودُّ تذكيرك بأمر صغير يبدو أنك نسيتِه.»

غاصت في المقعد وشحب لونها.

«لا أودُّ سماعه، لا أودُّ سماعه!» قالت وقد أُسقِط في يدها، ووقف قريبًا من حافَّة ثوبها وشرع يلمِّح إلى أيام جيرسي.

«لكنك يجب أن تسمعيه،» قال.

«لم يسفر الأمر عن شيء وذلك بسببك. لِمَ لا تترك لي الحرية التي نلتها بعد كلِّ هذا الألم! ولو أنني عرفت أنك تودُّ الزواج مني حبًّا خالصًا لي لكنت شعرت بالتزام نحوك الآن. لكنني سرعان ما علمت أنك خططت لذلك بداعي الإحسان وحسب، وكأنه واجب بغيض، لأنني تعهَّدت برعايتك وعرَّضت نفسي للشبهة فاعتقدت أنت أنه من واجبك أن تجازيني. وبعد ذلك لم أعُد أهتم بأمرك كثيرًا كما فعلتُ من قبل.»

«ولِمَ إذن أتيت إلى هنا بحثًا عني؟»

«اعتقدت أنه عليَّ أن أتزوجك إرضاءً لضميري لمَّا أصبحتَ حُرًّا، حتى لو لم أكن أحبك.»

«ولِمَ لا تعتقدين هذا الآن؟»

لاذت بالصمت. كان جليًّا كلَّ الجلاء أنَّ ضميرها كان قد أحكم سطوته عليها إلى أن تدخَّل حُبٌّ جديد وانتزع تلك السطوة. وإذ أحسَّت بذلك نسيت في هذه اللحظة حجَّتها المبرَّرة جزئيًّا، وهي أنها باكتشافها ما في طبع هنْشَرْد من عيوب، لها بعض العذر في عدم المجازفة بسعادتها بين يديه بعد أن كانت قد تفادت ذلك مرةً. كان الشيء الوحيد الذي استطاعت قوله هو: «كنت فتاة فقيرة حينها، وقد تبدَّلت أحوالي الآن، ولذا فأنا لا أكاد أكون الشخص ذاته الذي كنته.»

«ذلك صحيح، وهذا ما يجعل الوضع غريبًا لي. ولكنني لا أودُّ أن أمسَّ مالك. إنني راغب تمامًا أن يبقى كل قرش من أملاكك رهن استخدامك

الشخصي. فضلًا عن ذلك، فإنَّ حجتك تلك فارغة، والرجل الذي تفكرين به ليس بأفضل مني.»

«إن كنتَ خيِّرًا مثله لتركتني!» صاحت بانفعال.

بدا أنَّ هذا القول أثار سخط هنْشَرْد لسوء الحظ. «لا يمكنك أن ترفضيني حفاظًا على شرفك،» قال. «وإن لم تعِديني هذه الليلة عينها بأن تكوني زوجتي أمام شاهد سأكشف أمر علاقتنا إنصافًا للرجال الآخرين!»

غلبتها نظرة استسلام، وأدرك هنْشَرْد قدر مرارتها، ولو كانت لوسِتا قد أسلمت قلبها لأي رجل آخر في العالم غير فارْفري لربَّما رأف بها في تلك اللحظة. غير أنَّ الغاصب الذي انتزع مكانه كان مُحدَث النعمة (كما أطلق عليه هنْشَرْد) الذي اعتلى عرش الشهرة على أكتافه هو، فما كان بمستطاعه أن يحمل نفسه على إبداء أية رأفة.

ودون أن تنبس بكلمة أخرى قرعت الجرس وأمرت باستدعاء إلِزابث جيْن من حجرتها. ظهرت الأخيرة مدهوشة في خضم انشغالها. وحالما رأت هنْشَرْد اتجهت إليه مدفوعةً بواجب البُنُوَّة.

«إلِزابث جيْن،» قال ممسكًا يدها. «أريدك أن تسمعي هذا.» والتفت إلى لوسِتا وقال: «هل تتزوجينني أم لا؟»

«إن كنتَ راغبًا في ذلك فعليَّ أن أوافق!»

«أتقولين نعم؟»

«نعم.»

ما إن قطعت وعدها حتى وقعت مغشيًّا عليها.

«أي شيء مروِّع يدفعها إلى قول هذا يا أبي عندما يكون مؤلمًا لها على هذا النحو؟» سألت إلِزابث وهي راكعة إلى جوار لوسِتا. «لا تكرهها على فعل شيء رغمًا عنها! لقد عشت معها وأعلم أنها لا تستطيع تحمُّل الكثير.»

«لا تكوني ساذجة مغفَّلة!» قال هنْشَرْد بفظاظة. «سيجعله هذا

الوعد حرًّا لك إن كنت تريدينه أليس كذلك؟»

عند هذا بدت لوسِتا وكأنها تنتبه من غشيتها وتجفل.

«من؟ عمَّن تتحدثان؟» قالت في هِياج.

«لا أحد، حسبما أعرف،» قالت إلِزابث بحزم.

قال هنْشَرْد «حسنٌ، هو خطئي إذن،» قال هنْشَرْد. «لكنَّ الأمر بيني وبين الآنسة تمبلمان. إنها توافق على أن تكون زوجتي.»

«ولكن لا تلحَّ على الأمر الآن،» استعطفته إلِزابث وهي تمسك يد لوسِتا.

«لا أرغب في ذلك إن وعَدَتْني،» قال هنْشَرْد.

«أعدُك أعدُك.» أنَّت لوسِتا، وقد تدلَّت أطرافها مثل مَدَاقِّ الحنطة من التعاسة والوهن. «مايكل، أرجوك لا تجادل أكثر من ذلك!»

قال: «لن أفعل.» وأخذ قبعته وانصرف.

بقيت إلِزابث جيْن راكعة إلى جوار لوسِتا.

«ما هذا؟» قالت. «لقد خاطبتِ أبي باسم «مايكل» وكأنك تعرفينه حقَّ المعرفة؟ ومن أين له كل هذه السلطة عليك حتى تعديه بالزواج رغمًا عن إرادتك؟ آه، إنك تكتمين أسرارًا كثيرة عنِّي!»

«لعلَّك أنت من تكتمين أسرارًا عني»، تمتمت لوسِتا بعينين مغمضتين، وكأنما تفكِّر قليلًا، ولكنَّها لم ترتب في أنَّ السِّرَّ الذي يطويه قلب إلِزابث يتعلَّق بالشاب الذي سبَّب لها هذا الألم.

«لن أفعل، لن أفعل شيئا ضدك قطعًا!» قالت إلِزابث متلعثمة وهي تكتم كل أمارات العاطفة حتى كادت تنفجر.

«لا أستطيع أن أفهم كيف يأمرك أبي هكذا، ولا أتعاطف معه في هذا مطلقًا. سأذهب إليه وأسأله أن يحرِّرك من وعدك.»

«لا، لا. ليكن ما يكون،» قالت لوسِتا.

الفصل الثامن والعشرون

في صباح اليوم التالي ذهب هنْشَرْد إلى مجلس البلدية مقابل منزل لوسِتا ليحضر جلسات صغيرة كونه ما زال قاضيًا ذلك العام بفضل منصبه السابق كعمدة. في أثناء عبوره رفع ناظريه إلى نافذة لوسِتا ولكنَّه لم يرها.

قد يبدو أوَّلَ وهلة أنَّ هنْشَرْد، بصفته قاضي الصلح، أشدَّ تنافرًا من شالو وسَيْلَنس[93] نفسيهما. إلّا أنَّ تصوره التقريبي وصراحته الشديدة كثيًرا ما أسعفاه على نحوٍ أفضل من المعرفة القانونية الدقيقة في إنجاز مثل هذه الأعمال البسيطة التي تقع بين يديه في هذه المحكمة. واليوم، لم يكن الدكتور تشوكفيلد، عمدة هذا العام، حاضرًا، فاتخذ تاجر الحنطة مجلسه على كرسي القضاء وما انفك يرسل نظراته الشاردة إلى خارج النافذة، إلى الواجهة الحجرية الأمامية لـ «المنزل العالي».

كانت هناك قضية واحدة فقط، وكانت المذنبة تقف أمامه. كانت عجوزًا بسيماء رقْشاء، ترتدي شالًا اتَّخذ لونًا لا اسم له، ذلك اللون الذي يتكوَّن وحسب ولا يمكن صنعه، ولا هو بأغبر ولا بخمري ولا بندقي ولا رمادي، وتضع قبعة سوداء دبِقة بدت وكأنها من النوع الذي كان سائدًا في مدينة النبي داوود حيث كان السحاب يقطر دَسَمًا[94]، وتضع مئزرًا كان أبيض حتى عهد قريب نسبيًّا يُبايِن بصورة واضحة باقي ثوبها. وقد أوحت هيئة المرأة السَّكرى[95] برمَّتها بأنها لم تكن من سكان القرية ولا حتى من بلدات المقاطعة.

93) Shallow and Silence شخصيتان هزليتان في مسرحية «الملك هنري الرابع» لشكسبير أدَّتا دور قاضي الصلح. كان شالو يفتقر إلى القدرة على التصرُّف بطريقة مهنية، وأمَّا سَيْلَنْس فقد كان غالبًا مخمورًا.

94) سِفْرُ المزامير (65:11): «تُكلِّل العامَ بِجُودِك، وتَقطُر بالدَّسَم آثارُك.» الكتاب المقدّس، دار المشرق، بيروت، 2007.

95) استخدام هاردي كلمة steeped ليس واضحًا تمامًا. إنَّ معناها في الأغلب «منقوع» أو «سكران» أو «غارق

ألقت نظرة خاطفة على هنْشَرْد والقاضي الثاني، ونظر هنْشَرْد إليها متوقِّفًا لحظة وكأنما ذكَّرته على نحو غامض بشخص ما أو بشيء ما سرعان ما تلاشى من ذهنه مثلما أتى. «حسنٌ، وما كانت فعلتها؟» قال وهو ينظر مذكرة الاتهام.

«إنها متهمة يا سيدي بالإخلال بالآداب العامة وإلحاق الضرر.» قال ستَبرد هامسًا.

«أين فعلت ذلك؟» قال القاضي الآخر.

«عند الكنيسة يا سيدي، دونًا عن جميع الأماكن الفظيعة في العالم! وقد باغتُّها وهي تفعل فعلتها يا فضيلة القاضي.»

«ارجع إلى الوراء إذن،» قال هنْشَرْد، «وأسمِعنا ما لديك.»

وأدَّى ستَبرد اليمين، وغمس كاتب القاضي قلمه في الدَّواة، فلم يكن هنْشَرْد نفسه بكاتب ملاحظات، وبدأ الشرطي: «عندما سمعت ثرثرة غير قانونية توجهت إلى الطريق في الساعة الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة من ليلة اليوم الخامس من هذا العام للميلاد، عندما...»

«لا تسرع كثيرًا يا ستَبرد،» قال الكاتب.

انتظر الشرطي وعيناه على قلم الكاتب حتى توقف الأخير عن الكتابة، وقال: «نعم.» فتابع ستَبرد: «عندما بلغت المكان رأيت المدَّعى عليها في بقعة أخرى، أعني عند المِزراب.» توقَّف وراح يرقب رأس قلم الكاتب مجدَّدًا.

«المِزْراب، نعم يا ستَبرد.»

«تقع البقعة على بعد اثنتي عشرة قدمًا وتسع بوصات أو هكذا تقريبًا

في سائل» (هذه صورة يمكن تخيُّلها في ملابس المرأة المبقَّعة بالزيت)، ولكنَّ صاحب الحسّ السليم يدرك أنّ السُّكر ورثاثة الملبس يظهران في المدينة والقرية على حدٍّ سواء. حسب ديل كرامر، محرِّر طبعة الرواية الصادرة عن دار نشر جامعة أكسفورد، فإنَّ هدف هاردي كما يبدو هو أن ينقل شيئًا أكثر من حالة المرأة سيئة السُّمعة. كلمة steeped تُستخدم في العامِّيَّة بمعان متعددة، تُحيل إلى فكرة السُّموّ والعلوّ، ويبدو أنَّ هاردي يقترح أنَّ المرأة هنا تقدِّم نفسها كشخص واثق أكثر مما قد يبدو قرويًا، ولا سيَّما عندما تتصرَّف بهدوء ورباطة جأش أمام القضاة.

من المكان الذي وقفت فيه..» كان ستَبرد ما زال حريصًا على ألَّا يسبق الكاتب، فتوقَّف مرة أخرى، ولأنه كان يسرد ما لديه من أدلة عن ظهر قلب لم يكن مهمًّا له أين يقف.

«أنا اعترض على ذلك،» قالت العجوز. «القول بأنَّ البقعة تقع على بعد اثنتي عشرة قدمًا وتسع بوصات أو هكذا تقريبًا، من المكان الذي وقفت فيه، ليس دليلًا صحيحًا!»

تشاور القاضيان، ثم قال الثاني أنَّ هيئة المحكمة ترى أن دليل اثنتي عشرة قدمًا وتسع بوصات من رجل أدَّى اليمين يُعَدُّ دليلًا مقبولًا.

أردف ستَبرد وهو ينظرة نظرة انتصار إلى العجوز حاول إخفاءها: «الذي وقفت فيه. كانت تترنَّح على نحو خطير في الطريق، وحين اقتربت منها فعلت فعلتها تلك وراحت تشتمني.»

«تشتمني... نعم ماذا قالت؟»

«قالت: أبعد ذاك المصباح اللَّعي...»

«نعم.»

«قالت: ألا تسمع أيُّها الأحمق؟ أبعد ذاك المصباح اللَّعي... لقد صرعت أشخاصًا أكبر حجمًا منك يا أيُّها المغفَّل اللَّعي...، يا ابن العا...، وعليَّ اللَّعن... إن لم أستطع ذلك، هذا ما قالت.»

«أعترض على ذلك الحوار!» قالت العجوز مقاطعة. «لم أكن قادرة كفاية على سماع ما أقول، وما قلته دون أن أسمعه ليس بدليل.»

كانت هناك وقفة أخرى للتداول، ورجع القاضيان إلى كتاب، وأخيرًا سُمِح لِستَبرد بالمتابعة. الحقيقة أنَّ العجوز مثلت أمام المحكمة مرات عديدة أكثر من القاضيين نفسيهما، حتى إنه كان لزامًا عليهما توخي الحذر من قرارهما. ولكن، عندما مضى ستَبرد يتحدَّث على نحو مفكَّك انفجر هنْشَرْد غاضبًا وقد نفد صبره: «هيَّا، لا نريد سماع المزيد من اللَّع والعا! انطق الكلمات

مثل رجل ولا تستحِ يا ستَبرد وإلا فاترك الأمر وشأنه!» ثم التفت إلى المرأة: «والآن، هل لديك أي أسئلة تسألينها أو أي شيء تريدين قوله؟»

«أجل» أجابت وثمَّة وميض في عينها، وغمس الكاتب قلمه.

«منذ عشرين سنة خلت كنت أبيع القمحيَّة في خيمة في سوق ويدون..»

«منذ عشرين سنة خلت.. حسنٌ، تلك بداية البدايات، ماذا لو أنك تعودين إلى بدء الخليقة!» قال الكاتب ساخرًا.

غير أنَّ هنشَرْد أخذ يحدِّق ونسي تمامًا ما كان دليلًا وما لم يكن بدليل.

«أتى رجل وامرأة تحمل طفلة إلى خيمتي،» تابعت المرأة. «جلسا وأخذ كل منهما طبقًا. آه، واحسرتاه! لقد كنت في وضع أكثر احترامًا في العالم مما أنا عليه الآن، حين كنت أتاجر في التهريب على نطاق كبير، واعتدت أن أمزج قمحيتي بالرُّوم لمن يطلبون ذلك. وقد أضفته لهذا الرجل، ثم أخذ يطلب المزيد حتى شَاجَرَ في نهاية المطاف زوجتَه، فعرض بيعها لمن يدفع أكثر. وجاء بحَّار وعرض خمسة جنيهات ودفع المال وأخذها معه. وأمَّا الرجل الذي باع زوجته بتلك الطريقة فهو ذاك الجالس هناك على كرسي القضاء.»

ختمت المتكلِّمة حديثها بأن أومأت برأسها نحو هنْشَرْد وطوت ذراعيها.

نظر الجميع إلى هنْشَرْد. بدا وجهه غريبًا وتلوَّنت سحنته وكأنها رُشَّت بالرماد. «لا نودُّ أن نسمع عن حياتِكِ ومغامراتِك.» قال القاضي الثاني بحدَّة ليملأ الصمت الذي أعقب ذلك. «لقد سُئلتِ عمَّا إذا كان لديك أي شيء تقولينه يخصُّ القضية.»

«ذلك يخصُّ القضية. إنه يثبت أنه ليس خيرًا مني وليس له الحق أن يجلس هناك ويقاضيني.»

«إنها قصة ملفَّقة، فصوني لسانك!» قال الكاتب.

«كلَّا، إنها صحيحة.» بدرت الكلمات من هنْشَرْد. «إنها صحيحة كالنور،» قال ببطء. «قسمًا بروحي إنها تثبت أنني لست خيرًا منها! ولكي أتجنَّب أيَّ إغراء يجعلني أعاملها بقسوة على انتقامها سأترك الأمر لكم.»

كانت الجلبة في المحكمة كبيرة على نحو لا يوصف. ترك هنْشَرْد مقعده وخرج عابرًا بين مجموعة من الناس الواقفين على السلالم وفي الخارج كان عددهم أكبر من المعتاد، إذ بدا أنَّ بائعة القمحية العجوز ألمحت تلميحًا غامضًا أمام قاطني الزقاق الذي كانت تقيم فيه منذ وصولها، إلى أنها كانت تعرف بعض الأمور الغريبة عن رجلهم العظيم السيد هنْشَرْد، وإن شاءت فستعلنها. وذلك ما جعلهم يأتون إلى هنا.

«لِمَ يتجمع متسكعون كُثر حول مجلس البلدية اليوم؟» قالت لوسِتا لخادمتها عندما انتهت القضية. وكانت قد استيقظت في وقت متأخر وراحت تنظر من فورها من النافذة.

«أوه يا سيدتي، إنها تلك الضجة عن السيد هنْشَرْد. لقد أثبتت امرأة أنه قبل أن يصبح سيِّدًا نبيلًا باع زوجته بخمسة جنيهات في خيمة في أحد الأسواق.»

عندما سرد لها هنْشَرْد جميع القصص عن انفصاله عن زوجته سُوْزَنْ سنوات طويلة، وعن اعتقاده بموتها وغير ذلك، لم يوضِّح لها قطّ السبب الحقيقي والمباشر للانفصال. وأمَّا هذه القصة فتسمعها الآن للمرة الأولى.

وشيئًا فشيئًا أخذ وجه لوسِتا يتجلَّل بالتَّعْسِ وهي تمعن التفكير في الوعد الذي انتُزع منها الليلة الفائتة. إذن هكذا كان هنْشَرْد في الحقيقة. أية مصادفة رهيبة تجعل امرأة تسلم نفسها إليه!

في أثناء ذلك اليوم ذهبت إلى «الحلقة» وأماكن أخرى، ولم تعد إلَّا عندما حلَّ المساء. وحالما رأت إلِزابث جيْن إثر عودتها إلى المنزل أخبرتها بأنها عزمت على الابتعاد عن المنزل إلى شاطئ البحر في «بورت برِدي» بضعة أيام،

فكاستربِردْج أصبحت كئيبة جدًّا.

ولمَّا رأتها إلزابث شاحبة ومضطربة حثَّتها على الفكرة معتقدةً أنَّ التغيير سيمنحها بعض الراحة. إلَّا أنها لم يسعها إلا أن تفكِّر في أنَّ الكآبة التي خيَّمت على كاستربِردْج في عيني لوسِتا كان سببها إلى حدٍّ ما حقيقة أنَّ فارْفري كان خارج البلدة.

رأت إلزابث صديقتها تغادر إلى «بورت برِدي»، فأمسكت بزمام الأمور في «المنزل العالي» إلى حين عودتها. بعد يومين أو ثلاثة من العزلة والمطر المتصل زار هنْشَرْد المنزل. بدا خائب الأمل عندما علم بغياب لوسِتا، وأومأ مودِّعًا بلا مبالاة وهو يخرج وقد أمسك لحيته وهو يكاد يتميَّز من الغيظ.

وجاء في اليوم التالي مرة أخرى. «هل عادت الآن؟» سأل.

«أجل. لقد عادت هذا الصباح،» أجابت ربيبته. «ولكنها ليست في الداخل. ذهبت للنزهة على الطريق الرئيس المؤدي إلى «بورت برِدي»، وستعود مع حلول المساء.»

تبادلا بضع كلمات كشفت نفاد صبره، ثم غادر المنزل مرة أخرى.

الفصل التاسع والعشرون

كانت لوسِتا في هذه الساعة تقصد الطريق المؤدي إلى «بورت بردي» تمامًا مثلما قالت إلِزابث. وقد كان أمرًا يدعو للغرابة أن تختار قضاء نزهتها النهارية سيرًا على الطريق نفسه الذي عادت منه إلى كاستربرِدْج منذ ثلاث ساعات في عربة، إن كان ثمَّة ما يمكن وصفه بالغرابة في سلسلة الظواهر التي لكل منها أسبابها. وكان هذا اليوم يومَ السوق الرئيس، سوق السبت، وكان فارْفري غائبًا لأول مرة عن منصته في قاعة التُّجَّار. ومع ذلك، كان معلومًا أنه سيعود في تلك الليلة، «من أجل يوم الأحد» كما يقول أهالي كاستربرِدْج.

واصلت لوسِتا سيرها حتى بلغت في نهاية المطاف الحدَّ الذي انتهت عنده الأشجار المصطفة على طول الطريق العام في هذا الاتجاه وفي اتجاهات أخرى خارج البلدة. وعند هذا الحدّ بلغ سيرها مسافة ميلٍ فتوقَّفت هناك.

كانت البقعة غورًا بين منحدريْن منخفضيْن، وكان الطريق ما زال محتفظًا بأساسه الروماني، غير أنه كان يمتدُّ امتدادًا مستقيمًا إلى الأمام وكأن مسَّاح أراضٍ خطَّه، إلى أن يغيب عن مرمى النظر عند أبعد سلسلة تلال. لم يكن ثمَّة سياج ولا شجر يلوح في الأفق الآن، إذ كان الطريق يلاصق الرقعة الممتدة من بقايا الحصاد في حقل الحنطة مثل شريط ملتصق بثوب متموج. وكان قريبًا من لوسِتا مخزن حبوب لم يكن في مجال رؤيتها هناك بناء سواه.

أرسلت ناظريها بعيدًا إلى الطريق المتصاغر، ولكن لم يظهر شيء هناك، ولا حتى ما يشبه ذرَّةً. وتنهَّدت مطلقة كلمة واحدة: «دونلد!» ثم يمَّمت وجهها شطر البلدة منقلبةً على عقبيها.

وهنا تبدَّل الوضع، وإذ بشبح شخص ما يقترب منها. كان ذلك إلِزابث جيْن.

بيْد أنَّ لوسِتا على وحدتها هناك بدت متكدِّرة بعض الشيء. وما إن تبيَّنت إلِزابث صديقتَها حتى غمرت وجهها أماراتُ حنان بينها وبين الحديث بونٌ شاسع. «لقد خطر لي خاطر مفاجئ أن آتي وألقاك،» قالت باسمة.

لكنَّ تحوُّلًا غير متوقَّع حال دون ردِّ لوسِتا الذي كان على طرف شفتيها. كان هناك عن يمينها طريق فرعي ينحدر من الحقول إلى الطريق العام في البقعة حيث وقفت، وفي أسفل الطريق كان هناك ثور يتخبَّط على غير هدى صوبها وإلِزابث التي كانت تواجه الجانب الآخر فلم تلحظه.

في أنحاء كاستربرِدْج وما جاورها تغدو الماشيةُ في الربيع الأخير من كل عام عمادَ الحياة العائلية ومصدرَ رعبها في وقتٍ واحد، حيث تتكاثر بنجاح إبراهيمي[96]. إن أعداد رؤوس الماشية المُساقة إلى داخل البلدة وخارجها في هذا الموسم لتُباع بواسطة الدَّلّال المحلي هائلةٌ جدًّا، وكانت كل تلك البهائم ذات القرون في رواحها وإيابها تدفع النساء والأطفال إلى الاحتماء هربًا منها لأنه لم يكن أمامهم من مفرٍّ آخر. وفي أغلب الأحوال كان يمكن أن تسير الحيوانات في طريقها بهدوء، إلَّا أنَّ الناس في كاستربرِدْج كانوا على عادة لا غنى عنها عند سوْق الماشية، وهي الإتيان بالصياح الشائن ونداءات «ياهو»[97] والإيماءات، والتلويح بالعصي الغليظة، ومناداة الكلاب الضالة، وبوجه عام كانوا يفعلون كل شيء من شأنه إثارة حنق البهائم الميَّالة بطبعها إلى الشراسة وإخافة المسالمة منها. ولذلك لم يكن أمرًا نادرًا أن يخرج صاحب المنزل من حجرة الاستقبال ليجد ردهة المنزل أو معبره محتشدًا بأطفال أو مربيات أو مسنات أو طالبات

96) نسبة إلى إبراهيم في الكتاب المقدّس الذي يعني اسمه «أب عدد كبير من الأمم»، ووعده الرَّبّ أن يجعل نسله «كتراب الأرض». وكان إبراهيم «غنيًا جدًّا بالماشية.»

97) ياهو: اسم أُطلِق على جنس من البهائم له شكل الإنسان وجميع رذائله في كتاب «رحلات غاليفر» لمؤلفه جوناثان سويفت (1667–1745)

علم يعتذرن عن وجودهن بالقول: «هناك ثور يعبر الطريق هاربًا من السوق.»

نظرت لوسِتا وإلزابث بارتياب إلى الحيوان، وكان هو في الوقت نفسه يقترب منهما بغموض. كان من سلالة الثيران ضخمة الجثة، أشهب اللون، ولكنه في هذه اللحظة تلطَّخ ببقع الطين على جوانبه المتغضِّنة. كان له قرنان غليظان تغطي طرفيهما قطعتان نحاسيتان، وأمَّا منخراه فكانا يشبهان نفق التَّيمز كما يبدو في ألعاب الأطفال في الأيام الخوالي، وقد عُلِّقتْ بينهما في غضروف أنفه حلقةٌ نحاسية سميكة ملحومة لا يمكن خلعها وكأنها قلادة غيرث[98] النحاسية. وكانت تتصل بالحلقة عصا من شجر الدَّردار بلغ طولها ياردة، وقد أخذت تترجَّح هنا وهناك مثل مِدَقِّ الحنطة مع حركة رأس الثور.

ولم يداهم الشَّابَّتين الذُّعرُ حقًّا إلَّا عندما رأتا تلك العصا المتدلية، ذلك أنها كشفت لهما أنَّ الثور كان عجوزًا ومتوحشًا صعب الانقياد فهرب بطريقة ما، وكانت العصا الوسيلة التي يستخدمها الراعي لكبحه وإبقاء قرنيه بعيدًا قدر ما تطوله الذراع.

تلفَّتتا حواليهما بحثًا عن ملاذ أو مكان للاختباء، وخطر ببالهما مخزن الحبوب القريب. وقد كان الثور يبدي بعض الإذعان في اقترابه ما دامتا تبقيان نظرهما عليه، غير أنهما ما كادتا تديران ظهريهما التماسًا للمخزن حتى ألقى برأسه وقرر إفزاعهما، وهو ما دفع بالفتاتين العاجزتين إلى الجري بجنون، وعندئذ تقدَّم الثور وهجم هجومًا مباغتًا متعمَّدًا.

كان المخزن يقف خلف مستنقع موحل أخضر، وكان مغلقًا باستثناء أحد البابيْن المعتاديْن المواجهيْن لهما الذي كان مفتوحًا ومسندًا بدعامة، فاتجهتا إليه. كان المخزن من الداخل قد أُخليَ مؤخرًا من الحنطة المدروسة إلَّا في إحدى زواياه حيث تكدَّست كومة من البرسيم الجاف. تنبَّهت إلِزابث جيْن للموقف وقالت: «يجب أن نصعد إلى هناك.»

---

98) غيرث هو راعي الخنازير في رواية السير والتر سكوت «آيفنهو»، الذي وُضِعت حول عنقه حلقة نحاسية منقوشًا عليها اسم مالكه لأنه كان عبدًا، ولا يمكن خلع الحلقة إلَّا بأداة حادَّة.

ولكنهما قبل أن تتمكَّنا من الاقتراب من الكومة سمعتا الثور وهو يعدو عبر المستنقع في الخارج، وفي ثانية اندفع إلى المخزن مُطيحًا بالدعامة في طريقه، فانصفق الباب الثقيل خلفه، واحتُجز الثلاثة جميعهم في المخزن. رآهما المخلوق الشارد فأخذ يطوف متجهًا صوب زاوية المخزن التي التجأتا إليها. تملَّصت الفتاتان بمهارة كبيرة حتى صدم مطاردُهما الحائط، في حين إنَّ الطريدتيْن كانتا قد بلغتا نصف الطريق إلى الزاوية الأخرى. وفي أثناء الوقت الذي أتاح له طوله الانعطافَ واللَّحاق بهما إلى هناك تمكَّنتا من العودة إلى الزاوية السابقة، وهكذا استمرت المطاردة، وكان الهواء الساخن الخارج من منخريه يلفحهما مثل ريح حارَّة، فما من لحظة أُتيحت لإلِزابث ولوسِتا لفتح الباب. ما كان بوسع أحد القول ما الذي سيحدث لو استمر وضعهما على هذا النحو، بيد أنه في لحظات معدودة سُمِعت خشخشة عند الباب شتَّتت انتباه خصمهما، وظهر رجل. وهُرِع نحو العصا المتدلية فأمسكها ولوى رأس الحيوان وكأنه سيقصمه. كانت حركة اللَّيِّ في الواقع عنيفة جدًّا حتى إنَّ الرقبة الغليظة بدت وكأنها قد فقدت صلابتها وأصبحت نصف مشلولة، في حين راح أنفه يقطر دمًا. لقد كان اختراع الإنسان المتعمَّد لحلْقة الأنف أكثر مكرًا من قوة البهيمة المندفعة، فجفل المخلوق.

كان الرجل الذي شوهد في العتمة الجزئية ضخم الجثة وغير هيَّاب. قاد الثور صوب الباب، فكشف الضوءُ هنْشَرْد. أطلق الثور في الخارج سريعًا وعاد لنجدة لوسِتا، ذلك أنه لم يلحظ إلِزابث التي صعدت إلى كومة البرسيم. كانت لوسِتا هَرِعة فأخذها هنْشَرْد بين ذراعيه وحملها إلى الباب.

«أهو أنت! لقد أنقذتني!» صاحت حالما تمكَّنت من الحديث.

«إنني أردُّ إليك جميلك،» أجاب برفق. «فقد أنقذتني ذات مرة.»

«كيف يحدث أن تكون أنت، أنت؟» سألت غير مكترثة بردِّه.

«أتيت إلى هنا بحثًا عنك. أردت أن أخبرك شيئًا في هذين اليومين

أو الثلاثة أيام الماضية، ولكنك كنت خارج البلدة فلم أستطع. لعلك لا تستطيعين التَّحدُّث الآن؟»

«أوه لا، أين إلِزابث؟»

«أنا هنا!» هتفت الفتاة المفقودة مبتهجةً، ومن دون أن تنتظر أن يأتوها بالسُّلَّم انزلقت من فوق كومة البرسيم إلى الأرض.

أسند هنْشَرْد لوسِتا من جانب وإلِزابث من الجانب الآخر وساروا ببطء على الطريق الصاعد. بلغوا أعلى الطريق ثم هبطوا مرة أخرى وإذ بلوسِتا تتذكَّر، وقد استعادت عافيتها كثيرًا، أنها أسقطت قفازها في المخزن.

«سأعود إلى المخزن،» قالت إلِزابث جيْن. «لن يزعجني ذلك لأنني لست تعبة مثلك.» عند ذلك هُرِعت مرة أخرى إلى المخزن، في حين واصل الآخران طريقهما.

سرعان ما وجدت إلِزابث القفاز الذي لم يكن بالشيء الهيِّن في ذلك الحين. ولمَّا خرجت توقفت لحظة تنظر إلى الثور وقد بدا مثيرًا للشفقة الآن بأنفه النازف، وفكَّرت في أنه ربَّما ما كان ينوي القتل، بل كان يمزح مزحة سمجة وحسب. وقد ربطه هنْشَرْد بأن غرز العصا في مفصل باب المخزن وثبَّتها بِوَتَد. وفي النهاية بعد تأمُّلها ذاك استدارت لتُعجِّل الذهابَ، وإذ بها ترى عربة ملونة بالأخضر والأسود تقترب من الجهة المعاكسة، وكان من يقود العربة فارْفري.

بدا أنَّ حضوره هنا يُفسِّر نزهة لوسِتا على ذلك الطريق. ورآها دونلد، واقترب فأطلعته سريعًا على ما حدث. وعندما ذكرت إلِزابث جيْن كيف تعرَّضت لوسِتا لخطر كبير أبدى قلقًا مختلفًا عن أي قلق آخر شهدته فيه من قبل. بدا مهمومًا جدًّا بسبب الحدث حتى إنه لم يعرف ما يفعل ولم يخطر بباله مساعدتها على الصعود إلى جواره.

«أقلتِ إنها ذهبت مع السيد هنْشَرْد؟» سأل أخيرًا.

«أجل. لقد أخذها إلى المنزل، ولعلَّهما هناك الآن.»

«هل أنت متيقِّنة أنها تستطيع الذهاب إلى المنزل؟»

كانت إلِزابث جيْن متيقِّنة تمامًا.

«زوج أمك هو من أنقذها؟»

«تمامًا.»

أبطأ فارْفري سرعة فرسه، وخمَّنت هي السبب. كان يفكِّر أنه من الأفضل ألَّا يتدخَّل بين ذينك الاثنين الآن، فقد أنقذ هنْشَرْد لوسِتا، ولن يكون من النُّبل والحكمة أن يثير حضوره لوسِتا، فربَّما أظهرت مشاعرها العميقة نحوه.

ولمَّا استُنفد موضوع حديثهما المباشر شعرت بحرج شديد وهي تجلس إلى جوار حبيبها السابق، ولكن سرعان ما ظهر الآخران للعيان عند مدخل البلدة. كانت المرأة تلتفت كثيرًا للخلف، ولكنَّ فارْفري لم يستحثَّ الفرس بالسياط، وعندما بلغا أسوار البلدة اختفى هنْشَرْد ورفيقته أسفل الطريق. أنزل فارْفري إلِزابث جيْن لمَّا أبدت رغبتها في النزول هناك، ومضى هو قائدًا عربته إلى الإسطبلات خلف مسكنه.

وهكذا دخل المسكن عبر حديقته، وعندما صعد إلى شقته وجدها في حالة شديدة من الاضطراب، فكانت صناديقه قد نُقِلت ووُضِعت عند السُّلَّم، وفُكِّكت خزانة كتبه إلى ثلاث قطع. ولكن هذه المظاهر لم تدهشه أدنى دهشة.

«متى سيُرسل كل شيء؟» قال لمدبِّرة المنزل التي كانت تشرف على الوضع.

«أخشى ألا يتم ذلك قبل الثامنة يا سيدي،» قالت. «وكما ترى فإننا لم نعرف أنك ستنتقل حتى هذا الصباح، وإلا لكنَّا أنجزنا الأمر في وقت أبكر.»

«حسنٌ، لا بأس، لا بأس!» قال فارْفري بمرح. «الثامنة وقت مناسب إن لم يكن بعد ذلك. والآن، لا تقفي هنا تتحدثين وإلا أخشى أنها ستصبح الثانية عشرة.» أنهى حديثه وخرج من الباب الأمامي وصعد الطريق.

في تلك الأثناء، خَبَرَ هنْشَرْد ولوسِتا تجارب من نوع مختلف، فبعد انصراف إلِزابث بحثًا عن القفاز، أخذ تاجر الحنطة يحدِّث لوسِتا مُفضيًا إليها بمكنونه وقد حوى يدها بذراعه، مع أنها كانت تودُّ لو بوسعها سحبها. قال: «عزيزتي لوسِتا، لقد كنت توَّاقًا، توَّاقًا جدًّا إلى رؤيتك في هذين اليومين أو الثلاثة أيام منذ رأيتك آخر مرة! لقد فكَّرت في الطريقة التي حصلت بها على وعدك لي تلك الليلة. قلتِ لي أنني إن كنت رجلًا حقًّا فلا ينبغي أن أصرَّ على ما أصررت، وقد أصابني ذلك في مقتل. شعرت أنَّ ثمة بعض الحقيقة في قولك. لا أودُّ أن أُسبِّب لك التَّعْس، ويبدو واضحًا جدًّا أنَّ زواجك بي الآن سيجلب لك تَعْسًا أكثر من أي شيء آخر. ولذلك أوافق على خطبة غير محدَّدة الزمن وعلى تأجيل فكرة الزواج برمَّتها عامًا أو اثنين.»

«ولكن، لكن، هل لي أن أقوم بشيء مختلف؟» قالت لوسِتا. «أنا شاكرة جدًّا لك، لقد أنقذت حياتي، واهتمامك بي يشعرني كم أنا مدينة لك! أنا امرأة ثريَّة الآن، ويمكنني حتمًا أن أفعل شيئًا ردًّا لجميلك، شيئًا عمليًّا؟»

بقي هنْشَرْد مستغرق الفكر، وبدا واضحًا جدًّا أنه لم يتوقَّع ذلك. «ثمَّة شيء واحد يمكنك فعله يا لوسِتا،» قال. «ولكنه ليس من ذلك النوع تمامًا.»

« من أي نوع هو إذن؟» سألت بارتياب مجدَّدًا.

«يجب أن أبوح لك بسرٍّ حتى أطلب ما أريد. لعلَّك سمعت عمَّا انتابني من سوء طالع هذا العام؟ لقد فعلت ما لم أفعله من قبل، وتهوَّرت في تخميني فخسرت. وقد وضعني هذا في ضائقة.»

«أترغب أن أتقدَّم إليك ببعض المال؟»

«كلَّا، كلَّا،» قال هنْشَرْد وقد كاد يستشيط غضبًا. «لست بالرجل الذي يعيش عالة على امرأة، حتى وإن كانت على وشك أن تصبح زوجتي. كلَّا يا لوسِتا، ما يمكنك فعله هو ما سأقوله لك وسينقذني. دائني الأكبر هو

غرُووَر، وسأعاني على يده الأمرَّين أكثر من أي شخص آخر، ولكنَّه إن أمهلني أسبوعين سيكون ذلك كافيًا لأجتاز محنتي، ولن أتمكن من تحقيق ذلك إلا بطريقة واحدة، وهي أن تخبريه بأنك، أعني بأننا سنتزوج سرًّا في الأسبوعين المقبلين. مهلًا، لم تسمعي الموضوع كله! أخبريه بهذه القصة، وطبعًا من دون أن يضرَّ هذا بحقيقة أنَّ خطبتنا الحقيقية ستمتد زمنًا طويلًا، ولن يعلم أيُّ أحد آخر. يمكنك الذهاب معي إلى السيد غرُووَر واتركي لي أمر التَّحدُّث إليك أمامه وكأنَّنا على اتفاقنا هذا. سنطلب منه أن يبقي الأمر سرًّا، وسينتظر حينها عن طيب خاطر. وبعد مرور أسبوعين سأكون قادرًا على مواجهته وسأقول له بهدوء أنَّ زواجنا أُجِّل عامًا أو اثنين. وما من كائن في البلدة سيعرف كيف ساعدتني. تلك هي الوسيلة إن ودَدتِ تقديم العون لي.»

ولَمَّا احمرَّت الشمس، كما اعتاد الناس أن يقولوا، أي قبل حلول الغسق بربع ساعة، لم يلحظ هنْشَرْد في البداية أثر كلماته فيها.

«لو كان أيُّ شيء آخر» قالت وقد تبدَّى جفاف شفتيها في صوتها.

«لكنه شيء صغير جدًّا!» قال بعتاب عميق. «أقل مما عرضته أنتِ، مجرَّد بداية لما وعدتني به منذ وقت قريب! يمكنني أن أقول له بنفسي ولكنه لن يصدِّقني.»

«ليس لأنني لن أفعل، ولكن لأنني لا أستطيع على الإطلاق.» قالت بأسى عميق.

«إنك تثيرين غيظي!» انفجر غاضبًا. «وهذا كافٍ ليجعلني أرغمك على فعل ما وعدتني به فورًا.»

«لا أستطيع!» أصرَّت بيأس.

«لماذا؟ وقد حرَّرتك منذ دقائق فقط من وعدك بالزواج مني رغمًا عنك.»

«لأنه.. لأنه كان شاهدًا!»

«شاهدًا؟ على ماذا؟»

«إن كان يجب عليَّ إخبارك، فلا، لا توبخني بقسوة!»

«حسنٌ! لنسمع ما تقصدين؟»

«كان السيد غرُووَر شاهدًا على زواجي!»

«زواجك؟»

«أجل. بالسيد فازفري. أوه يا مايكل! لقد أصبحت زوجته. تزوَّجنا هذا الأسبوع في «بورت بردِي». ثمة أسباب حالت دون زواجنا هنا. كان السيد غرُووَر شاهدًا لأنه صادف أن كان حاضرًا في «بورت بردِي» في ذلك الحين.»

وقف هنْشَرْد مثل أحمق. وقد أرعبها صمته كثيرًا حتى إنها تمتمت بضع كلمات عن إقراضه مالًا كافيًا يعينه على اجتياز الأسبوعين المحفوفين بالخطر.

«تزوجتِه؟» قال هنْشَرْد أخيرًا. «ياللهول! تزوجتِه وأنت ملزمة بالزواج بي؟»

«كان الأمر هكذا،» قالت ودموع في عينيها وتهدُّج في صوتها، «لا تكن، لا تكن قاسيًا! إنني أحبُّه حبًّا جمًّا، واعتقدت أنك ستخبره بالماضي، وذلك آلمني! ثم علمت، بعدما وعدتك، بالإشاعة التي تقول إنك بعت زوجتك الأولى في سوق مثلما تُباع فرس أو بقرة! فأنَّى لي أن أفيَ بوعدي بعد سماع هذا؟ لا يمكنني أن أجازف بنفسي وأتركها بين يديك، لسوف أُهين نفسي إن أنا اتخذت اسمك بعد هذه الفضيحة. لكنني أدركت أنني سأخسر دونلد إن لم أضمنه فورًا، لأنك ستنفذ تهديدك وتخبره بعلاقتنا السابقة، طالما كانت هناك فرصة لتحتفظ بي لنفسك بفعل ذلك. ولكنك لن تفعل هذا الآن، أليس كذلك يا مايكل؟ فقد فات أوان التفريق بيننا.»

وفي أثناء حديثها، بلغهما رنين أجراس كنيسة القديس بطرس وهي تدقُّ دقات مدوِّية، ثم سمعا أصوات قرع الطبول الأليف تأتي من فرقة البلدة

التي اشتهرت ببراعتها في استخدام مقرعة الطبول فراحت ترجُّ الطريق رجًّا.

«إذًا هذه الضجة التي يفتعلون هي بسبب ذلك أظن؟» قال.

«أجل. أعتقد أنه أخبرهم، أو لعلَّه السيد غرُووَر من أخبرهم... هلَّا أذنت لي بتركك الآن؟ لقد تأخَّر في «بورت بردِي» اليوم، وأرسلني قبل ساعات قليلة على مجيئه.»

«إذًا كانت حياة زوجته هي ما أنقذتُ هذا النهار.»

«أجل. وسيكون شاكرًا لك إلى الأبد.»

«إنني شاكر له... أيتها الخائنة!» انفجر هنْشَرْد قائلًا. «لقد وعدتِني!»

«أجل، أجل، لكن كان ذلك تحت الإكراه، ولم أكن أعرف ماضيك كلَّه.»

«والآن تحدثني نفسي بمعاقبتك كما تستحقين! كلمة واحدة مني لهذا الزوج الجديد عن تودُّدك لي وسعادتك الغالية ستذروها الرياح!»

«الرَّحمة يا مايكل، كن بي رؤوفًا!»

«إنك لا تستحقين الشفقة! كنت تستحقينها، ولكنك ما عدتِ تستحقينها الآن.»

«سأساعدك على سداد دينك.»

«لأكون متقاعدًا يعتاش على حساب زوجة فازفري، كلَّا لست أنا! لا تبقي أكثر، وإلا قلت كلامًا أسوأ. اذهبي إلى منزلك!»

اختفت لوسِتا تحت الأشجار في الممشى الجنوبي عندما أقبلت الفرقة إلى زاوية الطريق موقظةً أصداء كل شجر وحجر احتفالًا بسعادتها. لم تُعر الفرقةَ اهتمامًا، ولكنها هُرِعت صاعدة الطريق الخلفي وبلغت منزلها دون أن يراها أحد.

الفصل الثلاثون

كان حديث فازفري إلى مدبّرة منزله يشير إلى نقل صناديقه وأمتعته الأخرى من مسكنه الأخير إلى منزل لوسِتا. ولم يكن العمل ثقيلًا، ولكنَّه تعرقل كثيرًا بسبب التَّوقُّف المتكرّر الذي استلزمه صياح التَّعجُّب من هذا الحدث الذي أُخطِرت به المرأة الطيبة برسالة مقتضبة منذ سويعات.

في اللحظة الأخيرة عندما كان فازفري على وشك مغادرة «بورت بردي» أخَّره زبائن ذوو مكانة، كما حصل مع جون غِلبِن[99]، وما كان بالرجل الذي بوسعه أن يتجاهلهم حتى في هذا الظرف الاستثنائي. فضلًا عن ذلك، كان من الملائم أن تصل لوسِتا إلى منزلها قبله، فلم يكن ثمَّة من يعلم بعد عمَّا حدث وكان من الأفضل أن تعلن النبأ لسكان المنزل وتوجِّههم إلى تهيئة سكن زوجها. ولذلك أرسل عروسه التي لم يكد يمضي يومان على اقترانه بها في عربة اكتراها، أمَّا هو فقد مضى إلى القرية صوب أكداس من الحنطة تبعد بضعة أميال، وأخبرها بالساعة التي من المتوقَّع أن يصل فيها في المساء نفسه. وهذا يعلِّل سبب هرولتها للقائه بعد انفصالهما أربع ساعات.

بعد مغادرة هنْشَرْد راحت تُهدِّئ من روعها بمشقة بالغة استعدادًا لاستقبال دونلد في «المنزل العالي» عندما يأتي من مسكنه. وقد مكَّنها من ذلك حقيقة واحدة أهمُّ مما سواها، وهي أنها حصلت عليه وليحدث بعدها ما يحدث. بعد نصف ساعة من وصولها جاء هو واستقبلته بارتياح سارٍّ ما كان

99) بطل القصيدة الشعبية الهزلية «التاريخ المتحوّل لجون غِلبِن» التي كتبها ويليَم كوبر في عام 1782، وتحكي القصيدة قصة جون غِلبِن الذي تأخَّر عن اللَّحاق بزوجته وأبنائه في رحلتهم إلى إدمونتُن لأن ثُلَّة من الزبائن استوقفته لابتياع بضائع من متجره، فآثر أن يتخلَّف عن الرحلة على أن يخسر جني المال، وحينما امتطى فرسه أخيرًا لمتابعة الرحلة حاد به الفرس عن الطريق وانطلق يعدو به بعيدًا على مدى عشرة أميال لاقى في أثنائها ما لاقى من مغامرات ومواقف.

بوسعها أن تحسَّ به لو أنه غاب عنها شهرًا محفوفًا بالمخاطر.

«هناك شيء واحد لم أفعله ولكنَّه مهم.» قالت بجدٍّ عندما انتهت من حديثها عن مغامرتها مع الثور. «وهو أن أعلن نبأ زواجنا لعزيزتي إلِزابث جيْن.»

«آه، ألم تخبريها؟» قال مفكِّرًا. «لقد أقللتها من المخزن في طريق عودتي، ولكنني لم أخبرها أيضًا لأنني ظننت أنها قد سمعت النبأ في البلدة وامتنعت عن تهنئتي خجلًا وما إلى ذلك.»

«لا أظنها قد سمعت به. لكنني سأتفقَّد الأمر، وسأذهب إليها الآن. و، أيزعجك يا دونلد أن تواصل العيش معي كالسابق؟ إنها هادئة ومتواضعة جدًّا.»

«أوه كلَّا، ذلك لا يزعجني حقًّا،» أجاب فارْفري ببعض الحرج والتَّردُّد. «لكنني أتعجَّب إن كانت ترغب ذلك؟»

«أوه أجل!» قالت لوستا بحماسة. «أنا على ثقة بأنها ترغب في ذلك. كما إنَّ المسكينة لا مسكن آخر لها.»

نظر إليها فارْفري ورأى أنها لم ترتِّب في سرِّ صديقتها الكتوم، وأحبَّها أكثر لجهلها بالأمر. «اتفقي معها كما تشائين، حتمًا،» قال. «إنه أنا من أتى إلى منزلك ولست أنت من أتى إلى منزلي.»

«سأسرع وأتحدث إليها،» قالت لوسِتا.

وحين صعدت إلى حجرة إلِزابث جيْن كانت هذه قد بدَّلت ثيابها وانصرفت إلى قراءة كتاب. وفي لحظة تبيَّنت لوسِتا أنها لم تعرف الأنباء بعد.

«لم آتِ إليك يا آنسة تمبلمان،» قالت ببساطة. «كنت سأسألك إن كنت تعافيت مما أصابك من ذعر، ولكنني وجدت أنَّ زائرًا لديك. وإنني لأتعجَّب لِمَ تُقرع الأجراس؟ وهناك الفرقة تعزف أيضًا. لا بدَّ أنَّ شخصًا

ما تزوَّج، أو لعلَّهم يتدربون استعدادًا لعيد الميلاد.»

تفوَّهت لوسِتا بكلمة «نعم» على نحو مبهم، ولمَّا جلست إلى جانب المرأة الشابة الأخرى نظرت إليها متأمِّلة. قالت على الفور: «يالكِ من كائن وحيد! إنك لا تعلمين أبدًا بما يحدث، ولا عمَّا يتحدَّث الناس في كل مكان باهتمام وحماسة. ينبغي أن تخرجي وتخوضي في القيل والقال مثل النساء الأخريات وحينها لن تضطري إلى طرح سؤال من ذلك النوع. والآن، لديَّ شيء أودُّ أن أقوله لك.»

ردَّت إلِزابث جيْن بأنه يسرُّها سماعها، فأعارتها أذنًا صاغية.

«يجب أن أعود إلى الوراء كثيرًا،» قالت لوسِتا ومع كل عبارة تنطقها أخذت تتكشَّف لها أكثر فأكثر مشقَّةُ البوح بمكنونها على نحوٍ مقنع لهذه الفتاة المتأمِّلة القاعدة إلى جوارها. «أتذكرين قضية الضمير المرهقة التي أخبرتك بها منذ مدة، عن الحبيب الأول والحبيب الثاني؟» وأطلقت في عبارات متشنِّجة كلمة أو كلمتين أساسيتيْن من القصة التي سردتها.

«أوه أجل أتذكَّر حكاية صديقتك،» قالت إلِزابث بجفاف وهي تنظر حدقتي لوسِتا وكأنها ستقبض على لونهما الصحيح. «والحبيبيْن، القديم والجديد، وكيف أنها كانت ترغب في الزواج من الثاني ولكنَّها شعرت بأنه عليها أن تتزوج الأول، فضلَّت سواء السبيل واتَّخذت طريق الضلال، مثلما أشار الشاعر أوفيد الذي أقرأ كتابه: إنِّي لأراني عاجزةً ويتنازعني عقلي وعاطفتي، وأنا لِعاطفتي أميْل مع علمي بأنَّ الخير لي فيما يمليه عقلي.»(100)

«كلا، إنها لم تتَّخذ طريق الضلال تمامًا!» قالت لوسِتا على عجل.

«ولكن ألم تقولي أنها، أو دعيني أقول إنكِ،» أجابت إلزابث وقد أسقطت القناع. «ملزمة بدافع الشرف والضمير بالزواج بالأول؟»

علا الاحمرارُ وجهَ لوسِتا إذ كُشف أمرها، ثمَّ انحسر عنه قبل أن

---

100) مسخ الكائنات، أوفيد، ترجمة ثروت عكاشة، 1992.

تجيب بقلق: «إنَّك لن تبوحي بهذا الأمر مطلقًا، أليس كذلك يا إلِزابث جيْن؟»

«بلى، مؤكَّدٌ أنني لن أفعل إن كنت لا تودِّين ذلك.»

«إذن سأخبرك أنَّ الحالة أكثر تعقيدًا مما بدت عليه في قصتي، بل أسوأ في الواقع. لقد ألقت بيَ الأقدار أنا والرجل الأول في طريق غريب، وشعرنا بأنَّ علينا أن نتزوَّج لأن الناس كانوا يتحدثون عنَّا. كان أرملَ كما ظنَّ، وسنواتٍ طويلةً لم يسمع شيئًا عن زوجته الأولى، ولكنَّ الزوجة عادت، فافترقنا. ثم توفيت وعاد الزوج يخطب ودِّي مجدَّدًا قائلًا: والآن لنا أن نبلغ غايتنا. ولكن يا إلِزابث جيْن إنَّه قد أقدم على مغازلة جديدة وأنا كنت قد تحرَّرت من كل وعد له بعودة المرأة الأخرى.»

«ألم تجدِّدي وعدك مؤخرًا؟» قالت الصغرى وقد حدست بهدوء من يكون الرجل رقم واحد.

«لقد انتُزِع مني ذلك الوعد تحت التهديد.»

«أجل كان كذلك. لكنني أعتقد أنه عندما ترتبط امرأة برجل في الماضي بالطريقة المسفَّة لتي أتيتِ فيجدر بها أن تصبح زوجته إن استطاعت، حتى إن لم تكن الطرف المذنب.»

فقدت ملامح لوستا حيويتها. «وقد تبيَّن أنه رجل ينبغي أن أخشى الزواج به،» قالت محتجَّةً. «أنا أخشى ذلك حقًّا! ولم أعرف بهذا إلا بعد أن جدَّدت وعدي له.»

«إذن لم يبق سوى طريق واحد فقط يجعلك صادقة. يجب أن تظلي امرأة عزباء.»

«ولكن فكِّري مرة أخرى، فكِّري...»

«أنا متيقِّنة،» قاطعتها رفيقتها بصرامة. «لقد خامرني حدس قوي بمن يكون الرجل. إنَّه أبي، وأقول إنه هو المناسب لك أو لا أحد.»

كان أي شكٍّ يطال اللياقة في نظر إلِزابث جيْن أشبه بخرقة حمراء

أمام ثور. وكان توقها إلى تصحيح المسار يكاد يكون ضاريًا بحقٍّ، فنظرًا لما لاقته أمُّها من عناء فيما مضى، أصبح أيُّ سلوك يتَّخذ مظهرًا مخالفًا للقواعد يجلب لها الرُّعب، وهو أمر يجهله أولئك الذين يحيون في مأمن من أي شكوك تشوب سمعتهم. «يجب أن تتزوجي السيد هنْشَرْد أو لا أحد، لا رجلًا آخر حتمًا!» استطردت تقول وشفتها ترتعش وتتنازعها عاطفتان.

«لا أقبل بذلك!» قالت لوسِتا بانفعال.

«قبلتِ أم لم تقبلي، هذه الحقيقة!»

غطَّت لوسِتا عينيها بكفِّها اليمنى وكأنها لم تعد تستطيع الدفاع عن نفسها أكثر، ومدَّت يدها اليسرى نحو إلِزابث جيْن.

«لقد تزوجته!» هتفت الأخيرة وهي تقفز فرحًا بعد أن لمحت أصابع لوسِتا، «متى كان هذا؟ لِمَ لَمْ تخبريني بدلًا من إغاظتي هكذا؟ يا له من فعل جدير بالاحترام! لقد أساء معاملة أمّي مرةً في لحظة سُكْر، وصحيح أنَّه قاسٍ أحيانًا، ولكنني على ثقة بأنك ستتمكَّنين من السيطرة عليه تمامًا بجمالك وثرائك ومآثرك. أنت المرأة التي سيعبُد، وسنكون نحن الثلاثة سعداء معًا الآن!»

«أوَّاه يا عزيزتي إلِزابث جين!» صاحت لوسِتا بتوجُّع. «إنه رجل آخر من تزوجت! كنت يائسة جدًّا وخائفة جدًّا من أن أُكرَه على فعل شيء آخر، كنت خائفة جدًّا من أن يطفئ البوح حبَّه لي، فعزمت على فعل الأمر بارتجال، وشراء سعادة مؤقتة بأيِّ ثمن!»

«أتزوجتِ السيد فارْفري!» صاحت إلِزابث جيْن كما صاح ناثان[101].

أومأت لوستا وقد استعادت رشدها.

101) إشارة إلى خطيئة الملك داوُد مع زوجة قائد جيشه أورِيَّا الحِثيّ، وعندما حبلت المرأة دبَّر داوُد مكيدة لأورِيَّا ليُقتَل في الحرب فيتزوج هو المرأة وتلد له صبيًّا، ثم يغضب الرَّبُّ على فَعَلة داوُد ويرسل إليه النبي ناثان ويقول له أنَّ الصبي سيموت وهو ما يحدث. ["فقال ناثان لداوُد: أنت هو الرجل." سفر صموئيل الثاني 12:7. الكتاب المقدَّس، دار المشرق، بيروت، 2007.]

«الأجراس تُقرَع لهذا السبب،» قالت. «وزوجي في الطابق السفلي. سيعيش هنا إلى أن نجد منزلًا ملائمًا لنا، وأخبرته بأنني أريدك أن تبقي معي مثلما كان الحال.»

«دعيني أفكر في الأمر عندما أخلو إلى نفسي.» أجابت الفتاة سريعًا، وهي تكبح بمشقة بالغة جماح مشاعرها المضطربة.

«لكِ ذلك. وإنني لعلى ثقة بأننا سنكون سعداء معا.»

انصرفت لوسِتا لتلحق بدونلد في الأسفل، وغلّف سعادتها ضيق مبهم وهي تراه مرتاحًا منبسطًا في المنزل، ولم تشعر بذلك بسبب صديقتها إلِزابث، ذلك أنها لم يساورها أدنى شك في ما كانت تكنُّه إلِزابث جيْن من مشاعر، وإنَّما كان هنْشَرْد وحده سبب ذلك الشعور.

وقرَّ قرار ابنة سُوزَنْ هنْشَرْد فورًا على ألا تعيش في ذلك المنزل بعد. وبصرف النظر عن رأيها في مدى لياقة سلوك لوسِتا، فقد كان فارْفري يومًا ما على وشك أن يبوح لها بحبه ويصبح حبيبها، فشعرت بأنها لا تستطيع البقاء هناك.

كان الوقت ما زال باكرًا في المساء عندما لبست ثيابها على عجل وخرجت. ولأنها كانت تعرف المكان وجدت مسكنًا مناسبًا في غضون دقائق وأزمعت على دخوله في تلك الليلة. عادت ودخلت بهدوء، خلعت ثوبها الجميل ولبست آخر بسيطًا، ولفَّت الآخر لتحتفظ به كأفضل ما لديها، ذلك أنه سيكون عليها أن تكون أكثر تقشُّفًا الآن. كتبت ملحوظة تركتها للوسِتا التي أغلقت على نفسها الباب مع فارْفري في قاعة الاستقبال، ثم نادت إلِزابث جيْن رجلًا يقود عربة يدوية، ولما رأت صناديقها قد وضعت فيها أسرعت في الطريق إلى مسكنها. كان يقع في الشارع الذي يقطنه هنْشَرْد، ومقابل باب منزله تقريبًا.

هناك جلست وراحت تفكّر في وسائل مورد رزقها. كان المبلغ السنوي

الزهيد الذي تتلقَّاه من زوج أمِّها كافيًا لسدِّ رمقها. ولعلَّ مهارتها البارعة في الغَزْل بأنواعه، تلك التي اكتسبتها في طفولتها من عمل شباك الصيد في منزل نيوسن، ودراستها التي أكبَّت عليها دون كلل تعودان عليها بالنفع أكثر.

وفي هذه الأثناء ذاع نبأ الزواج في أرجاء كاستربرِدْج، فراح الناس يتداولونه بصخب على الأرصفة، وبتكتُّم في المتاجر، وبمرح في «البحَّارة الثلاثة». هل سيبيع فارفري تجارته وينصِّب نفسه سيِّدًا على مال زوجته؟ أم سيبدي استقلالًا كافيًا ليتمسَّك بتجارته بصرف النظر عن زواجه اللامع؟ تلك كانت القضية الكبرى مثار اهتمامهم.

الفصل الحادي والثلاثون

شاع نبأ ردِّ بائعة القمحيَّة المُفحِم أمام القضاة، وفي غضون أربع وعشرين ساعة لم يبق شخص في كاستربرِدْج إلَّا وعلم بقصة نزوة هنْشَرْد المجنونة في سوق ويدون برايرز منذ أعوام طويلة خلت. وكان كلُّ ما فعله في حياته فيما بعد تكفيرًا عن فعلته تلك قد عميت عنه الأبصار في وهج الإثم الأصلي. ولو كانت الواقعة قد عُرِفت منذ زمن بعيد ودومًا، فلربما خفَّت نظرة الناس إليها في هذا الوقت كما ينظرون إلى نبتة شوفان بريَّة طويلة بين نبتات أخرى، ولعدُّوها نزوة وحيدة أتاها رجل في ريعان الشباب ولا يكاد يمتُّ بصلة إلى رجل اليوم الحازم الناضج (وإن كان عنيدًا بعض الشيء). ولكنَّ الفعلة هجعت ميتةً ومدفونةً منذ ذلك الحين، ولم يكن الناس ليدركوا ما كرَّ من أعوام بين ذاك الزمن وبين هذا الزمن، فلبست تلك اللطخة السوداء في شبابه لبوس جريمة حديثة العهد.

كانت واقعة المحكمة على صغرها الحَدَّ أو الهاوية التي انحدر إليها حظ هنْشَرْد، ففي ذلك اليوم – وفي تلك اللحظة تقريبًا – عَبَر سفوح المجد والفَخَار وأخذ ينحدر سريعًا إلى الجانب الآخر. لقد كان أمرًا يدعو إلى العجب كيف انحطَّ قَدْرُهُ سريعًا، فعلى المستوى الاجتماعي تلقَّى فرقعةً [102] مروِّعة أطاحته إلى الدرك الأسفل، وبسبب صفقاته المتهوِّرة خسر نشاطه التجاري، فأخذت سرعة سقوطه كلَّ ساعةٍ تزيد في كلا الجانبين.

لقد أصبح الآن يُحدِّق إلى الأرصفة أكثر من وجوه المنازل عندما

---

(102) Fillip ضغط طرف إصبع من الأصابع على الإبهام ثم انزلاقه عنه فجأة. المورد الأكبر. اختار هاردي هذه الكلمة ليقول إنَّ هنشرد أبعِد كما تُبعَد حشرة بنقرة إصبع، وهنا بنقرة إصبع الرَّب.

يتجوَّل في الأنحاء، وينظر إلى أقدام الرجال وجراميقهم أكثر من النظر إلى أحداقهم بتلك النظرة المتقدة التي كانت تجعل عيونهم تطرف في السابق.

لقد تكالبت أحداث جديدة لتقضي عليه. كانت سنة سيئة لآخرين غيره، وجاءت الخسارة الفادحة التي مُني بها أحد مدينيه الذي أولاه ثقته بسخاء، لتكتمل إطاحة سمعته المترنِّحة. وفي غمرة يأسه فشل في الحفاظ على ذلك التطابق الصارم بين الشحنة وبين العيِّنة الذي كان يُعَدُّ جوهر تجارة الحبوب. ويقع أغلب اللوم في هذا على أحد رجاله، فقد تخيَّر ذاك المحترم بحماقة شديدة عيِّنة من حنطة من الدرجة الثانية بكميات هائلة من تلك التي يملكها هنْشَرْد، وأزال منها أعدادًا وفيرة من الحبوب الذابلة والتالفة والمسودَّة. ولو كان المحصول معروضًا بأمانة لما أثار فضيحة، غير أنَّ خطأ العرض الفاضح حصل هذه اللحظة، فأطاح اسمَ هنْشَرْد إلى الحضيض.

لقد كانت تفاصيل فشله ضربًا معتادًا. ذات يوم، كانت إلِزابث جيْن تعبر قريبًا من نُزُل «الأسلحة الملكية»، فرأت الناس يدخلون ويخرجون بصخب أكثر من المعتاد ولم يكن ذلك اليوم يوم سوق. أبلغها أحد المتفرجين مدهوشا بعض الشيء من جهلها بأنَّ ثمَّة اجتماعًا عقده المفوضون بشأن إفلاس هنْشَرْد. أحسَّت برغبة عارمة في البكاء، وعندما سمعت أنه كان في النُّزُل أرادت أن تدخل وتراه، ولكنها نُصحت بعدم التَّدخُّل ذلك اليوم.

كانت القاعة التي اجتمع فيها المدين ودائنوه في وجه النُّزُل، وعندما تطلع هنْشَرْد من النافذة لمح إلِزابث جيْن من خلال الستارة السلكية. انتهى الاستجواب وبدأ الدائنون يغادرون. جعله مرأى إلزابث يغرق في تأملاته إلى أن أدار وجهه عن النافذة وعلا صوته فوق الجميع، داعيًا إيَّاهم إلى الاستماع إليه لحظات أخرى. وتبدَّلت سِيماهُ بعض الشيء عمَّا كانت عليه من نضارة الازدهار، وقد ظلَّ شعره الأسود وسالفاه الأسودان على حالهما، بيْد أنَّ غشاوة رمادية غطَّت باقي ملامحه.

«أيُّها السادة،» قال. «إضافةً إلى الأصول التي كنَّا نتحدث عنها، والتي تظهر في بيان الموازنة بقيت هذه أيضًا، كلها تعود إليكم مثل كل شيء أملك، ولا أودُّ أن أمنعها عنكم، لست أنا من يفعل ذلك.» قال هذا وأخرج ساعته الذهبية من جيبه ووضعها على المنضدة، ثم أخرج حافظة نقوده، التي كانت كيسًا كَتَّانيًا أصفر، كالذي يحمله جميع المزارعين والتجار، ثم حلَّ وِثاقها وهزَّها لتسقط النقود على المنضدة إلى جوار الساعة التي سحبها سريعًا للحظة ليخرج منها الشعرة الحارسة التي أعطته إيَّاها لوسِتا. «هاكم، والآن لديكم كل ما أملك في هذا العالم،» قال. «وكنت أتمنى لو كان أكثر من أجلكم.»

نظر الدائنون والمزارعون إلى الساعة والنقود ثم إلى الشارع، وتحدَّث فارمر جيْمس إفردِين من إقليم وذَربري.

«لا، لا يا هنْشَرْد، لا نريد ذلك،» قال بحرارة. «إنه كرم منك، ولكن احتفظ بها. ما قولكم أيها الجيران، أتوافقون؟»

«قطعًا لا نريدها مطلقًا،» قال غرووَر، وكان دائنًا آخر.

«ليحتفظ بها بالطبع.» تمتم آخر كان في الخلف، وكان شابًّا صموتًا متحفِّظًا يُدعى بولدْوُود[103]، ووافق الباقون بالإجماع.

«حسنٌ» قال كبير المفوضين مخاطبًا هنْشَرْد. «مع أنَّ القضية ميؤوس منها، من واجبي أن أقرَّ بأنني لم أقابل قطُّ مدينًا يسلك مسلكًا منصفًا على هذا النحو. لقد أثبتُّ أنَّ بيان الموازنة قد أُعدَّ بصدق قدر الإمكان، فلم نصادف أيَّ عناء، ولم تكن هناك مراوغة ولا تمويه. إنَّ التهور في الصفقة الذي أفضى إلى هذا الوضع المحزن جليٌّ بما يكفي، ولكنَّ المدين حسبما أرى بذل قصارى جهده ليتجنَّب إلحاق الظلم بأي شخص.»

تأثَّر هنْشَرْد تأثُّرًا شديدًا أكثر مما أظهره لهم، والتفت جانبًا إلى

103) المزارع الثري ويليِم بولدوود، شخصية مهمة في رواية هاردي «بعيدًا عن الحشد المجنون» التي نُشرت في عام 1874 قبل «عمدة كاستربِرذج». (المترجمة)

النافذة مرة أخرى. أعقبت كلمات المفوض همهمة موافقة من الجميع، وفُضَّ الاجتماع. عندما غادروا تطلَّع هنْشَرْد إلى الساعة التي أعادوها إليه. «حقًّا، إنَّها ليست لي،» قال. «لِمَ لَمْ يأخذوها بحقِّ الشيطان؟ لا أريد شيئًا ليس لي!» ثم أخذ الساعة متأثِّرًا بذكرى عبرت مخيلته وذهب إلى متجر صانع ساعات في الجهة المقابلة، وباعها فورًا بالسعر الذي عرضه التاجر، ثم انصرف حاملًا النقود إلى أحد دائنيه الصغار، وكان فلاحًا من ساكني الأكواخ في ديرنوفر، وكان يعاني ظروفًا قاهرة، فسلَّم إليه المال.

وحين وُضِعت بطاقات الأسعار على كل شيء كان يملكه هنْشَرْد، وعُرضت في المزاد العلني كانت هناك ردود أفعال متعاطفة إلى حد كبير في البلدة بعد أن كانت فترةً طويلة لا تفعل شيئًا سوى إدانته. وإذ ذاك، رأى جيران هنْشَرْد مهنته كلَّها بوضوح الآن، وأصبح بمقدورهم أن يروا بإعجاب كيف استغلَّ موهبته الوحيدة بما يملكه من طاقة وخلق لنفسه مكانةً في الثراء من لا شيء مطلقًا، وكانت تلك الموهبة في الواقع هي كل ما أمكنه إبرازه عندما قدم إلى البلدة عاملًا أجيرًا في تجارة التبن يحمل مثقبه وسكينه في سلَّته، لمَّا رأوا ذلك تعجَّبوا وأسفوا على سقوطه.

بذلت إلِزابث ما في وسعها لمقابلته ولكنَّها لم تتمكَّن من ذلك. كانت لا تزال تثق به مع أنَّ الجميع لم يعودوا كذلك، وقد أرادت أن يُسمح لها بأن تغفر له قسوته عليها وأن تساعده في محنته.

كتبت إليه، ولم يردّ. ثم ذهبت إلى منزله، ذلك المنزل الكبير الذي عاشت فيه سعيدة جدًّا فترة من الزمن، المنزل ذي الوجه المبنيِّ من الطوب القاتم والمُزجَّج هنا وهناك، والنوافذ الثقيلة، ولكنَّ هنْشَرْد لم يعد يقطن هناك. لقد ترك العمدة السابق المنزل الذي شهد مجده ورحل للعيش في كوخ جوب قريبًا من طاحونة الدَّيْر، في الضاحية الحزينة التي هام فيها على وجهه ليلة اكتشافه أنَّ إلِزابث لم تكن ابنته. وإلى هناك اتجهت.

ورأت إلِزابث أنَّه لأمر غريب أن يتَّخذ من تلك البقعة ملجأ له، بيْد أنها افترضت أنه ما من خيار عند الضرورة. كانت الأشجار التي بلغت من العمر عِتيًّا منذ أن غرسها الرهبان لا تزال تقف صامدة حول تلك البقعة، ولا تزال الكُوَّة الخلفية للطاحونة الأصلية ينساب منها شلَّال يرسل هديره المرعب منذ قرون. كان الكوخ نفسه مبنيًّا من حجر قديم من حجارة الدَّيْر المفكَّكة منذ زمن بعيد، ومن بقايا الزخارف القُوطيَّة، وعضائد النوافذ التالفة، والأقواس، وقد امتزجت كلُّها بحجارة الجدران.

كان هنْشَرْد يشغل في هذا الكوخ عدة حجرات، وأمَّا جوب الذي وظَّفه هنْشَرْد، وأساء معاملته، وتملَّقه، وطرده، فقد كان هو صاحب الكوخ. ولكنها حتى هنا لم تجد زوج أمِّها.

«ألا تستطيع ابنته رؤيته؟» قالت إلِزابث متضرِّعة.

«ولا أي شخص آخر في الوقت الحاضر، وهذا ما أمر به،» هكذا أُعلِمت.

بعدئذ سارت بمحاذاة مخازن الحنطة والتبن التي كانت مقرَّ عمله. كانت تعرف أنه لم تعد له من هيمنة هناك، ولكنها نظرت بدهشة إلى البوابة المعتادة، فقد طُليت بلطخة من طلاء ثابت رصاصي اللون لطمس اسم هنْشَرْد، مع أنَّ حروفه كانت تظهر شاحبةً مثل سفن في الضباب. وفوق هذه الحروف كُتب اسم فارْفري بطلاء أبيض حديث.

كان أيبل وِتل يشقُّ طريقه مجانبةً عبر كُوَّة الباب، فقالت: «هل أصبح السيد فارْفري سيِّدًا هنا؟»

قال: «أجل يا آنسة هنشت[104]، ابتاع السيد فارْفري المكان ومعه كل العاملين فيه، وهذا أفضل لنا من السابق، مع أنه لا ينبغي لي أن أقول لك ذلك بصفتك ربيبته. إننا نعمل بجهد، ولكننا ما عدنا نخاف الآن. لقد

104) هكذا ينطق أيبل وتل اسم هنشرد. (المترجمة)

جعل الخوف شعر رأسي المسكين يتساقط! لم يعد هناك إساءة معاملة، ولا صفق أبواب، ولا تدخُّل في حياة المرء وما إلى ذلك، ومع أن أجري نقص شلنًا واحدًا في الأسبوع، لكنني أغنى من السابق، فما قيمة العالم إن لم يكن عقل المرء في راحة يا آنسة هنشت؟»

كان ما قاله صحيحًا في مجمله، ومخازن هنْشَرْد التي بقيت في وضع مشلول في أثناء تسوية شؤون إفلاسه، أصبحت تعجُّ بالنشاط مرة أخرى عندما ابتاعها المستأجر الجديد. ومنذ ذلك الحين راحت الأكياس الممتلئة المربوطة بسلاسل لامعة تصعد وتهبط تحت الرافدة، والسواعد الكثَّة الشعر تمتد من المداخل المختلفة، وكانت الحبوب تُنقل وحزم التبن تُطرح من جديد داخل المخازن وخارجها، وكانت المثاقب تَصِرُّ، في حين أخذت الموازين والمكاييل تعمل بنشاط بعد أن كان التخمين القاعدة المتبعة في العمل فيما مضى.

الفصل الثاني والثلاثون

قام جسران قريبًا من الجزء السفلي لبلدة كاستربِرِدْج. كان الأول المُشيَّد من طوب أبلاه الطقس يقع مباشرة عند طرف شارع «هاي»، حيث تشعَّب من هذا الشارع طريق فرعي امتدَّ حول أزقة ديرنوفر المنخفضة، بحيث شكَّلت حدود الجسر نقطة التقاء بين الفضيلة والفاقة. أما الجسر الثاني المبنيُّ من الحجارة، فكان يمتد بعيدًا على الطريق العام، وكان في الواقع يكاد يصل إلى المُروج، وإن كان ما زال ضمن حدود البلدة.

كان لهذين الجسرين ملامح مُعبِّرة، فكلٌّ نتوء فيهما بدا تالفًا كليلًا، بفعل الطقس حينًا وأحيانًا أكثر بسبب أجيال من المتسكعين الذين أحدث احتكاكُ أصابع أقدامهم وكعوبها من عام إلى آخر تغيُّراتٍ متواصلةً على حواجز هذين الجسرين وهم يقفون هناك مفكِّرين في أحوالهم. وفي حالة الطوب والحجارة الأكثر هشاشة فقد تلفت حتى سطوحها المستوية وبالطريقة المشوِّشة نفسها استحالت إلى تجاويف. وقد كان بناء سطح الجسرين مثبَّتًا في كل مِفصل بالحديد، لأنه لم يكن أمرًا نادرًا أن ينتزِ الرجال اليائسون حجر الإفريز ويلقونه في النهر في تحدٍّ مستهتر بالقضاة.

وكان هذان الجسران يجذبان إليهما كلَّ الفاشلين في البلدة، أولئك الفاشلين في العمل، وفي الحب، وفي الاعتدال في معاقرة الخمر، وفي الجريمة. أمَّا لماذا كان تَعِسو تلك الأنحاء يختارون هذين الجسرين ملاذًا لتأملاتهم ويفضلونهما على الحواجز أو البوابات أو السلالم، فذلك أمرٌ لم يكن جليًّا تمامًا.

كان ثمَّة فرق ملحوظ في المكانة بين الشخصيات التي كانت تتردَّد

على جسر الطوب القريب، والشخصيات التي كانت تتردَّد على جسر الحجارة البعيد. كان الوضيعون منهم يؤثرون الجسر الأول المحاذي للبلدة، ولم يكونوا ليأبهوا بعيون العامة المحدِّقة. لم يكونوا يتمتعون بأيَّة أهمية نسبيًّا في فترة نجاحهم، وهم على يأسهم لم يكن يتملَّكهم أيُّ إحساس خاص بالخزي من سقوطهم. وغالبًا ما كانوا يضعون أيديهم في جيوبهم، ويتمنطقون بأحزمة جلدية على خصورهم وركبهم، وينتعلون أحذية عالية الرقبة تتطلَّب ربط أربطة كثيرة بدا أنهم لم يجدوها قطُّ. وبدلًا من التَّحسُّر على مصائبهم كانوا يبصقون، وبدلًا من القول إنَّ الحديد اخترق نفوسهم[105] كانوا يقولون إنهم مُنِيوا بسوء الطالع. وكثيرًا ما وقف جوب هناك في غمرة بؤسه، وكذلك فعلت الأم كُكْسُم وكريستوفر كوني والمسكين أيبْل وِتِل.

أمَّا البُؤَّس[106] الذين كانوا يقفون على الجسر الأبعد فقد كانوا من طابع أكثر تهذيبًا. كان منهم المفلسون، والمُوَسْوِسون، والأشخاص الذين كان يوصفون بأنهم «في مأزق» لخطئهم أو لسوء طالعهم، وهم غير الأكفاء من الطبقة المهنية، وجميع هؤلاء كانوا رجالًا يتسمون بالدماثة ورثاثة الملبس ممن لم يعرفوا كيف يتخلصون من الوقت المضجر بين الإفطار والغداء، بل حتى الوقت الأكثر ضجرًا بين الغداء وحلول الظلام. كانت عيون هذا الصنف تشخص غالبًا من فوق حاجز الجسر إلى المياه الجارية في الأسفل. وأيُّ رجل كان يُرى محملِقًا إلى النهر على هذا النحو فهو لا محالة أحد أولئك الذين لم يكن العالم، لسبب أو لآخر، رحيمًا بهم. وفي حين إنَّ الرجل البائس الواقف على الجسر القائم في جهة البلدة لم يكن لِيأبه بمن يراه على حاله ذاك فيستند بظهره إلى حاجز الجسر متفقِّدًا المارَّة، لم يكن البائس على هذا الجسر يواجه الطريق قطُّ، ولم يكن يدير رأسه لدى سماعه وقْع أقدام

105) سفر المزامير 18 :105 : «آذَوْا بِالْقَيْدِ رِجْلَيْهِ. فِي الْحَدِيدِ دَخَلَتْ نَفْسُهُ،".

106) في الأصل بالفرنسية: misérables ، (المترجمة)

تقترب، وإنَّما، إحساسًا بوضعه ذاك، كان يراقب التَّيَّار كلَّما اقترب غريب، وكأنَّ سمكة غريبة استرعت اهتمامه، مع أنَّ كل كائن مُزعنَف اصْطِيد من النهر منذ سنين خلت.

وهكذا كانوا يستغرقون في التفكير، فمن كانت علَّة حزنهم ظلمًا تمنَّوا لو كانوا ملوكًا، ومن كانت علَّة حزنهم فقرًا تمنَّوا لو كانوا أصحاب ملايين، وإن كانت العلَّة خطيئة تمنَّوا لو كانوا قديسين أو ملائكة، وإن كانت حبًّا قاسى الهجر تمنَّوا لو كانوا أدونيس[107] المعشوق لتُطْبِق شهرتهُم في العشق آفاقَ الإقليم. وقد عُرِف عن بعضهم أنهم وقفوا هناك مفكِّرين طويلًا وعيونهم تنظر محملقة إلى الأسفل إلى أن تركوا أجسادهم في نهاية المطاف تتبع تلك النظرة ليُعثَر عليهم في صباح اليوم التالي وقد أصبحوا في منأى عن مصائبهم، إمَّا هنا وإمَّا في البركة العميقة التي عُرفت بـ «المياه السوداء» وتبعد قليلًا صعودًا عند النهر.

إلى هذا الجسر جاء هنْشَرْد كما جاء منكودون آخرون قبله، وكان طريقه إلى هنا بمحاذاة ضفة النهر في الطرف البارد من البلدة. هنا كان يقف ذات أصيل يوم عاصف حين دقَّت ساعة كنيسة ديرنوفر معلنةً الخامسة، وإذ ذَّاك حملت الريح رنين الدَّقات إلى أذنيه عبر السهل المعترض الرطب، فمرَّ رجل خلفه وحيَّاه باسمه. التفت هنْشَرْد قليلًا فرأى أنَّ القادم كان جوب، مساعده القديم الذي أصبح يعمل في مكان آخر، وإليه التجأ بحثًا عن مأوى على كرهه إياه، لأنَّ جوب كان الرجل الوحيد في كاستربرِدْج الذي ازدرى تاجرُ الحنطة التَّعِس ملاحظاتِه ورأيَه إلى درجة اللامبالاة.

ردَّ عليه هنْشَرْد بإيماءة لم تكد تبين، وتوقَّف جوب.

«لقد ذهب هو وهي إلى منزلهما الجديد اليوم،» قال جوب.

«أوه،» قال هنْشَرْد بشرود. «أيُّ منزل ذاك؟»

107) معشوق الإلهة أفروديت في الأسطورة اليونانية وكان شابًا فائق الجمال.

«منزلك القديم.»

«أذَهبا إلى منزلي؟» جفل هنْشَرْد وأضاف: «منزلي دون منازل البلدة كلِّها!»

«حسنٌ، لأنَّه لا بدَّ أن يقيم أحدٌ ما هناك، وأنت لم تستطع ذلك، فلن يضيرك شيئًا أن يكون هو الرجل.»

وكان هذا صحيحًا تمامًا، وشعر بأنَّ ذلك لا يضيره شيئًا. لقد استحوذ فارْفري على الأفنية والمخازن، وها هو يتملَّك المنزل لما في قربه منها من راحة واضحة. ومع ذلك، فقد سخط هنْشَرْد سخطًا شديدًا لأنَّ فارْفري اتَّخذ مقامه في حجرات المنزل الفسيحة، في حين إنه هو، صاحبها السابق، يعيش في كوخ.

أردف جوب قائلًا: «وهل سمعت عن ذلك الشخص الذي ابتاع أفضل ما كان لديك من أثاث في المزاد؟ ولم يكن يُزايد في الثمن إلا فارْفري طوال المزاد! ولذا لم يُنقل الأثاث من المنزل قطُّ لأنه حصل على عقد الإيجار.»

«وأثاثي أيضًا! الحقَّ أنَّه سيبتاع جسدي وروحي كذلك!»

«ليس ذلك ببعيد إن كنت ترغب في البيع.»

وبعد أن أوغر صدرَ من كان سيِّده المستبدَّ يومًا ما، انصرف جوب لحال سبيله، وبقي هنْشَرْد يحدِّق ويحدِّق إلى النهر المتدفق حتى بدا وكأنَّ الجسر يتحرَّك معه للخلف.

بدت الأرض المنخفضة أشدَّ سوادًا وغدت السماء رماديَّة حالكة. ولمَّا بدا المشهد مثل صورة ملطَّخة بالحبر، اقترب مسافر آخر من جسر الحجارة الكبير. كان يقود عربة خفيفة، وكان يتجه صوب البلدة أيضًا. وأوقف العربة عندما بلغ منتصف الجسر. «سيد هنْشَرْد؟» خرج صوت من العربة يشبه صوت فارْفري. أدار هنْشَرْد وجهه.

وجد أنَّ حدسه كان صحيحًا، وأخبر فارْفري الرجل الذي كان برفقته

أن يقود العربة عائدًا إلى المنزل، في حين ترجَّل هو واتَّجه إلى صديقه السابق.

«لقد سمعت بأنك تفكِّر بالرحيل يا سيد هنْشَرْد،» قال. «أصحيح ذلك؟ لدي سبب حقيقي يدعوني إلى السؤال.»

أمسك هنْشَرْد عن الإجابة هنيهة ثم قال: «بلى، إنَّه صحيح. إنني ذاهب إلى حيث كنت ستذهب منذ بضع سنوات عندما منعتك وأقنعتك بالبقاء هنا. إنها دائرة تدور، أليس كذلك! أتذكُر حينما وقفنا في ممشى «تشوك» مثلما نقف الآن وأقنعتك بالبقاء؟ وقفتَ حينها مُعْدِمًا لا تملك ما يحمل اسمك، وكنتُ أنا سيِّد ذلك المنزل في شارع «كورن». ولكن هأنذا الآن أقف لا ألوي على شيء، وأصبح سيِّد ذلك المنزل أنت.»

«بلى، بلى، هو كذلك! إنه حال الدُّنيا،» قال فارْفري.

«ها، ها، صحيح!» هتف هنْشَرْد وقد تلبَّسته حالة من المزاح. «حالها بين إقبال وإدبار! لقد اعتدت ذلك. لا فرق على أيِّ حال!»

«أصْغِ إليَّ، إن لم تكن على عجلة من أمرك،» قال فارْفري. «تمامًا كما أصغيتُ إليك من قبل. لا ترحل، ابق في البلدة.»

«ولكنني لا أملك فعل شيء آخر يا رجل!» قال هنْشَرْد هازئًا. «فما لديَّ من مال زهيد لن يسدَّ رمقي إلا أسابيع قليلة لا أكثر. ولا أشعر بميل إلى العودة إلى العمل أجيرًا بعد، ولكن لا يمكنني البقاء دون عمل شيء، وأفضل فرصة لي هي في مكان آخر.»

«كلَّا، لكنَّ ما أقترحه هو هذا، إن كنت ستصغي إليَّ. تعال وعش في منزلك القديم. يمكننا الاستغناء عن بعض الحجرات، وإنني على يقين بأنَّ زوجتي لن تمانع بتاتًا، حتى تجد لك مخرجًا.»

جفل هنْشَرْد. لعلَّ الصورة التي رسمها له فارْفري الواهم عن سكناه تحت السقف نفسه مع لوسِتا كانت شديدة الغرابة حتى إنه لم يكن بوسعه تقبُّلها بتماسُك. «لا، لا» قال بصوت أجشَّ، «سنتشاجر.»

«سيكون لك مكانك الخاص،» قال فازفري. «ولن يتدخَّل أحد في شؤونك. سيكون ذلك أمرًا صحِّيًا لك أكثر من البقاء هناك عند النهر حيث تقيم الآن.»

أصرَّ هنْشَرْد على رفضه. «إنك لا تدرك ما تطلب،» قال. «ومع ذلك فلا يسعني إلا أن أشكرك.»

سارا صوب البلدة جنبًا إلى جنب، كما فعلا عندما أقنع هنْشَرْد الاسكتلندي الشاب بالبقاء. «هلَّا دخلت وتناولت بعض العشاء؟» قال فازفري عندما بلغا وسط البلدة حيث تشعَّب طريقاهما يمنةً ويسرةً.

«لا، لا.»

«بهذا الشأن، كدتُّ أنسى. لقد ابتعت جزءًا كبيرًا من أثاثك.»

«هذا ما سمعت.»

«حسنٌ، لم يكن السبب أنني أردته لنفسي بشدَّة، ولكنني تمنَّيت لو اخترتَ كلَّ ما يهمُّك منه، أي تلك الأشياء التي قد تكون عزيزة عليك ومرتبطًا بها، أو قد تكون ذات فائدة لك على الأخص. خذها إلى منزلك، إنني لن أخسر شيئًا، فبوسعنا الاكتفاء بالقليل، وستُتاح أمامي فرص كافية للحصول على المزيد.»

«ماذا! أتعطيني إياها دون مقابل؟ قال هنْشَرْد. « لكنَّك دفعت للدائنين ثمنها!»

«آه بلى، ولكنَّ قيمتها لك قد تساوي أكثر مما تساويه لي.»

تأثَّر هنْشَرْد قليلًا. «أفكِّر أحيانًا أنني ظلمتك!» قال بنبرة قلق أخفاها ظلام الليل عن وجهه. هزَّ يدَ فازفري فجأة وأسرع مبتعدًا وكأنه غير راغب في أن تخونه نفسه أكثر. رآه فازفري ينعطف عبر الطريق العام إلى «بُل ستيْك» ويختفي في اتجاه طاحونة الدَّيْر.

أمَّا إلِزابث جيْن التي شغلت حجرة علويَّة ليست بأكبر من حجرة رجل

الله[108]، وطوت في صندوقٍ ثوبَها الحريري الذي شهد عهدها المتَرف، فقد كانت في هذه الأثناء تعكف بجِدٍّ ومثابرة على الحياكة بين الساعات التي خصَّصتها لدراسة الكتب التي استطاعت الحصول عليها.

ولمَّا كان مسكنها يكاد يقابل منزل والدها السابق الذي أصبح منزل فارْفري، فقد كان بمقدورها أن ترى فارْفري ولوسِتا وهما يسرعان بالدخول والخروج من باب منزلهما بكل ما أتاحه لهما وضعهما من حماسة. كانت تتجنَّب النظر إلى ذلك الاتجاه قدر المستطاع، بيْد أنَّه كان من الصعب على طبيعتها البشرية أن تحوِّل ناظريها كلَّما صفق الباب.

بينما كانت تعيش بهدوءٍ على هذا النحو تناهت إليها أنباء عن أنَّ هنْشَرْد أُصيب بنوبة برد ولزم حجرته، ربَّما بسبب وقوفه في الطقس الرطب. ذهبت إلى منزله فورًا، وقد عزمت هذه المرة على ألا تُمنَع الدخول، وشقَّت طريقها إلى الطابق العلوي. كان يجلس على السرير ويلفُّه معطف كبير، وقد كره تطفُّلها في أوَّل الأمر. «انصرفي، انصرفي،» قال. «لا أودُّ رؤيتك.»

«ولكن يا أبي..»

«لا أودُّ رؤيتك.» قال مكرِّرًا.

بيْد أنَّ حاجز النفور بينهما انكسر فبقيت. جعلت الحجرة أكثر راحة، وألقت الأوامر إلى الناس في الطابق السفلي، وعندما همَّت بالذهاب حملت زوج أمِّها على قبول زيارتها إيَّاه.

وكانت النتيجة أن مُنِي بشفاء عاجل، إمَّا لقيامها برعايته وإمَّا لمجرَّد وجودها. ثمَّ سرعان ما أصبح قادرًا على الخروج وقد اكتست الأشياء الآن لونًا جديدًا في عينيه، ولم يعد يفكِّر في الهجرة، وإنَّما أصبح يفكِّر كثيرًا

108) سفر الملوك الثاني 10 :4: «فقالت لزوجها: «قد علمتُ أنَّ هذا الذي يمرُّ بنا هو رجل الله وقدِّيس. فلنَبنِ له عِلِّيَّة صغيرة ونجعل له فيها سريرًا ومائدةً وكرسيًّا ومنارة حتى إذا جاءنا يأوي إلى هناك.» الكتاب المقدَّس. دار المشرق، بيروت، 2007.

بالزبائن. وقد جعله عطوله عن العمل حزينًا أكثر من أيِّ شيء آخر. وذات يوم، أحسن الظنَّ بفازفري على نحوٍ لم يفعله منذ بعض الوقت، وأحسَّ بأنَّ العمل الشريف ليس شيئًا يُخجل منه، فذهب إلى فناء فازفري وطلب برزانة أن يوظَّف تبَّانًا أجيرًا، وكان أن وُظِّف فورًا. جرى تشغيل هنْشَرْد عبر رئيس العمَّال، لأنَّ فازفري رأى أنه لن يكون أمرًا مُستحبًّا أن يكون على اتصال شخصي أكثر من اللازم بتاجر الحنطة السابق. ولمَّا كان توَّاقًا إلى مساعدته أصبح عند هذا الحدِّ يدرك طبعه المتقلِّب إدراكًا جيِّدًا، فارتأى أنه من الأجدر إبقاء العلاقة متحفظة. وللسبب نفسه كان دائمًا ما يوجِّه أوامره لهنْشَرْد عبر شخص ثالث بأن يتابع أعمال التبانة في هذه القرية أو تلك بالطريقة المعتادة.

نجحت هذه التَّسوية بعض الوقت، حيث جرت العادة أن يُشترى التِّبن من المزارع المختلفة في الجوار وتُحزَم أكداسه في الأفنية الخاصة به قبل جلبه، وبذلك كثيرًا ما كان هنْشَرْد حاضرًا في هذه الأماكن أسبوعًا كاملًا. وعندما ينتهي ذلك كلُّه، ويحسُّ هنْشَرْد بالتعب بعض الشيء يعود إلى العمل يوميًّا في المبنى الرئيس كالبقية. وهكذا أصبح الرجل الذي كان يومًا تاجرًا وعمدة ناجحًا وغير ذلك يعمل أجيرًا في المخازن والصوامع التي امتلكها ذات يوم.

«لقد عملت أجيرًا من قبل، أوَلم أفعل؟» كان يقول بتحدٍّ بطريقته المعهودة. «ولِمَ لا أقوم بذلك مرة أخرى؟» ولكنَّه بدا أجيرًا مختلفًا تمامًا عن الأجير الذي كانه في أيامه الخوالي. في تلك الأيام كان يرتدي ملابس نظيفة ولائقة، خفيفة اللون بهيجة، وجراميق صفراء كالزهرة المخملية، وسروالًا نظيفًا جدًّا كأنَّه كتان جديد، وربطة عنق كزهرة الحديقة. وأمَّا الآن فصار يرتدي بذلة زرقاء عتيقة من بقايا أيامه عندما كان سيِّدًا نبيلًا، وقبعة حريرية عتيقة الطراز، ولِفاعًا كان يومًا حريريًّا وأسود وأصبح اليوم ملطَّخًا ورثًّا. بلباسه هذا كان يمضي جيئة وذهابًا، وكان ما زال رجلًا نشيطًا نسبيًّا، ذلك أنه لم يتخطَّ الأربعين بكثير، ومع العمال الآخرين في الفناء كان يرى دونلد

فازفري داخلًا وخارجًا من الباب الأخضر المفضي إلى الحديقة، والمنزل الكبير، ويرى لوسِتا.

في مطلع الشتاء أُشيع في أنحاء كاستربرِدْج أنَّ السيد فازفري الذي أصبح عضوًا في المجلس البلدي قد رُشِّح ليكون عمدة في غضون عام أو عامين.

«بلى، لقد كانت حكيمة، حكيمة زمانها!»[109] قال هنْشَرَد لنفسه لَمَّا سمع الخبر ذات يوم وهو في طريقه إلى مخزن فازفري. وراح ينعم التفكير في الأمر عندما كان يربط حُزم التبن، فأحيا ذلك النبأ نظرته القديمة تجاه دونلد فازفري بصفته منافسه المنتصر الذي استخفَّ به.

«رجلٌ في عمره يصبح عمدةً، عجبًا!» تمتم وقد لاحت ابتسامة في زاوية فمه. «ولكنَّ ما بحوزتها من مال هو ما جعله يطفو عاليًا. ها، ها، يا لغرابة الأقدار! ها أنذا، سيده السابق، أعمل أجيرًا لديه، في حين يغدو هو سيِّدًا ويملك منزلي وأثاثي ومن يمكنكم أن تطلقوا عليها زوجتي، كلُّ هذا ملك له.»

راح يكرِّر هذه الكلمات مئات المرَّات في اليوم. وطوال المدة التي عرف فيها لوسِتا لم يتمنَّها له قطُّ بتحرُّق شديد كما تأسَّف الآن على ضياعها. لم يكن الطمع في ثروتها ما دفعه إلى ذلك، مع أنَّ تلك الثروة كانت الوسيلة التي جعلت رغبته فيها تزيد لأنها أكسبتها مسحة من الاستقلال والأناقة التي تجذب الرجال من نوعه. تلك الثروة منحتها الخدم والمنزل والثوب الفاخر، وكستها حُلَّةً جديدة مذهلة في عينيه هو الذي عرفها في أيام بؤسها.

وعلى إثر ذلك سقط في الكآبة، وعاوده كرهه السابق للاسكتلندي عند كلِّ إيماءٍ إلى إمكانية انتخابه ليحتلَّ كرسي البلدية. وفي هذه الأثناء خبِر هنْشَرْد تحوُّلًا نفسيًّا، وانتهى به الأمر إلى أن يردِّد بين الحين والآخر قولًا ذا مغزى وبنبرات من الطيش: «أربعة عشر يومًا وحسب!» «اثنا عشر يوما وحسب!» وهكذا راح ينقص العدد يومًا بعد يوم.

---

109) يقصد هنشرد بذلك لوسَتا التي امتلكت قدرًا كبيرًا من الحنكة عندما تزوَّجت فارفري. (المترجمة)

«لِمَ تقول اثنا عشر يومًا وحسب؟» سأل سولومُن لونغويْز وهو يعمل إلى جانب هنْشَرْد في وزن الشعير في المخزن.

«لأنني بعد اثني عشر يومًا سأتحلَّل من قسمي.»

«أيُّ قسم؟»

«قسمي بألَّا أتناول الأشربة الروحية. وبعد اثني عشر يومًا ستكون قد مضت إحدى وعشرون سنةً مُذ أقسمت على ذلك، وحينها أنوي إمتاع نفسي، عونك يا ربّ!»

ذات يوم أحد جلست إلِزابث جيْن إلى نافذتها، وتناهى إلى سمعها من الشارع في الأسفل حديثٌ ذُكر فيه اسم هنْشَرْد. وكانت تسأل في نفسها عمَّا يجري عندما عبر شخص ثالث هناك وسأل السؤال الذي كان يدور في ذهنها.

«اندفع مايكل هنْشَرْد يعاقر الخمر بعد إقلاعه عنه إحدى وعشرين سنةً!»

قفزت إلِزابث جيْن، ارتدت ملابسها وخرجت.

الفصل الثالث والثلاثون

سادت في ذلك الحين عادة بهيجة في كاستربرِدْج، ومع أنها كانت عادة راسخة إلا أنَّ الناس نادرًا ما كانوا يدركون بهجتها، إذ يحدث في أصيل كل يوم أحد أن يحضر القُدَّاس جمع غفير من عمَّال كاستربردج، أولئك المواظبون على التَّردُّد على الكنيسة وذوو الشخصيات الرزينة، ثم يخرجون أرتالًا من أبواب الكنيسة متجهين إلى نُزُل «البحَّارة الثلاثة». كانت مؤخرة الموكب عادة تحتلها جوقة من العازفين الحاملين آلات الكمان والمزامير تحت أذرعهم.

كانت الفكرة العظيمة لهذه المناسبات المقدَّسة، الفكرة الباعثة على الفخار، هي أن يُلزِم كل رجل نفسه بتناول قدح واحد من الخمر لا غير. وقد كان صاحب النُّزُل يفهم هذا التَّورُّع فهمًا جيِّدًا، فيقدِّم للجميع أقداحًا تحوي ذلك القدْر من الشراب. وكانت الأقداح جميعها متشابهة، مستقيمة الجوانب، وقد رُسِمت عليها شجرتا ليمون بلا أوراق تشبهان ثعبان البحر البُنِّيَّ وهما تمتدان على جانبي القدح، حيث تتجه إحداهما نحو شفتي الشارب والأخرى تواجه رفيقه. وقد كان تمرينًا مفضَّلًا عند الأطفال أن يتساءلوا عن عدد الأقداح التي يملكها صاحب النُّزُل. كان يمكن رؤية أربعين قدحًا على الأقل في هذه المناسبة في القاعة الكبيرة، مشكِّلةً حلقة حول حافَّة المائدة الضخمة المصنوعة من البلُّوط ذات القوائم الست عشرة، مثل الأثر الحجري الضخم في ستونهنج[110] في العصور القديمة. وتشكَّلت حول الأربعين قدحًا حلقةٌ من أربعين نفثة دخان كانت تنبعث من أربعينَ غليونًا من الصَّلصال، وبرزت خلف

110) (Stonehenge) أثر حجريٌّ يعود إلى عصر ما قبل التاريخ، ويقع في جنوب غرب إنكلترا، ويتكوَّن من مجموعة دائرية من أحجار كبيرة قائمة محاطة بتل ترابي دائري.

الغلايين سحناء أربعين شخصًا من مرتادي الكنيسة وقد أسندت ظهورَهم حلقةٌ من أربعين مقعدًا.

لم يكن الحديث الدائر هو نفسه ما يدور في أيام الأسبوع، وإنَّما كان حديثًا أكثر دقَّة في موضوعه وعالي النبرة. كانوا يناقشون الموعظة التي استمعوا إليها في الكنيسة، يُحلِّلونها، ويُقيِّمونها إن كانت فوق المستوى المتوسط أو تحته، وكان الاتجاه العام للحاضرين يميل إلى عدِّها مثل عمل أو أداء علمي فذٍّ لا يمتُّ لحياتهم بِصلة، إلا تلك الصلة بين النُّقَّاد وما ينتقدونه. وعادةً ما كان عازف الكمان والكاتب يتحدَّثان بنبرة تتسم بالثقة أكثر مما يفعل البقية، وذلك بسبب علاقتهما الرسمية بالقسّ.

كان «البحَّارة الثلاثة» النُّزُلَ الذي اختاره هنشَرْد مكانًا لإنهاء أعوامه الطويلة الخالية من الشراب. لقد وقَّت دخوله ليستقر في القاعة الكبيرة مع دخول مرتادي الكنيسة الأربعين للجلوس إلى الشُّرب من أقداحهم المعتادة. وقد أعلن تورُّدُ وجهه على الفور أنَّ سنوات قسمه الإحدى والعشرين قد انقضت، وأنَّ عهد الطيش قد بدأ من جديد. جلس إلى مائدة صغيرة وُضِعت بجوار مائدة البلوط المحجوزة لمرتادي الكنيسة الذين أومأ بعضهم له محيِّيًا وهم يتخذون أماكنهم وقالوا: «أهذا أنت يا سيِّد هنشَرْد؟ إنّك غريب تمامًا في هذا المكان.»

لحظاتٍ معدودةً لم يكلِّف هنشَرْد نفسه عناء الرَّدِّ، واستقرَّت نظراته على قدميه الممدودتين وحذائه. «أجل»، قال أخيرًا، «ذلك صحيح. لقد كانت نفسي متكدِّرة أسابيع، وبعضكم يعرف السبب. وأنا أحسن حالًا الآن، ولكنني لست في صفاء تام. أريدكم يا معشر الجوقة أن تعزفوا لحنًا، وأرجو أن يخرجني عزفكم وجِعة ستانِدج المعتَّقة مما أنا فيه من غمّ.»

«بكلِّ سرور» قال العازف الأول. «صحيحٌ أننا أرخينا أوتار آلاتنا، ولكنَّنا سنشدُّها ثانيةً حالًا. هيَّا يا رفاق فلننشد مقطعًا للرجل.»

«لا تعنيني الكلمات بتاتًا،» قال هنْشَرْد. «سيَّان عندي إن كانت تراتيل أو رقصة باليه أو أيَّ هراء صاخب أو لحنًا عسكريًّا أو شدوًا ملائكيًّا، فكلُّها تتشابه عندي ما دام إيقاعها جيِّدًا ومتقنًا.»

«حسنٌ، هه، هه، لعله يمكننا ذلك، فليس بيننا رجل جلس على منصة العزف أقلَّ من عشرين عامًا.» قال قائد الفرقة. «إنه الأحد أيُّها الرِّفاق، فهلَّا أنشدنا المزمور الرابع من لحن صمويل ويكلي بما أجريتُ عليه من تعديل؟»

«من يبالي بلحن صمويل ويكلي بما أجريتَ عليه من تعديل!» قال هنْشَرْد. «إلينا بأحد مزاميرك من لحن وِلتْشر القديم، فهو اللحن الوحيد الجدير بالغناء والمزمور الذي جعل دمي يهيج مدًّا وجزرًا كأنَّه البحر عندما كنت فتى. سأجد الكلمات التي تلائم اللحن.» وأخذ كتابًا من سِفر المزامير وراح يُقلِّب صفحاته.

شاءت المصادفة في تلك اللحظة أن ينظر خارج النافذة فرأى رهْطًا من الناس يعبرون، وعرف أنهم جماعة المصلِّين في الكنيسة العليا وقد خرجوا لتوِّهم، وكانت الموعظة التي أصغوا إليها أطول من تلك التي أُلقِيتْ في الكنيسة السفلى. وكان يسير بين بقية المقيمين الوجهاء عضو المجلس البلدي السيد فارْفري ولوسِتا تتأبَّط ذراعه، وقد أضحت محطَّ أنظار زوجات صغار التُّجَّار والنموذج الذي يسعيْن إلى تقليده. تغيَّر تعبير فم هنْشَرْد قليلًا، واستمرَّ في تقليب الصفحات.

«والآن،» قال، «المزمور التاسع بعد المائة، من لحن وِلتْشر: الآيات من عشرة إلى خمسة عشر. سأتلو عليكم الكلمات:

«ليكن بنوه يتامى، وامرأته أرملة
وليتشرَّد بنوه ويستعطوا
ومن أخربتهم فليُطرَدوا

ليَستولِ المُقرض على كلّ ما حوله
وليَسلب الغرباء ثمر تعبه
لا يكُن من يبقي له الرَّحمة
ولا من يتحنَّن على أيتامه
ليُستَأصل نسلُه، وليُمحَ
في الجيل الآتي اسمُه[111].»

«أعرف هذا المزمور، أعرف هذا المزمور!» قال قائد الفرقة على عجل. «ولكنني لن أغنّيه عن طيب خاطر، فهو لم يُوضع للغناء. اخترناه مرَّة عندما سرق الغجر فرس الكاهن معتقدين أنه سيُسرُّ، ولكنَّه غضب غضبًا شديدًا. لا أستطيع تخيُّل ما كان ما يفكِّر فيه خادم الرَّبِّ، داوود، حينما ألَّف مزمورًا لا يمكن أن يغنيه أحد دون أن يجلب لنفسه الخزي! والآن، لننشد المزمور الرابع من لحن صمويل ويكلي بما أجريتُ عليه من تعديل.»

«لا تكن وقحًا! قلت لك أن تغني المزمور التاسع بعد المائة من لحن ولْتشر ويجب أن تغنيه!» استشاط هنْشَرْد غضبًا. «لن يخرج رجل واحد من هذه الجوقة المُملَّة من هذه القاعة حتى يغني هذا المزمور!» انسلَّ من المائدة، وأمسك قضيب تحريك النار، واتجه إلى الباب واتكأ بظهره عليه. «والآن، هيَّا، وإلَّا كسرت رؤوسكم!»

«لا، لا يأخذنَّك الغضب هكذا! إنه يوم عبادة، وهذه كلمات خادم الرَّبِّ داوود وليست كلماتنا، ولعلَّه لن يضيرنا شيئًا أن ننشدها مرة واحدة، أليس كذلك؟» قال أحد أفراد الجوقة المذعورين وهو ينقِّل ناظريه بين البقية. وهكذا ضبطت الفرقة الآلات وراحت تنشد آيات الوعيد.

«شكرًا لكم، شكرًا لكم،» قال هنْشَرْد بصوت هادئ، وعيناه مسدلتان، وتصرَّف مثل رجل أثَّر فيه اللَّحن. «لا تلوموا داوود،» أردف قائلًا

111) المزمور الـ109 من سِفر المزامير. الكتاب المقدَّس، دار المشرق، بيروت، 2007.

بصوت خفيض وهو يهزُّ رأسه دون أن يرفع عينيه. «كان يعلم لِمَ كتب ذلك!... ولو أنَّ الأمر بيدي ما همَّني أن آتيَ بجوقة كنسيَّة على نفقتي الخاصة تعزف وتغني لي في هذه الأيام المنحطَّة السوداء من حياتي. بيد أنَّ ما يحزُّ في نفسي هو أنني عندما كنت ثَريًّا لم أكن بحاجة إلى ما كان يمكنني الحصول عليه، والآن وأنا فقير، لا أستطيع الحصول على ما أنا بحاجة إليه!»

وفي أثناء ذلك، عبرت لوسِتا وفارفري مرة أخرى، باتجاه المنزل هذه المرة، لمَّا كان ديدنهما، كالآخرين، أن يقوما بنزهة قصيرة على الطريق العام بين وقت الكنيسة ووقت الشاي، ثم العودة. «ها هو الرجل الذي كنَّا نغنِّي له.» قال هنْشَرْد.

أدار العازفون والمغنُّون رؤوسهم وفهموا مغزى ما يرمي إليه. «معاذ الإله!» قال عازف الكمان.

«إنه هو،» كرَّر هنْشَرْد قوله بإصرار.

«لو كنت أعلم،» قال عازف المزمار بوقار، «أنَّ ذلك مقصود به رجل حيٌّ، ما من شيء كان بمقدوره أن يجعل حنجرتي تتفوَّه بكلمة واحدة من ذلك المزمور، ساعدني يا ربّ!»

«ولا أنا،» قال المغنِّي الأول. «ولكنني فكَّرت أنه كُتِب منذ زمن بعيدٍ جدًّا ولعلَّه لا يعني الكثير، فلِمَ لا أُسدي لجاري جميلًا وليس هناك من شيء يُقال ضد اللحن!»

«آه، يا أبنائي، لقد غنيتموه وكفى،» هتف هنْشَرْد منتصرًا، «أمَّا هو، فبأغانيه أيضًا تفوَّق عليَّ وهزمني... وإنِّي لأستطيع أن أهزمه أضعافًا على هذا النحو، ومع ذلك لا أفعل.» وضع القضيب على ركبته، ولواه كأنما يلوي غصين شجرة، وطرحه على الأرض، ثم مضى مبتعدًا عن الباب.

في تلك الأثناء عندما عرفت إلِزابث جيْن مكان زوج أمِّها دخلت القاعة وقد علا وجهها الشحوب والألم. خرجت الجوقة وبقية الرفقة التزامًا بنظام

القدح الواحد. وتقدَّمت إلِزابث جيْن إلى هنْشَرْد وتوسَّلت إليه أن يرافقها إلى المنزل.

عند تلك الساعة كانت نيران غضبه قد خمدت، ولمَّا لم يكن قد أفرط في الشراب بعد فقد مال إلى الإذعان لها، فتأبَّطت ذراعه وخرجا. مشى هنْشَرْد شاردًا مثل رجل أعمى، وكان يكرِّر لنفسه كلمات المُغنِّين الأخيرة: ليُستَأصل نسلُه، وليُمحَ

في الجيل الآتي اسمُه

وأخيرًا قال لها: «أنا رجل يفي بوعده. لقد التزمت بقسمي واحدًا وعشرين عامًا، وأستطيع الآن أن أشرب مرتاح الضمير... عليَّ أن أضع حدًّا لهذا الرجل، حسنٌ، أنا امرؤ مزَّاح سمج مخيف عندما أريد! لقد أخذ مني كلَّ شيء، وبحقِّ السماء، إن صادفته فلن أكون مسؤولًا عن أفعالي!»

أخافت هذه الكلمات نصف الملفوظة إلزابث، بل وزاد فزعَها ما بدا من إصرار شديد على سيماء هنْشَرْد.

«ما الذي ستفعله؟» سألت هنْشَرْد بحذر وهي ترتعد قلقًا وقد حدست ما يومئ إليه.

لم يجب هنْشَرْد، وسارا حتى بلغا كوخه. «أيمكنني الدخول؟» قالت.

«لا، لا، ليس اليوم،» قال هنْشَرْد، فانصرفت وهي تشعر أنَّ من واجبها أن تحذِّر فارْفري وكانت هذه رغبتها القوية حتمًا.

وكما هو الحال في أيام الأحد، هو كذلك في أيام الأسبوع، فقد كان بوسع المرء أن يرى فارْفري ولوسِتا وهما يخطران في أنحاء البلدة كزوج فَراش، أو بالأحرى كنحلة وفراشة متحدتيْن مدى الحياة. بدت لا تجد متعة في الذهاب إلى أي مكان إلا برفقة زوجها، ولذا، عندما لا يتيح له العمل قضاء الأصيل معها، كانت تبقى في المنزل وترقب انقضاء الوقت ريثما يعود. وكان وجهها مرئيًّا لإلِزابث جيْن من نافذتها في الأعلى. بيْد أنَّ إلِزابث لم تقل لنفسها

أنَّ على فارْفري أن يكون شاكرًا لإخلاص كهذا، بل ممتلئةٌ بما تقرأ اقتبست قول روزالِند: «سيِّدتي، اعرفي نفسك، واركعي على ركبتيك واشكري الرَّبَّ على أن رزقك حبَّ رجل شريف.»[112]

حرصت أيضًا على أن ترقب هنْشَرْد. وذات يوم أجاب عن سؤالها عن صحته بقوله إنه لا يحتمل نظرات أيْبل وِتل المشفقة حينما يعملان معًا في الفناء. «إنه أحمق» قال هنْشَرْد، «لا يستطيع أن ينسى الزمن الذي كنت فيه سيِّدًا هناك.»

«سآتي وأربط عنك الحُزَم بدلًا منه إن سمحت لي،» قالت. كان دافعها للذهاب إلى الفناء أن تغتنم فرصةً وتراقب الوضع العام في مقرِّ فارْفري بعد أن أصبح زوج أمِّها عاملًا هناك. لقد أخافتها تهديدات هنْشَرْد كثيرًا، فأرادت أن ترى سلوكه عندما يتقابل الاثنان وجهًا لوجه.

لم يظهر فارْفري في أثناء حضورها منذ يومين أو ثلاثة. ثم فُتِح الباب الأخضر ذات ظهيرة، وخرج منه فارْفري أوَّلًا وتبعته لوسِتا. قدَّم دونلد زوجته بلا تردُّد، إذ كان جليًّا أنه لم يكن يشكُّ في أيِّ ماض مشترك بينها وبين التَّبَّان الأجير.

لم ينظر هنْشَرْد إلى أيٍّ من الزوجين، وأبقى نظراته مثبَّتة على الحبل الذي كان يفتله، وكأنَّه غارق في ذلك العمل وحده. كان فارْفري كيِّسًا مُراعيًا، إذ حرص دائمًا على تجنُّب أيِّ شيء من شأنه أن يبدو انتصارًا على غريم صريع، فابتعد عن مخزن التِّبن حيث كان هنْشَرْد وابنته يعملان، وذهب إلى مخزن الحنطة. وفي الوقت ذاته، لم تكن لوسِتا على علم قطُّ بأنَّ هنْشَرْد يعمل تحت إمرة زوجها، فاتجهت مباشرةً إلى المخزن وإذ بها تصادف هنْشَرْد بغتةً فأطلقت تنهيدة قصيرة كان دونلد السعيد والمشغول أبعد من أن يسمعها. مُذلًّا مُهانًا لمس هنْشَرْد قبعته محيِّيًا كما فعل وِتل والبقية، وردَّت

112) بطلة مسرحية شكسبير «كما تشاء".

هي بفتور: «عمت مساءً.»

«أستميحك عذرًا يا سيدتي؟» قال هنْشَرْد وكأنه لم يسمع.

«قلتُ عمت مساءً،» قالت بتلعثم.

«آه، أجل، عمتِ مساءً يا سيدتي،» أجاب وهو يلمس قبعته مجدَّدًا. «أنا سعيد برؤيتك يا سيدتي.» بدت لوسِتا محرجة، وأردف هنْشَرْد: «نشعر نحن العمَّال البسطاء بشرف كبير أن تأتي سيدة وتبدي اهتمامًا بنا.»

رمقته بتوسُّل، فقد كان تهكُّمه مريرًا جدًّا ولا يُطاق.

«هلَّا أخبرتني كم الساعة يا سيدتي؟» سأل.

«أجل،» قالت على عجل، «الرابعة والنصف.»

«شكرًا لك. بقيت ساعة ونصف ساعة قبل أن ننجز العمل. آه، يا سيدتي، نحن أصحاب الطبقة الدنيا لا نعرف شيئًا عن وقت الفراغ المرح الذي يتمتع به أمثالكم!»

تركته لوسِتا حالما تمكَّنت من ذلك، وأومأت لإلِزابث جيْن وابتسمت لها، ثمَّ انضمت إلى زوجها في الطرف الآخر من الفناء حيث كان يمكن رؤيتها وهي تقوده بعيدًا إلى البوابة الخارجية حتى تتفادى المرور بهنْشَرْد مرة أخرى. بدا واضحًا أنها أُخِذت على حين غرَّة. وكانت نتيجة هذه المصادفة العرضية أن وضع ساعي البريد في صباح اليوم التالي رسالة في يد هنْشَرْد.

«هلَّا،» قالت لوسِتا بكل ما بوسعها أن تضع من مرارة في رسالة قصيرة، «هلَّا تلطَّفت بعدم التَّحدُّث إليَّ بتلك النبرة اللاذعة التي استخدمتها اليوم، إذا ما عبرتُ الفناء في أيِّ وقت؟ إنني لا أحمل لك أي ضغينة، وأنا مسرورة جدًّا أنك تعمل لدى زوجي العزيز، ولكن أنصِفني وعاملني بوصفي زوجته ولا تحاول أن تجعلني تعسة بكلامك المبطَّن بالسخرية. لم أقترف جرمًا ولم أسبِّب لك أذى.»

«يا للحمقاء المسكينة!» قال هنْشَرْد بحُمْقِ شخص مُغرم وهو يبسط

الورقة. «إنَّها لا تدرك أنَّها تُورِّط نفسها بكتابة شي كهذا! ماذا لو أريتُه زوجَها العزيز، أفّ!»، وألقى الرسالة في النار.

وقد حرصت لوسِتا على عدم المجيء مرة أخرى إلى فناء التبن والحنطة. كانت تؤثر الموت على المجازفة ومصادفة هنْشَرْد في مكان قريب كهذا مرة ثانية. وكانت الفجوة بينهما تكبر كلَّ يوم. وقد كان فارْفري يراعي دومًا رفيقه الصريع، ولكن كان من المُحال ألَّا يبدأ تدريجًا بالنظر إلى تاجر الحنطة السابق أنه ليس أكثر من كونه أحد عمَّاله. لاحظ هنْشَرْد ذلك وأخفى مشاعره تحت غطاء من بلادة الحس محصِّنًا قلبه بمعاقرة الشراب بحريَّة أكبر في «البحَّارة الثلاثة» كلَّ مساء.

في محاولات إلِزابث جيْن لردعه عن معاقرة المزيد من الخمر غالبًا ما كانت تحمل إليه الشاي في سلتها الصغيرة في الخامسة فجرًا. وفي أحد الأيام عندما وصلت لأجل هذا الغرض وجدت زوج أمِّها يزن بذور البرسيم واللِّفت في مخازن الحنطة في الطابق العلوي، فصعدت إليه. وكان لكل طابق باب يُفتح على الخارج تحت رافدة خشبية كانت تترجَّح منها سلسلة تُستخدم لرفع الأكياس.

وعندما برز رأس إلِزابث من كُوَّة الباب أدركت أنَّ الباب العلوي كان مفتوحًا، وكان زوج أمِّها وفارْفري يقفان في الداخل يتحدثان، وكان فارْفري يقف قريبًا من حافة تصيب الناظر من فوقها بالدُّوار، وأمَّا هنْشَرْد فكان يقف أبعد قليلًا. ولكي لا تقاطعهما بقيت في مكانها على الدَّرَج دون أن ترفع رأسها أكثر. وبينما كانت تنتظر رأت – أو خُيِّل إليها أنها رأت، وقد استولى عليها شعور مرعب أكيد – زوج أمِّها وهو يرفع يده ببطء إلى مستوى معين خلف كتفي فارْفري، وقد ساد وجهه تعبير غريب. لم يدرك الشاب مطلقًا ذلك الفعل الذي كان غير مباشر حتى إنَّه لو لحظه لعدَّه هو أيضًا مجرَّد مطٍّ كسول للذراع. بيْد أنه كان من الممكن، بلمسة خفيفة نسبيًّا، دفع فارْفري ليفقد

اتزانه وينقلب رأسًا على عقب في الهواء.

حزَّ الأسى في نفس إلِزابث عندما فكَّرت فيما يمكن أن يعنيه ذلك. وحالما استدارا حملت الشاي تلقائيًّا إلى هنْشَرْد، ووضعته وخرجت. وإذ هي تمعن التفكير في الأمر، حاولت أن تؤكِّد لنفسها أنَّ الحركة إنَّما كانت مجرَّد تصرُّف غريب الأطوار لا أكثر. ومع ذلك، ومن ناحية أخرى، فإنَّ وضعه كمرؤوس في مؤسسة كان سيِّدها ذات يوم قد يفعل فعله كما يفعل سُمٌّ قاتل، فعقدت العزم أخيرًا على أن تحذِّر دونلد.

الفصل الرابع والثلاثون

وهكذا، استيقظت في صباح اليوم التالي في الخامسة وخرجت إلى الشارع. لم يكن الضوء قد بزغ، وقد ساد المكان ضباب كثيف، وأطبق الصمت على البلدة وكان الوقت ما زال ليلًا، إلا في الجوادِّ الممتدة التي تشكّلت في البلدة، إذ أتت منها خفقات صغيرة سبَّبها تساقط قطرات الماء المتكثِّفة على الأغصان، وكانت الخفقات تنبعث من الممشى الغربي تارة ومن الممشى الجنوبي تارة أخرى، ثمَّ من كلا المكانين في الوقت ذاته. تقدَّمت إلى أسفل شارع كورن، ولأنها كانت تعرف موعد خروجه معرفة جيدة، لم تلبث أن انتظرت سوى دقائق معدودة قبل أن تسمع الصفق المعتاد لبابه، ثم سيره السريع نحوها. قابلته عند البقعة التي تحفُّ فيها آخر شجرة في الجادَّة بآخر منزل في الشارع.

لم يكد يُميِّزها إلى أن ألقى نظرة خاطفة مستفسرًا وقال: «ماذا؟ الآنسة هنْشَرْد، أتخرجين باكرًا هكذا؟»

سألته أن يستميحها عذرًا على قطع طريقه في وقت غير ملائم كهذا الوقت. «ولكنني قلقة البال وأودُّ أن أذكر لك شيئًا،» قالت. «ولا أرغب أن أخيف السيدة فارْفري بزيارة إلى المنزل.»

«أجل؟» قال ببهجة شخص في منزلة أعلى. «وما عساه يكون؟ إنه حتمًا لطف منك.»

وشعرت بصعوبة في أن تقنعه بالهواجس نفسها التي تحتدم في فكرها، ولكنَّها بدأت على أيِّ حال وقدَّمت اسم هنْشَرْد. «إنني أخشى أحيانًا،» قالت ببعض الجهد، «أن تخونه نفسه ويحاول إهانتك يا سيدي.»

«ولكن ألسنا أفضل صديقين؟»

«أو أن يمازحك ممازحةً سمجة يا سيدي. لا تنسَ أنه عومل بقسوة.»

«ولكن ألسنا صديقين ودودين؟»

«أو أن يفعل شيئًا يؤذيك، أو يضرُّك، أو يجرحك.» لقد كلَّفتها كل كلمة ضعف طولها ألمًا، وأدركت أنَّ فارْفري كان ما زال شاكًّا في الأمر. هنْشَرْد، الرجل الفقير الذي يعمل تحت إمرته، لم يكن في نظره هنْشَرْد الذي كان رئيسه.

ولكنَّه لم يكن الرجل نفسه وحسب، بل هو أيضًا ذاك الرجل ذو الصفات الشريرة التي كانت كامنةً ثم سرعان ما بُثَّت فيها الحياة بسبب ما لقي من صدمات.

وأصرَّ فارْفري على التخفيف من مخاوفها، فقد كان سعيدًا ولا يظن بوجود أي سوء. وهكذا افترقا، فاتَّجهت إلى مسكنها، وقد بدأ العمَّال يخرجون إلى الطريق، والحوذيون يذهبون إلى صانعي السُّروج ليجلبوا الأدوات التي أخذوها للإصلاح، وخيول المزارع تؤخذ إلى الحدادين لصنع نعال لها، وكان أبناء العمل عمومًا يبدؤون يومهم بنشاط. دخلت إلزابث مسكنها حزينة وهي تفكِّر بأنها لم تحسن صنيعًا، وأنها جعلت نفسها تبدو حمقاء وحسب بتحذيرها الضعيف.

غير أنَّ دونلد فارْفري كان أحد أولئك الرجال الذين لا يغيب عن أذهانهم حادث ما مطلقًا، فقد راجع التَّصوُّرات من وجهة نظر أخرى، ولم يكن حكمه المندفع الذي يتَّخذه في لحظة ما هو حكمه الدائم. كانت صورة وجه إلِزابث الجادِّ في الفجر المُضبَّب تعاوده مرات في اليوم. ولمَّا كان يعرف ثبات شخصيتها، لم يَعُدَّ إيماءاتها بلا جدوى.

ولكنَّه لم يكفَّ عن وضع خطة كريمة تخصُّ هنْشَرْد أخذت تشغله حينها، ولاحقًا في ذلك اليوم عندما قابل كاتب البلدة المحامي جويس، حدَّثه

بالأمر وكأنَّما لم يحدث شيء يثنيه عن عزمه.

«بشأن متجر بائع البذور الصغير ذاك،» قال. «المتجر المطلّ على فناء الكنيسة والمعروض للاكتراء. لا أبتغيه لنفسي وإنما لرفيقنا وابن بلدتنا سيئ الحظ هنْشَرْد. سيكون المتجر بداية جديدة له وإن كان صغيرًا، وقد أخبرت أعضاء المجلس أن يكون بيننا اكتتاب خاص لجعله يستقر هناك، وأنني سأساهم بخمسين جنيهًا إن وافقوا بالمساهمة بالخمسين الأخرى.»

«بلى، بلى. هذا ما سمعت، ولا ضير في ذلك.» أجاب كاتب البلدة بطريقته الواضحة الصريحة. «ولكن يا فارْفري، إنَّ الآخرين يرون ما لا تراه. هنْشَرْد يكرهك، إنَّه يكرهك، ويجدر بك أن تدرك ذلك. لقد كان على حدٍّ علمي في «البحَّارة الثلاثة» الليلة الماضية وقال عنك أمام العامة ما لا ينبغي أن يقوله إنسان عن إنسان آخر.»

«أصحيح ذلك؟ أصحيح ذلك؟» قال فارْفري مطرقًا. «لِمَ يفعل ذلك؟» أضاف الشاب بمرارة. «أي أذًى سبَّبته له حتى يسيء إليَّ على هذا النحو؟»

«الرَّبُّ وحده يعلم،» قال جويس رافعًا حاجبيه. «ستكون معاناة طويلة أن تحتمله وتبقيه في خدمتك.»

«ولكنني لا أستطيع طرد رجل كان يومًا ما صديقًا طيِّبًا لي؟ أنَّى لي أن أنسى أنَّه هو من ساعدني على إيجاد موطئ قدم لي عندما أتيت إلى هنا؟ كلَّا، كلَّا. ما دام لديَّ عمل أعرضه عليه فسيقوم به إن شاء. لست أنا من يُنكر عليه شيئًا بسيطًا كهذا. إلَّا أنني سأتخلَّى عن فكرة تشغيله في متجر حتى أمعن التفكير في الأمر.»

لقد آلم فارْفري ألمًا شديدًا أن يتخلَّى عن الخطة، غير أنَّ الكدر ألقى بظلاله على هذه الخطة بسبب هذا الصوت وأصوات أخرى كانت تتناهى إليه، فراح وألغى ما أمر به. وكان صاحب المتجر هناك في المتجر عندما تحدَّث إليه فارْفري، وقد شعر دونلد بضرورة تقديم تفسير لانسحابه من التفاوض،

فذكر اسم هنْشَرْد وقال أنَّ نيَّات المجلس قد تغيَّرت.

أُصيب صاحب المتجر بخيبة أمل كبيرة، وسرعان ما أخبر هنْشَرْد مباشرة حالما رآه بأنَّ خطة المجلس المتعلقة بتخصيص متجر له قد أحبطها فازفري. وهكذا اشتدَّت العداوة من مجرَّد خطأ.

عندما ذهب فازفري إلى المنزل في ذلك المساء كان قِدرُ الشاي يئِزُّ على الموقد ذي الشكل شبه البَيْضيّ. وجرت لوسِتا إليه بخفة فتاة هيفاء وأمسكت بيديه فقبَّلها قبلة آليَّة.

«أوه!» هتفت بمرح مستديرة إلى النافذة. «انظر، الستائر غير مُسدلة، وقد يرانا الناس، يا للعيب!»

ولمَّا أُضيئت الشموع وأُسدلت الستائر وجلس الزوجان إلى مائدة الشاي لاحظت أنَّه بدا جادًّا. ولم تسأله مباشرة عن السبب، بل راحت تطالع وجهه بجزع.

«هل جاء أحد للزيارة؟» سأل بشرود. «هل سأل أحد عنِّي؟»

«كلَّا،» قالت لوسِتا. «ما الخطب يا دونلد؟»

«لا شيء يستحق الذكر،» أجاب بحزن.

«إذن لا تبتئس، وسوف تتخطَّاه، فأنتم الاسكتلنديون محظوظون دومًا.»

«لا، ليس دومًا!» قال وهو يهزُّ رأسه بكآبة مُنعمًا النظر في كسرة خبز على المائدة. «أعرف كثيرين ليسوا كذلك! فقد كان هناك ساندي ماكفارليْن الذي سافر إلى أمريكا ليجرِّب حظه ولكنَّه غرق، وأركيبالد لِيث الذي قُتِل! وويلي دنبلِيز المسكين وميْتلند ماكفرِيز، اللذان حادت بهما السُّبُل وانتهيا إلى ما انتهى إليه أمثالهما!»

«حسبك أيُّها الساذج العجوز! كنت فقط أتحدَّث بصورة عامة بطبيعة الحال! وأنت دائمًا ما تأخذ كلامي مأخذًا حرفيًّا. والآن حين نفرغ من

الشاي ستُغنّي لي تلك الأغنية المسلّية عن الجميلة ذات الكعب العالي وعشّاقها الواحد والأربعين.»

«لا. لا. لا أستطيع الغناء الليلة! إنَّ الأمر يتعلّق بهنْشَرْد، إنَّه يكرهني، ولا يمكنني أن أكون له صديقًا إن أردت. أستطيع أن أفهم لِمَ قد يكون هناك بعض الحقد، ولكنَّني لا أفهم سبب حدَّة مشاعره ضدي. أتفهمين سبب ذلك يا لوسِتا؟ إنَّ الأمر أشبه بمنافسة في الحبِّ عتيقة الطراز وليس مجرَّد منافسة في التجارة.»

بدا شيء من الشحوب على وجه لوسِتا. «كلّا،» أجابت.

«لقد منحته عملًا، ولا يمكنني رفضه. ولكنني لا أستطيع أيضًا التغاضي عن حقيقة أنَّ رجلا متقلّب الطباع مثله لا يؤتمن جانبه!»

«ما الذي سمعته، يا دونلد يا حبيبي؟ قالت لوسِتا خائفة. كانت هذه الكلمات على طرف لسانها، «أسمعت شيئًا عني؟»، ولكنَّها لم تتفوَّه بها. غير أنها لم تستطع كبح اضطرابها فاغرورقت عيناها بالدموع.

«كلّا، كلّا، الأمر ليس خطيرًا كما تتخيَّلين» قال فارْفري مهدِّئًا من روعها، مع أنه لم يكن يدرك خطورته كما تدركه هي حقَّ الإدراك.

«أتمنى لو تفعل ما تَحدَّثنا عنه،» علَّقت لوستا بتفجُّع. «اترك التجارة ولنبتعد عن هنا. لدينا ما يكفي من المال، فلِم علينا أن نبقى؟»

بدا فارْفري ميَّالا بقوة إلى مناقشة هذا الأمر، فتحدَّثا فيه إلى أن أُعلن قدوم زائر، ودخل جارهما، فات، عضو المجلس البلدي.

«أظنك سمعت بوفاة المسكين الدكتور شوكفيلد؟ لقد توفي أصيلَ هذا اليوم في الخامسة.» قال السَّيِّد فات. كان شوكفيلد عضو المجلس البلدي الذي نُصِّب عمدةً في نوفمبر الماضي.

أسف فارْفري لدى سماعه النبأ، وأردف السيد فات قائلًا: «إنَّنا نعلم منذ أيام أنَّ أجله قد حان، وقد اهتممنا بشؤون عائلته جيِّدًا، وعلينا أن نبقي

الحال على ما هي عليه. لقد جئت لأسألك شيئًا أرجو أن يبقى طيَّ الكتمان. إن رشحتك خلفًا له وليس هناك من اعتراض بعينه، هل تقبل بالمنصب؟»

«ولكن، هناك آخرون يسبقونني في الدَّور، وأنا ما زلت شابًّا، وقد يُظَنُّ أنني وقح!» قال فازْفري بعد فترة صمت.

«كلَّا على الإطلاق. وإنني لا أتحدَّث عن نفسي وحسب، فهناك كثيرون ممن سمَّوك لهذا المنصب. أَوَترفض؟»

«لقد كنَّا نفكِّر في الرحيل،» قالت لوسِتا مقاطعة وهي تنظر إلى فازْفري بقلق.

«كانت نزوة وحسب،» تمتم فازْفري. «لن أرفض إذا كانت هذه رغبة الغالبية المحترمة في المجلس.»

«حسنٌ جدًّا، فلتَعُدَّ نفسك منتخبًا. لقد كان في المجلس شيوخٌ مدة كافية.»

عندما انصرف قال فازْفري متفكِّرًا: «انظري كيف تحكمنا قوى أكبر منَّا! لقد خطَّطنا لهذا الأمر ولكننا نفعل ذاك. إذا أرادوا أن يجعلوا مني عمدة فسأبقى، وليحتدَّ هنْشَرْد كيفما يشاء.»

منذ ذلك المساء وصاعدًا، أخذ القلق يتملَّك لوسِتا. ولو لم تكن الحماقة متجسِّدةً فيها لما تصرَّفت كما فعلت عندما التقت هنْشَرْد مصادفة بعد ذلك بيوم أو يومين. كان ذلك في ازدحام السوق عندما لم يكن بإمكان أحد أن يلاحظ حوارهما بيُسر.

«مايكل،» قالت. «يجب أن أسألك مجدَّدًا ما سألتك إياه منذ شهور خلت، وهو أن تعيد إليَّ أي رسائل أو أوراق تخصني قد تكون بحوزتك، إلا إن كنت قد أتلفتها! يجب أن تدرك كم سيكون أمرًا مستحسنًا محو ذلك الزمن في جيرسي لصالح جميع الأطراف.»

«عجبًا! بارك الرَّبُّ المرأة! لقد حزمت كل قصاصة كتبتِها لأعطيك

إياها في محطة العربات، ولكنك لم تظهري قطّ.»

وشرحت له كيف أنَّ موت عمتها حال دون رحلتها في ذلك اليوم. «وما الذي حلَّ بالرِّزمة إذن؟» سألت.

لم يكن ليدري، ولكنه سيبحث عنها. حينما انصرفت تذكَّر أنه ترك كومة من أوراقه عديمة الفائدة في خزانة قاعة طعامه السابقة، المبنية في حائط منزله القديم، الذي يشغله فازفري الآن. لعلَّ الرسائل كانت بينها.

ظهرت ابتسامة بشعة على وجه هنْشَرْد. هل فُتِحت تلك الخزانة؟

وفي المساء الذي أعقب هذا اللقاء، تعالى قرع الأجراس في كاستربرِدْج، واجتمعت الفرق الموسيقية النُّحاسيَّة والخشبيَّة والوتريَّة والجلديَّة تعزف في أنحاء البلدة بإيقاع كثيف أكثر من أي وقت مضى. لقد أصبح فازفري العمدة الواحد بعد المائتين ضمن مجموعة تُشكِّل السلالة المنتخبة التي تعود إلى عهد تشارلز الأول، وأصبحت الحسناء لوسِتا محطَّ أنظار البلدة كلِّها... ولكن، آه! تلك الدودة النائمة في مخدعها، هنْشَرْد، ما عساه سيقول!

كان هنْشَرْد في تلك الأثناء يتميَّز غيظًا من ذاك النبأ الخاطئ الذي جاءه عن اعتراض فازفري على خطة تثبيته في متجر البذور الصغير، ثم استُقبل بأنباء الانتخابات البلدية الجديدة (التي تُعد سابقة لا مثيل لها بسبب حداثة سِنِّ فازفري نسبيًّا وأصوله الاسكتلندية، وهو أمر كان مثار اهتمام جاوز المألوف). وقد أثَّر قرع الأجراس وعزف الفرق الصاخب مثل بوق «تَمرلَيْن»[113] في هنْشَرَد الصريع تأثيرًا يصعب وصفه، فبدا له أنَّ عمليَّة إطاحته قد اكتملت الآن.

وفي صباح اليوم التالي ذهب إلى فناء الحنطة كالمعتاد، وفي حوالي الحادية عشرة دخل دونلد عبر الباب الأخضر وما من أثر عظمة باد عليه. إلَّا

---

113) Tamerlane هو الاسم الإنجليزي للقائد العسكري المغولي تيمورلنك الذي كانت جيوشه تحمل أبواقًا ضخمة. ولعلّ هاردي يشير أيضًا إلى أوبرا «تمرلين» للمؤلف الموسيقي جورج فردريك هاندل التي ألّفها في عام 1724.

أنَّ تبديل الأماكن بينه وهنْشَرْد بصورة حازمة بعد هذا الانتخاب جدَّد شعورًا ببعض الحرج في نفس الشاب المتواضع، بيْد أنَّ هنْشَرْد تظاهر بتناسي ذلك كلِّه، فلاقاه فارْفري بلطافة فورًا.

«كنت سأسألك عن رِزْمة،» قال هنْشَرْد. «قد أكون تركتها في خزانتي القديمة في قاعة الطعام.» ثمَّ أضاف بعض التفاصيل.

«إن كان كذلك فهي موجودة هناك،» قال فارْفري. «لم أفتح الخزانة بعد، لأنني أحفظ أوراقي في المصرف لأنام قرير العين ليلًا.»

«إنَّها ليست بذات أهمية كبيرة لي،» قال هنْشَرْد. «ولكنني سآتي لآخذها هذا المساء إن كان ذلك لا يزعجك؟»

كان الوقت متأخرًا جدًّا عندما أوفى بوعد الزيارة. وكان قد أتخم نفسه بالشراب كما أصبح دأبه في غالب الأحيان الآن، ولمَّا اقترب من المنزل تعلَّقت بشفتيه ابتسامة متهكِّمة، وكأنه يفكِّر في شكل مفزع من أشكال التسلية. وأيًّا كانت تلك التسلية، لم تضعف قوَّتها بدخوله إلى المنزل، فقد كانت هذه زيارته الأولى للمنزل منذ خروجه منه بعد أن عاش هناك مالكًا له. بدا له صوت قرع الجرس مثل صوت عامل مألوف رُشي ليهجره، وأحيت حركة الأبواب في نفسه ذكرى الأيام الزائلة.

دعاه فارْفري إلى صالة الطعام حيث فتح فورًا الخزانة الحديدية المبنيَّة داخل الحائط، خزانته هو، هنْشَرْد، التي صنعها صانع أقفال حاذق بناء على أوامره. ومن ثمَّ سحب فارْفري الرِّزمة وأوراقًا أخرى معتذرًا عن عدم إعادتها.

«لا بأس،» قال هنْشَرْد بفظاظة. «الحقيقة أنها في أغلبها رسائل... أجل،» أردف وهو يجلس ويفضُّ رزمة رسائل لوستا العاطفية، «ها هي... آمل أن تكون السيدة فارْفري على ما يرام بعد تعب البارحة؟»

«لقد شعرت ببعض التعب، فأوت إلى فراشها باكرًا لهذا السبب.»

وعاد هنْشَرْد إلى الرسائل يفرزها باهتمام، وكان فارْفري يجلس في الطرف الآخر من مائدة الطعام. «إنك لم تنس بطبيعة الحال،» استأنف حديثه، «ذلك الفصل الغريب من حياتي الماضية الذي أخبرتك عنه، وقدَّمت لي فيه بعض المساعدة؟ إنَّ هذه الرسائل، في الواقع، تتعلَّق بذلك الشأن التَّعِس، مع أنه، شكرًا للرَّبِّ، انتهى كلُّه الآن.»

«ما الذي حلَّ بالمرأة المسكينة؟» سأل فارْفري.

«لحسن الحظ تزوجت، وتزوجت زواجًا حسنًا،» قال هنْشَرْد. «وما عاد ذلك اللَّوم الذي أغرقتني به يُسبِّب لي الآن أيَّ وخز، كما كان يفعل... أصْغِ إلى ما تقوله امرأة غاضبة وحسب!»

كان فارْفري يودُّ مسايرة هنْشَرْد، مع أنَّه لم يكن ميَّالًا إلى ذلك ويكاد لا يكفُّ عن التثاؤب، ولكنَّه راح يصغي إليه بأدب.

«أمَّا أنا،» قرأ هنْشَرْد، «فلم يعد لي مستقبل في الواقع. إنني مخلوقة أخلصتْ لك ولم تعبأ بالتقاليد مطلقًا، مخلوقة تشعر باستحالة أن تصبح زوجة أيِّ رجل آخر، ومع ذلك فهي لا تعدو في نظرك أكثر من أي امرأة تصادفها في الطريق أوَّل مرة. إنني أبرِّؤك تمامًا من أيِّ نِيَّة لإلحاق الأذى بي، ولكنَّك أنت الباب الذي أتى إليَّ منه الأذى. وعندما قلتَ إنك ستجعلني أحل محلَّ زوجتك إذا ما أسلمتِ الرُّوح، فإنَّ ذلك عزاء لي إذا تحقَّق، ولكن إلى أي مدى سيتحقَّق؟ ولذلك أجلس هنا وقد هجرني معارفي القليلون وهجرتني أنت!»

«هكذا كتبت إليَّ،» قال هنْشَرْد، «أطنانًا من كلمات كهذه، عندما لم يكن بوسعي إصلاح ما حدث.»

«أجل»، قال فارْفري بشرود، «إنه حال النساء.» ولكنَّه في الحقيقة لم يعرف سوى القليل جدًّا عن النساء، مع أنَّه استشفَّ نوعًا من الشبه في الأسلوب في التعبير عن المشاعر بإسراف بين المرأة التي يعبد وتلك الغريبة المفترضة،

وتوصَّل إلى أنَّ أفروديت[114] كانت تتحدَّث هكذا مهما كانت شخصيتها.

فضَّ هنْشَرْد رسالة أخرى وقرأها أيضًا متوقِّفًا عند الإمضاء كالسابق.

«لن أبوح باسمها،» قال برقَّة، «لأنني لم أتزوجها، وتزوجها رجل آخر، فإنني لن أفعل ذلك إنصافًا لها.»

«صحيح، صحيح،» قال فارْفري. «ولكن لِمَ لَمْ تتزوجها لمَّا ماتت زوجتك سُوْزَنْ؟» سأل فارْفري هذا السؤال وأسئلة أخرى بنبرة مستريحة لا مبالية، بنبرة شخص لا يعنيه الأمر إلا من بعيد جدًّا.

«آه، لك أن تسأل هذا السؤال!» قال هنْشَرْد وقد جلَّلت ثغرَه مرة أخرى ابتسامةٌ هلاليَّة الشكل. «ومع كل اعتراضاتها، عندما تقدَّمت إليها طالبًا الزواج مدفوعًا بالواجب لفعل ذلك، لم تكن المرأة المقدَّرة لي.»

«كانت قد تزوجت شخصًا آخر، ربَّما؟»

فكَّر هنْشَرْد أنه سيبحر قريبًا جدًّا من العاصفة إذا ما تقدَّم أكثر في التفاصيل، فأجاب: «أجل.»

«لا بدَّ أنَّ لتلك الشابة قلبًا يسيرٌ عليه التَّقلُّب!»

«إنها كذلك، إنها كذلك،» قال هنْشَرْد مؤكدًّا.

فتح رسالة ثالثة ورابعة وراح يقرأ. واقترب هذه المرة من النهاية وكأنَّ التوقيع أتى فعلًا مع بقية الرسالة، ولكنَّه توقَّف بغتة مرة أخرى. والحقيقة، كما يمكن التَّنبُّؤ، أنه كان ينوي إحداث كارثة كبيرة في نهاية هذه المسرحية بقراءة الاسم، فلم يأت إلى المنزل إلا لهذا الغرض. ولكنَّه وهو جالس هناك بدم بارد لم يستطع الإتيان بهذا الفعل، ذلك أنَّ تحطيم القلوب على هذه الشاكلة قد أرعبه حتى هو. لقد كان من طبيعةٍ تجعله قادرًا على القضاء عليهما معًا في حمَّى غضبه، بيْد أنَّ فعل شيء كهذا بنفث كلام مسموم كان يفوق طاقته في مناصبة العداء.

114) إلهة الحبِّ والجمال في الميثولوجيا اليونانية.

الفصل الخامس والثلاثون

وكما قال دونلد، فبسبب التعب لجأت لوسِتا إلى حجرتها باكرًا. ولكنَّها لم تذهب لتستريح، وإنَّما جلست على المقعد المجاور للسرير وراحت تقرأ وتفكِّر في أحداث اليوم. وحينما قرع هنْشَرْد الجرس سألت نفسها عمَّن يكون الزائر في هذه الساعة المتأخرة نسبيًّا. كانت قاعة الطعام تقع تحت حجرة نومها تقريبًا، فاستطاعت أن تسمع شخصًا يُدعى إلى الدخول إلى هناك، وكانت ثمَّة همهمة غير واضحة لشخص يقرأ أصبحت مسموعة.

وجاء الوقت المعتاد لوصول دونلد إلى الطابق العلوي ومضى، ومع ذلك استمرت القراءة والحوار. كان ذلك أمرًا غريبًا جدًّا. ولم يكن بوسعها التفكير إلا في إمكانية وقوع جريمة غير عادية، وأنَّ ذلك الزائر، أيًّا يكن، كان يقرأ وصفًا للجريمة من طبعة خاصة من صحيفة «كاستربِرِدْج كرونيكل». وأخيرًا غادرت الحجرة وهبطت السلالم. كان باب صالة الطعام مُشرَعًا، وقبل أن تبلغ درجات السُّلَّم السفلية استطاعت أن تُميِّز الصوت والكلمات في صمت المنزل الذي هجع أهلُه. وقفت مشلولة، وقد استقبلتها كلماتها بصوت هنْشَرْد مثل أرواح طالعة من القبر.

اتكأت لوسِتا على الدَّرابزين وخدُّها على مقبضه الأملس، وكأنها ستتخذ منه صديقًا في بؤسها. وبقيت متصلِّبة في وضعها هذا وراحت الكلمات تسَّاقط عليها متلاحقةً. بيْد أنَّ ما أذهلها أكثر كانت نبرة زوجها، فقد كان يتحدث بنبرة رجل يلهو بوقته وحسب.

«كلمة واحدة،» كان يقول، وقد دلَّت خشخشة الأوراق على أنَّ هنْشَرْد كان يفضُّ ورقة أخرى. «هل من المنصف لذكرى هذه المرأة الشابة

أن تقرأ لغريب بهذه الإطالة ما كان مقصودًا أن تقرأه عينك وحدك؟»

«حسنٌ، أجل،» قال هنْشَرْد. «إنني بعدم ذكر اسمها أضرب بها مثلًا على جميع النساء ولا أخصُّ بالفضيحة امرأة واحدة.»

«لو كنت مكانك لأتلفتها،» قال فارْفري وهو يفكِّر في أمر هذه الرسائل أكثر مما فعل حتى الآن. «ولأنَّها زوجة رجل آخر فقد يلحق هذا بها الأذى إن كُشف أمرها.»

«لا، لن أتلفها،» تمتم هنْشَرْد واضعًا الرسائل جانبًا. ثم نهض ولم تعُد لوسِتا تسمع شيئًا.

عادت إلى حجرتها وقد شُلَّت قواها. ولم تتمكَّن من تبديل ملابسها من شدة الخوف، فجلست على حافة السرير تنتظر. هل سيبوح هنْشَرْد بالسِّرِّ عندما يغادر؟ كان قلقها فظيعًا. لو أنها باحت بكلِّ شيء لدونلد في أثناء تعارفهما الباكر فلعلَّه كان سيتخطى الأمر ويتزوجها على أيِّ حال، وهو أمر أمسى الآن غير ممكن كما بدا في الماضي، فأن تخبره الآن أو يخبره شخص آخر سيكون أمرًا مهلِكًا.

صفق الباب، واستطاعت أن تسمع زوجها وهو يوصده بالمزلاج. وبعد أن نظر حواليه بطريقته المعتادة صعد السلالم على مهل. كاد بريق عينيها ينطفئ لمَّا ظهر عند باب حجرة النوم. بقيت نظرتها محدِّقة في ارتياب لحظةً، ويا لدهشتها وسرورها حين رأت أنه كان ينظر إليها مبتسمًا ابتسامة شخص تحرَّر من فوره من مشهد كان مزعجًا. ولم يعد بوسعها تمالك نفسها، فراحت تنتحب هَرِعةً.

وحين هدَّأ فارفري من روعها تحدَّث عن هنْشَرْد بطبيعة الحال. «إنَّه دون جميع الرجال أقلُّ زائر مرحَّب به،» قال، «إلَّا أنني أعتقد أنَّ بعض العَتَه قد أصابه. لقد كان يقرأ لي رسائل طويلة تتعلَّق بحياته الماضية، ولم يكن بوسعي إلا أن أرضيه بالإصغاء.»

كان هذا كافيًا، فلم يبح هنْشَرْد بالسر إذن. كانت كلمات هنْشَرْد الأخيرة لفافرفري باختصار عندما وقف عند عتبة الباب هي: «حسنٌ، أنا شاكر جدًّا لك على الإصغاء. لعلّني أخبرك المزيد عنها يومًا ما.»

ولمَّا عرفت ذلك، حيَّرتها دوافع هنْشَرْد لإثارة الموضوع بأيِّ حال حيرةً شديدة، لأننا في أحوال كهذه نعزو إلى العدو قوة ثابتة لا نجدها مطلقًا فينا أو في أصدقائنا، وننسى أنَّ تلك الجهود التي أخفقتها رغبات القلب ممكنةٌ في حالة الانتقام كما هي ممكنة في حالة سماحة النفس.

وفي صباح اليوم التالي لزمت لوسِتا فراشها، وهي تفكِّر في كيفية صدِّ هذا الهجوم الأوَّلي. أخذت تتصوَّر على نحوٍ غامض أنها تُقدِم على فعل جريء وتخبر دونلد بالحقيقة، ولكنَّ ما أفزعها هو أن يعتقد كالآخرين أنَّ ما وقع كان بسبب خطئها هي وليس لسوء طالعها. وعقدت العزم على أن تتخذ من الإقناع وسيلة، ولكن ليس مع دونلد، بل مع العدو نفسه. وبدا أنَّ هذا هو السلاح العملي الوحيد المتبقي لها كامرأة. وبعد أن وضعت خطتها نهضت وكتبت إليه، ذلك الذي وضعها في توتُّر شديد:

«لقد سمعت مصادفة حديثك إلى زوجي الليلة الماضية ورأيت أيَّ مبلغ بلغه انتقامك. إن مجرَّد التفكير في ذلك يسحقني! هلَّا أشفقت على امرأة بائسة! لو رأيتني لَرَقَّ قلبك. إنك لا تعرف كيف كان القلق شديد الوطأة عليَّ مؤخرًا. سأكون في «الحلقة» في الوقت الذي تغادر فيه عملك، قبل مغيب الشمس مباشرة. أرجوك تعال في ذلك الطريق، فلن يهنأ لي بال حتى أراك وجهًا لوجه وأسمعك تقول بلسانك أنك لن تذهب أبعد في مزاحك السمج هذا.»

قالت لنفسها وهي تنهي هذه المناشدة: «إن كانت الدموع والابتهالات تفيد الضعيف في مصارعته القويَّ فلتفعل الآن!»

وقرَّ قرارها على هذا الرأي وراحت تضع زينة تختلف عن كل ما جرَّبته من زينة من قبل. لقد حرصت منذ مطلع شبابها على إبراز جمالها الطبيعي،

وما كانت في هذا غِرَّة مبتدئة. ولكنَّها أهملت هذا الآن، بل وشرعت تفسد مظهرها الطبيعي، وفضلًا عن الأسباب الطبيعية لتغضُّن ملامحها بعض الشيء، لم تنم طوال الليلة الفائتة، فأضاف ذلك إلى ملامحها الجميلة المرهقة بعض الشيء، هيئة امرأة شاخت قبل الأوان لِما أصابها من أسًى بالغ. وقد اختارت – بسبب حالتها النَّفسيَّة وقصدًا منها – ثوبًا من أرثِّ أثوابها وأبسطها، تلك التي نبذتها زمنًا طويلًا.

ولكي تتفادى احتمال أن يعرفها أحد مصادفةً غطَّت وجهها بخمار وخرجت من المنزل خلسة وعلى عجل. كانت الشمس تستريح على الرابية كقطرة دم على جفن عندما صعدت الطريق المقابل للمُدرَّج الذي دخلته على عجل. كان المدخل معتمًا يؤكِّد خلوَّ المكان من أيِّ كائن حي.

لم يخِب أملها وهي تترقَّب مجيئه برجاء وخوف، فظهر هنْشَرْد في القمة، وأخذ يهبط، وكانت لوسِتا تنتظره لاهثةً. ولكنه عندما وصل إلى الحلبة رأت تبدُّلا في مشيته، فوقف ساكنًا مسافة قريبة منها، ولم تدرك السبب.

وما كان لأحد آخر أن يدرك السبب. والحقيقة أنَّ لوسِتا بتعيينها هذه البقعة وهذه الساعة للقائهما، عزَّزت دون أن تدري استعطافها بأقوى الحجج التي كان بوسعها استخدامها عوضًا عن الكلمات مع هذا الرجل المتقلِّب المزاج المسكون بالهواجس والخرافات. لقد أحيت هيئتها في وسط تلك الساحة الضخمة، وبساطة ثوبها غير المألوفة، ومسلكها المتَّسم بالأمل والرَّجاء، أحيا ذلك في نفسه ذكرى امرأة أخرى أساء إليها كانت تقف هناك هكذا في الأيام الخالية، وقد رحلت الآن واستراحت، فخارت قواه وأنَّبه فؤاده تأنيبًا شديدًا على محاولته الثأر من امرأة ضعيفة جدًّا. ولمَّا اقترب منها وقبل أن تنبس بكلمة كانت قد أنجزت نصف مُهِمَّها.

بدت على مسلكه السخرية واللامبالاة حين كان يتجه إلى الأسفل، ولكنَّه نبذ الآن ابتسامته العابسة وقال بنبرة لطيفة خافتة: «طاب مساؤك.

يسرُّني طبعًا أن آتيَ إن أردت ذلك.»

«أوه، شكرًا لك،» قالت بوجل.

«يؤسفني أن أراك مريضة جدًّا،» قال متلعثمًا وقد بان عليه النَّدم.

هزَّت رأسها. «كيف تأسف،» سألت، «وقد سبَّبت ذلك عن قصد؟»

«ماذا!» قال هنْشَرْد بقلق. «أفعلتُ شيئًا جعلك موهنةً هكذا؟»

«كلُّه من صنع يديك،» قالت. «فأنا لا أعاني أيَّ حزن آخر، وسعادتي في أمان لولا تهديداتك. أوَّاه يا مايكل! لا تُحطِّمني هكذا! لعلَّك تظن أنك قمت بما يكفي! عندما أتيت إلى هنا كنت شابَّة، وها أنا ذي الآن أُسرع الخطى إلى الشيب. لن ينظر إليَّ بعين الإعجاب بعد لا زوجي ولا أيُّ رجل آخر.»

أمسى هنْشَرْد أعزل السلاح. لقد اشتد شعوره بالشفقة والتعالي على جنس النساء بوجه عام بفضل هذه المتوسِّلة التي تجلَّت أمامه كما فعلت زوجته السابقة. فضلًا عن ذلك، كان الطيش الذي قاد لوسِتا المسكينة إلى هذه المتاعب كلِّها ما زال ملازمًا لها، فقد جاءت لتقابله هنا بهذه الطريقة المثيرة للشبهة من دون أن تدرك ما يكتنف ذلك من مجازفة. إنَّ امرأة كهذه تبدو مثل أيْل صغير جدًّا يغري بالصيد، ولذلك شعر بالخزي، ومن فوره فقد كل حماسة ورغبة في إذلال لوسِتا، ولم يعد يحسد فارْفري على صفقته، فقد تزوَّج المال ولا شيء أكثر. لقد غدا هنْشَرْد توَّاقًا إلى غسل يديه من اللعبة.

«حسنٌ، ماذا تريدينني أن أفعل؟» قال برفق. «أنا على ثقة بأنني راغب ومستعد. كانت قراءتي تلك الرسائل مزحة سمجة ولم أبُح بشيء.»

«أن تعيد إليَّ الرسائل وأي أوراق بحوزتك يمكنها أن تشي بالزواج أو بما هو أسوأ.»

«ليكن إذن، كل قصاصة ستعود إليك... ولكن دعيني أسرُّ إليك يا لوسِتا بأنَّه سيكتشف الأمر عاجلًا أو آجلًا.»

«آه!» قالت مرتعدة، «لكن ليس قبل أن أثبت أنني زوجة مخلصة له

وجديرة به، وبعد ذلك قد يغفر لي كلَّ شيء!»

نظر إليها هنْشَرْد بصمت، وكاد يحسد فازْفري على هذا الحب، حتى في هذه اللحظة. «همم، آمل ذلك،» قال. «لكنَّك ستحصلين على الرسائل حتمًا، وسيبقى سرُّكِ طيَّ الكتمان. أقسم على ذلك.»

«يا للطفك! وكيف سأحصل عليها؟»

فكَّر، ثمَّ قال إنه سيرسلها إليها في صباح الغد. «والآن لا ترتابي في قولي،» أضاف قائلًا. «إنني قادر على الوفاء بوعدي.»

الفصل السادس والثلاثون

حينما عادت لوسِتا من موعدها رأت رجلًا ينتظرها إلى جانب المصباح القريب من باب منزلها. وعندما وقفت تهمُّ بالدخول جاء وتحدَّث إليها. كان ذلك جوب.

سألها الصَّفح عن مخاطبته إيَّاها، ولكنَّه سمع أنَّ تاجر حنطة مجاورًا طلب من السَّيِّد فارْفري أن يرشِّح له شريك عمل، وإذا كان الأمر كذلك فهو يرغب في التَّقدُّم لهذا العمل. وبمقدوره أن يقدِّم ضمانًا جيِّدًا، وقد وضَّح ذلك للسيد فارْفري في رسالة، ولكنَّه سيكون شاكرًا جدًّا إذا ما قالت لوسِتا كلمة خير عنه لزوجها.

«إنَّه أمر لا أعرف عنه شيئًا.» قالت لوسِتا ببرود.

«ولكن، يمكنك أن تشهدي على جدارتي بالثقة أفضل من أي شخص آخر يا سيدتي،» قال جوب، «فقد كنت في جيرسي منذ سنوات عدة وعرفتك هناك بالنظر.»

«حقًّا،» أجابت. «لكنني لا أعرف شيئا عنك.»

«أظنُّ يا سيدتي أنَّ كلمة أو اثنتين منك ستضمن لي ما أريده بشدة.» قال بإلحاح.

رفضت بإصرار أن يكون لها دخل في الموضوع، وقطعت حديثه بسبب قلقها ورغبتها في الدخول إلى المنزل قبل أن يلاحظ زوجها غيابها، فتركته واقفًا على الرصيف ومضت.

ظلَّ يراقبها حتى اختفت، ثم اتجه عائدًا إلى منزله. وعندما وصل

جلس على الأرض عند زاوية المدفأة المُطفأة، وراح ينظر الموقد الحديدي[115] والخشب الملقى داخله لتسخين إبريق الشاي في الصباح. أزعجته حركة في الطابق العلوي، وهبط هنْشَرْد قادمًا من حجرة نومه حيث بدا أنه كان ينقِّب في الصناديق.

«أرجو» قال هنْشَرْد، «أن تسدي إليّ خدمة يا جوب الآن، أعني الليلة إن استطعت. خذ هذا إلى السيدة فارْفري. ينبغي أن آخذها بنفسي بطبيعة الحال، ولكنني لا أرغب في أن أُرى هناك.»

ناوله رِزْمة في غلاف بُنِّيٍّ مغلق. لقد أوفى هنْشَرْد بوعده، فما كاد يبلغ المنزل حتى راح مباشرة يبحث في أمتعته القليلة، وكانت كل قصاصة كتبتها لوسِتا هناك. وأبدى جوب موافقته بلا مبالاة.

«كيف كان يومك؟» سأله نزيل منزله. «هل من أمل في عمل ما؟»

«أخشى أنه لا عمل هناك.» قال جوب ولم يخبر الآخر بالطلب الذي تقدَّم به إلى فارْفري.

«ولن يكون هناك عمل في كاستربرِدْج أبدًا»، قال هنْشَرْد على نحوٍ حاسم. «يجب أن تمضي إلى مكان أبعد.» تمنَّى لجوب ليلة سعيدة وعاد إلى الجزء الخاص به من المنزل.

استمر جوب في جلسته هناك حتى جذب نظرَه ظلُّ فتيل الشمعة على الحائط، وعندما نظر إلى الشمعة نفسها وجد أنها أخذت شكل رأس يشبه زهرة قرنبيط تتَّقد لهبًا. ثم لاقت نظرته المحدِّقة رزمة هنْشَرْد. وكان يعلم أنَّه كان ثمَّة شيء من التَّودُّد بين هنْشَرْد والسيدة فارْفري، وراحت أفكاره المبهمة عن الموضوع تدور في ذهنه على النحو الآتي: لدى هنْشَرْد رزمة تعود إلى السيدة فارْفري، ولديه من الأسباب ما يمنعه من إعادة تلك الرِّزمة بنفسه إليها. ما الذي يمكن أن يكون بداخلها؟ هكذا راح يفكِّر إلى أن ثار في نفسه امتعاض من غطرسة لوسِتا

115) Iron Dogs، موقد حديدي يشبه في هيئته كلبًا جالسًا. (المترجمة)

كما ظنَّ سلوكها معه، وقد دفعه الفضول إلى معرفة ما إذا كانت هناك نقاط ضعف في هذا الشأن مع هنْشَرْد، فما كان منه إلا أن فحص الرِّزمة. كان القلم وجميع متعلقاته أدوات صعبة المراس في يد هنْشَرْد، فقد ألصق الرِّزمة بالشمع من دون ختمها، إذ لم يخطر بباله أنَّ إحكام لصقها يتوقَّف على الختم. ولم يكن جوب هيِّن التجربة، فرفع الشمع من أحد أطراف الرِّزمة بِمُديته، واختلس النظر إلى ما بداخلها من الطرف الذي فتحه، فرأى أنَّها تتكوَّن من رسائل، ولمَّا أرضى فضوله إلى ذلك الحدِّ أعاد لصق الشمع عليها، وقام بذلك ببساطة بإذابة الشمع تحت لهب الشمعة، ثم خرج حاملًا الرِّزمة كما طُلب إليه.

كان طريقه بمحاذاة ضفة النهر في أسفل البلدة. وعندما لاح ضوء المصابيح عند الجسر الذي قام في نهاية شارع «هاي» رأى الأم كُكْسُم ونانْس موكرِدج تتسكَّعان هناك.

«إنَّنا في طريقنا إلى زقاق «مِكْسِن» لنعرج على حانة «بيترز فِنْغَر» قبل أن نأوي إلى الفراش،» قالت الأم كُكْسُم. «هناك عزف كمان ونقر دفوف ويعلم الرَّبُّ ماذا أيضًا. هلَّا أتيت معنا أنت أيضًا يا جوب؟ لن يؤخرك ذلك أكثر من خمس دقائق.»

كان جوب غالبًا ما يبقى بعيدًا عن هذه الرفقة، ولكنَّ ظروف الوقت الحاضر جعلته متهوِّرًا بعض الشيء أكثر من المعتاد، ودون كلام كثير قرَّر الذهاب إلى وجهته من ذلك الطريق.

ومع أنَّ الجزء العلوي من ديرنوفر كان يتكوَّن في الأساس من مجموعة لافتة للنظر من المخازن والمزارع، كان هناك جزء أقلَّ جذبًا للأنظار. ذلك كان زقاق «مِكْسِن»، وقد تهدَّم جزء كبير منه الآن.

كان زقاق «مِكْسِن» بمنزلة مغارة عَدُلام[116] للقرى المجاورة كلِّها، وكان

---

116) المغارة التي لجأ إليها داود هربًا من فساد شاول الملك وطغيانه. سِفر صموئيل الأول، (22:2): "واجتمع إليه كلُّ صاحب ضيق وكلُّ من كان عليه دين وكلُّ من كان في مرارة نفس." الكتاب المقدَّس، دار المشرق، بيروت، 2007.

ملجأ أولئك الذين وقعوا في ضيق أو ديْن أو محنة من أي صنف كانت، فهناك عمَّال المزارع والفلاحون الذين أضافوا إلى عملهم في الزراعة قليلًا من الصيد غير المشروع، وإلى الصيد غير المشروع قليلًا من الشِّجار والسُّكْر، ليجدوا أنفسهم عاجلًا أو آجلًا في زقاق «مِكْسِن». وهناك حِرفيُّون ريفيُّون كسالى ممن امتنعوا عن العمل، وخدم ريفيُّون متمرِّدون أضربوا عن الخدمة، فانساقوا أيضًا أو اضطرُّوا إلى اللجوء إلى زقاق «مِكْسِن».

امتدَّ الزقاق وما أحاط به من أجمة الأكواخ المسقوفة بالقشِّ مثل لسان من الأرض في المناطق المنخفضة الرطبة التي اكتنفها الضباب. ويشهد المرء في زقاق «مِكْسِن» الكثير من الحزن، والكثير من الوضاعة، وبعضًا مما يوقع في المهالك. تسرح الرذيلة وتمرح في بيوتات بعينها في الحيِّ، ويسكن الطيش تحت السطوح مع المداخن المُعوجَّة، والخزي في بعض النوافذ المقوَّسة، والسرقة (في زمن الفاقة) في البيوت المسقوفة بالقش وجدرانها الطينية التي تحفُّ بها أشجار الصفصاف. وحتى القتل وجد له مكانًا هنا. ولعلَّ مذبحًا لدرء الأسقام كان قد أقيم بين كتلة الأكواخ الواقفة في ممشى صاعد هناك في السنين الخوالي. هكذا كان حال زقاق «مِكْسِن» في الزمن الذي تولَّى فيه هنْشَرْد وفارْفري منصب العمدة.

بيْد أنَّ هذه الورقة العفنة في نبتة كاستربِرِدْج المتينة المُزهرة كانت ترقد قريبة من القرية المفتوحة، حيث لا تبعد سوى مائة ياردة عن صف أشجار الدَّردار الفخمة، وتطلُّ على أرض براح من النُّجود المُهوَّاة، وحقول الحنطة، وقصور العظماء. وكان هناك جدول ماء يفصل الأرض البراح عن المساكن، ولم يكن ثمَّة من مسلك لعبوره للعين الناظرة من الخارج، لم يكن ثمَّة من مسلك يفضي إلى المساكن إلا بالالتفاف حول الطريق. ولكن، وُضع تحت سلالم كل منزل لوحٌ خشبي خفيٌّ يبلغ عرضه تسع بوصات، وكان هذا اللَّوح جسرا سِرِّيًا.

إذا كنت، مثل أحد أصحاب هذه المنازل اللاجئين، تعود من العمل بعد حلول الظلام – وهذا هو وقت العمل هنا – فإنك تعبر البراح خلسة مقتربًا من حدود الجدول المذكور آنفًا، ثم تطلق صفيرًا مقابل المنزل الذي تملك. عند ذلك يظهر للعيان شبح شخص في الجانب الآخر وهو يرفع الجسر جهة السماء، ثم يُنزله لتعبر، فتمتد يد تساعدك على الهبوط ومعك طيور التُّدْرُج والأرانب البَرِّيَّة التي جمعتها من المزارع المجاورة. وفي صباح اليوم التالي تبيعها سرًّا، وفي اليوم الذي يليه تقف أمام القضاة وعيون جميع جيرانك المتعاطفين مثبَّتة على ظهرك. تختفي بعض الوقت، ثم يُعثَر عليك مجدَّدًا وأنت تعيش بهدوء في زقاق «مِكْسِن».

وعندما يسير الغريب في الزقاق وقت الغسق يُفاجأ بظاهرتين أو ثلاث من الظواهر الغريبة. إحداها قعقعة متقطِّعة تصل من المباني الخلفيَّة للحانة في منتصف الطريق الصاعد، وهذا يعني أنَّ الناس يلعبون لعبة القناني الخشبية. وظاهرة أخرى هي الانتشار الواسع لأصوات صفير في المساكن المختلفة، وهي أنغام مزامير تكاد تنبعث من كل باب مفتوح. وأمَّا الظاهرة الأخرى فكانت كثرة المآزر البيضاء فوق الأثواب القذرة بين النساء الواقفات عند عتبات المنازل. إنَّ المئزر الأبيض رداء يدعو للرِّيبة في المواقف التي يتعذَّر فيها الحفاظ على النظافة، كما إنَّ ملامح الكدِّ والنظافة التي اتَّسمت بها مآزر النساء تناقضها هيئة الوقوف والمشية التي اتَّخذنها، فقد وضعن أيديهن غالبًا على خصورهن (وهي هيئة أسبغت عليهن مظهر أقداح ذات مقبضين)، واتَّكأن بأكتافهن على عضائد الأبواب، في حين كانت هناك خفَّة لافتة للنظر في تلفُّت الرؤوس الجريئة القائمة على أعناق هؤلاء النسوة، وفي دوران أحداقهن الجريئة عند سماع أي جلبة تشبه وقع أقدام رجل في الزُّقاق.

ومع ذلك، وفي وسط هذا السوء كلِّه، عثر الفقراء الشرفاء أيضًا على ملجأ لهم هنا، ففي بعض البيوت كانت تسكن أنفس نقيَّة فاضلة، لم تضطرَّ

إلى الوجود هنا إلا بسبب قبضة الفقر المُدقع، ولذلك السبب وحده. كانوا عائلات أتت من قرى نخرها الخراب، عائلات كانت ممتدَّة ذات يوم ولكنَّها أمست على وشك الانقراض، وكانت تمثِّل ذلك الجزء من القرية الذي أُطلق على أصحابه «المالكون مدى الحياة»، والمالكون بالالتزام وغيرهم ممن انهارت أسقف منازلهم لسبب أو لآخر، فاضطروا إلى هجر بقعتهم القروية التي طالما كانت وطنًا لهم أجيالًا عديدة، فجاؤوا إلى هنا، إلا من اختار منهم الاستلقاء تحت أسوجة الأشجار على قارعة الطريق.

وكانت الحانة المسمَّاة «بيترز فِنْغَر» بمنزلة كنيسة يؤمُّها قاطنو زقاق «مِكْسِن».

كانت تقع في المركز، كما ينبغي أن تكون مثل هذه الأماكن، وكانت تربطها بنُزُل «البحَّارة الثلاثة» العلاقة الاجتماعية نفسها التي تربط الأخير بنُزُل «الأسلحة الملكية». تبدو الحانة للوهلة الأولى مكانًا جديرًا بالاحترام على نحو محيِّر، فقد كان بابها الأمامي مغلقًا والسلالم نظيفة جدًّا على نحوٍ يوحي بأنَّ قلَّة وطئت سطحه المصقول بالرمل. إلَّا أنَّه كان هناك زُقاق عند ركن الحانة، وهو مجرَّد فتحة تفصلها عن المبنى المجاور. وفي منتصف الزقاق صعودًا كان هناك باب ضيِّق لامع وقد ذهب لونه لشدَّة ما احتكت به أيدٍ وأكتافٌ كثيرة. كان هذا الباب هو المدخل الفعلي للحانة.

يمكن أن يرى المرء شخصًا راجلًا يعبر زُقاق «مِكْسِن» بشرود، ثمَّ سرعان ما يختفي فتطرَف عين المحدِّق كما طرفت عينُ آشتون عند اختفاء رافنزوود[117]. يدخل الراجل الشارد الذهن إلى الفتحة بتحريك جسده جانبيًّا ببراعة، ومن الفتحة يلج الحانة بالبراعة نفسها.

كان الأشخاص الذين يجتمعون في «البحَّارة الثلاثة» من ذوي منزلة

117) من رواية السير والتر سكوت «عروس لامرمور». رأى الكولونيل آشتون حبيب أخته إدغر رافنزوود تبلعه الرّمال ويختفي في طرفة عين.

رفيعة مقارنة بالجماعة التي تجتمع هنا، غير أنه يجب الاعتراف أنَّ أدنى المجتمعين شأنًا في زمرة «البحَّارة الثلاثة» يضاهي أرفعهم شأنًا في حانة بيترز في مواضع عدَّة، فالمتشرِّدون والضالون من كل صنف يتسكَّعون هنا. وكانت صاحبة الحانة امرأة فاضلة أُودِعت السجن ظلمًا منذ سنوات لضلوعها في جريمة أو أخرى. وقد أنهت سنة حبسها، ومنذ ذلك الحين ومحيَّاها تعلوه ملامح الضَّحيَّة إلا في الأوقات التي تلتقي فيها الشرطي الذي اعتقلها، حينها فقط تطرف عينها.

إلى هذه الحانة وصل جوب ورفيقتاه. كانت المقاعد التي جلسوا عليها نحيلة طويلة، وقد ثُبِّتت رؤوسها بحبال القُنَّب إلى عُقَّافات في السقف، ذلك أنه عندما تشتدُّ عربدة الضيوف تهتزُّ المقاعد وتنقلب بهم إن لم يكن ثمَّة ما يمسكها. وكان دويُّ اللعب بالقناني الخشبية يتردَّد صداه من الفناء الخلفي، ومضارب القِّنَّب تتدلَّى خلف منفاخ المدخنة، وأمَّا لصوص الصيد، وحرَّاس الطرائد السابقون الذين اضطهدهم أصحاب المزارع دونما سبب فقد جلسوا جنبًا إلى جنب، بعد أن كانوا فيما مضى يلتقون في عراكٍ تحت ضوء القمر، إلى أن انقضى زمن طويل على انتهاء عقوبة اللصوص، وفقد الحرَّاس الحظوة أو طُرِدوا من الخدمة، فاجتمعوا ها هنا وجلسوا بهدوء يتذكَّرون الأيام الخوالي.

«أتذكر يا تشارل كيف كنت تخزُّ السمكة بشوك العُلَّيق دون أن تثير موج النهر؟» قال أحد أولئك الحرَّاس المخلوعين. «لقد داهمتك وأنت تقوم بذلك مرَّة إن كنت تذكر؟»

«أتذكَّر ذلك، بيد أنَّ أسوأ ما وقع لي كان ورطة طيور التُّدْرُج في غابة «يالبري». لقد أقسمت زوجتك زورًا في ذلك الحين يا جو، نعم، بحقِّ الرَّبّ! إنها فعلت ذلك، ولا مجال للإنكار.»

«كيف حدث ذلك؟» سأل جوب.

«لقد أدخلني جو في عراك فتدحرجنا ووقعنا بالقرب من سياج

حديقته. وسمعت زوجته الجلبة فخرجت راكضة وفي يدها خشب التَّنُّور، ولأنَّ الظلام كان دامسًا تحت الأشجار، لم تستطع أن تتبيَّن مَن كان منَّا في الأعلى، فزعقت: أين أنت يا جو، في الأسفل أم في الأعلى؟ وقال: «في الأسفل بحقِّ الرَّبِّ! ثم راحت تضرب جمجمتي وظهري وأضلعي بالخشب حتى تدحرجنا مرة أخرى. وصاحت مرة أخرى: أين أنت يا جو، في الأعلى أم في الأسفل؟ يا إلهي! بسببها هي اعتُقِلت! وعندما مثلنا في المحكمة أقسمتْ على أنَّ طائر التُّدْرُج كان أحد الطيور التي تربِّها، مع أنه لم يكن من طيورك مطلقًا يا جو، بل كان طائر السَّيِّد براون، هو صاحبه، وقد نهبناه حينما مررنا بمزرعته قبل ذلك بساعة. لكم آلمني أن أُظلم هكذا!... ولكن، مضى وانقضى ذلك الآن.»

«كان يمكنني أن ألقي القبض عليك قبل ذلك،» قال الحارس. «فقد كنتُ على مدى بضع ياردات منك عشرات المرات، عندما نهبت طيورًا أخرى غير ذلك الطائر المسكين.»

«أجل، إنَّ العالم لا يعلم شيئًا عن أفعالنا العظيمة،» قالت بائعة القمحيَّة التي استقرَّت مؤخرًا في هذه الأنحاء، وكانت تجلس بين البقية. ولأنها سافرت كثيرًا في حياتها، فقد راحت تتحدَّث بمعرفة واسعة. وكانت هي من سأل جوب عمَّا بداخل الرِّزمة التي حرص على حملها تحت ذراعه.

«آه، هنا يقبع سرٌّ كبير،» قال جوب. «إنَّه حبٌّ وهيام، عن امرأة تحبُّ رجلًا حبًّا جمًّا وتكره الآخر كرهًا لا رحمة فيه.»

«من تقصد يا سيدي؟»

«واحدة ذات منزلة رفيعة في البلدة. أودُّ أن أفضحها! قسمًا بحياتي أنَّ قراءة رسائلها الغرامية ستكون مسلِّية كقراءة مسرحيَّة. إنَّها امرأة مُدلَّلة متغطرسة! وما أحمله معي هنا هو رسائلها الغرامية.»

«رسائل غرامية؟ فلتسمعنا إذن بحقِّ الرَّبِّ!» قالت الأم كُكْسُم. «أتذكر يا ريتشرد كم كنَّا حمقى عندما كنَّا في ريعان الشباب؟ كنَّا نأتي بتلميذ

مدرسة ليكتب لنا رسائلنا، وننقده بنسًا واحدًا كي لا يخبر الآخرين بما كتب، هل تذكر ذلك؟»

عند ذلك دفع جوب إصبعه تحت الشمع وفضَّ الرسائل ووضعها في أكوام، ثم التقط واحدة من هنا وأخرى من هناك على نحو عشوائي وراح يقرأها بصوت عال. وسرعان ما بدأت تلك الفِقْرات التي قرأها تكشف السِّرَّ الذي طالما سعت لوسِتا جاهدةً إلى أن تبقيه مدفونًا، مع أنَّ الكلمات كانت تُومئ وحسب ولم تفشِ السِّرَّ صراحة.

«أكتبت السيدة فارْفري ذلك!» قالت نانْس موكرِدْج. «إنَّه لأمرٌ مهينٌ لنا نحن النساء المحترمات أن تأتي امرأة من بنات جنسنا هذا الفعل، وتهب نفسها لرجل آخر الآن!»

«ذلك أفضل لها،» قالت بائعة القمحيَّة العجوز. «آه، لقد أنقذتها من زواج سيئ ولم تشكرني على ذلك قطّ.»

«إنها فكرة جيِّدة تصلح لموكب فضيحة[118]،» قالت نانْس.

«حقًّا،» قالت السيدة كُكْسُم متفكِّرةً. «إنَّه لسبب من أفضل ما سمعت من أسباب لتسيير موكب فضيحة، وينبغي ألا نُضيِّع الفرصة. فقد كان آخر موكب شهدته كاستربرِدْج منذ عشر سنين خلت.»

في تلك اللحظة تناهى إلى مسامعهم صفير حادٌّ، فقالت صاحبة الحانة للرجل المدعو تشارل: «إنه جيم قادم. هلَّا ذهبت وأنزلت الجسر بدلًا مني؟»

ونهض تشارل ورفيقه جو دون أن يجيبا، وتناولا فانوسًا منها وخرجا من الباب الخلفي ثم اتَّخذا مسار الحديقة الذي كان ينتهي بغتة عند حافة جدول النهر السالف الذكر. وخلف المجرى كانت ترتمي البطحاء التي هبَّ منها نسيم رطب لطم وجهيهما وهما يتقدَّمان. رفع أحدهما اللوح الذي كان على أهبة الاستعداد، ثم أنزله على الماء، وحالما لامس طرفه القصيُّ الأرضَ مشت

118) عادة كانت سائدة في ذلك العهد للسخرية من الزوج الزاني أو الزوجة الزانية وفضحهما، وكان الناس يجتمعون في موكب ويتخذون من الدُّمى رمزًا للزوجين ويطوفون بها في الطرقات يرافقهم قرع الطبول.

عليه أقدام، وإذا برجل قوي البنية يظهر في الظلمة وقد لفَّ أشرطة حول ركبتيه، وحمل تحت ذراعه بندقية مزدوجة الماسورة وبعض الطيور تتدلَّى على ظهره. وسألاه إن حالفه حظ كثير.

«ليس كثيرًا،» قال بلا مبالاة. «هل المكان آمن في الداخل؟»

وعندما تلقَّى ردًّا بالإيجاب ذهب إلى الداخل، في حين سحب الآخران الجسر وأخذا طريقهما عائدين خلفه. ولكنهما قبل أن يدخلا الحانة أوقفتهما صيحة أتت من البطحاء.

تكرَّرت الصيحة، دفعا بالفانوس إلى مرحاض في الخارج وعادا إلى حافة الجدول.

«مرحبًا، أيقود هذا الطريق إلى كاستربرِذج؟» قال شخص ما من الجانب الآخر.

«ليس تمامًا، فهناك نهر أمامك،» قال تشارل.

«لا يهم، خذ هذا المبلغ واسمح لي بعبوره،» قال الرجل الواقف في البطحاء. «حسبي ترحالًا في هذا اليوم.»

«قف لحظةً إذن،» قال تشارل وقد تبيَّن أنَّ الرجل ليس عدوًّا. «اجلب اللوح والفانوس يا جو، هو ذا شخص ضلَّ طريقه. كان ينبغي أن تسير بمحاذاة الطريق الرئيس لا أن تشقَّ طريقك من هنا يا صاح.»

«كان ينبغي ذلك كما أرى الآن. لكنني رأيت ضوءًا هنا وقلت لنفسي أنَّ منزلا هناك واعتمدت على ذلك.»

أُنزل اللوح وبدأت هيئة الغريب تبين في الظلمة. كان رجلًا في أواسط العمر، شاب شعره وشارباه قبل الأوان، وكان عريض الوجه باسم المحيَّا. شكرهما وسار بينهما عبر الحديقة. «أيُّ مكان هذا؟» سأل حينما بلغوا الباب.

«حانة.»

«آه. لعلَّني أنزل بها. والآن تعاليا وبلِّلا حنجرتيكما على حسابي لقاء

نقلكما لي.»

تبعاه إلى داخل الحانة حيث كشف الضوء شخصًا ذا منزلة أرفع في التقدير بالعين من الأذن. كان في ثياب توحي بالثراء ولكن يعوزها الإتقان، فمعطفه من الفرو ورأسه تغطيه قبعة من جلد الفقمة، ولا بدَّ أنَّ القبعة كانت شديدة الدفء في النهار مع أنَّ الليالي كانت باردة، فالربيع حلَّ قبل أوانه بعض الشيء. وكان يحمل في يده حقيبة بنية صغيرة ذات حزام ومثبَّتة بقطع من النحاس.

بدا مشدوهًا لمَّا رأى أيَّ ضرب من الرفقة صادفه عبر باب المطبخ، فتخلَّى في الحال عن فكرة النزول في الحانة، ولكنه عالج الموقف بخفَّة، فطلب شرابًا من أجود نوع، ودفع وهو واقف في الرواق ثم التفت ليشقَّ طريقه عبر الباب الأمامي. وقد كان هذا الباب موصدًا، وبينما كانت صاحبة الحانة تفتحه كان الحديث حول موكب الفضيحة ما زال دائرًا في صالة الجلوس وبلغ سمعه.

«ما الذي يعنونه بموكب الفضيحة؟» سأل.

«أوه يا سيدي!» قالت صاحبة الحانة وقد ترجَّح قرطاها الطويلان بحياء زائف: «إنها عادة قديمة حمقاء، يمارسونها هنا في هذه الأنحاء عندما تكون زوجة رجل ما... حسنٌ، حين تكون ليست له وحده على وجه الخصوص، ولكنني بصفتي ربة منزل محترمة لا أحُثُّ على هذه العادة.»

«ولكن، هل سيفعلون ذلك قريبًا؟ سيكون مشهدًا جديرًا بالتَّفرُّج، كما أظن؟»

«حسنٌ يا سيدي!» ابتسمت بتكلُّف. ثم انطلقت على سجيتها ونظرت بطرف عينها قائلة: «إنه أكثر الأشياء تسلية تحت الشمس! ويُكلِّف مالًا.»

«آه! أتذكَّر أنني سمعت بشيء كهذا. سأمكث في كاستربِرِدج أسبوعين أو ثلاثة ولن يضيرني أن أرى العرض. انتظري لحظة.» استدار ودخل صالة الجلوس وقال: «أيُّها الرِّفاق الطيبون، إنِّي لأودُّ أن أرى تلك العادة القديمة التي

تتحدثون عنها ولا أمانع أن أدفع شيئا لقاء ذلك، هاكم.» وألقى جنيهًا ذهبيًا على المائدة وعاد إلى صاحبة الحانة عند الباب، فسألها عن الطريق إلى البلدة وانصرف.

«إنَّ معه المزيد من هذه الجنيهات،» قال تشارل عندما أُخذ الجنيه الذهبي وأُعطي صاحبة الحانة للاحتفاظ به في مكان آمن. «بحقِّ الرَّبّ! كان ينبغي أن نحصل على المزيد وهو بيننا هنا.»

«كلَّا، كلَّا،» أجابت صاحبة الحانة. «هذه حانة محترمة، الشُّكر للرب! ولن أسمح بفعل شيء هنا إلا ما هو جدير بالاحترام.»

«حسنٌ،» قال جوب، «سنَعُدُّ الأمر قد بدأ وقريبًا سنضعه موضع التنفيذ.»

«سنفعل!» قالت نانْس. «إنَّ الضحك الجميل يدفئ قلبي أكثر مما يفعل الشراب، وتلك هي الحقيقة.»

جمع جوب الرسائل، ولمَّا كان الوقت قد تأخَّر، لم يحاول زيارة منزل فارْفري حاملًا إيَّاها تلك الليلة. وبلغ المنزل، وأغلقها كما في السابق، وأوصل الرزمة إلى عنوانها صباح اليوم التالي. وفي غضون ساعة أحالت لوسِتا ما بها إلى رماد، يا للروح المسكينة! خرَّت على ركبتيها شاكرة الرَّبَّ على أنه أخيرًا لم يتبقَّ دليل على تلك الواقعة المشؤومة في ماضيها مع هنْشَرْد. أمَّا هي، فمع أنَّ خطأها كان ناشئًا عن إهمال ولم يكن مقصودًا، فإنَّ تلك الواقعة لو عُرفت لأصبح أثرها مهلكًا لها مع زوجها.

الفصل السابع والثلاثون

هكذا كانت تجري الأحوال في كاستربِرِدْج حين اعترض مسارَها أمرٌ بلغ من الأهمية مبلغًا كبيرًا حتى طال أثره أدنى طبقة اجتماعية هناك، فهزَّ المجتمع من جذوره في الوقت نفسه الذي جرت فيه الاستعدادات لموكب الفضيحة. لقد كان هذا الحدث أحد تلك الأحداث المثيرة التي ما إن تبعث حركة في بلدة ما حتى تُخلِّف أثرًا خالدًا في تاريخها، كما يُخلِّف صيفٌ دافئ أثرَه الخالد في حلقات جذع شجرة ليدُلَّ على عمرها.

كان فردٌ من أفراد العائلة الحاكمة على وشك المرور بالبلدة في طريقه متجهًا إلى الغرب الأقصى لتدشين عمل هندسي ضخم هناك. وقد وافق على أن يتوقَّف في البلدة قرابة نصف ساعة، وأن يستمع إلى خطاب يلقيه مجلس بلدية كاستربِرِدْج بصفته مركزًا تمثيليًا من مراكز الزراعة، إذ رغب المجلس في أن يُعبِّر عن تقديره لما قدَّمته هذه الشخصية من خدمات جليلة في الزراعة والاقتصاد، فقد عزَّزت بحماسةٍ الخُطط الرَّامية إلى جعل الزراعة تتبوَّأ منزلة علمية رفيعة.

لم يشهد أهالي كاستربِرِدْج فردًا من العائلة المالكة منذ عهد الملك جورج الثالث، وقد حدث ذلك دقائق معدودة وحسب في ضوء الشموع، عندما توقَّف ذلك الملك في رحلة ليلية لتبديل الخيول في نُزُل «الأسلحة الملكيَّة». ولذلك قرَّر السُّكَّان إقامة مهرجان حافل[119] بهذه المناسبة النادرة. وصحيحٌ أنَّ نصف ساعة لم تكن بالمدة الطويلة، إلَّا أنَّ الكثير يمكن عمله فيها بالتنظيم الحصيف للوقائع إن كان الطقس، قبل كلِّ شيء، رائقًا.

---

(119) في الأصل بالفرنسية fête carillonnée ، (المترجمة)

وقد كُتب الخطاب على ورق الرَّقّ، كتبه فنَّان بارع في نقش الحروف مستخدِمًا أفضل أنواع شرائح الذهب والألوان في متجر بائع الدَّهَّان. واجتمع أعضاء المجلس البلدي في يوم الثلاثاء السابق لليوم الموعود لمناقشة تفاصيل الحفل. وبينما كانوا جلوسًا في قاعة المجلس، وكان الباب مفتوحًا على مصراعيه، إذ بهم يسمعون وقع خطى ثقيلة تصعد السلالم. تقدَّمت الخطى على طول الرُّواق ودخل هنْشَرْد القاعة بملابس رثَّة مهترئة، وهي الملابس نفسها التي كان يرتديها في أيَّام مجده عندما كان يجلس بينهم.

«أودُّ،» قال وهو يتقدَّم إلى المائدة ويضع يده فوق المفرش الأخضر، «أن أشارككم استقبال زائرنا اللامع. أظن أنه بوسعي السير مع الآخرين؟»

تبادل أعضاء المجلس نظرات اكتنفها الحرج، وكاد غرُوَر أن يبتلع طرف ريشة قلمه التي راح يقضمها بشدَّة في أثناء صمت المجلس. وأمَّا فارْفري، العمدة الشاب، الذي جلس بحكم منصبه على المقعد الكبير، فقد حدس بما أحاط بالمجتمعين من حرج، ووجد أنَّه مُكره على التعبير عمَّا انتابهم بصفته ناطقًا بلسان الجميع، مع أنَّه كان سيُسَرُّ لو أنَّ هذا الواجب وقع على عاتق شخص آخر.

«إنني لا أرى ذلك مناسبًا يا سيد هنْشَرْد،» قال. «فالمجلس هو المجلس، وأنت لم تعد عضوًا فيه، ولذا سيكون أمرًا شاذًّا أن تكون بين الأعضاء. وإن انضممت أنت فماذا عن الآخرين؟»

«لديَّ سبب خاص لرغبتي في المساعدة في الحفل.»

نظر فارْفري حواليه. «أظن أنني عبَّرت عن رأي المجلس،» قال.

«أجل، أجل.» قال الطبيب باث، والمحامي لونغ، والنائب تَبَر وآخرون.

«إذن غير مسموح لي بفعل أي شيء رسميًّا؟»

«أخشى أنَّ الأمر كذلك، إنه أمرٌ مُحال حقًّا. ولكن يمكنك بطبيعة الحال أن تشهد العرض كاملًا، أيًّا كان مثل باقي المتفرجين.»

لم يردَّ هنْشَرْد على ذلك الاقتراح الواضح جدًّا، فدار على عقبيه وانصرف.

لقد كانت تلك مجرد نزوة عابرة من نزواته، بيد أنَّ الاعتراض عليها أحالها إلى عزم وتصميم. «سوف أُرحِّب بصاحب السُّموِّ الملكي وإلا لن يفعل أحد آخر!» راح يكرِّر هذا القول. «لن يردعني فارْفري أو أيٌّ من تلك الزُّمرة الحقيرة! سترون.»

كان الصباح الزَّاخر بالأحداث مشرقًا، وقد أطلَّت شمس ساطعة في وجوه المبكرين من المتفرِّجين من النوافذ في الجهة الشرقية، فأدرك الجميع (ذلك أنَّهم على دراية بأحوال الطقس) أنَّ سطوع الشمس هذا باقٍ لن يتغيَّر. ثمَّ سرعان ما بدأ الزائرون يفِدون أفواجًا من بيوت المقاطعة والقرى والأجمات البعيدة والنجود المنعزلة، وقد جاء الأخيرون بأحذية لامعة وقبعات مائلة ليتفرجوا على الحفل، وإن لم يسعهم أن يتفرَّجوا فليكونوا على مقربة منه على أيِّ حال. لم يتبقَّ عامل في البلدة لم يرتدِ قميصًا نظيفًا، وقد أبدى سولومُن لونغويْز، وكريستوفر كوني، وبُزفورد، وبقيَّة تلك المجموعة، اهتمامهم بالمناسبة، فقدَّموا موعد شرابهم المعتاد من الحادية عشرة إلى العاشرة والنصف، وبسبب ذلك وجدوا صعوبة في العودة إلى الساعة المعتادة أيامًا عدَّة.

قرَّر هنْشَرْد ألَّا يعمل في ذلك اليوم، فأتخم نفسه في الصباح بكأس من خمر الرُّوم، وبينما كان يسير على الطريق قابل إلزابث جيْن التي لم يرها منذ أسبوع. «لحسن الحظ،» قال لها. «أنَّ سنواتي الإحدى والعشرين قد انقضت قبل أن يحدث هذا، وإلا ما كنت جسرت على فعل ما أريد.»

«فعل ماذا؟» قالت مذعورة.

«هذا الترحيب الذي سأستقبل به زائرنا الملكي.»

ارتبكت. «هلَّا ذهبنا وشاهدناه معًا؟» قالت.

«أشاهده! إنَّ لديَّ أمرًا أهم، فلتشاهديه. سيكون جديرًا بالمشاهدة!»

لم يكن بمقدورها فهم ما يرمي إليه، فانصرفت مثقلة القلب. ولمَّا أزِف اليوم الموعود، لمحت زوج أمِّها مرة أخرى، وظنَّت أنَّه كان ذاهبًا إلى «البحَّارة الثلاثة»، ولكن لا، فقد شقَّ طريقه دافعًا مرفقَه بين الحشد المبتهج ومتجهًا إلى متجر وُلفري، تاجر الجوخ. وانتظرت هي في الخارج بين الحشود.

ظهر بعد دقائق قليلة وقد علَّق -وأثار دهشها- شارة برَّاقة، غير أنَّ ما كان أكثر إدهاشًا لها أنَّه حمل في يده علمًا سيِّئ التركيب يتكوَّن من راية صغيرة من رايات الاتحاد التي انتشرت في البلدة اليوم، وقد رُبطت إلى طرف عصا خشبية، أو لعلَّها كانت أسطوانة من قماش قطني. وطوى هنْشَرْد علمه عند عتبة الباب، ووضعه تحت ذراعه ومضى إلى الطريق.

وفجأةً التفتت رؤوس الأشخاص الطوال في الحشود، ووقف الأقصر منهم على أصابع أقدامهم. قيل أنَّ الموكب الملكي قد دنا. في ذلك الحين كانت سكة الحديد قد امتدَّت بمقدار ذراع صوب كاستربرِدْج، ولكنَّها لم تزل تبعد أميالًا عديدة عنها، ولذا كان لزامًا أن يقطع الموكب هذه المسافة المعترضة، وكذلك بقية الرحلة مستخدمًا الطريق على النحو القديم. وهكذا انتظر الناس، عائلات المقاطعة في عرباتها، والجمهور وقوفًا على الأقدام، وراحوا يرقبون طريق لندن الرئيس الممتد بعيدًا، وسط قرع الأجراس وثرثرة الألسن.

أخذت إلِزابث جيْن تطالع المشهد من الخلف. وكانت هناك بعض المقاعد التي خُصِّصت للسيدات ليتأتَّى لهن التَّفرُّج على المشهد، وكان المقعد الأمامي تشغله لوسِتا، زوجة العمدة. وعلى الطريق تحت ناظريها وقف هنْشَرْد. بدت مشرقة وجميلة جدًّا، حتى إنه خَبَرَ ضعفًا لحظيًا وتمنَّى أنْ تراه. بيْد أنَّه كان أبعد من أن يجذب عين امرأة مثلها تحكمها إلى حدٍّ بعيد المظاهر الخارجية للأشياء. لم يكن مجرَّد عامل غير قادر على الظهور كما كان يظهر سابقًا وحسب، بل إنه ازدرى الظهور بأفضل ما يمكن. وكان الجميع، من

العمدة إلى غَسَّالة الثياب، قد تأنَّقوا في حُلل جديدة، كلٌّ حسب طاقته، إلّا هنْشَرْد الذي احتفظ بإصرار بثياب رثَّة أبلاها الطقس منذ أعوام خلت.

وواحسرتاه! إذ هذا ما حدث: أخذت لوسِتا تصرف بصرها عنه إلى هذا الجانب وذاك دون أن تثبتا على ملامحه، كما تفعل عيون النساء المتأنقات في مناسبات كهذه. وقد دلَّ سلوكها بوضوح تام على أنها لم تعد تحفل به بين الناس.

بيْد أنَّها لم تتعب قطّ من النَّظر إلى دونلد وهو واقف يتحدَّث بهمَّة إلى أصدقائه على بعد ياردات قليلة، وقد أحاطت بعنقه الشَّابَّة السلسلةُ الذهبية الرسمية ذات الحلقات المربعة الفخمة كتلك التي تحيط بعنق الحصان وحيد القرن في الشعار الملكي. وكان كلُّ انفعال ضئيل ينِدُّ عن زوجها وهو يتحدَّث ينعكس على وجهها وشفتيها اللتين كانتا تتحركان بمحاكاة طفيفة لحركة شفتيه. كانت تتقمَّص دوره أكثر مما كانت تعيش دورها، ولم تكن لتهتم بوضع أي شخص آخر كما اهتمت بوضع فارْفري في ذلك اليوم.

وأخيرًا وقف رجل عند أبعد منعطف على الطريق العام، أيْ على الجسر الثاني المذكور آنفًا، وأعطى إشارة، فتقدَّم أعضاء المجلس البلدي في أرديتهم من أمام المجلس إلى المعبر المقنطَر الذي أُقيم عند مدخل البلدة. ووصلت العربات التي تُقِلُّ الزائر الملكي وحاشيته إلى الموقع في سحابة من الغبار، وشُكِّل الموكب فتقدَّم الجميع بخطى متَّئِدة إلى المجلس البلدي.

وكانت تلك البقعة مركز الاهتمام، وكانت ثمَّة فسحة فارغة أمام العربة الملكية مفروشة بالرَّمل، وإلى تلك الفسحة خطا رجل قبل أن يتمكَّن أحد من منعه. كان ذلك هنْشَرْد. كان قد بسط علمه الخاص، وخلع قبعته، ثم تقدَّم إلى جوار العربة المتباطئة وهو يُلوِّح بعلم الاتحاد يمنةً ويسرةً بيده اليسرى، في حين رفع يمناه ببلادة إلى الشخصية الملكية اللامعة.

قالت جميع السيدات بأنفاس محبوسة: «أوه، انظروا هناك!» وكانت

لوسِتا على وشك الإغماء. اختلست إلِزابث جيْن النظر بين أكتاف الواقفين أمامها ورأت ما كان، فأصابها الذعر، ثم تغلَّب اهتمامها بالمشهد كظاهرة غريبة على خوفها.

وهُرِع فارْفري إلى الموقف على الفور، بما تمتَّع به من سلطة العمدة، فأمسك هنْشَرْد من كتفه، وجرَّه إلى الخلف وأمره بفظاظة أن يبتعد. وتلاقت عينا هنْشَرْد وعينيه، فرأى فارْفري شررًا مخيفًا فيهما رغم توتُّره وهياجه. وقف هنْشَرْد في مكانه ثابتًا لحظة، ثم، ولسبب مبهم، أفسح الطريق وتراجع. ألقى فارْفري نظرة على منصة السيدات ورأى وجنتي حبيبته كالبورنيا[120] شاحبتين.

«عجبًا! إنَّه سيِّد زوجك القديم!» قالت السيدة بلوبودي، سيدة من الجوار كانت تجلس إلى جانب لوسِتا.

«سيِّد زوجي!» قالت زوجة دونلد بسرعة وهي ساخطة.

«أتقولين أنَّ الرجل هو أحد معارف السيد فارْفري؟» علَّقت السيدة باث زوجة الطبيب، وقد وفدت حديثًا إلى البلدة بفضل زواجها بالطبيب منذ عهد قريب.

«إنه يعمل في خدمة زوجي،» قالت لوسِتا.

«أوه، أهذا كلُّ ما في الأمر؟ لقد أخبروني أنَّ زوجك وجد موطأً له في كاستربرِدْج بفضله هو. يا للقصص التي يقولها الناس!»

«إنهم يفعلون ذلك حقًّا. لم يكن الأمر كذلك بتاتًا. إنَّ عبقرية دونلد تجعله يجد موطأً له في أي مكان دون عون أحد! إنَّ الأمر سيَّان حتى لو لم يكن هناك هنْشَرْد في العالم.»

لقد كان جهل لوسِتا بالظروف التي أحاطت بقدوم دونلد هو ما قادها إلى التَّحدُّث على هذا النحو، إلى جانب إحساسها بأنَّ الجميع بدا وكأنه يعاملها

---

120) زوجة قيصر في مسرحية شكسبير «يوليوس قيصر».

بازدراء في لحظة الانتصار هذه. ولم تلبث الواقعة سوى لحظات معدودة، ولكنَّ سموَّ الشخصية الملكية شهدها حتمًا، وإن تظاهر ببراعة بعدم ملاحظة شيء غير مألوف. ترجَّل، فتقدَّم العمدة، ثم أُلقي الخطاب، وردَّ صاحب السُّموِّ، ثم قال بضع كلمات لفازْفري، وصافح لوسِتا بصفتها زوجة العمدة. لم يلبث الحفل سوى دقائق معدودة، وقعقعت العربات قعقعة شديدة كأنها عربات فرعون وهي تشقُّ طريقها على شارع «كورن»، ثم تتجه إلى طريق بُدْموث، لتتابع رحلتها صوب الساحل.

كوني وبُزفورد ولونغويْز كانوا يقفون في الحشد. «هناك فرق بينه الآن وعندما غنَّى في البحَّارة الثلاثة،» قال الأوَّل. «من الرائع أن يجد بهذه السرعة سيدة بمنزلتها تشاطره العيش.»

«صحيح. ولكن كم يعشق الناس المظاهر الجميلة! فهناك امرأة أجمل منها لا أحد يلحظها مطلقًا، لأنَّها قريبة ذاك المتغطرس هنْشَرْد.»

«كم أحبُّك يا بُز لأنك تقول هذا القول،» علَّقت نانْس موكرِدْج. «لكم أودُّ أن أرى أولئك الفاتنات وقد جُرِّدن من تبرُّجهن. إنني لستُ جديرة بأداء دور النَّذل وإلا لكنت وهبت كلَّ ما لديَّ من فضة قليلة لأرى تلك السيدة وقد فُضِح أمرها... ولعلَّني سأرى ذلك قريبًا.» أضافت بنبرة ذات مغزى.

«تلك ليست بعاطفة نبيلة تخفيها امرأة في سريرتها،» قال لونغويْز.

لم تُجب نانْس، ولكنَّ الجميع أدرك ما كانت ترمي إليه. وقد ذاع ما ورد في رسائل لوسِتا حين قُرِئت في «بيترز فِنغَر» وشاع ليصبح فضيحة أخذت تنتشر مثل دخان خانق عبر زقاق «مِكْسِن»، ومن هناك خرجت إلى طرقات كاستربرِدْج الخلفية.

وقد انقسم جمع المتسكِّعين المختلط الذي كان أفراده يعرف بعضهم بعضًا إلى فريقين، كأنَّما بفضل عملية انتقاء طبيعي، فذهب مرتادو «بيترز فِنغَر» إلى أحياء زقاق «مِكْسِن» حيث يقيم معظمهم، في حين بقي كوني

وبُزفورد ولونغويْز وزمرتهم على الطريق.

«أتُراكم تعرفون ما يختمر هناك في الأسفل؟» قال بزفورد بغموض للآخرين.

نظر إليه كوني. «أهو موكب الفضيحة؟» فأومأ بُزفورد.

«تخامرني الشكوك في أنهم سيقدمون على ذلك،» قال لونغويْز. «وإن كانوا سيقدمون على ذلك فهم حريصون على إبقاء الأمر طيَّ الكتمان.»

«على أيِّ حال، سمعت بأنهم يُعِدُّون للأمر منذ أسبوعين.»

«لو كنت متيقِّنًا من الأمر لأدليت بالمعلومات» قال لونغويْز جازمًا. «إنها مزحة سمجة للغاية، وستثير صخبًا وشغبًا في البلدة. إنَّنا نعلم أنَّ الاسكتلندي رجل فاضل وزوجته امرأة فاضلة منذ مجيئها إلى هنا، وإن كان ثمَّة عيب يشوبها قبل ذلك فهذا شأنهما وليس من شأننا.»

أمعن كوني التفكير. ما زال فازفري محبوبًا من الجميع، بيْد أنَّه لا بدَّ من الاعتراف بأنه بوصفه عمدة ورجلًا ذا مال، وغارقًا في شؤونه وطموحه، قد فقد في عيون الفقراء شيئًا من ذلك السحر العجيب الذي كان يمتلكه عندما كان شابًّا خليَّ البال مُعْدِمًا، يُغنِّي عن طيب نفس مثلما تشدو الأطيار على الأشجار. ولذا، فإنَّ حرصهم على تجنيبه الضيق لم يظهر بالحماسة نفسها التي اتَّقدت في الأيام السالفة.

«لعلَّنا نستفسر عن الأمر يا كريستوفر،» أردف لونغويْز، «فإن وجدنا فيه شيئًا من الحقيقة أرسلنا خطابًا إلى أولئك المعنيين وقدَّمنا لهم النصح بأخذ الحيطة؟»

وأجمعوا على هذا الرأي، وانفضَّ الجمع، فقال بُزفورد لكوني: «هيَّا يا صديقي القديم لنمضِ، فما من شيء نراه هنا بعد.»

في الواقع، لو أنَّ أصحاب النيات الحسنة هؤلاء علموا إلى أيِّ حدٍّ نضج حَبْكُ ذلك المزاح العظيم، لَدُهِشوا. «أجل، الليلة،» قال جوب لمجموعة

«بيترز فِنْغَر» في زقاق «مِكْسِن». «خير ختام للزيارة الملكيَّة، ستكون ضربة قاضية بعد ما نالوه من رفعة اليوم.»

لم يكن الأمر مزحًا، في نظره هو على الأقل، بل كان ثأرًا.

الفصل الثامن والثلاثون

لقد كان الحفل قصيرًا، قصيرًا جدًّا للوسِتا، ولكنَّه حقَّق لها نصرًا كبيرًا فغمرتها حالة من النشوة[121] والسُّكْر. وكان أثر مصافحة اليد الملكيَّة ما زال باقيًا في أصابعها، وحتى الحديث العابر الذي سمعته – مع أنَّه لا أساس له – أنَّ زوجها قد يحظى بلقب الفروسية، لم يَبْدُ لها مجرَّد شَطَط خيال، فأمور أغرب من ذلك تقع لرجال طيبين وساحرين كرجلها الاسكتلندي.

بعد مُعَاركتِهِ العمدةَ، انسحب هنْشَرْد إلى وراء منصة السيدات، ووقف هناك يحدِّق بعين شاردة إلى طَيِّ سترته حيث أمسكته يد فارْفري. وضع يده هناك وكأنَّه غير قادر على إدراك إهانة من شخص طالما عامله بكرم شديد فيما مضى. وبينما كان واقفًا شبه مشدوه على هذه الحال تناهى إلى مسمعه حديث لوسِتا إلى السيدات الأخريات، وسمع بوضوح نكرانها إيَّاه، ونكران أنَّه قدَّم يد العون لدونلد، وأنه ليس أكثر من أجير عادي.

انصرف متَّجهًا إلى المنزل وفي المجاز المقنطر المفضي إلى بُل ستيك قابل جوب. «أهانوك إذن،» قال جوب.

«وماذا في ذلك؟» أجاب هنْشَرْد بفظاظة.

«لقد لقيتُ مرَّة ما لقيتَ، وكلانا إذن في الهمِّ واحد.» ثمَّ روى بإيجاز قصة محاولته كسب وساطة لوسِتا.

استمع هنْشَرْد إلى القصة وحسب، ولم يأخذها على محمل الجد، فقد طغت قصته مع فارْفري ولوسِتا على كلِّ قصة أخرى. وراح يحدِّث نفسه بانكسار قائلًا: «لقد توسَّلتْ إليَّ في الماضي، وأمَّا الآن فلسانها لا يعترف

121) في الأصل بالألمانية weltlust، (المترجمة)

ي وعيناها لا تراني! وهو، كم بدا غاضبًا! لقد جرَّني وكأنني ثور سيكسر السياج... وانصعتُ له مثل حَمَل لأنني أدركتُ أنَّ الأمر لن يُحسم هناك. فليفعل وليصبَّ الماء الأُجاج على جرحي الغضّ! ... ولكنَّه سيدفع ثمن ذلك وسيندم. لا بدَّ أن ينتهي الأمر بيننا إلى صراع وجهًا لوجه، وعندئذ سنرى كيف يستطيع أحمق مغرور أن يواجه رجلًا!»

ودون أن يطيل التفكير، بيَّت التاجر المهزوم نيَّة شريرة، فتناول عشاءه على عجل وانطلق باحثًا عن فارْفري. لقد أضرَّ به كمنافس، وأهانه كأجير، بيْد أنَّ الإهانة بلغت مبلغها في هذا اليوم حين أمسك بخناقه وكأنَّه متشرِّد أمام البلدة كلِّها.

تفرَّقت الجموع، وعدا الأقواس الخضراء التي ظلَّت قائمة مثلما شُيِّدت عادت الحياة في كاستربرِدْج إلى سابق عهدها. اتَّجه هنْشَرْد إلى أسفل شارع «كورن» حتى بلغ منزل فارْفري، فطرق الباب وترك ملحوظة بأنَّه سيُسعده أن يلتقي ربَّ عمله في المخازن حالما يلائمه أن يأتي إلى هناك. وبعد أن أنجز ذلك انعطف خلف المنزل ودخل الفناء.

لم يكن أحد هناك، ذلك أنه كان يعلم أنَّ العُمَّال والحوذيين يستمتعون بعطلة نصف يوم بعد حفل ذلك الصباح، غير أنَّ الحوذيين سيعودون بعد وقت قصير لاحقًا لعلْف الخيول وتهيئة القش مهادًا لها. وبلغ درجات سُلَّم المخزن، وكان على وشك الصعود عندما حدَّث نفسه بصوت عال قائلًا: «أنا أقوى منه.»

عاد هنْشَرْد إلى سقيفة في الفناء واختار حبلًا قصيرًا من بين حبال عديدة ملقاة هناك، فربط أحد طرفيه بمسمار، وأخذ الطرف الآخر بيمناه ولفَّ الحبل حول جسده واضعًا ذراعه إلى جنبه، وبهذه الحيلة أوثق ذراعه بإحكام. ثم صعد السُّلَّم إلى الطابق العلوي لمخزن الحنطة.

كان الطابق خاليًا إلا من بضعة أكياس، وكان هناك في الطرف الباب

الذي ذكرناه في السابق كثيرًا، وكان مفتوحًا فظهرت تحته الرافدة الخشبية والسلسلة التي ترفع الأكياس. فتح هنْشَرْد الباب على اتساعه وأخذ ينظر من فتحته. كان هناك عمق يبلغ ثلاثين أو أربعين قدمًا يصل إلى الأرض، وكانت هنا البقعة التي وقف فيها مع فارْفري حينما رأته إلِزابث جيْن يرفع ذراعه فراودتها شكوك شتَّى في ما يمكن أن تنذر به تلك الحركة.

تراجع بضع خطوات إلى داخل الطابق وراح ينتظر. ومن مجثمه العالي هذا استطاعت عيناه أن تريا أسطحَ البيوت المحيطة، والأجزاءَ العلوية من أشجار الكستناء الوافرة التي أمست أوراقها رقيقة وقد بلغ عمرها أسبوعًا، وأغصانَ الزَّيْزَفون المتدلية، وحديقةَ فارْفري، والبابَ الأخضر المفضي إليها. ولا يعلم كم مضى من الوقت حين فُتح الباب الأخضر وخرج فارْفري. كان يرتدي ثيابًا وكأنه خارج في رحلة. أنار ضوءُ المساء الخافت رأسَه ووجهَه وهو يبرز من ظلال الجدار، فأسبغ عليهما دفئًا وهما يتخذان لون اللهب. راقبه هنْشَرْد وهو يَزُمُّ شفتيه، فبرز فكُّه المربع وجانب وجهه على نحو غير ملائم.

أقبل فارْفري وإحدى يديه في جيبه وهو يدندن لحنًا بطريقة توحي بأنَّ معظم كلمات الأغنية يتردَّد في ذهنه. كانت الأغنية إحدى تلك الأغاني التي غنَّاها في «البحَّارة الثلاثة» عندما وصل منذ سنوات شابًّا مُعْدِمًا، مغامرًا في الحياة والحظ، وبالكاد يعرف وجهته:

«هذي يدي يا صاحبي قدِّم إليَّ يدًا.»[122]

ما من شيء كان يثير مشاعر هنْشَرْد مثل لحن قديم، فتراجع إلى الوراء: «كلَّا، لا أستطيع فعل ذلك!» كان يلهث. «لِمَ يُردِّد الشيطان الأحمق هذا اللَّحن الآن!»

وأخيرًا صمت فارْفري ونظر هنْشَرْد من باب الطابق العلوي. «هلَّا صعدت إلى هنا؟» قال.

---

122) مقطع من قصيدة «الأيام الخوالي» Auld Lang Syne التي تحتفي بالصداقة لروبرت بيرنز.

«أجل يا رجل،» قال فازفري. «لم أتمكَّن من رؤيتك. ما الخطب؟»

وبعد لحظة سمع هنْشَرْد وقع خطواته على درجات السُّلَّم السفلية. سمعه يصل إلى الطابق الأول، ثم يصعد ويصل إلى الطابق الثاني، ويبدأ الصعود إلى الثالث. وبعدها برز رأسه من الفتحة خلفه.

«ما الذي تفعله في الأعلى في هذا الوقت؟» سأله وهو يتقدَّم. «لِمَ لمْ تخرج في عطلتك مثل بقية الرجال؟» وقد تحدَّث بنبرة كان فيها من الحدَّة ما يكفي ليظهر أنَّه تذكَّر الحدث المشؤوم في صدر ذلك النهار، وأنه اعتقد بأنَّ هنْشَرْد كان ثمِلًا.

لم يقل هنْشَرْد شيئًا، ولكنَّه تراجع إلى الخلف وأغلق فتحة السُّلَّم، ووقف فوقها حتى استقرت بثبات في إطارها، ثم التفت إلى الشاب المستغرب الذي لاحظ حينها أنَّ إحدى ذراعي هنْشَرْد كانت مربوطة إلى جنبه.

«والآن،» قال هنْشَرْد بهدوء، «ها نحن نقف وجهًا بوجه، رجلًا برجل. ما عادت أموالك ولا زوجتك الجميلة تضعانك في منزلة أعلى مني كما في السابق، وفقري لا يحطُّ من شأني.»

«ما الذي يعنيه هذا كلُّه؟» سأل فازفري ببساطة.

«مهلًا أيُّها الفتى. كان ينبغي أن تفكِّر جيِّدًا قبل أن تُهين رجلًا لم يعد لديه ما يفقده. لقد تحمَّلت منافستك التي دمَّرتني، وزجرك الذي أذلَّني، أمَّا أن تدفعني دفعًا وتلحق بيَ العار، فهذا ما لا أطيق!»

غضب فازفري قليلًا. «لا شأن لك هناك.»

«بل لي شأن هناك بقدر ما لأيِّ واحد منكم! ويحك أيُّها المراهق الوقح، أتقول لرجل راشد أن لا شأن له هناك!» وانتفخت عروق جبهته وهو يتحدَّث.

«لقد أهنت الموكب الملكي يا هنْشَرْد، وكان من واجبي بصفتي كبير القضاة أن أوقفك.»

«اللعنة على الموكب الملكي،» قال هنْشَرْد. «وأنا مخلص له بقدر

إخلاصك في الواقع!»

«لست هنا للجدال. انتظر ريثما تهدأ، انتظر ريثما تهدأ، وسترى الأشياء مثلما أراها.»

«لعلَّه أنت من ينبغي أن يهدأ أولًا،» قال هنْشَرْد بتجهُّم. «والآن هذه هي القضية. ها نحن في هذا الطابق المربع المرتفع، فلننهِ ذاك الصراع الصغير الذي بدأته أنت هذا الصباح. ذاك الباب، يرتفع أربعين قدمًا عن الأرض. على أحدنا أن يدفع الآخر من ذلك الباب، والغالب منَّا يبقى في الداخل. وإن شاء فليذهب إلى الأسفل بعد ذلك وينذر الناس أنَّ الآخر قد وقع مصادفة، أو يمكنه أن يقول الحقيقة، وذلك شأنه. ولأنني الرجل الأقوى فقد ربطت إحدى ذراعيَّ حتى لا أنتهز الفرصة لاستغلالك. أتفهم؟ هيَّا إذن.»

لم يكن هناك وقت أمام فارْفري ليقوم بشيء إلا أن يُصادِم هنْشَرْد، ذلك أنَّ الأخير تقدَّم في الحال. كانت مباراة مصارعة، هدف كل طرف فيها إسقاط خصمه للخلف، وأمَّا في نظر هنْشَرْد، فكان لا بد أن يتمَّ ذلك، بلا شك، عبر الباب.

في البداية أخذ هنْشَرْد يقبض بيده الوحيدة الطليقة، وكانت اليمنى، الجانبَ الأيسر من ياقة فارْفري التي أحكم إمساكه بها، وكان الأخير يمسك بياقة هنْشَرْد بيده اليسرى. حاول فارْفري بيده اليمنى أن يمسك بذراع خصمه اليسرى ولم يستطع لأنَّ هنْشَرْد أبقاها ببراعة خلفه وهو يحدِّق إلى العينين المُسبلتيْن لخصمه الوسيم النحيف.

حرَّك هنْشَرْد مُقَدَّمَ قدمه للأمام، فاعترضه فارْفري بمقدَّم قدمه، وبذلك اتخذت المصارعة إلى حد بعيد هيئة المصارعة المألوفة في تلك الأنحاء. انقضت دقائق معدودة وهما على هذه الحال، وكانا يهتزَّان ويتلوَّيان مثل شجرتين في عاصفة، وقد لاذ كلاهما بصمت مطبق، حتى بات بالإمكان سماع أنفاسهما. ثم حاول فارْفري أن يمسك بالجانب الآخر من ياقة هنْشَرْد، غير أنَّ

الرجل الأضخم قاومه بكلِّ ما أوتي من قوَّة وقام بليِّ ذراعه، وانتهى هذا الجزء من الصراع بمجرَّد أن ضغط بذراعه المفتولة على فارْفري فدفعه إلى الرُّكوع على ركبتيه. ولأنَّه كان مقيَّد الذراع، لم يستطع الإبقاء على خصمه في وضعه ذاك، فتمكَّن فارْفري من الوقوف على قدميه مجدَّدًا واستأنفا الصراع.

دفع هنْشَرْد دونلد فجأةً دفعًا خطيرًا جعله قاب قوسين أو أدنى من شفا الهاوية، ولما رأى الاسكتلندي وضعه على هذا النحو تشبَّث بخصمه لأول مرَّة، وكلُّ جهود ذلك الشيطان الحانق – كما يمكن أن يُطلق عليه بسبب هيئته الآن – باءت بالفشل في أن يبعد فارْفري عنه أو يفلته بعض الوقت. وقد بذل جهدًا استثنائيًا حتى نجح أخيرًا، إلَّا أنَّ ذلك لم يتم إلا حينما تراجعا مبتعديْن عن باب الهلاك. وعند ذلك احتال هنْشَرْد ودفع فارْفري لينقلب رأسًا على عقب. ولو كانت ذراع هنْشَرْد الأخرى حرَّة، لانتهى أمر فارْفري عند هذا الحدِّ، ولكنَّه استعاد قواه وانتصب واقفًا مرَّة أخرى ولوى ذراع هنْشَرْد ليًّا شديدًا سبَّب له ألمًا حادًّا، إذ كان يمكن رؤية ذلك في ارتعاش وجهه، فما كان منه إلا أن ركل الشاب من فوره ركلةً مهلكة في وركه اليسرى، ثم اغتنم الفرصة ودفعه صوب الباب، ولم يُرخِ قبضته قطّ حتى تدلَّى رأس فارْفري الأشقر من فتحة الباب وذراعه خارج الحائط.

«والآن،» قال هنْشَرْد وهو يلهث، «هذه نهاية ما بدأتَه هذا الصباح. حياتك بين يديّ.»

«فلتأخذها إذن، خذها!» قال فارْفري. «فقد تمنَّيتَ ذلك منذ زمن.»

أطرق هنْشَرْد ناظرا إليه بصمت، فتلاقت عيونهما. «أوه يا فارْفري! ذلك ليس صحيحًا!» قال بمرارة. «الرَّبُّ يشهد على أنَّه ما من رجل أحبَّ رجلًا آخر كما فعلتُ أنا ذات مرة... والآن، مع أنني أتيت إلى هنا لقتلك، لا أستطيع إيذاءك! اذهب والقِ التُّهمة عليَّ، افعل ما تشاء، لا يهمُّني ما سيحلُّ بي!»

انسحب إلى الجزء الخلفي من الطابق، فكَّ وثاق ذراعه وألقى بنفسه

في الزاوية على بعض الأكياس مستسلمًا للنَّدم. طالعه فازْفري بصمت، ثم ذهب إلى الفتحة وهبط السلالم عبرها. رغب هنْشَرْد أن يناديه، ولكنَّ لسانه خانه، فتلاشت خطوات الشاب في أذنيه.

لقد تجرَّع هنْشَرْد نصيبه من الخزي وتقريع الذات كاملًا. وأخذت تتدفَّق في خياله مشاهد معرفته الأولى بفازْفري، ذلك الحين عندما ملك عليه جوانحَه ذلك المزيج العجيب من العاطفة والعافية في بنية الشاب، فاستطاع فازْفري أن يتلاعب بهذا المزيج كما تُعزف آلة موسيقية. بدا واهنًا خائر النفس، فربض على الأكياس في هيئة محنيَّة ذليلة، من غير المعتاد أن تُرى في رجل، وفي رجل كهذا. لقد تبدَّى وهن أنثوي على جسد هذا الرجل الصارم على نحوٍ يبعث على الأسى. سمع حديثًا في الأسفل، وصوت باب إسطبل وهو يُفتَح ويُدخَل إليه فرس، ولكنَّه لم يُلقِ بالًا لذلك.

وبقي هنا حتى تكثَّفت الظلال الخفيفة وغدت ظلمة حالكة، واتَّخذ باب الطابق العلوي شكلًا مستطيلًا من الضوء الرمادي، وهو الشكل المرئي الوحيد هناك. وأخيرًا نهض، ونفض الغبار عن ثيابه بضجر، ثمَّ تحسَّس طريقه إلى الفتحة، وهبط السلالم متلمِّسًا خطواته حتى بلغ الفناء ووقف هناك.

«لقد كان ينظر إليَّ بتقدير فيما مضى،» تمتم. «وأمَّا الآن فسيكرهني ويمقتني إلى الأبد!»

تملَّكته رغبة طاغية في أن يرى فازْفري مرة أخرى تلك الليلة، وأن يتضرَّع إليه يائسًا بأنْ يَمُنَّ عليه بعفوه عمَّا أتاه مؤخَّرًا من هجوم مجنون، وإن كان ذلك مهمة شبه مستحيلة. غير أنَّه لمَّا مشى جهة منزل فازْفري تذكَّر الأحداث التي لم يُلقِ إليها بالًا في الفناء حينما كان مستلقيًا في الأعلى وهو شبه غائب عن الوعي. تذكَّر أنَّ فازْفري ذهب إلى الإسطبل وربط الفرس إلى العربة الصغيرة، وبينما كان في عمله ذاك أتاه وِتل برسالة، وقال فازْفري حينها أنه لن يتجه إلى بُدْموث كما اعتزم، لأنه اسُتدعي على نحو غير متوقَّع للذهاب إلى

وِذَرْبِري، وعليه أن يقف في مِلستوك في طريقه إلى هناك، حيث لا يبعد ذلك المكان سوى ميل أو ميليْن عن مسار طريقه.

لا بدَّ أنَّه قدم مستعدًّا للخروج في رحلة عندما جاء أول مرة إلى الفناء، غير مرتاب في أيِّ خصام، ولا بدَّ أنَّه قاد عربته (ولكن في اتجاه مختلف) من دون قول كلمة واحدة لأي شخص عمَّا وقع بينهما.

وعلى ذلك، سيكون من العبث زيارة منزل فارْفري حتى وقت متأخِّر.

لم يكن ثمَّة بُدٌّ سوى الانتظار إلى أن يعود، مع أنَّ الانتظار كان تعذيبًا لروحه المضطربة ونفسه المثقلة بعذاب الضمير. وراح يهيم في طرقات البلدة وضواحيها، متسكِّعًا هنا وهناك حتى بلغ الجسر الحجري الذي ذُكِر آنفًا، والذي أصبح ملاذه المعتاد الآن. وقضى هنا وقتًا طويلًا، حيث خرير الماء المتدفق من السدود يلاقي أذنيه، في حين كانت مصابيح كاستربرِدْج تومض على مقربة منه.

وبينما هو على هذه الحال متكئ على الحاجز، أيقظ اهتمامَه الفاتر أصواتٌ غير مألوفة أتت من ساحة البلدة. وكانت هذه الأصوات خليطًا من جلبة إيقاعية، زادها تردُّد الصدى في الطرقات تشويشًا. فكَّر أوَّل وهلة بلا مبالاة في أنَّ الضجة الصاخبة آتية من فرقة البلدة وهي تحاول اختتام يوم بارز لا يُنسى بالاحتفال على إيقاع المساء، إلَّا أنَّ تفكيره هذا ناقضته بضع سمات غريبة في رجْع الصوت. بيْد أنَّ تعذُّر تفسير الأمر لم يُثِر فيه أكثر من اهتمام خاطف، ذلك أنَّ إحساسه بالخزي كان أقوى من تدخُّل أيِّ أفكار غريبة، فبقي متَّكئًا على الحاجز كما كان.

الفصل التاسع والثلاثون

عندما هبط فارْفري من الطابق العلوي لاهثًا على إثر مواجهته هنشَرْد، وقف في الأسفل ليستعيد قواه. كان قد جاء إلى الفناء بنيَّة ربط الفرس إلى العربة بنفسه (لمَّا كان جميع الرجال في عطلة)، وقيادتها إلى قرية على طريق بُدْموث. وبالرَّغم من ذلك الصراع المخيف، قرَّر متابعة رحلته حتى يتأتَّى له استعادة رُشدِه قبل الدخول إلى المنزل ومقابلة عيني لوسِتا. لقد أراد أن يمعن التفكير في طريقه في مسألة بهذه الخطورة.

ولمَّا كان على وشك قيادة العربة وصل وِتل حاملًا ملحوظة معنونة بخطٍّ رديء وتحمل كلمة «عاجل» على الغلاف. وحينما فتحها دُهش من أنَّها لم تكن تحمل توقيعًا. كانت تتضمن طلبًا موجزًا بأن يذهب إلى وِذَربِري في ذلك المساء بشأن عمل يخصه هناك. لم يكن فارْفري يدري إن كان ثمَّة ما يجعل الأمر مُلحًّا، ولكنَّه لمَّا كان عازمًا على الخروج فقد رأى أن يستجيب للطلب المجهول، ولا سيَّما أنه كان عليه أن يزور ملستوك التي يمكن جعلها في خط الرحلة نفسه. وعلى ذلك أخبر وِتل بتغيير وجهته، بكلمات تناهت إلى سمع هنشَرْد، وانطلق في رحلته. ولم يأمر فارْفري الرجل بحمل خبر رحلته إلى المنزل، كما لم يكن وِتل ليحمل على عاتقه فعل ذلك من تلقاء نفسه.

لقد كانت الرسالة المجهولة حيلة غير متقنة دبَّرها لونغويْز ورجال فارْفري الآخرون عن حسن نيَّة من أجل إبعاده عن الطريق في ذلك المساء كي تخفق تلك المسرحية الساخرة إذا ما حاولت تلك الزُّمرة تنفيذها. ورأوا أنهم إن أدلوا بمعلومات واضحة فسينتقم منهم شرَّ انتقام أولئك الرِّفاق الذين كانوا يجدون لذَّة في هذه الألاعيب الصاخبة القديمة، ولهذا كان في خطة

إرسال رسالة عن طريق الاحتيال ما يشفع لهم.

أمَّا المسكينة لوسِتا، فلم يتَّخذوا أي إجراء لحمايتها، معتقدين شأنهم شأن الأغلبية أنَّ ثمَّة شيئًا من الحقيقة في الفضيحة، وعليها أن تحتملها قدر مستطاعها.

كانت الساعة تناهز الثامنة، وكانت لوسِتا تجلس في حجرة الاستقبال وحيدة. وكان الليل قد هبط منذ أكثر من نصف ساعة، ولكنَّها لم تأمر بإشعال الشموع، ذلك أنه عندما يكون فارْفري خارجًا كانت تُفضِّل انتظاره على ضوء المدفأة، وعندما لا يكون الطقس باردًا كانت تترك إطار إحدى النوافذ مفتوحًا قليلًا حتى يتناهى إلى سمعها صوت عجلات عربته باكرًا. كانت تجلس متكئة على مقعدها بمزاج مفعم بالأمل أكثر من أي وقت مضى منذ زواجها. لقد حقَّق ذلك اليوم نجاحًا باهرًا، وذلك الانزعاج المؤقت الذي أثاره فيه هنْشَرْد بمسلكه الوقح تلاشى بانسحاب هنْشَرْد نفسه بهدوء بسبب تقريع زوجها. كما أنَّ الأدلة الشاهدة على علاقتها العبثيَّة به قد أُتلفت ولم يعد هناك ما يثير خوفها مطلقًا.

وَشَتَّتَ استغراقَها في تأملاتها المختلطة بأفكار أخرى هَرْجٌ ومَرْجٌ أقبلا من بعيد وشيئًا فشيئًا أخذا يزيدان صخبهما. ولم تستغرب الأمر كثيرًا، فقد كان الأصيل مخصصًا للهو بين غالبية الأهالي منذ مرور الموكب الملكي. بيَد أنَّ ما استرعى انتباهها فورًا إلى الأمر كان صوت خادمة في المنزل المجاور وهي تتحدَّث من نافذة علويَّة تطلُّ على الشارع إلى خادمة أخرى كانت تجلس إلى نافذة أكثر ارتفاعًا من نافذة الأولى.

«أيُّ طريق يسلكون الآن؟» سألت الأولى باهتمام.

«لست على يقين الآن،» قالت الثانية، «لا أراهم بسبب مدخنة صانع المَلْت[123]. أوه نعم، بوسعي رؤيتهم الآن. إنني حتمًا أراهم، حتمًا!»

123) malt شعير مُنبَت بالنقع في الماء ويستخدم في تخمير الجعة.

«ماذا، ماذا؟» قالت الأولى بحماسة أكبر.

«على أيِّ حال، إنهم يصعدون إلى شارع «كورن»! إنهما يجلسان متقابلي الظهر!»

«ماذا، اثنان، أهما اثنان؟»

«أجل. دميتان على حمار، تجلسان متقابلتي الظهر، وذراعا أحدهما مربوطتان إلى ذراعي الآخر! هي تواجه الرأس، وهو يواجه الذيل.»

«هل يُقصد بذلك شخصان بعينهما؟»

«حسنٌ، ربما. الرجل يرتدي سترة زرقاء وجراميق صوفيَّة، له شاربان أسودان ووجه محمرّ. إنه صنم محشو وله قناع.»

أخذ الضجيج يعلو الآن، ثم خَفَتَ قليلًا.

«على كلِّ حال أنا لا أستطيع رؤية شيء!» صاحت الخادمة الأولى خائبة الأمل.

«لقد مضوا إلى شارع خلفي، هذا كل شيء.» قالت الخادمة التي كانت تحتل المكان الذي تُحسد عليه في العلية. «ها هم، الآن أستطيع رؤيتهم بكل وضوح!»

«كيف تبدو هيئة المرأة؟ قولي وحسب وسأتمكَّن من معرفتها في لحظة إن كانت تلك التي في خاطري.»

«إنها في الثوب نفسه الذي ارتدته وهي جالسة في المقعد الأمامي عندما أتى الموكب الملكي إلى مجلس البلدية!»

وانتصبت لوسِتا واقفة، وفي تلك اللحظة تقريبًا فُتح باب الحجرة بسرعة وبلطف. وتقدَّمت إلِزابث جيْن إلى المدفأة.

«لقد أتيت لرؤيتك،» قالت لاهثة الأنفاس، «لم أتوقَّف لطرق الباب، اعذريني! أرى أنك لم تغلقي المصاريع بعد والنافذة مفتوحة.»

ودون أن تنتظر ردَّ لوسِتا مضت إلى النافذة بسرعة وسحبت أحد

المصراعين. وانسلَّت لوسِتا إلى جانبها. «ليكن، صه!» قالت على نحو قاطع وبصوت جاف، وهي تمسك بيد إلِزابث جيْن وترفع أصبعها. وكان حديثهما خفيضًا ومتعجلًا جدًّا حتى لا تغيب عنها كلمة من الحديث الدائر في الخارج والذي استُئنِف كالآتي: «عنقها مكشوف، وشعرها مربوط بشرائط، ومشطها في مكانه، وعليها ثوب حريري داكن الحمرة، وجوربان أبيضان، وحذاء ملوَّن.»

حاولت إلِزابث جيْن إغلاق النافذة مرة أخرى، ولكنَّ لوسِتا أمسكتها بقوة.

«إنَّها أنا،» قالت بوجه شاحب شحوب الموت. «موكب! فضيحة! دمية له ودمية لي!»

وأوحت نظرة إلِزابث أنَّ لوسِتا قد علمت بالأمر.

«لنغلق النافذة»، قالت إلِزابث جيْن بلطف، وقد رأت ملامح لوسِتا وهي تزداد صرامة وجموحًا مع اقتراب الضجة والضحك. «لنغلق النافذة!»

«لا جدوى من ذلك!» زعقت. «سيراه، ألن يراه؟ دونلد سيراه! إنه على وشك المجيء وسيفطر ذلك قلبه، ولن يكون بوسعه أنَّ يُحبَّني بعد ذلك أبدًا، أوَّاه، سيقتلني هذا، سيقتلني!»

هاجت نفس إلِزابث جيْن. «أوه، ألا يمكن فعل شيء لإيقافه؟» صاحت. «أما من أحد يفعل شيئًا، أما من أحد؟»

أفلتت يدي لوسِتا وركضت إلى الباب. صاحت لوستا بطيش: «سأراه!» واستدارت إلى النافذة، فرفعت المصراع وخرجت إلى الشرفة. ولحقتها إلزابث من فورها وأحاطتها بذراعها ساحبة إيَّاها إلى الداخل. وقعت عينا لوسِتا مباشرة على مشهد العربدة الغريب وهو يتقدَّم بسرعة. وقد أحاطت بالدميتيْن أضواء كثيرة جعلتهما واضحتين وضوحًا شنيعًا، فكان من المحال أن يظنَّ المرء أنَّهما تُمثِّلان شخصين آخرين غير الضحيتيْن المقصودتيْن.

«ادخلي، ادخلي،» توسَّلت إلِزابث، «ودَعِيني أغلق النافذة!»

«إنَّها أنا، إنَّها أنا، حتى المظلة، مظلتي الخضراء!» صاحت لوسِتا ضاحكة بهياج وهي تخطو إلى الداخل. ووقفت بلا حراك هنيهةً ثم وقعت على الأرض مغشيًّا عليها.

وعند سقوطها تقريبًا توقَّفت موسيقى موكب الفضيحة الهمجيَّة. وراحت القهقهة الساخرة تتلاشى مثلما يتلاشى هدير الأمواج، واختفى وطء الأقدام مثل حفيف ريح منهوكة القوى. ولم تَعِ إلزابث ما حدث إلا على نحو غير مباشر، فقرعت الجرس، ومالت على لوسِتا التي بقيت متشنجة على البساط في نوبة صرع. وقرعت الجرس مرات ومرات دون جدوى، وبدا أنَّ الخدم جميعهم قد سارعوا بالخروج من المنزل للتَّفرُّج على الجَمعة الشيطانيَّة على نحوٍ أفضل مما لو كانوا في الداخل.

وأخيرًا جاء خادم فارْفري الذي كان واقفا عند عتبة الباب فاغر الفم، ثم تبعته الطاهية. دفعت إلِزابث مصاريع النوافذ على عجل، وأحكمت إغلاقها، ثمَّ أُشعِلت شمعة، وحُمِلت لوسِتا إلى حجرتها، وأُرسِل الرجل في طلب طبيب. وبينما كانت إلزابث تخلع عن لوسِتا ثوبها استعادت وعيها، ولكنَّها حالما تذكرت ما حدث عاودتها النَّوبة.

وصل الطبيب على عجل ولكن دون أمل يُرتجى. وكان يقف بباب منزله شأنه شأن الآخرين سائلًا عمّا يمكن أن تعنيه الجلبة. وحالما رأى المريضة الحزينة قال مجيبًا عن استغاثة إلزابث الصامتة: «إنه أمر خطير.»

«إنها نوبة.» قالت إلزابث.

«أجل. ولكن نوبة في حالتها هذه تعني أمرًا جللًا. يجب أن ترسلوا في الحال إلى السيد فارْفري. أين هو؟»

«لقد قاد عربته متجهًا إلى القرية يا سيدي.» قالت خادمة الصالة، «إلى مكان ما على طريق بُدموث. ومن المرجَّح أن يعود قريبًا.»

«لا بأس، يجب أن ترسلوا في طلبه، فلعلَّه لا يُعجِّل بالعودة.»

عاد الطبيب إلى جانب السرير مرة أخرى. وأُرسل الرجل على الفور، وسرعان ما سمعوه يخبُّ خارجًا من الفناء خلف المنزل.

في الوقت نفسه، سمع السيد بنجامين غرُوَر، ممثل البلدة – الذي سبقت الإشارة إليه – وهو جالس في منزله في شارع «هاي» جلبة السواطير، والملاقط، والدُّفوف، والكمان، والقياثير، والكمنجات، والأبواق، والمزامير، وغيرها من ضروب الآلات الموسيقية التاريخية، فوضع قبعته وخرج يتفقَّد الأمر. أتى إلى زاوية الطريق عند منزل فارْفري، وسرعان ما حدس بطبيعة ما يجري، ذلك أنه من أهالي البلدة وقد شهد مِزاحًا سمجًا كهذا من قبل. وكان أول ما قام به هو البحث عن الشرطة هنا وهناك، وكان هناك اثنان منهم في البلدة، وهما رجلان عجوزان تمكَّن منهما الوهن، وقد عثر عليهما أخيرًا مختبئين في أحد الأزقة، وبان عليهما الوهن أكثر من المعتاد، إذ انتابتهما مخاوف لا أساس لها من أن يعامَلوا بفظاظة إن رآهما أحد.

«ماذا بوسعنا نحن الكسيحيْن المسكينيْن أن نفعل إزاء هذا الحشد كله!» قال ستَبرْد محتجًّا في ردِّه على تقريع السيد غرُوَر. «سوف يغريهم تدخُّلنا بقتلنا، وذلك يعني موت مقترف الجريمة، ولن نكون السبب في موت إنسان دونما داعٍ، كلَّا، لسنا نحن!»

«فلتلتمِسا بعض العون إذن! هيَّا، سآتي معكما. وسنرى ما ستفعله كلمة السُّلطة معهم. هيَّا بسرعة، أمعكما الهَرَاوَى؟»

«لم نشأ أن يلاحظ الناس أننا قدمنا بصفتنا من رجال الأمن، ونحن نعاني نقصًا في العدد يا سيدي، ولذا فقد دفعنا بِهرَاوَتَي الحكومة إلى هذه البالوعة.»

«أخرجاهما وتعالَيَا بحقِّ الرب! آه، ها هو السيد بلوبودي لحسن الحظ!» (كان بلوبودي ثالث قضاة البلدة.)

«ما هذه الضجة؟» قال بلوبودي. «هل أخذتم أسماءهم؟»

«كلَّا. والآن،» قال غروَر لأحد الشرطيين، «اذهب أنت مع السيد بلوبودي ودورا حول الممشى القديم واصعدا الطريق، وسأذهب أنا مع ستبرد مباشرة. وبهذه الخطة سنحاصرهم بيننا. خذ أسماءهم وحسب، دون هجوم أو مقاطعة.»

وهكذا انطلقوا. ولكن عندما تقدَّم ستبرد مع السيد غروَر إلى شارع «كورن» حيث أتت الأصوات فوجئا باختفاء الموكب. ومرَّا بمنزل فازفري وراقبا نهاية الطريق. كان وهج المصابيح يتلألأ، والأشجار تئنُّ، وكان ثمَّة بعض المتسكعين يقفون هناك وأيديهم في جيوبهم. كل شيء كان كالمعتاد.

«أرأيت عصبة من المهرجين يُسبِّبون إزعاجًا؟» قال غروَر بنبرة قاضٍ لأحدهم وكان يرتدي معطفًا قطنيًا، ويُدخِّن غليونًا قصيرًا، ويضع أحزمة حول ركبتيه.

«عذرًا يا سيدي؟» قال الشخص المخاطب بلامبالاة، والذي لم يكن سوى تشارل، مرتاد «بيترز فِنْغَر». وكرَّر السيد غروَر كلماته.

ببراءة طفوليَّة هز تشارل رأسه نافيًا. «كلَّا، لم نر شيئًا، هل رأينا شيئًا يا جو؟ وأنت كنت هنا قبلي.»

بدا جوزيف مغفلًا أكثر من الآخر في ردِّه.

«همم، ذلك أمر غريب،» قال السيد غروَر. «آه، ها هو رجل محترم قادم أعرفه بالنظر. هل رأيت،» استفسر موجِّهًا سؤاله إلى جوب وهو يقترب، «هل رأيت عصابة من الأشخاص يثيرون صخبًا وضجيجًا، أعني موكب فضيحة أو شيئًا من هذا القبيل؟»

«أوه لا، لا شيء يا سيدي.» أجاب جوب وكأنما تلقَّى أكثر الأخبار غرابة. «لكنني لم أبتعد الليلة، فلعلَّ...»

«أوه، لقد كانوا هنا، هنا تحديدًا.» قال القاضي.

«الآن لاحظت بعد أن فكَّرت في الأمر يا سيدي، أنَّ الريح في ممشى

الأشجار تصدر همهمة غريبة أشبه بالشِّعر هذه الليلة أكثر من المعتاد، ولذا لعلَّ هذا الصوت هو السبب؟ « قال جوب وهو يعيد وضع يده في جيب معطفه الكبير (حيث كان يحمل ببراعة ملقطًا وبوقًا أخفاهما تحت صداره.)

«لا، لا، لا، أتظنُّني أحمق؟ أيُّها الشرطي تعال من هذا الطريق. لا بدَّ أنهم ذهبوا إلى الشارع الخلفي.»

ولكنَّهم لم يعثروا على مثيري الشغب، لا في شارع خلفي ولا أمامي، وأمَّا بلوبودي والشرطي الثاني اللذان جاءا في تلك اللحظة، فقد حملا أنباءً شبيهة. لقد اختفت الدميتان، والحمار، والقناديل، والفرقة، كما اختفت عُصبة كوموس[124].

«والآن،» قال السيد غروَر، «ليس أمامنا إلا شيء واحد يمكننا فعله. أحضرا ستة مساعدين واذهبا في مجموعة إلى زقاق «مِكْسِن» ومن ثمَّ إلى «بيترز فِنْغَر». ولا بدَّ أن تعثروا هناك على مفتاح يدلكم إلى المذنبين.»

سعى منفذا القانون الواهنان إلى الحصول على دعم قدر المستطاع، ومضت المجموعة إلى الزقاق السيئ السمعة. ولم يكن يسيرًا الوصول إلى هناك في الليل، إذ لم يكن هناك مصباح أو ضوء من أي نوع ينير لهم الطريق ما عدا شعاع شاحب متقطِّع يأتي من خلال ستار نافذة أو عبر شق باب لم يكن من الممكن سدُّه بسبب دخان المدخنة المتسرِّب إلى الداخل. وأخيرًا دخلوا إلى الحانة بجرأة، عبر الباب الأمامي الذي كان موصدًا حتى ذلك الحين، والذي فُتِح بعد طرق طويل صاخب يتفق وأهمية وضعهم.

وعلى مقاعد الحجرة الكبيرة، المربوطة إلى السقف بالحبال كالمعتاد من أجل ثباتها، جلست زمرة من الأشخاص الذين كانوا يشربون ويدخنون بهدوء وصمت. نظرت صاحبة الحانة بلطف إلى الغُزاة وقالت بنبرة بريئة:

---

124) كوموس، مسرحية رمزية لجون مِلتون يؤديها ممثلون مقنَّعون. تدور أحداثها حول اختطاف الساحر كوموس عذراء فاتنة يفشل في إغوائها، ثمَّ يتمكَّن أخواها أخيرًا من إنقاذها بمساعدة ساحر طيِّب، فيقضيان على كوموس وعصبته حتى يتبدَّد جمعهم ويختفي.

«عمتم مساء أيها السادة، ثمَّة متَّسع لكم. أرجو ألَّا يكون هناك خطأ ما؟»

ونقَّلوا أنظارهم في أرجاء الحجرة. «حتمًا،» قال ستبرد لأحد الرجال، «ألم أرك قبل قليل في شارع «كورن»، وكان السيد غروَر يتحدَّث إليك؟»

هزَّ الرجل رأسه بشرود، وكان هو تشارل. «إنَّني هنا منذ الساعة الأخيرة، أليس كذلك يا نانْس؟» قال للمرأة التي كانت ترتشف جعتها بتأمُّل إلى جواره.

«إنَّك محقّ. لقد جئتُ إلى هنا التماسًا لكأسين من الجعة بعد العشاء، وكنت أنت هنا منذ ذلك الحين وكذلك البقيَّة.»

كان الشرطي الآخر يقف مواجهًا ساعة الحائط، فرأى على زجاجها انعكاس حركة سريعة ندَّت عن صاحبة الحانة، فالتفت بحدة، وباغتها وهي تغلق باب الفرن.

«هناك شيء غريب في الفرن يا سيدتي!» قال وهو يقترب، ففتحه وسحب دُفًّا.

«أوه، قالت معتذرة، «هذا ما نضعه هنا لنستخدمه عندما نقيم حفلًا راقصًا بسيطًا وهادئًا. إنك تعلم أنَّ الطقس الرطب يفسده، ولذلك وضعته هناك لإبقائه جافًّا.»

أومأ الشرطي وكأنَّه يعرف، ولكنَّه لم يكن يعرف شيئًا. لم يكن من الممكن استخراج أي شيء البتَّة من هذا الجمع الأخرس المسالم. وفي غضون دقائق معدودة خرج المحقِّقون، وانضمُّوا إلى مساعديهم المنتظرين عند الباب، ثم تابعوا طريقهم إلى مكان آخر.

الفصل الأربعون

قبل هذا الوقت بكثير، اتَّجه هنْشَرْد إلى البلدة وقد أنهكته تأمُّلاته على الجسر. وبينما كان واقفًا أسفل الطريق إذ بموكب يندفع أمام ناظريه وهو يخرج من زقاق في أعلى الطريق. راعته القناديل والأبواق والحشود، ورأى الصنميْن الراكبيْن فأدرك كُنْه ذلك كلِّه.

عبروا الطريق، ودخلوا شارعًا آخر ثم اختفوا. ودار هو متراجعًا بضع خطوات واستغرق في تأمُّل قاتم، وتابع طريقه إلى المنزل أخيرًا سالكًا المسار المظلم الموازي لضفة النهر. ولمَّا لم يجد الاطمئنان في المنزل ذهب إلى مسكن ربيبته، وأُخبِر بأنَّ إلِزابث جيْن ذهبت إلى منزل السيدة فارْفري. ومثل شخص يقع تحت تأثير سحر ما، فيتلبَّسه قلق مجهول مضى في الاتجاه نفسه أملًا في لقائها بعد أن اختفى المعربدون. ولكنَّ أمله خاب في هذا، فقرع جرس الباب بألطف ما يمكن، ثم علم بتفاصيل ما وقع، وبأوامر الطبيب المُلحَّة بإحضار فارْفري إلى المنزل، وكيف دبَّروا أمرهم لأن يلقاه أحدهم على طريق بُدْموث.

«ولكنَّه ذهب إلى ملستوك ووِذَربري!» صاح هنْشَرْد، وقد بلغ به الحزن مبلغًا يَجِلُّ عن الوصف. «وليس طريق بُدْموث مطلقًا.»

ولكن، واحسرتاه! لقد فقد هنْشَرْد سمعته الطيبة ولن يُصدِّقوه، بل أخذوا كلماته على أنَّها حديث تافه من أحاديث الطيش. ومع أنَّ حياة لوسِتا توقَّفت في تلك اللحظة على عودة زوجها (كانت تصارع عذابًا نفسيًّا شديدًا خشية ألَّا يعرف الحقيقة غير المبالغ فيها عن ماضيها مع هنْشَرْد) لم يُرسَل أيُّ شخص إلى وِذَربري. وعزم هنْشَرْد على البحث عن فارْفري بنفسه وهو في جزع وندم مريريْن.

وهكذا هُرِع إلى أسفل البلدة، وجرى على طول الطريق الشرقي على بطحاء ديرنوفر، صاعدًا الرابية الواقعة خلفها، وراح يتقدَّم في هدأة الظلام في تلك الليلة من ليالي الربيع حتى بلغ رابية ثانية وثالثة تبعد حوالي ثلاثة أميال. وعلى سفح «يالبري»، السهل الواقع عند أسفل الرابية أصاخ السمع. في البدء لم يسمع شيئًا أكثر من خفقات قلبه وأنين الريح وهي تَهُبُّ ببطء بين أشجار التَّنُّوب والأرْكَس الضخمة في غابة يالبري التي غطَّت المرتفعات من الجانبين، ولكن أتاه صوتٌ خفيفٌ لعَجَلٍ تشحذ أحواقها على أجزاء الطريق المرصوف بالحجارة حديثًا، ورافق الصوتَ ضوءٌ أومض من بعيد.

أدرك أنها عربة فارْفري تهبط الرابية، بسبب ما تحدثه من جلبة تفوق الوصف، فقد كانت العربة ملكًا له حتى ابتاعها الاسكتلندي في المزاد. عند ذلك تراجع هنْشَرْد القهقرى إلى سهل يالبري، في حين صعدت العربة على مقربة منه وأبطأ سائقها السرعة حين كان بين مزرعتيْن.

كانت بقعة في الطريق العام تفرَّع قريبًا منها الطريقُ إلى ملستوك من جهة البلدة. وإذا ما انحرف فارْفري إلى تلك القرية كما كان عازمًا، لربَّما تأخَّر في العودة بضع ساعات. وسرعان ما تبيَّن أنَّ نيَّته كانت كذلك، إذ انحرف الضوء صوب زقاق «كوكو»، الطريق الفرعي المذكور آنفًا. وسطع مصباح عربة فارْفري في وجه هنْشَرْد، وفي الوقت ذاته، تبيَّن فارْفري خصمه السابق.

«فارْفري، يا سيد فارْفري!» صاح هنْشَرْد اللاهث رافعًا يده.

كان فارْفري قد ترك الحصان ينطلق بضع خطوات إلى الطريق الفرعي قبل أن يقف فجأة. ثم لجم الفرس وقال: «نعم؟» من فوق كتفه، مثلما يتصرَّف شخص إزاء عدو صريح.

«عُد إلى كاستربرِدْج فورًا!» قال هنْشَرْد. «هناك خطب ما في منزلك يستدعي عودتك. لقد قطعت الطريق كلَّه راكضًا بقصد إخبارك.»

بقي فارْفري صامتًا، وغاصت روح هنْشَرْد. ما باله لم يُفكِّر قبل هذا

فيما ما كان جليًّا تمامًا؟ هو الذي، منذ أربع ساعات، أغرى فازْفري بالوقوع في صراع مميت، ها هو يقف الآن في ظلمة الليل المتأخِّر على طريق منعزل داعيًا إيَّاه ليسلك طريقًا بعينه، حيث يمكن أن يكون هناك عصبة من المتآمرين، بدلًا من أن يسلك طريقه المقصود، حيث يمكن أن تُتاح له فرصة أفضل لحماية نفسه من الهجوم. كاد هنْشَرْد يحسُّ بهذه الأفكار تعبر في مخيِّلة فازْفري.

«عليَّ الذهاب إلى ملستوك،» قال فازْفري ببرود وهو يرخي لجام فرسه لينطلق.

«ولكن» توسَّل هنْشَرْد، «الأمر أخطر من عملك في ملستوك. إنَّه يتعلَّق بزوجتك! إنَّها عليلة. يمكنني أن أزوِّدك بالتفاصيل ونحن في الطريق.»

وقد زاد ما كان عليه هنْشَرْد من اضطراب وذهول من شكوك فازْفري في أنَّ ثمَّة خديعة للإيقاع به في الغابة المجاورة حيث بوسع هنْشَرْد، إما بالدَّهاء وإمَّا بالوقاحة، أن ينجز ما فشل في فعله من قبل في النهار، فَهمَّ بالانطلاق بفرسه.

«أعلم ما تفكِّر فيه،» قال هنْشَرْد وهو يجري خلف العربة، ويكاد ينحني من شدَّة الأسى وهو يرى صورة عنه من الخسَّة وانعدام الضمير تحملها عينا صديقه السابق. «ولكنني لست كما تعتقد!» صاح بصوت أجشّ. «صدِّقني يا فازْفري، ما جئت إلا من أجلك ومن أجل زوجتك. إنها في خطر. لا أعرف المزيد، ويريدونك أن تأتي. ذهب خادمك في طريق آخر خطأً. أوه يا فازْفري! لا تُسِئِ الظَّنَّ بي، فأنا إنسان شقي، ولكنَّ قلبي ما زال وفيًّا لك!»

بيْد أنَّ فازْفري لم يُحسن به الظَّنَّ مطلقًا. كان يعلم أنَّ زوجته حبلى، ولكنَّه تركها منذ مدة ليست بالطويلة في صحة جيدة، فبدت خيانة هنْشَرْد أكثر مدعاة للتصديق من قصته. طالما سمع هنْشَرْد يُردِّد أكاذيب مريرة في الماضي، ولعلَّ ما يقوله الآن أكذوبة أيضًا. حثَّ الفرس على الإسراع، وسرعان

ما صعد إلى القرية الرابضة بين تلك البقعة وملستوك. وحين رأى هنْشَرْد يجري وراءه مهتاجًا تأكَّد من صدق ظنِّه إزاء نيَّاته السيئة.

أخذت العربة وسائقها يصغران في الأفق في عينيّ هنْشَرْد، وذهب ما بذله من جهود من أجل فارْفري سُدًى. إنَّ هذا الآثم التائب، على الأقل، لن تحفَّه البهجة في السماوات[125]. أخذ يلعن نفسه كما لعن أيُّوب الوَرِع نفسه[126]، وكما يفعل رجل شديد البأس حين يفقد احترام نفسه، سنده النفسي الأخير تحت وطأة الفقر. هكذا أمسى حاله بعد ما استبدَّ به من ظلمة نفس لا تضاهيها ظلمة الغابة المجاورة. وبدأ يسلك طريقه عائدًا على الطريق نفسه الذي أتى منه. لن يكون لدى فارْفري في جميع الأحوال سبب للتَّأخُّر في الطريق إذا رآه هناك في طريق عودته إلى البلدة لاحقًا.

عندما بلغ هنْشَرْد كاستربِرْدج ذهب مرة أخرى إلى منزل فارْفري مستفسرًا. وحالما فُتح الباب طالعته وجوه جزعة من أعلى السُّلَّم، وفي الرواق، وعند عتبة السُّلَّم، وجميعهم قال بخيبة أمل ثقيلة الوطأة: «أوه، ليس هو!» كان خادم فارْفري قد عاد منذ مدة طويلة بعد أن تبيَّن خطأه، وعُقدت الآمال كلُّها على هنْشَرْد.

قال الطبيب: «ولكن ألم تجده؟»

«بلى... ولكن ليس بوسعي إخباركم!» أجاب هنْشَرْد وهو يغرق في مقعد عند المدخل. «لن يتمكَّن من العودة قبل ساعتين.»

«همم،» قال الطبيب عائدا إلى الطابق العلوي.

«كيف حالها؟» سأل هنْشَرْد إلزابث التي كانت ضمن المجموعة.

«في خطر كبير يا أبي. إنَّ توقها لرؤية زوجها يجعلها مضطربة على نحو

---

125) في سِفر لوقا 15:7 يقول الرَّب: «أقول لكم: هكذا يكون الفرح في السماء بخاطئٍ واحد يتوب أكثر منه بتسعةٍ وتسعين من الأبرار لا يحتاجون إلى التوبة.» وأمَّا هنشرد فقد بلغ إثمه مبلغًا كبيرًا حتى إنّه لن يحظى بهذا الفرح رغم توبته.

126) في سِفر أيوب، الإصحاح الثالث، لعن أيوب يوم مولده لشدَّة ما حاق به من ويلات.

مخيف. المسكينة، أخشى أنهم يقتلونها!»

طالع هنْشَرْد هذه المتكلِّمة المتعاطفة لحظةً وكأنَّما فاجأته بكشف جديد، ثمَّ ومن دون تعليق آخر خرج من الباب واتَّجه إلى كوخه المنعزل. وفكَّر في أنَّ هذا كثير جدًّا على منافسة بين رجليْن، وأنَّ الموت سيخطف اللُّبَّ ويترك القشور له ولفارْفري. أمَّا إلِزابث جيْن، فقد تبدَّت له مثل ضوء طفيف في غمرة كآبته، وأحبَّ طلَّتها وهي تجيبه من أعلى السُّلَّم. كان ثمَّة حنان في تلك الطَّلَّة، وكان كلُّ ما يتوق إليه الآن فوق كلِّ شيء هو الحنان النابع من إنسان طيِّب نقيّ. إنَّها لم تكن ابنته، ولكنَّه ولأوَّل مرَّة يراوده حلم باهت بأن يحبَّها وكأنها ابنته، لو أنها فقط تستمر في حبِّه.

عندما عاد هنْشَرْد كان جوب على وشك الذهاب إلى فراشه. وحينما دخل الأخير قال جوب: «إنه لنبأ سيئ مرض السيدة فارْفري.»

«أجل.» قال هنْشَرْد باقتضاب، ولم يرتَب قطّ في تورُّط جوب في مهزلة هذه الليلة، ورفع عينيه إلى حدٍّ كان كافيًا لرؤية وجه جوب الذي رُسِمَ عليه القلق.

«أحدهم جاء لزيارتك،» أردف جوب حينما كان هنْشَرْد يَهُمُّ بغلق بابه عليه. «كأنه مسافر، أو قبطان بحري أو شيء من هذا القبيل.»

«أوه، من تُراه يكون؟»

«يبدو رجلًا ميسور الحال، ذا شعر أشيب ووجه عريض، ولكنَّه لم يُدْلِ باسمه ولم يترك رسالة.»

«وأنا لن أوليه أيَّ اهتمام.» قال هنْشَرْد ذلك وأغلق الباب.

عندما عرَّج فارْفري على ملستوك تأخَّر في العودة ساعتين تقريبًا كما قدَّر هنْشَرْد. وكان من بين الأسباب المُلحَّة لحضوره الحاجة إلى تدخُّل سلطته من أجل الإرسال في طلب طبيب ثان من بُدْموث. ولمَّا عاد فارْفري أخيرًا كان في حال من الارتباك لسوء تقديره دوافع هنْشَرْد.

في وقت متأخر، بُعِثَ مبعوثٌ إلى بُدْموث، وأخذ الليل ينقضي ببطء، حتى وصل الطبيب الآخر مع بواكير الصباح. لقد هدأت لوسِتا كثيرًا بوصول دونلد، ولم يكن ليترك جانبها إلا لمامًا، وبعد دخوله مباشرة، عندما حاولت أن تبوح له بالسِّرِّ الذي أرهقها إرهاقًا شديدًا، قاطع كلماتها الواهنة خشية أن يكون الحديث خطرًا على صحتها، وطمأنها بأنَّ ثمَّة وقتًا كافيًا لإخباره بكلِّ شيء.

لم يعرف شيئًا حتى هذا الحين عن موكب الفضيحة. وسرعان ما أشيع في البلدة نبأ مرض السيدة فارْفري الخطير وإجهاضها، فارتقب زعماء ذاك العمل البطوليِّ شرًّا وهم يحدسون علَّةَ مرضها، وألقى النَّدم والخوف غلالة من الصمت المطبق على تفاصيل عربدتهم كلِّها، في حين لم يجرؤ أولئك المحيطون مباشرة بلوسِتا على الإشارة إلى الأمر خشية مضاعفة محنة زوجها.

لا أحد يعلم ما الذي قالته زوجة فارْفري له في نهاية المطاف عن ماضيها مع هنْشَرْد، وكم قالت، عندما أصبحا وحدهما في عزلة تلك الليلة الحزينة. وأمَّا ما أخبرته به من حقائق عارية تَمُسُّ علاقتها الغريبة بتاجر الحنطة، فقد تجلَّى في حديث فارْفري نفسه. وأمَّا ما قالته عن مسلكها اللاحق، وما دفعها إلى كاستربرِدْج للمِّ شملها بهنْشَرْد، وعن تبريرها المزعوم إزاء هجرها إيَّاه حين اكتشفت أسبابًا تدعو إلى الخوف منه (مع أنَّ الحقيقة هي أنَّ ما حملته من مشاعر حبٍّ غير منطقي نحو رجل آخر من النظرة الأولى كان هو السبب الأهم للهجر)، وعن طريقتها في مصالحة ضميرها بالزواج من الرجل الثاني في حين إنَّها كانت ملزمة بالارتباط بالأول، وإلى أيِّ حدٍّ تحدثت عن هذه الأمور، فكلُّ هذا بقي سرَّ فارْفري وحده.

إلى جانب الحارس الذي كان ينادي بالوقت والطقس في كاستربرِدْج، كان هناك في تلك الليلة شخص يذرع شارع «كورن» جيئة وذهابًا. كان ذلك هنْشَرْد، الذي عبثًا حاول الخلود إلى النوم، حتى استسلم وراح يمشي هنا

وهناك ويستفسر عن المريضة بين الفينة والأخرى. لقد كان يتردَّد على المنزل من أجل فازفري ولوسِتا بالقدر نفسه، ومن أجل إلِزابث جيْن بقدر أكبر. وأخذ ينقطع شيئًا فشيئًا عن كلِّ اهتمام آخر، وبدت حياته مركَّزة في شخصية ربيبته التي لم يكن ليطيق حضورها حتى وقت قريب. وكان يجد راحة في مرآها في كل مرَّة يذهب فيها للسؤال عن لوسِتا.

كانت آخر زيارة قام بها في حوالي الرابعة صباحًا، في ضوء الفجر الرمادي. كانت نجمة الصباح قد أشرقت على بطحاء ديرنوفر، والعصافير حطَّت من فورها على الطريق، وبدأت الدجاجات تُقَوْقِئ في أقنانها. على بعد بضع ياردات عن منزل فازفري رأى البابَ يُفتح برفق، وخادمةً ترفع يدها إلى مقرعة الباب لتحلَّ رباط القماش الذي كان يلفُّها. عَبَرَ الشارع، وبالكاد طارت العصافير مبتعدة عن نفاية الطريق، ذلك أنَّها لم ترتَب إلا قليلًا في عداء الإنسان في مثل هذا الوقت المبكر من اليوم.

«لِمَ تَحِلِّي ذلك الرباط؟» قال هنْشَرْد.

التفتت جافلةً من حضوره، ولم تجبه بعض الوقت. ولَمَّا عرفته قالت: «لأنَّه أصبح بوسعهم أن يطرقوا طرقًا صاخبًا كما يحلو لهم، فهي ما عادت تسمعهم قطّ.»

الفصل الحادي والأربعون

انصرف هنْشَرْد إلى مسكنه. وقد اكتمل طلوع الصباح الآن فأوقد النار وجلس قريبًا منها شاردًا. ولم يلبث في جلسته طويلًا حتى تناهى إلى سمعه وقع خطوات رقيق يقترب من المنزل ويدخل الرواق، ثمَّ أصابع تدقُّ الباب بلطف. أشرق وجه هنْشَرْد لأنَّه عرف أنَّها حركة إلِزابث. دخلت حجرته وهي ذابلة حزينة.

«أسمعت؟» سألته. السيدة فارْفري... لقد فارقت الحياة! بلى، حقًّا، منذ ساعة!»

«أعرف ذلك،» قال هنْشَرْد. «لقد أتيت منذ قليل من هناك. إنَّه لطف كبير منك يا إلزابث أن تأتي وتخبريني. لا بدَّ أنَّك منهكة للغاية من السهر. هلَّا بقيت هنا معي هذا الصباح؟ بوسعك أن تذهبي وتأخذي قسطًا من الراحة في الحجرة الأخرى، وسأناديك عندما يحين وقت الإفطار.»

مرضاةً له ولها، فعلت كما طلب منها – ذلك أنَّ طيبته مؤخَّرًا حظيت بالدهشة والشكر من الفتاة الوحيدة –واستلقت على ما بدا مثل أريكة سحبها هنْشَرْد من مقعد في الحجرة المجاورة. كان بمقدورها سماعه وهو يُعِدُّ الإفطار، ولكنَّ فكرها كان يدور بقوَّة حول لوسِتا، التي كان موتها مروِّعًا وغير متوقَّع وهي في أوج الشباب وذروة آمال الأمومة المبهجة. ثمَّ غطَّت في النوم.

في الوقت ذاته، كان زوج أمِّها قد أعدَّ الإفطار في الحجرة الخارجية، ولكنَّه لم يشأ إيقاظها عندما رآها نائمة، فراح ينتظر، ويتأمَّل النار تاركًا إبريق الشاي يغلي بعناية ربة بيت، وكأنما كان شرفًا له أن تكون إلِزابث معه في منزله. وفي الواقع، طرأ عليه تبدُّل كبير نحوها، وراح يحلم بمستقبل ينعم

فيه بحضورها معه كابنة، وكأنَّ هذه الطريقة وحدها تُحقِّق السعادة.

قطع عليه أفكاره طرق آخر على الباب، فنهض لفتحه، وقد استنكر زيارة أيِّ شخص في هذه اللحظة. وقف عند عتبة الباب رجل قوي البنية، ذو مسحة غريبة وغير مألوفة في مظهره ومسلكه، مسحة تجعل ذوي الخبرة الواسعة يصفونه بأنَّه من سكان المستعمرات. وكان هذا الرجل هو مَن سأل عن الطريق في حانة «بيترز فِنْغر». أومأ هنْشَرْد ونظر إليه مستفسرًا.

«عِمْتَ صباحًا، عمت صباحًا،» قال الغريب بودٍّ بالغ. «أهو السيد هنْشَرْد من أتحدَّث إليه؟»

«اسمي هنْشَرْد.»

«إذن ها أنا أجدك في المنزل، ذلك جيِّد. قلت لنفسي أنَّ الصباح هو وقت العمل. أيمكنني التَّحدُّث إليك قليلًا؟»

«مؤكَّد.» أجاب هنْشَرْد وهو يرشده إلى الدخول.

«لعلَّك تتذكرني؟» قال زائره وهو يتَّخذ مجلسه.

طالعه هنْشَرْد بلا اكتراث وهزَّ رأسه نافيًا.

«حسنٌ، ربَّما لا تتذكرني. أُدعى نيُوسن.»

غارت عينا هنْشَرْد. ولكنَّ الآخر لم يلاحظ ذلك.

«أعرف هذا الاسم جيِّدًا،» قال هنْشَرْد أخيرًا وقد أطرق إلى الأرض.

«لا أشكُّ في ذلك. حسنٌ، الحقيقة أنني كنت أبحث عنك منذ أسبوعين. لقد رست بي السفينة في هافِنبول ومررت بكاستربرِدْج في طريقي إلى فالموث، وعندما وصلت هناك أخبروني بأنك تقيم في كاستربرِدْج منذ أعوام. عدت مرة أخرى، وبعد مشقة وبطء جئت إلى هنا بعربة منذ عشر دقائق. «إنَّه يقيم جوار الطاحونة،» قالوا لي، وها أنذا. والآن، تلك الصفقة التي جرت بيننا منذ ما يناهز عشرين عامًا، لقد جئت من أجلها. كانت صفقة غريبة، وقد كنتُ شابًّا غضًّا حينها، ولكن لعلَّه من الأفضل أن نقول القليل في هذا الأمر.»

« صفقة غريبة! بل كانت أسوأ من ذلك. حتى إنني لا أستطيع الاعتراف بأنني كنت ذاك الرجل الذي صادفتَه. لم أكن أملك زمام عقلي، وعقل الرجل هو نفسه.»

«لقد كنّا صغيرين وطائشين،» قال نيوسن. «ولكنني أتيت لإصلاح الأمر لا لبدء نزاع. المسكينة سُوْزَنْ، كانت تجربتها غريبة.»

«بلى كانت كذلك.»

«كانت امرأة بسيطة طيبة القلب. ولم تكن ماكرة أو ذكيَّة مطلقًا، مع أنَّه لكان خيرًا لها لو كانت كذلك.»

«بلى لم تكن كذلك.»

«وعلى الأرجح إنك تعلم كم كانت ساذجةً سَذَاجةً بلغت بها حدَّ الاعتقاد بأنَّ عملية البيع كانت ملزمة لها بطريقة ما. لقد كانت بريئة من أي ذنب في ذلك الأمر براءة قِدِّيس في السماوات.»

«أعلم، أعلم ذلك. وقد عرفت ذلك فورًا،» قال هنْشَرْد وهو ما زال مشيحًا ببصره. «وهذا ما يخِزُني. فلو أنها قدَّرت الوضع كما هو على حقيقته لما تركتني قطُّ، قطّ! ولكن أنَّى لها أن تعرف؟ بأيِّ مزايا كانت تتسم؟ لا شيء. كانت تحسن كتابة اسمها وحسب ولا شيء آخر.»

«حسنٌ، لم أجد في نفسي ميلًا إلى أن أحرِّرها من وهمها عندما تمَّت الصفقة.» قال بحَّار الأيام السالفة. «لقد ظننت، ولم يكن ظني هذا بغرور منِّي، أنها ستكون أكثر سعادة معي. وقد كانت سعيدة نوعًا ما، فلم أكن لأخلِّصها من وهمها قطُّ إلى يوم مماتها. ثمّ تُوفيت ابنتك، وأنجبت ابنةً أخرى، ومضى كل شيء على ما يرام. ولكن، حان ذلك الوقت، حذارِ ذلك الوقت الذي هو لا بدَّ آتٍ. لقد حان ذلك الوقت – بعد مضي فترة على عودتي وإيَّاها والطفلة من أمريكا – حينما أخبرتها امرأةٌ أسرَّت إليها بقصتها بأنَّ زواجي بها زائف، وسخرت من إيمانها بحقِّي في الارتباط بها. ومنذ ذلك

الحين لم تنعم بالسعادة معي قطُّ، فأخذ جسدها يشتدُّ نحولًا، وراحت تنوح وتندب. قالت إنها يجب أن تتركني، ثم جاء السؤال بشأن طفلتنا. وقد نصحني رجل بما أفعل وفعلت، لأنني ظننت أنه الأفضل. لقد تركتها في فالموث ومضيت إلى البحر. وعندما بلغت الجانب الآخر من الأطلسي هبَّت عاصفة، وظنَّ الناس أنَّ كثيرين منَّا، ومنهم أنا، قد جرفهم البحر. ولكنني بلغت شاطئ نيوفاوندلاند، ثم سألت نفسي عمَّا ينبغي أن أفعل. «ولمَّا كنت قد وصلت إلى هنا فسأبقى هنا،» وفكَّرت في نفسي: «ستكون رأفة كبيرة بها، وقد غدت تمقتني الآن، أن أدعها تعتقد أنني فُقِدت في البحر، ذلك أنها ستكون تعسة باعتقادها أنَّ كلينا على قيد الحياة، ولكنها إن اعتقدت أنني قد مُتُّ فستعود إليه، وسيكون للطفلة مأوى.» لم أعد إلى هذه البلدة إلا منذ شهر، وعرفتُ كما اعتقدت أنها ذهبت إليك وابنتي معها. وقد أنبؤوني في فالموث بأنَّ سُوزَنْ قد غيَّبها الموت. ولكن، ابنتي إلِزابث جيْن، أين هي؟»

«لقد ماتت أيضًا،» قال هنْشَرْد بإصرار. «ألم تسمع بذلك أيضًا؟»

هبَّ البحَّار وأخذ يذرع الحجرة بوهن عدَّة مرات.

«ماتت!» قال بصوت منخفض. «إذن ما جدوى ما عندي من أموال؟»

هزَّ هنْشَرْد رأسه من دون أن يجيب، وكأنَّ السؤال يعني نيوسن نفسه ولا يعنيه هو.

«أين دُفنت؟» سأل المسافر.

«إلى جوار أمِّها.» قال هنْشَرْد بالنبرة المتبلِّدة الحسِّ نفسها.

«ومتى ماتت؟»

«منذ عام أو أكثر.» أجاب الآخر من دون تردُّد.

ظلَّ البحَّار واقفًا. ولم يرفع هنْشَرْد رأسه المُطرق قطّ. وأخيرًا قال نيوسن: «إنَّ رحلتي هنا ذهبت هباء! وسأعود كما أتيت! لقد نلت ما أستحق،

ولن أزعجك مرة أخرى!»

سمع هنْشَرْد وقع خطوات نيوسن المتقهقرة على الأرضية المصقولة بالرمل، ورفعه المزلاج على نحو آلي، وفتحه الباب وغلقه ببطء وعلى نحوٍ بدا من الطبيعي أن يبدر من رجل محزون موهن العزيمة، ولكنَّه لم يلتفت. وعبر ظل نيوسن وراء النافذة. لقد رحل.

لم يُصدِّق هنْشَرْد حواسَّه، فنهض من مقعده مدهوشًا مما فعل. لقد كان ذلك اندفاعًا لحظيًّا، فنظرته إلى إلزابث مؤخرًا، والأمل الوليد الذي انبثق في وحدته بأن تكون له ابنة يفخر بها وكأنها ابنته الحقيقية مثلما لا تزال تعتقد هي، عزَّزهما مجيء نيوسن المباغت وطمعه في الاستئثار بها، ولذا دفعه توقُّعُ فقدانِها المفاجئُ إلى قول أكاذيب مجنونة وكأنه طفل بريء يستخفُّ بالعواقب. لقد توقَّع أن تحوم حوله الأسئلة، ويُفضَح تلفيقه في غضون خمس دقائق، بيْد أنَّ هذه الأسئلة لم تأتِ. ولكنَّها لا بدَّ آتية، فلن يكون رحيل نيوسن إلَّا مؤقَّتًا، وسيعرف كل شيء عندما يقوم بالبحث في البلدة، فيعود ليكيل عليه اللعنات ويأخذ كنزه بعيدًا!

وضع قبعته على عجل وخرج سائرًا في الاتجاه الذي سلكه نيوسن. وسرعان ما رأى نيوسن موليًا ظهره في أعلى الطريق وهو يعبر «بُل ستيك». تبعه هنْشَرْد ورأى زائره يقف في نُزُل «الأسلحة الملكيَّة» حيث كانت عربة الصباح التي أقلَّته تنتظر نصف ساعة عربة أخرى تمرُّ من هناك. وكانت العربة التي أقلَّته على وشك التَّحرُّك الآن. ركبها نيوسن، ووُضِعت حقيبته فيها، وفي غضون دقائق معدودة اختفت العربة به.

ولم يلتفت نيوسن، فقد وثق في كلمات هنْشَرْد ثقة ساذجة، ثقة بلغت الكمال من فرط سذاجتها. إنَّ البحَّار الشاب الذي أخذ سُوْزَنْ هنْشَرْد عفوَ الخاطر، ومن نظرة خاطفة إلى وجهها منذ أكثر من عشرين عامًا، كان لا يزال يحيا ويسلك مسلك المسافر الأشيب الذي وثق في كلمات هنْشَرْد ثقة تامَّة

تجلب الخزي.

وهل ستبقى إلِزابث جيْن ابنته بفضل هذه الخدعة المؤقتة الوقحة؟ «ربما ليس زمنًا طويلًا،» قال. فقد يتجاذب نيوسن أطراف الحديث مع رفاقه المسافرين، الذين قد يكون بعضهم من أهالي كاستربرِدْج، وستتكشَّف الخدعة حينئذ.

وضع هذا الاحتمال هنْشَرْد في موقف دفاعي، وبدلًا من التفكير في كيفية تقويم الخطأ على النحو الأمثل، وإطلاع والد إلزابث على الحقيقة فورًا، أخذ يفكِّر في طرق للحفاظ على الوضع الذي اكتسبه مصادفة. لقد أخذت مشاعره نحو الشابة تزيد قوَّة إلى حدِّ الغيرة كلَّما داهمه خطر جديد يُهدِّد استحقاقه لها.

راقب الطريق الرئيس البعيد وهو يتوقَّع أن يرى نيُوسن عائدًا سيرًا على قدميْه ليطالب بابنته، وقد عرف الحقيقة وتمكَّن منه الغضب. ولكن لم يظهر أثر أي شخص. لعلَّه لم يتحدَّث إلى أحد في العربة، فطوى حزنه في قلبه.

حزنه! ما يكون حزنه بعد كل شيء إزاء الحزن الذي سيعانيه هنْشَرْد عند فقدها؟ إنَّ مشاعر نيُوسن التي بردت مع مرور السنين لا تضاهي مشاعره هو الذي كان حاضرًا في حياتها دومًا. وهكذا راحت نفسه الغَيور تجادل لتبرير التفريق بين أب وابنته.

عاد إلى المنزل وقد ساوره بعض شكٍّ في أن تكون قد رحلت. كلَّا، لقد كانت هناك، خرجت توًّا من الحجرة، وآثار النوم بادية على جفونها، وبدت منتعشة بوجه عام.

«أوه يا أبي!» قالت مبتسمة، «لم أكد أستلقي حتى غفوت، مع أنني لم أكن أريد النوم. أتعجَّب لأنني لم أر المسكينة السيدة فارْفري في أحلامي، بعد أن شغلني التفكير فيها. كم يبدو غريبًا أنَّنا لا نحلم غالبًا بآخر الأحداث مهما

استحوذت على تفكيرنا.»

«أنا مسرور لأنك استطعت النوم،» قال وهو يمسك يدها بتوق وكأنها مِلكه، وقد أدهشها هذا التَّصرُّف على نحو مبهج.

جلسا لتناول الإفطار، وتحوَّلت أفكار إلِزابث جيْن إلى لوسِتا، وقد أضافت سحرًا إلى ملامحها التي طالما اختفى جمالها وراء ما اتَّسمت به من رزانة وتأمُّل.

«أبي،» قالت، حالما انتبهت إلى الوجبة الموضوعة أمامها، «لطف كبير منك أن تُعِدَّ هذا الإفطار اللذيذ بيديك، في حين إنني انصرفت إلى النوم.»

«إنني أعدُّه كل يوم،» أجاب، «لقد تركتِني، وتركني الجميع، فكيف لي أن أعيش من دون القيام بالأشياء بيديّ؟»

«أنت وحيد جدًّا، أليس كذلك؟»

«آه يا ابنتي، إلى حدٍّ لا يمكنك تصوره! إنه خطئي. أنت الشخص الوحيد الذي ظلَّ بقربي أسابيع، ولكنك لن تعودي تأتين.»

«لِمَ تقول ذلك؟ حتمًا سآتي إن كنت تودُّ رؤيتي.»

بدا الشَّكُّ على هنْشَرْد، فمع أنه تمنَّى مؤخَّرًا كثيرًا أن تعيش إلِزابث جيْن مرة أخرى في منزله كابنة له، لم يشأ أن يطلب منها ذلك، فقد يعود نيُوسن في أيِّ لحظة، ولا يعلم ما سيكون عليه رأي إلِزابث عندما تكتشف خدعته، ولذا من الأفضل أن يبقى بعيدًا عنها.

عندما فرغا من إفطارهما بقيت ربيبته هناك إلى أن حانت اللحظة التي اعتاد هنْشَرْد فيها أن يذهب إلى عمله اليومي. ثم نهضت، وأكَّدت له أنها ستعود، ثم سرعان ما صعدت التَّلَّ تحت ضوء شمس الصباح.

«إنَّ قلبها في هذه اللحظة مطمئن إليَّ كاطمئنان قلبي إليها، وسوف تعيش معي هنا في هذا الكوخ المتواضع إن سألتها! ولكنَّه قد يعود قبل حلول المساء، وستحتقرني حينئذ!»

وقد رافقته هذه الفكرة في كل مكان طوال اليوم وهو يُردِّدها لنفسه باستمرار. ولم يعد مزاجه مزاج ذاك الرجل السيئ الحظ، الثائر، الساخر، المتهور، وإنما المزاج الكئيب الثقيل لرجل فقد كل ما يمكن أن يجعل الحياة مبهجة أو حتى محتملة. لن يبقى له أحد يشعر بالفخر إزاءه، أو أحد يقوّي عزيمته، ذلك أنَّ إلِزابث جيْن سرعان ما ستصبح غريبة عنه، بل وأسوأ من ذلك. سُوْزَنْ، فارْفري، لوسِتا، إلِزابث، جميعهم تخلَّوا عنه الواحد تلو الآخر، إما لخطأ منه وإمَّا لسوء حظه.

وبغيابهم لم يعد لديه اهتمام أو هواية أو رغبة. ولو كان بوسعه استدعاء الموسيقى عونًا له لكان أكثر قدرة على احتمال وجوده الآن، فالموسيقى لهنْشَرْد كانت ذات طاقة مهيبة. كان مجرد نقر على الدُّفِّ أو عزف على آلة الأرغن كافيًا لإثارة مشاعره، وأمَّا الإيقاع العالي فكان كفيلًا بتحويله من طور إلى آخر. غير أنَّ القدر القاسي شاء أن يكون عاجزًا عن استدعاء تلك الرُّوح المقدَّسة في وقت حاجته.

كانت حياته المقبلة مظلمة كالظلام نفسه، ولم يكن ثمَّة شيء يأتي أو يُنتظر. ومع ذلك، إنْ قُيِّض له أن يقطع مضمار الحياة الطبيعي، فلعلَّه يمكث بهذه الأرض ثلاثين أو أربعين سنة أخرى، ليكون مثار هُزء وسخرية وفي أحسن الأحوال مثار شفقة.

كان التفكير في ذلك لا يُطاق.

في الشرق من كاستربرِدْج كانت تمتد بطاح وحقول تدفَّقت فيها مياه غزيرة. وكان بوسع المتسكِّع في هذا الاتجاه أن يقف هناك بضع لحظات في ليلة هادئة، ويسمع ألحانًا سيمفونيَّةً فريدةً تنبعث من تلك المياه، وكأنَّما تنبعث من جوقة تعزف في الظلمة أنغامًا متنوِّعة تأتي من أنحاء البطاح القريبة والبعيدة، فهناك في حفرة ما في سدٍّ متهدِّم تُردِّد المياه مقطعًا غنائيًّا، وعند جدول يهمل على متراس حجري تَعزف عزفًا طرِبًا، وتضرب بالصُّنوج ضربًا تحت إحدى

القناطر، وتَهِسُّ هسيسًا في موضع عميق من النهر قريبًا من ديرنوفر. وأمَّا البقعة التي يبلغ فيها عزف الأوتار منتهاه فكان يُطلَق عليها «البوَّابات العشر»، حيث تنبثق أصواتٌ شديدة التَّنوُّع حين ترتفع مياه الينابيع.

كان النهر عميقًا ومندفعًا في جميع الأوقات، ولذلك كانت البوَّابات تُرفَع وتُخفَض بالدواليب وبالرافعة. وكان هناك درب يقود من الجسر الثاني على الطريق الرئيس (الذي كثيرًا ما أتينا على ذكره) إلى هذه البوَّابات، ويعبر الجدول فوق رأس البوَّابات بواسطة جسر خشبي ضيق. بيْد أنَّه كان من النادر رؤية بشر يسلكون ذلك الطريق بعد حلول الظلام، لأنَّ الدرب لا يفضي إلا إلى غوْر عميق من الجدول يُسمَّى «المياه السوداء»، كما أنَّه درب محفوف بالخطر.

بيْد أنَّ هنْشَرْد عندما غادر البلدة من الطريق الشرقي اتّجه إلى الطريق الثاني، أو الجسر الحجري، ثم إلى الدرب المنعزل هذا، وقد أخذ يتبع مساره بجانب الجدول إلى أن أخفت الهيئةُ السوداء للبوَّابات العشر تلألؤَ النهر المنعكس من الضوء الخافت الذي ما فتئ يبرق من الغرب. ووقف لحظات بجانب فتحة السَّدِّ حيث بلغ عمق الماء أقصاه. نظر إلى الخلف وإلى الأمام، وما من مخلوق ظهر للعيان. ثم خلع معطفه وقبعته، ووقف على حافة الجدول ويداه مشبَّكتان أمامه.

لَمَّا أخفض عينيه ناظرًا إلى الماء في الأسفل، تراءى له ببطء شيء يطفو فوق دوَّامة البركة التي تشكَّلت من اندفاع الأمواج منذ قرون، وهذه البركة هي المكان الذي عزم على أن يكون محلَّ نزْعه الأخير. في البداية لم يكن ذلك الشيء واضحًا بسبب الظلال التي ألقتها ضفَّة النهر، ولكنَّه برز بعد ذلك متَّخذًا هيئة بشريَّة استلقت متيبِّسة متصلِّبة على صفحة الجدول.

وتقدَّم ذلك الشيء بقوَّة التيار المندفع من مركز الجدول حتى عبر تحت عينيه، وإذ به يدرك بإحساس مرعب أنه لم يكن إلَّا هو نفسه. لم يكن

رجلًا يشبهه قليلًا، وإنما كان نظيره من جميع النواحي، نسخته المطابقة، وهي تطفو ميِّتةً عند فتحة البوَّابات العشر.

كان الإحساس بالقوى الخارقة قويًا في نفس هذا الرجل التَّعِس، فأشاح بوجهه كما قد يفعل المرء في وجود فعلي لمعجزة مروِّعة. غطَّى عينيه ونكَّس رأسه. ومن دون أن ينظر مرة أخرى إلى الجدول أخذ معطفه وقبعته ومضى مبتعدًا ببطء.

ثمَّ سرعان ما ألفى نفسه بباب مسكنه. ومدهوشًا رأى أنَّ إلِزابث جيْن كانت تقف هناك. تقدَّمت، وتكلمت، ونادته «أبي»، تمامًا كما كانت تفعل في السابق. إذن لم يعُد نيُوسن بعد.

«لقد بدوتَ حزينًا جدًّا هذا الصباح»، قالت، «ولذا أتيت مرة أخرى لزيارتك. وما أنا إلا بحزينة كذلك، ولكن يبدو أنَّ كلَّ شخص وكلَّ شيء ضدُّك، وأعلم أنك تعاني.»

ما أعجب تنبؤ هذه المرأة بالأشياء! ولكنَّها لم تتنبَّأ بمدى تطرُّف هذه الأشياء.

قال لها: «أتظنين أنَّ المعجزات ما زالت تحدث يا إلزابث؟ لست رجلًا قارئًا، ولا أعرف الكثير مثلما كنت أتمنَّى. لقد حاولت طلب القراءة والعلم طوال حياتي، ولكنَّني كلَّما عرفتُ أكثر أصبحت أكثر جهلًا.»

«لا أظن مطلقًا أنَّ ثمَّة معجزات في هذه الأيام.» قالت.

«ألا تتدخَّل المعجزات في حالة النِّيَّات اليائسة مثلًا؟ حسنٌ، ربَّما لا تفعل ذلك بطريقة مباشرة. ربَّما لا. ولكن هلَّا أتيت ومشيت معي لأريك ما أعني؟»

قبلت عن طيب خاطر، فأخذها عبر الطريق الرئيس ثم على الدرب المنعزل المفضي إلى البوَّابات العشر. وكان يمشي في اضطراب وكأنَّ ظلًّا يتعقَّبه ولا تراه هي ويحوم حوله ويُكدِّر نظره. كانت تودُّ أن تتحدث عن لوستا، ولكنها

خشيت أن تزعجه. وعندما اقتربا من السَّدِّ وقف دون حراك، وطلب منها أن تتقدَّم إلى الأمام وتنظر إلى البركة وتخبره عمَّا ترى.

وتقدَّمت، وسرعان ما عادت إليه. «لا شيء،» قالت.

«اذهبي مرة أخرى،» قال هنْشَرْد، «وأمعِني النظر.»

وتقدَّمت إلى حافة النهر مرة ثانية. تأخرت قليلًا، ثم عادت وأخبرته بأنها رأت شيئًا يطفو ويدور هناك، ولكنَّها لم تستطع تبيُّنه. وبدا وكأنه حزمة من ثياب عتيقة.

«هل تشبه ثيابي؟» سأل هنْشَرْد.

«حسنٌ، إنها كذلك. يا إلهي، أتعجَّب إن كان...، أبي لنبتعد من هنا!»

«اذهبي وانظري مجدَّدًا، ثم سنعود إلى المنزل.»

ذهبت مرة أخرى ورآها تنحني حتى أصبح رأسها قريبًا من حافة البركة. جفلت، وهُرِعت عائدة إلى جانبه.

«حسنٌ،» قال هنْشَرْد، «ما قولك الآن؟»

«دعنا نذهب إلى المنزل.»

«ولكن أخبريني، ما الذي يطفو هناك؟»

«الدُّمية»، أجابت على عجل. «لا بد أنهم قد ألقوا بها في أعلى النهر بين أشجار الصفصاف في المياه السوداء للتخلص منها خوفًا من أن يكشف القضاة أمرهم، ولا بدَّ أنها طفت في الأسفل هنا.»

«آه، حتمًا، الدُّمية هي أنا! ولكن أين الأخرى؟ لِمَ هذه الدُّمية فقط؟... مسرحيتهم تلك قتلتها، ولكنَّها تركتني حيًّا!»

وهما يعودان على أعقابهما إلى البلدة، أطالت إلِزابث جيْن التفكير في هذه الكلمات، «تركتني حيًّا.»، وأخيرًا أدركت معناها. «أبي! لن أتركك وحدك هكذا!» صاحت. «هلا تركتني أعيش معك وأهتمَّ بك كما كنت أفعل؟ لا يهمُّني أن تكون فقيرًا. لَكنت وافقت على المجيء هذا الصباح ولكنَّك لم تطلب

إليّ ذلك.»

«أوتأتين معي؟» صاح بمرارة. «لا تسخري مني يا إلِزابث! لو أنك تأتين وحسب!»

«سأفعل،» قالت.

«وأنَّى لكِ أن تغفري كل قسوتي في سالف الأيام؟ لا يمكنك ذلك!»

«لقد نسيتها. لا تتحدَّث عن هذا الأمر مرة أخرى.»

وهكذا طمأنته، ووضعا الخطة للمّ شملهما، وفي نهاية المطاف عاد كل منهما إلى مسكنه. وبعد ذلك حلق هنْشَرْد لحيته لأول مرَّة منذ أيام طويلة، وارتدى ثيابًا نظيفة ومشط شعره، وبدا رجلًا عائدًا إلى الحياة منذ ذلك الحين.

وفي صباح اليوم التالي، تبيَّنت الحقيقة كما قالتها إلِزابث جيْن، فقد عثر راعي بقر على الدُّمية، وكانت دمية لوسِتا في الأعلى قليلًا من الجدول نفسه. غير أنَّ أقلَّ القليل قيل عن الأمر، وتخلَّص الناس سِرًّا من الدُّميتيْن.

ومع أنَّ هذا هو التفسير الطبيعي للغز ظهور الدُّمية، لم يعدَّه هنْشَرْد إلا تدخلًا من الأقدار أن تطفو الدُّمية هناك. وسمعته إلِزابث جيْن يقول: «أيُّ كائن مغضوب عليه أنا! ومع ذلك يبدو أنني بين يديَّ قوة ما!»

الفصل الثاني والأربعون

بيْد أنَّ قناعة هنْشَرْد العاطفية بأنَّه كان بين يدي قوة ما بدأت تتلاشى من صدره ببطء مع تباعد الزمن عن الحدث الذي ولَّد هذا الشعور. وكان شبح نيُوسن يطارده، ويعلم أنَّه حتمًا سيعود.

لكنَّ نيُوسن لم يأت. وحُمِل جثمان لوسِتا على طول مسار فناء الكنيسة، وقد ألقت كاستربرِدْج عينها عليها للمرة الأخيرة قبل أن تواصل عملها وكأنَّ لوسِتا لم توجد من قبل قطّ. وظلَّت إلزابث تؤمن بالعلاقة التي تربطها بهنْشَرْد دون أن يقلق راحتها شيء، وأصبحت تشاركه المسكن الآن. على أيِّ حال، لعلَّ نيُوسن قد رحل إلى الأبد.

وقد علم فارْفري المكلوم، في الوقت المناسب تقريبًا، السبب المباشر لمرض لوسِتا وموتها، وكان من الطبيعي على نحوٍ كافٍ أن يكون حافزه الأول أن يشفي غليله بالانتقام باسم القانون من مقترفي الجريمة، إلَّا أنَّه قبل الشروع في الأمر قرَّر الانتظار إلى حين انقضاء الجنازة. وعندما حان الوقت أمعن التفكير، فقد كانت العاقبة مفجعة، ولكن كان جليًا أنَّ العصبة الطائشة التي نظَّمت الموكب الساخر لم تتوقَّع هذه النتيجة أو تقصدها بأيِّ حال من الأحوال. وبقدر ما يرى، فإنَّ تلك الرغبة المُغرية في إحراج أولئك الذين يقفون على رأس الأعمال – تلك الرغبة الفائقة اللَّذة واللاذعة التي تتملَّك أولئك الذين يتلوَّون ألمًا تحت أقدام هؤلاء – كانت كافية وحدها لإثارتهم، ذلك أنه لم يكن يعرف شيئًا عن دوافع جوب. كما كانت هناك اعتبارات أخرى، فقد أسرَّت إليه لوسِتا بكل شيء قبل موتها، ولم يكن مُستحبًّا على الإطلاق إثارة لغط حول ماضيها، وذلك من أجلها، ومن أجل هنْشَرْد، ومن أجله هو. وقد

بدا لفازْفري أنَّ النظر إلى أنَّ الأمر حادث عارِضٌ مشؤوم فيه احترامٌ خالصٌ لذكرى المتوفَّاة، فضلًا عن كونه تصرفًا حكيمًا.

على نحوٍ متبادل أحجم هنْشَرْد وفازْفري عن الالتقاء. وقمع الأوَّل كبرياءه من أجل إلزابث، وقبل العمل في متجر البذور الصغير الذي ابتاعه بعض أعضاء المجلس البلدي الذي يرأسه فازْفري لتقديم عمل جديد له. ولو كان الأمر يخصُّ هنْشَرْد وحده فقط، لرفض بلا ريب أيَّ مساعدة، وإن كانت بعيدة، يُقدِّمها إليه الرجل الذي هجم عليه بعنف. لكنَّ عطف الفتاة بدا ضروريًّا لوجوده، ومن أجلها ألبس كبرياءَه ثوبَ الهوان.

واستقرَّ بهما المقام في المتجر، وفي كل يوم من أيام حياتهما، حرص هنْشَرْد على استباق تلبية رغباتها باهتمام، فقد تعمَّقت رعايته الأبويَّة لها بفضل ما استعر داخله من خوف وغيرة من أن ينافسه أحد فيها. ومع ذلك، لم يكن ثمَّة من سبب يدعوه إلى افتراض عودة نيُوسن إلى كاستربرِدْج للمطالبة بابنته، فقد كان جوَّالًا وغريبًا، بل وأجنبيًّا تقريبًا، ولم ير ابنته سنوات عديدة، ولا يمكن أن تكون عاطفته نحوها بطبيعة الحال متَّقدة، ولعلَّه سرعان ما سينشغل بشؤون أخرى ربَّما تُشوِّش ذكرياته عنها، وتحول دون إعادة نبش في الماضي قد يفضي إلى اكتشاف أنها ما زالت حيَّة تُرزق. وإرضاءً لضميره بعض الشيء، أخذ هنْشَرْد يُردِّد لنفسه أن تلك الكذبة التي حفظت له كنزه المرغوب لم يقلها عمدًا من أجل هذه الغاية، ولكنَّها من شدَّة اليأس بدرت منه كآخر سبيل للتحدي، ولم يفكِّر في العواقب. وفضلًا عن ذلك، فقد برَّر فَعْلَتَهُ في قرارة نفسه بأنَّ نيُوسن أو غيره لن يحبَّها كما أحبَّها هو، ولن يكون مستعدًّا للاعتناء بها إلى آخر يوم في حياته كاستعداده هو للقيام بذلك بابتهاج.

وهكذا عاشا مما يكسبان من المتجر المطل على فناء الكنيسة، ولم يحدث شيء يُميِّز أيامهم طوال ما تبقَّى من العام. لم يكونا يخرجان إلا لمامًا، ولم يخرجا في أيام السوق قطّ، ولم يريا دونلد فازْفري إلا في فترات نادرة،

وككائن عابر تقريبًا على مبعدة في الطريق. وأمَّا هو فقد كان يواصل مهنته المعتادة، ويبتسم بآليَّة لرفاقه التجار، ويجادل المقايضين، كما يفعل رجل مكلوم بعد مدَّة.

لقد علَّم الزَّمن «بطريقته الكئيبة،»[127] فازْفري كيف يقيِّم تجربته مع لوسِتا بكل ما كان فيها وما لم يكن. ثمَّة رجال تُصِرُّ نفوسهم إصرارًا عنيدًا على الإخلاص لفكرة أو قضية تلقيها المصادفات في طريقهم، ويلبثون في إصرارهم هذا زمنًا طويلًا حتى بعد حكمهم بأنَّ هذه الفكرة أو القضية ليست بالتحفة النادرة، بل هي على النقيض تمامًا، ومن دون هؤلاء الرجال لا تكتمل زمرة الشرفاء. بيْد أنَّ فازْفري لم يكن من هؤلاء، فقد كان أمرًا محتومًا أن ينتشله ما تتسم به طبيعته من بصيرة وخفة وسرعة من الفراغ القاحل الذي ألقاه فيه الفقد. ولم يكن بوسعه إلا أن يدرك أنَّه بموت لوسِتا قد استبدل حزنًا خالصًا بشقاء دائم، ذلك أنَّه سيَشُقُّ عليه أن يتصوَّر أن تثمر الحياة معها مزيدًا من السعادة بعد أن يتكشَّف ماضيها الذي كان سيحصل لا محالة عاجلًا أم آجلًا في أيِّ ظرف.

غير أنَّه، وبالرغم من هذه الظروف، ظلَّت صورة لوستا ترافقه كذكرى، ولا يثير ضعفها فيه إلا نقدًا لطيفًا، وكانت معاناتها تُخفِّف من غضبه على ما كتمته من أسرار، فيبزغ كبريق خاطف بين الحين والآخر.

وبحلول نهاية العام كبُر متجر البذور الصغير الذي كان يبيع فيه هنْشَرْد بالتجزئة ولم يكن أكبر من خزانة، ونعُم زوج الأم والابنة بصفاء العيش في ذلك الركن اللطيف المشمس الذي قام فيه المتجر. وقد ميَّز إلزابث جيْن في أثناء هذه المدة مظهر فتاة هادئة ولكنَّها مترعة بالنشاط في أعماقها. كانت تتنزَّه فترات طويلة في الرِّيف مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع، ولا سيَّما في اتجاه بُدموث. كان يتراءى له أحيانًا عندما يجلسان سويًّا في المساء بعد هذه النزهات المنعشة

127) من قصيدة للشاعر الإنجليزي شيلي بعنوان «إبيسايكِديون» Epipsychidion.

أنَّها تبدي له التهذيب أكثر مما تبدي مشاعر المحبَّة، فأصابه الانزعاج، هي ذي حسرة مريرة أخرى فوق ما أصابه من حسرات على ما ضيَّعه من محبَّة خالصة منحتها إيَّاه في السابق وقابلها ببرود شديد بسبب رقابته المفرطة.

لقد أصبحت لها طريقتها الخاصة في كل شيء الآن، في الغُدُوِّ والرَّواح، وفي البيع والشراء، وباتت كلمتها هي القانون.

«لديك قفاز جديد يا إلزابث،» قال لها بكلِّ تواضع ذات يوم.

«أجل، لقد ابتعته،» قالت.

نظر إليه مجدَّدًا وهو ملقًى على المنضدة المجاورة. كان فِراؤه بُنِّيًا لامعًا، ومع أنَّ هنْشَرْد لم يكن خبيرًا في هذه الأشياء، فقد فكَّر أنَّ القفاز بدا ثمينًا على نحو لا يمكنها اقتناؤه.

«أخال أنَّه غالي الثمن يا عزيزتي، أليس كذلك؟» جازف قائلًا.

«إنه يفوق طاقتي نوعًا ما،» قالت بهدوء. «ولكنَّه ليس مبهرجًا.»

«أوه كلَّا.» قال الأسد الحبيس في عرينه وقد حرص على أن لا يجرح كبرياءها أبدًا.

وبعد مضيٍّ بعض الوقت، وحلول ربيع ذلك العام، توقَّف أمام حجرتها الفارغة في أثناء عبوره. تذكَّر عندما أخلت حجرتها في منزله الكبير والجميل آنذاك في شارع «كورن»، نتيجة نفوره وقسوته، ونظر إلى حجرتها بالطريقة نفسها. بدت الحجرة الآن أكثر تواضعًا، غير أنَّ ما أدهشه بشأنها كان وفرة الكتب الملقاة في كل مكان. لقد جعل عددُ الكتب ونوعُها الأثاثَ الهزيل الذي يحيط بها يبدو غير متناسق على نحو سخيف. لا بدَّ أن بعضها، بل كثيرًا منها، قد ابتيع مؤخَّرًا، ومع أنه كان يَحُثُّها على الشراء باقتصاد، لم يخطر بباله أنها تنغمس بإفراط في شغفها المتأصِّل هذا بطريقة لا تتلاءم ودخلهما المحدود. ولأول مرَّة يشعر ببعض الوخز إزاء ما ظنَّه تبذيرًا منها، وعزم على أن يتحدَّث إليها بهذا الشأن. غير أنَّه قبل أن تواتيه الشجاعة للحديث، وقع حدث جعل

أفكاره تسلك اتِّجاهًا آخر.

انقضت الفترة النشطة للعمل في تجارة البذور، وأقبلت الأسابيع الهادئة التي تسبق موسم التِّبن، وهي تطبع كاستربِرِدْج بطبعها الخاص، إذ عجَّ السوق بالمجارف الخشبية، والعربات الجديدة بألوانها الصفراء والخضراء والحمراء، والمناجل الكبيرة، والمذاري المُسْتَدِقَّة الأطراف التي تكفي لجمع حُزم صغيرة من التِّبن. خرج هنْشَرْد، على غير عادته، ذات أصيل في يوم من أيام السبت قاصدًا السوق، وقد حمله إحساس بالفضول على المرور بضع دقائق بالبقعة التي شهدت انتصاراته الماضية. وكان فارْفري، الذي ما زال غريمه الغريب، يقف على بعد بضع خطوات من باب مخزن الغلال، وهو وضع اعتاد اتِّخاذه في هذه الساعة، وبدا غارق الفكر في شيء كان ينظر إليه على مبعدة قليلة منه.

تابعت عينا هنْشَرْد عيني فارْفري، ورأى أنَّ من كان يحدِّق إليه لم يكن مزارعًا يطلعه على عينات من محصوله، وإنَّما كان ربيبته التي خرجت توًّا من متجر على الطريق. وأمَّا من جانبها هي، فما كانت على دراية باهتمامه، وكانت في هذا أقلَّ حظًّا من أولئك الشَّابَّات اللاتي كلَّما صادفن معجبين على مدى البصر، ظهرت على ريش قبعاتهن عيون آرغوس وكأنَّها العيون المتناثرة على ريش الطائر جونو[128].

انصرف هنْشَرْد ظنًّا منه أنَّه، على أيِّ حال، لم يكن ثمَّة شيء ذو بال في نظرة فارْفري إلى إلِزابث جيْن في ذلك الموقف. إلَّا أنَّه لم يكن بوسعه أن ينسى أنَّ الاسكتلندي قد أبدى ذات مرة اهتمامًا لطيفًا بها، اهتمامًا عابرًا. وحينئذ سرعان ما طفت على السطح تلك الخصلة التي تحكَّمت في مسار هنْشَرْد منذ البداية، والتي جعلت منه ما هو عليه في الأغلب. وبدلًا من أن

128) آرغوس وجونو شخصيتان أسطوريتان في الميثولوجيا اليونانية، وكانت للعملاق آرغوس مائة عين، وعندما قُتِل انتقلت عيونه المائة لتتناثر على ريش الطائر المقدَّس جونو الذي يرمز إلى طائر الطاووس.

يفكِّر في أنَّ زواج ربيبته العزيزة بدونلد الناجح والمفعم بالحيوية سيكون أمرًا مرغوبًا فيه لصالحها وصالحه، مقت مجرَّد إمكان ذلك.

لقد مضى الزمن الذي كانت فيه مقاومته الغريزية تتخذ مسلكًا فعليًّا، ولكنَّه الآن ما عاد هنْشَرْد الذي عُرِف في الأيام السالفة، فقد روَّض نفسه على أن يقبل إرادة إلِزابث في هذا الأمر كما في أمور أخرى على نحو مطلق ولا نزاع فيه. كان يخشى أن تُفقِده أيُّ كلمة عدائيَّة قد تبدر منه احترامَها له الذي حظي به بإخلاصه، ذلك أنَّه شعر أنَّ احتفاظها بهذا الاحترام وقد افترق عنها خير له من التَّعرُّض لكرهها وإبقائها قريبة منه.

بيد أنَّ مجرد التفكير في هذا الفراق يصيبه بالحُمَّى، وفي المساء قال بهدوء مشوب بالقلق: «هل رأيت السيد فارْفري اليوم يا إلزابث؟»

جفلت إلزابث جيْن من السؤال، وأجابت ببعض الارتباك: «كلَّا.»

«حسنٌ، حسنٌ... إنني فقط رأيته في الطريق عندما كان كلانا هناك.» وأخذ يُحدِّث نفسه إن كان ارتباكها يُبرِّر له شكًّا جديدًا، فلعلَّ نزهاتها الطويلة التي أخذت تخرج فيها مؤخَّرًا، وكذلك الكتب الجديدة التي أدهشته كثيرًا لها علاقة بالشاب. ولم تخبره بشيء، ومخافة أن يحملها الصمت على الذهاب بفكرها مذاهب غير محمودة إزاء علاقتهما الوديَّة في الوقت الحاضر، حوَّل النقاش إلى مسار آخر.

كان هنْشَرْد، بطبعه، آخر رجل يتصرَّف خلسةً، سواءٌ بدافع الخير أو الشر. غير أنَّ جزعه من حبِّه – أيْ ما آل إليه من اعتماد على تقدير إلِزابث له (أو بمعنى آخر ما تطوَّر إليه) – أفسد طبيعته، فقد بات كثيرًا ما يُقلِّب الأمر ويفكِّر مليًّا ساعات في مغزى هذا الفعل أو تلك العبارة التي تبدر منها، بعد أن كانت سليقته فيما مضى تدفعه إلى إلقاء السؤال بجلافة. وأمَّا الآن، فقد أقلقته فكرة أن تَكُنَّ إلزابث عاطفة لفارْفري قد تَحُلُّ محلَّ عطفها اللطيف كابنةٍ، فراح يرقبها بحرص أشدَّ في غدُوِّها ورواحِها.

لم يكن ثمة سِرٌّ في تحركات إلِزابث حيْن أكثر من تحفُّظها المعتاد، ولعلَّه يمكن القول في الحال بأنها أذنبت حين بادلت دونلد الحديث بين الحين والآخر عندما كانا يلتقيان مصادفة. وأيًّا كان أصل نزهاتها على طريق بُدموث، فقد كانت عودتها من هذه النزهات غالبًا ما تصادف خروج فارْفري من شارع «كورن» ليتمشَّى عشرين دقيقة على ذلك الطريق الرئيس الذي تَهُبُّ عليه الريح، فقط لينفض عنه البذور والقشَّ قبل أن يجلس لتناول الشاي، كما كان يقول. وقد أدرك هنْشَرْد هذا عندما ذهب إلى «الحلقة» واختبأ خلف سياجها ليرقب الطريق إلى أن رآهما يلتقيان. لقد خيَّم على وجهه كَرْب عظيم.

«حتى هي، يريد أن يسرقها مني!» همس قائلًا، «إلَّا أنَّ الحقَّ له، ولا أودُّ التدخل.»

كان اللقاء في الواقع بريئًا جدًّا، ولم تبلغ الأمور بين الشابين المبلغ الذي ظنَّه هنْشَرْد الغيور المغموم. ولو أنَّه سمع هذا الحوار بينهما لأصبح على علم أكبر بالحقيقة:

هو: «إنَّك تحبِّين التَّنزُّه على هذا الطريق يا آنسة هنْشَرْد، أليس كذلك؟» (تحدَّث بلكنته المتموِّجة وهو ينظرها بتأمُّل وإعجاب).

هي: «بلى. لقد اخترت هذا الطريق في الآونة الأخيرة وليس لدي سبب مهم لذلك.»

هو: «لكن ذلك قد يمنح سببًا للآخرين.»

هي (وقد احمرَّ وجهها): لا أعرف ذلك. ولكنَّ سببي، كيفما كان، هو أنَّني أودُّ أن أحظى بإلقاء نظْرَة على البحر كلَّ يوم.»

هو: «أهو سِرٌّ أم ماذا؟»

هي (على مضض): «أجل.»

هو (وقد أخذ يردِّد بشَجْوٍ قصيدة عن وطنه): «آه، أشك في أنَّ ثمَّة خيرًا في الأسرار! لقد ألقى السِّرُّ ظلالًا قاتمة على حياتي، وإنك تعرفين ما هو.»

صرَّحت إلزابث بأنها تعرفه، إلَّا أنَّها امتنعت عن البوح بسرٍّ حبِّها للبحر، إذ هي نفسها ما كان بوسعها تفسير علة ذلك تفسيرًا كاملًا، حيث لم تكن لتدرك أنَّ السِّرَّ قد يكون أنَّ دماء بحَّار تسري في عروقها، إضافة إلى أنَّ البحر ارتبط بسنين حياتها الأولى.

«شكرًا على تلك الكتب الجديدة يا سيد فارْفري،» أضافت باستحياء. «أتعجَّب إن كان ينبغي أن أقبل هذا العدد الكبير!»

«ولِمَ لا! إنَّها تمنحني مسرَّة في جلبها لك تفوق مسرَّة اقتنائك إيَّاها!»

«مستحيل!»

تابعا سيرهما سويًّا حتى بلغا البلدة، وهناك افترق طريقاهما.

وأقسم هنْشَرْد أن يتركهما وشأنهما، وألَّا يضع أي عقبة في سبيلهما مهما كان ما يرميان إليه. إن كان مقدَّرًا عليه أن يُحرَم منها، فليكن. وليس بوسعه أن يرى مكانًا له على الإطلاق في الوضع الذي سيخلقه زواجهما. فلن ينظر إليه فارْفري إلا بغطرسة، وفقره يؤكِّد ذلك على نحوٍ لا يقلُّ عن مسلكه الماضي.

وهكذا ستصبح إلزابث غريبة عنه، وستكون خاتمة حياته عزلة تخلو من الرفقة.

وبوجود هذا الأمر الممكن الذي يُهدِّد بالحدوث الوشيك، لم يستطع التَّوقُّف عن مراقبتهما. وقد حُقَّ له مراقبتهما، ضمن حدود معيَّنة، بوصفه مسؤولًا عنها. وأصبحت لقاءاتهما أمرًا معتادًا في أيام خاصة في الأسبوع.

وأخيرًا أتاه الدليل القاطع. كان يقف خلف حائط قريبٍ من المكان الذي التقاها فيه فارْفري. سمع الشاب يخاطبها قائلًا: «حبيبتي إلزابث جين،» ثم يُقبِّلها، وكانت الفتاة تتطلَّع حواليها بسرعة لتطمئن نفسها بأنْ لا أحد على مقربة.

وحين ذهبا لحال سبيلهما خرج هنْشَرْد من وراء الحائط، وتبعهما

بأسّى إلى كاستربرِدْج. بيْد أنَّ المشكلة الرئيسة إزاء هذا الارتباط لم تخفَّ، إذ لا بدَّ أنَّ فارْفري وإلزابث جيْن، خلافًا لبقية الناس، يعتقدان أنَّ إلزابث هي ابنته الحقيقية، وذلك من توكيده أنَّه هو نفسه كان على هذا الاعتقاد، ومع أنَّه لا بدَّ وأنَّ فارْفري سيعفو عنه وما من اعتراض لديه على أن يكون والد زوجته، لن يكون في وسعهما أبدًا أن يصبحا صديقين حميمين. وبذلك ستبتعد عنه الفتاة، التي كانت صديقته الوحيدة، ستبتعد شيئًا فشيئًا بتأثير زوجها وستعتاد احتقاره.

ولو أنَّها أحبَّت أيَّ رجل آخر في العالم غير الرجل الذي خاصمه، ولَعَنه، وصارعه، وعرَّض حياته للموت أيَّامًا قبل أن ينفطر قلبه، لقال هنْشَرْد: «إنَّني راضٍ.» ولكنَّه بتصوُّره هذا، شَقَّ عليه أن ينعم بالرضا.

ثمَّة مكان ناءٍ في عقل الإنسان يتيح أحيانًا للأفكار البغيضة الدفينة غير المرغوب فيها أن تهيم لحظات قبل أن تعود إلى المكان الذي جاءت منه. وقد أخذت إحدى هذه الأفكار تسرح في خيال هنْشَرْد الآن.

هَبْهُ أخبر فارْفري بأنَّ خطيبته لم تكن ابنة مايكل هنْشَرْد مطلقًا، وبأنَّها قانونيًّا ليست ابنة أحد، كيف لذلك الرجل المستقيم والسيِّد أن يتلقَّى النبأ؟ لعلَّه سيهجر إلزابث جيْن، ثم تصبح ربيبته ثانيةً.

اقشعرَّ هنْشَرْد وصاح: «أعوذ بالرَّبِّ من شيء كهذا! لِمَ عليَّ أن أظلَّ خاضعًا لنوازع الشيطان، مع أنِّي ما فتئت أجاهد بمشقة لأصرفه عنِّي؟»

الفصل الثالث والأربعون

ما رآه هنْشَرْد باكرًا، رآه الناس بعد ذلك بقليل بطبيعة الحال، فقد أصبح حديث البلدة أنَّ السيد فارْفري «يمشي بمعيَّة ريبة ذلك المفلس هنْشَرْد دون غيرها من النساء،» وكان الناس في هذه الأنحاء يستخدمون هذا التعبير البسيط الدَّارج للدلالة على خطب وُدِّ المرأة، ولذا، ما كان من فتيات كاستربِرِدْج التسع عشرة الأرفع مقامًا اللاتي عدَّت كل واحدة منهن نفسها المرأة الوحيدة القادرة على إسعاد عضو المجلس البلدي التاجر، إلَّا أن أقلعن ساخطات عن التَّردُّد على الكنيسة التي كان يرتادها فارْفري، وأقلعن عن التَّكلُّف في سلوكهن، وأقلعن عن ذكر اسمه بين أسماء أقاربهن في صلواتهن اللَّيليَّة، وباختصار، عدن إلى مسار حياتهن الطبيعي.

لعلَّ الوحيدين من أهالي البلدة الذين شعروا برضًا خالص حيال هذا الاختيار الغامض الذي اتَّخذه الاسكتلندي كانوا أعضاء المجموعة الحكيمة التي ضمَّت لونغويْز، وكرستوفر كوني، وبيلي ويلز، والسيد بُزْفورد وأمثالهم. ومنذ سنوات خلت، كان «البحَّارة الثلاثة» المكان الذي شهدوا فيه الشابَّ والشابَّةَ يظهران أوَّل مرة وبتواضع على مسرح كاستربِرِدْج، وقد أبدوا اهتمامًا لطيفًا بتتبُّع مسار حياتيهما لعلَّه ارتبط في أذهانهم بتصورات عن معاملة بهيجة سيلقونها بين أيديهما في المستقبل. وحينما دخلت السيدة ستانِدْج إلى الرَّدهة الكبيرة ذات مساء وقالت إنه لأمر عجب أن يحطَّ رجل كالسيد فارْفري من قدره على هذا النحو، وهو «عمود البلدة» الذي كان بوسعه أن يختار إحدى بنات التجار أو أشراف البلدة، تجرَّأ كوني على معارضتها.

«كلَّا يا سيدتي، لا عجب على الإطلاق. إنها هي من تحطُّ من قدرها له

في رأيي. إنَّه رجل أرمل ولم تكن زوجته الأولى مبعث شرف له، فما يكون هذا كلُّه إزاء امرأة شابة مثابرة، سيدة نفسها ومحبوبة؟ ولكنَّني أرى خيرًا كثيرًا في هذا التصحيح المُتقن لمسار الأمور. عندما يقيم الرجل ضريحًا للمرأة الأخرى من أفضل أنواع الرُّخام، كما فعل هو، ويذرف الدَّمع ذرفًا، فإنَّه يتفكَّر في أمره ويقول لنفسه: لقد خدعتني الأخرى، وعرفتُ هذه أولًا، وهي أهلٌ لأن تكون شريكتي، وما عادت توجد امرأة مخلصة في الطبقة الثرية الآن. سيرتكب خطأً إن لم يتزوجها، وإن كان قلبها يميل إليه.»

هكذا كانوا يتحدَّثون في «البحَّارة الثلاثة». إلَّا أنَّنا يجب أن نحذر الإفراط في القول المبتذل بأنَّ الحدث المرتقب أثار ضجة كبيرة، وأنَّ الألسن النَّمَّامة تخوض فيه وما إلى ذلك، حتى إن أسبغ هذا القول بعض البهاء[129] على حياة بطلتنا الوحيدة المسكينة. فبعد كلِّ ما يقوله مروِّجو الشائعات، يبقى لدى الناس اهتمام سطحي ومؤقَّت بالأمور التي لا تمتُّ بصلة مباشرة إليهم. سيكون وصفًا أصدق أن نقول إنَّ كاستربرِدْج (باستثناء الشَّابَّات التسع عشرة) اهتمَّت لحظة بهذه الأنباء، ثم صرفت اهتمامها، وانصرفت إلى عملها، وكسب قوتها، وتربية أبنائها، ودفن موتاها دون إيلاء حياة فارْفري الخاصة أدنى اهتمام.

لم تُبدِ إلزابث نفسها أيَّ إيماء إلى الأمر لزوج أمِّها، ولا فارْفري كذلك. ولمَّا أمعن التفكير في سبب تحفظهما انتهى إلى أنَّ الحبيبيْن المُدلَّهيْن كانا يخشيان إثارة الموضوع إذ يعرفانه من ماضيه، ويَعُدَّانه عقبة كأداء يودَّان بحماسة لو أنهما يزيحانها عن الطريق. ولمَّا كان صدر هنْشَرْد ممتلئًا بغيظ مرير على المجتمع، أخذت هذه النظرة الكئيبة لنفسه تزداد غورًا حتى ما عاد يحتمل ذلك الاضطرار اليومي لمواجهة الناس، ولا سيَّما إلزابث جيْن، وتردَّت صحته، وأصبح حسَّاسًا مُفرِطًا على نحوٍ مَرَضيّ. وتمنَّى لو استطاع الهروب

129) في الأصل بالفرنسية éclat، (المترجمة)

من أولئك الذين لا يريدونه والاختفاء إلى الأبد.

ولكن، ماذا لو كان مخطئًا في آرائه، ولم تكن هناك من ضرورة لأن يفارقها فراقًا مطلقًا في حال زواجها؟

ومضى يرسم صورة مختلفة عن نفسه وهو يحيا حياة أسد بلا مخالب في الحجرات الخلفية من منزل تكون سيدتَه ربيبتُه، حياة رجل مُسِنٍّ مسالم، تبتسم له إلزابث بلطف، ويعامله زوجها بتسامح ودماثة. كان مريعًا لكبريائه أن يفكِّر بالانحطاط إلى هذا القدْر، ومع ذلك، ومن أجل الفتاة سيحتمل كلَّ شيء، حتى من فارْفري، حتى الزَّجْر وسلاطة اللسان، وسترجح كفَّةُ العيش في المنزل الذي تقطنه هي على هوانه الذاتي.

وسواء كان إمكان ذلك ضعيفًا أم العكس، فقد أصبح التَّودُّدُ بين الاثنين الذي بات جليًّا الآن شغلَه الشاغل.

وكانت إلزابث – كما أسلفنا – غالبًا ما تخرج في نزهاتها على طريق بُدموث، وكان فارْفري أيضًا غالبًا ما يختلق الأعذار ليلقاها هناك. وقد قامت على بعد ميلين من هناك وربع ميل من الطريق العام قلعة عريقة أُطلِق عليها «القلعة العذراء»، بحجمها الضخم ومتاريسها المتعدِّدة، حتى يبدو للناظر من الطريق أنَّ الإنسان السائر ما بين أسوارها أو حولها ليس إلا ذرة ضئيلة عديمة الأهمية. هنا كان هنْشَرْد يلجأ أحايين كثيرة، ومنظاره في يده، وهو يمسح بنظراته الطريق[130] غير المُسوَّج – ذلك أنه كان المسار الأصلي الذي أنشأته فيالق الإمبراطورية – على بُعد ميلين أو ثلاثة أميال، وكان هدفُه معرفةَ تطوُّر العلاقة بين فارْفري وفاتنته.

ذات يوم كان هنْشَرْد في هذه البقعة عندما رأى هيئة رجل تسير على الطريق القادم من بُدموث، ووقف الرجل متريِّثًا هناك. ولمَّا وضع هنْشَرْد منظاره على عينه توقَّع أن تبِين ملامح فارْفري كالمعتاد. ولكنَّ عدسة المنظار

130) في الأصل باللاتينية via، (المترجمة)

كشفت أنَّ الرجل اليوم لم يكن بعاشق إلزابث جيْن.

كانت عليه ثياب رُبَّان سفينة تجاريَّة، ولمَّا التفت فاحصًا الطريق بان وجهه، وفي اللحظة التي رآه هنْشَرْد بدا وكأنَّه عاش حياة كاملة. كان الوجهُ وجهَ نيُوسن.

أسقط هنْشَرْد المنظار، ولم يُبد أي حركةبضعَ ثوانٍ. انتظر نيُوسن، وانتظر هنْشَرْد، إن أمكن تسمية ذلك التَّحجُّر انتظارًا. بيْد أنَّ إلزابث جيْن لم تأتِ. لعلَّ أمرًا ما أو آخر جعلها تهمل نزهتها المعتادة في ذلك اليوم. لعلَّها وفارْفري تخيَّرا طريقًا آخر التماسًا للتغيير. ولكن ما أهمية ذلك؟ يمكنها أن تكون هنا غدًا، وعلى أيٍّ حال، فإن عقد نيُوسن العزمَ على أن يلقاها لقاءً خاصًّا ويكشف لها الحقيقة، فإنه سرعان ما سيغتنم الفرصة.

وحينها لن يخبرها عن أبوَّته وحسب، بل وعن الخدعة التي صرفته بعيدًا. وستجعلها طبيعتها الصارمة تحتقر زوج أمِّها لأول مرة، وستجتثُّ صورته من نفسها لأنها صورة مخادع خبيث، وسيتربع نيوسن في قلبها بدلًا منه.

إلا أنَّ نيوسن لم يرها ذلك الصباح. وقف هناك ساكنًا لحظات ثم ارتدَّ على عقبيه أخيرًا، وشعر هنْشَرْد بأنه مثل محكوم عليه، لم تبق له إلا بضع سويعات على تنفيذ الحكم. ولمَّا بلغ منزله وجدها هناك.

«أوه يا أبي!» قالت ببراءة، «لقد تلقيت رسالة، رسالة غريبة وغير موقَّعة. أحدهم يطلب مني لقاءه، إمَّا على طريق بُدموث نهار اليوم، وإمَّا في منزل السيد فارْفري مساء. يقول إنه أتى ليراني منذ بعض الوقت، ولكنَّه أُوقِع في خدعة فلم يتمكَّن من لقائي. إنَّني لا أفهم شيئًا، ولكنني أظنُّ، بيني وبينك، أنَّ فارْفري يقبع في أعماق هذا اللغز، وأنَّ قريبًا له يودُّ أن يدلي برأيه فيمن اختارها. بيْد أنَّني لم أشأ الذهاب قبل أن أراك. فهل أذهب؟»

أجاب هنْشَرْد بتثاقل: «أجل، اذهبي.»

وأمَّا سؤال بقائه في كاستربرِدْج فقد حُسم إلى الأبد بظهور نيوسن في

المشهد. لم يكن هنشَرْد بالرجل الذي يحتمل الإدانة الأكيدة في شأن قريب جدًّا إلى قلبه كهذا الشأن. ولأنَّه كان ضليعًا في تحمُّل معاناته في صمت، وفضلًا عن ذلك متعاليًا، فقد عقد العزم على أن يجعل الأمر أخفَّ ما يمكن، على أن يتخذ الإجراءات في الحال.

فاجأ الشَّابَّةَ التي عدَّها كلَّ ما له في هذا العالم، قائلًا لها وكأنَّما ما عاد يهتم بأمرها: «سأغادر كاستربرِدْج يا إلزابث جيْن.»

«تغادر كاستربرِدْج!» صاحت. «وتتركني؟»

«أجل، يمكنك إدارة هذا المتجر الصغير وحدك كما كنَّا نديره سويًّا. لا تهمني المتاجر، ولا الطرقات، ولا الناس، وإنِّي لأُفضِّل الرحيل من القرية وحدي، بعيدًا عن الأنظار، وأشقُّ طريقي الخاص، وأتركك تشقِّين طريقك بنفسك.»

أطرقت وانهمرت دموعها بصمت. بدا لها أنَّ قراره هذا أتى بسبب خطبتها وعاقبتها الممكنة. ومع ذلك، أبدت إخلاصها لفارْفري وكبحت عاطفتها وأفصحت قائلة:

«يؤسفني أن تتخذ هذا القرار» قالت بحزم ومشقة. «لأنني اعتقدت أنَّه من المحتمل... أو من الممكن أن أتزوج السيد فارْفري بعد بعض الوقت، ولم أكن أعرف أنك ستعارض هذه الخطوة!»

«أوافق على أي شيء ترغبين فعله يا إِزِي»، قال هنْشَرْد بصوت أجش. «وإن لم أوافق فلن يكون ذلك مهمًّا! أودُّ أن أرحل بعيدًا، فقد يجعل وجودي الأمر عسيرًا في المستقبل، وباختصار، من الخير أن أرحل.»

لم تبدُر منها عاطفة تُلِحُّ على إعادة النظر في قراره، ذلك أنه لم يكن بمقدورها الإلحاح على شيء لا تعرفه، وعندما تعرف أنه لا يعني لها أكثر من زوج أُمٍّ ستحجم عن احتقاره، وعندما تعرف ما فعل ليبقيها جاهلة بالأمر ستحجم عن كرهه. وقد اعتقد أنها لن تكفَّ عن كرهه، إذ لم تبدُرْ منها كلمة

ولم يقع حدث يصرف اعتقاده هذا.

«إذن»، قالت أخيرًا، «لن تتمكَّن من حضور حفل زواجي، وذلك ليس ما ينبغي أن يحدث.»

«لا أودُّ أن أشهد حفل زواجك، لا أودُّ أن أشهده!» صاح، ثم استطرد قائلًا بلطف: «ولكن فكِّري فيَّ أحيانًا في القادم من أيامك، هلَّا فعلتِ ذلك يا إزي؟ فكِّري فيَّ وأنت تعيشين زوجة أغنى رجال البلدة وأرفعهم مقامًا، ولا تسمحي لذنوبي، عندما تعلمين بها كلها، أن تنسيك تمامًا أنني حتى وإن أحببتك متأخِّرًا، فقد أحببتك بكلِّ صدق.»

«إنه بسبب دونلد!» قالت وهي تنشج.

«لا أمنعك من الزواج به،» قال هنْشَرْد. «عديني ألَّا تنسيني تمامًا عندما..» كان يقصد عندما يأتي نيوسن.

أعطته وعدها بصورة آلية في غمرة اضطرابها، وفي المساء ذاته عند الغسق غادر هنْشَرْد البلدة التي كان أحد المساهمين الرئيسين في تطوُّرها سنوات عديدة. وكان قد ابتاع في النهار سلة أدوات جديدة، ونظَّف سكين القش ومِثقبه القديمين، وارتدى طماقًا جديدًا وسروالًا وسترة، وبطريقة أخرى عاد إلى ملابس العمل التي كان يرتديها في شبابه، وقد نضى عنه إلى الأبد البدلة الرَّثَّة وقبعة الحرير الصدئة اللتين ميَّزتا هيئته في طرقات كاستربرِدْج منذ سقوطه وكانتا شاهدًا على رجل عاش حياة أفضل في غابر أيَّامه.

رحل خفيةً ووحده، ولم يعلم برحيله أحد من الكثيرين الذين عرفوه. رافقته إلزابث جيْن إلى أن بلغا الجسر الثاني على الطريق الرئيس – ذلك أنَّ ساعة موعدها مع الزائر المجهول في منزل فارْفري لم تحِن بعد – وفارقته بذهول وألم صادقين وقد أوقفته دقيقة أو اثنتين قبل أن تتركه يرحل أخيرًا. وراحت ترقب هيئته وهي تتلاشى عبر الأرض البطحاء، وكانت سلة القش الصفراء تَتَرَجَّحُ على ظهره عاليًا وسافلًا مع كل خطوة يخطوها،

في حين كانت أثْناءُ بنطاله تروح وتجيء تواليًا إلى أن توارى عن ناظريها. ومع أنها لم تكن على دراية بذلك، فقد شكلت هيئةُ هنْشَرْد في هذه اللحظة الصورةَ نفسها التي بدا عليها وهو يدخل كاستربرْدج أوَّل مرة منذ ما يناهز ربع قرن من الزَّمان، باستثناء أنَّ ما أضافته سنين الجِدِّ إلى عمره خفَّف إلى حدٍّ كبير من انطلاق خطوته، وأوهنته حاله اليائسة، وبان على كتفيه تحت ثقل السَّلَّة انحناءٌ ظاهر.

تابع سيره إلى أن وصل إلى المَعْلَم الأول القائم عند ضفة النهر في منتصف الطريق الصاعد إلى الرابية المنحدرة. وضع سلته على قمة صخرة وأراح ساعديه عليها، مستسلمًا لارتعاش حادٍّ، كان أسوأ من نشيج، لأنه كان بالغ القسوة، بالغ الجفاف.

«لو أنني فقط أتيت بها معي، لو أنني فقط!» قال. «لن يعني لي العمل الشاق شيئًا حينها! إلَّا أنَّ ذلك ليس مقدَّرًا. أنا، قايين[131]، أرحل وحيدًا كما أستحق، تائهًا شاردًا. ولكنَّ عقابي ليس بأشدَّ من أن يُطاق!»

وكتم ألمه بصرامة، ووضع سلته على كتفه، وتابع سيره.

في الوقت ذاته، أطلقت إلزابث تنهيدة، واستعادت رباطة جأشها، وولَّت وجهها شطر كاستربرِدْج. وقبل أن تبلغ أول منزل قابلت في طريقها دونلد فارفري. كان واضحًا أنَّ لقاءهما هذا لم يكن الأوَّل في ذلك اليوم، فتشابكت أكفُّهما دون تكلُّف، وسألها فارفري بقلق: «هل رحل؟ وهل أخبرته؟ أعني الموضوع الآخر وليس موضوعنا؟»

«رحل، وأخبرته بكلِّ ما أعرف عن صديقك. دونلد، من يكون؟»

«حسنٌ، حسنٌ يا حبيبتي، ستعرفين ذلك عمَّا قريب. وسيسمع به السيد هنْشَرْد إن لم يكن قد مضى بعيدًا.»

---

131) سفر التكوين، الإصحاح الرابع. «فقال قايين للرَّبّ: عقابي أشدُّ من أن يُطاق. ها قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أستتر، وأكون تائهًا شاردًا في الأرض.» الكتاب المقدَّس، دار المشرق، بيروت، 2007.

«سيمضي بعيدًا، لقد عقد العزم على أن يكون بعيدًا عن السمع والبصر!»

مشت إلى جانب حبيبها، وعندما بلغا مفترق الطريق، أو القنطرة، انعطفت معه إلى شارع كورن بدلًا من الذهاب إلى مسكنها. وقفا عند منزل فارْفري ثم دخلا.

فتح فارْفري باب قاعة الاستقبال في الطابق السفلي على مصراعيه قائلًا: «ها هو في انتظارك»، ودخلت إلزابث. جلس على المقعد ذي الذراعين الرجلُ اللَّطيف العريض الوجه الذي زار هنْشَرْد ذات صباح لا يُنسى منذ ما يناهز عاما أو عامين قبل هذا الوقت، والذي رآه هنْشَرْد يركب العربة ويغادر بعد نصف ساعة من وصوله. كان ذلك ريتشرد نيوسن. أمَّا لقاؤها الأبَ الجَذِل الذي أُبعد عنها سنوات ست، وكأنَّما بسبب الموت، فما من حاجة إلى رواية تفاصيله.

كان لقاء مؤثِّرًا، بغضِّ النظر عن مسألة الأبوة. وفي غضون لحظات فُسِّر رحيل هنْشَرْد. وعندما كان لها أن تُعامِل الحقائق لم تكن صعوبة استرجاع ثقتها القديمة في نيوسن كبيرة جدًّا كما كانت ستبدو على الأغلب، ذلك أنَّ مسلك هنْشَرْد نفسه كان دليلًا على صحة هذه الحقائق. فضلًا عن ذلك، فقد ترعرعت في كنف أبيها نيوسن، وحتى إن كان هنْشَرْد أباها حقيقةً، فإنَّ هذا الأب الذي عهدته في طفولتها قد يفوق هنْشَرْد أهميةً حين تتقادم أحداث فراقها عنه.

كان فخر نيوسن بما صارت إليه في نشأتها أكبر من أن يُعبِّر عنه، فراح يُقبِّلها مرَّات ومرَّات.

«لقد جنَّبتُكِ عناء المجيء للقائي، ها ها!» قال نيوسن. «والحقيقة أنَّ السيد فارْفري قال: تعال وامكث معي يومًا أو يومين أيُّها الرُّبَّان نيوسن، وسأحضرها إلى هنا. فقلت حتمًا، سأفعل، وها أنذا.»

«حسنٌ، لقد رحل هنشَرْد،» قال فارفري وهو يغلق الباب. «رحل بإرادته، وكما علمتُ من إلزابث، فقد كان لطيفًا جدًّا معها. لقد كنت قلقًا بعض الشيء، غير أنَّ كل شيء مضى كما ينبغي، ولن نواجه مصاعب بعد الآن مطلقًا.»

«ذلك تمامًا ما فكَّرت فيه،» قال نيوسن وهو ينظر إلى وجهيهما تباعًا، «لقد حدَّثت نفسي مئات المرات عندما حاولت اختلاس النظر إليها دون علمها: ثِقْ بذلك، ومن الأفضل أن تبقى هادئًا أيامًا عديدة إلى أن يحدث الأفضل. وها قد عرفت الآن أنك بخير، فما الذي أرجوه أكثر؟»

«حسنٌ أيُّها الرُّبان نيوسن، إنَّه ليسعدني أن أراك هنا كل يوم الآن طالما لن يكون هناك ما يزعج.» قال فارفري. «وما كنت أفكر فيه هو أن نقيم حفل الزفاف في منزلي، فالمنزل كبير، وأنت تسكن بمفردك، ولذا يمكننا الاستغناء عن الكثير من المتاعب والإنفاق، وسيكون مريحًا ألا يكون على الزوجين المشي طويلًا ليصلا إلى المنزل!»

«بكلّ سرور،» قال الرُّبَّان نيوسن، «فكما قلت، ليس ثمَّة ما يزعج، ولا سيَّما أنَّ هنشَرْد المسكين قد رحل الآن، مع أنني ما كنت لأفعل خلاف ذلك، أو لأضع نفسي في طريقه مطلقًا، لأنني تطفَّلت في حياتي على عائلته تطفُّلًا فاق حدود طاقة المرء في اللياقة. ولكن، ما قول السَّيِّدة الشَّابَّة نفسها في ذلك؟ إلزابث، يا بنيَّتي، تعالَي واصغي إلى ما نتحدَّث فيه، ولا تبقي محدِّقة خارج النافذة وكأنَّك لا تسمعيننا.»

«ليقرّر الأمر أنت ودونلد.» همهمت إلزابث، وهي لا تزال تمعن النظر في شيء صغير في الشارع.

«حسنٌ إذن،» أردف نيوسن، ملتفتًا من جديد إلى فارفري بوجه يُعبِّر عن اهتمام تامٍّ بالموضوع، «هكذا سنمضي في الأمر. يا سيد فارفري، لأنك ستقوم بالكثير لتهيئة المكان ونحوه، سأتكفَّل أنا بالشراب، وسأتولَّى أمر

الرُّوم ونبيذ سخيدام[132]، ولعلَّ دزينة من الجرار تكفي، لأنَّ غالبية المدعوِّين سيدات، ولعلَّهن لا يكثرن من الشراب في تقديري! ولكنك تعرف أكثر منِّي. لقد كنت أجلب الشراب للرِّفاق البحَّارة مرات عديدة، ولكنني جاهل كطفل ولا علم لي بعدد كؤوس الجَعَة التي يمكن أن تشربها المرأة في مناسبات كهذه، ولا أقصد المرأة السكيرة؟»

«كلَّا. لن نكون بحاجة إلى الكثير، أوه لا!» قال فازْفري وهو يهزُّ رأسه بجِدٍّ وارتياع. «اترك الأمر كلَّه لي.»

وأخذا بعض الوقت في مناقشة هذه التفاصيل، ثمَّ أسند نيوسن ظهره إلى المقعد وابتسم وهو يتأمَّل السقف وقال: «أتُراني أخبرتك أم لا يا سيد فازْفري، كيف أضلَّني هنْشَرْد في ذلك الحين؟» وعبَّر فازْفري عن جهله بما يُومئُ إليه الرُّبَّان.

«آه، أظن أنني لم أخبرك. أذكر أنَّني قرَّرت ألَّا ألحق الأذى بسمعة الرجل. ولكنَّه رحل الآن وبوسعي إخبارك. لقد أتيت إلى كاستربرِدْج منذ تسعة أو عشرة أشهر قبل ذلك اليوم الذي التقيتك فيه الأسبوع الماضي. وقد جئت إلى هنا مرتين قبل ذلك. كانت المرة الأولى عندما مررت بالبلدة في طريقي متجهًا غربًا ولم أعرف أن إلزابث تقيم هنا. ثم سمعت في مكان ما، نسيت أين، أنَّ رجلًا باسم هنْشَرْد كان عمدة هنا، فعدت، وزرته في منزله ذات صباح. يا للمحتال العجوز! لقد قال أنَّ إلزابث جيْن قد فارقت الحياة منذ سنوات.»

انتبهت إلزابث بجِدٍّ إلى قصته.

«لم يخطر ببالي قطُّ أنَّ الرجل يخدعني،» استأنف نيوسن. «والحقُّ أنَّني انزعجت كثيرًا حتى إنَّني عدت إلى العربة التي أقلتني إلى هنا، وواصلت طريقي دون التَّريُّث في البلدة نصف ساعة. ها ها! لقد كانت مزحة بارعة، ومحكمة التدبير، وأهنِّئ الرجل عليها!»

---

132) مدينة في مقاطعة جنوب غرب هولندا، أطلِق اسمها على النبيذ.

دهشت إلزابث جيْن من هذه الأنباء. «مزحة؟ أوه، لا!» صاحت. «إذن فقد أبعدك عني يا أبي طوال هذه الشهور عندما كان يمكنك أن تكون هنا؟»

واعترف الأب بأنَّ هذا ما كان.

«ما كان ينبغي أن يفعل ذلك!» قال فارْفري.

تنهَّدت إلزابث. «لقد قلت أنَّني لن أنساه قطّ. ولكن، أوَّاه! أظن أنه عليَّ أن أنساه الآن!»

وما كان بوسع نيوسن، شأنه شأن كثير من السائحين والجوَّالين بين أغراب البشر وغرائب الأخلاق، أن يدرك شناعة الجرم الذي أتاه هنْشَرْد، مع أنه هو نفسه كان ضحيته الأكبر. حقًّا، فعندما اشتدَّ الهجوم على المذنب الغائب، أخذ هو ينحاز إلى هنْشَرْد.

«حسنٌ، إنَّه لم يقل أكثر من عشر كلمات على أيِّ حال» اعترف نيوسن. «وأنَّى له أن يعرف كيف بلغت بي السذاجة حدًّا يجعلني أصدِّقه؟ كان ذلك خطئي بقدر ما كان خطؤه، المسكين!»

«كلَّا،» قالت إلزابث جيْن بحزم، وقد اهتاجت مشاعرها. «كان يعرف خصالك، طالما كنت تثق بالآخرين يا أبي، وقد سمعت أمي تقول ذلك مئات المرات، وهو ما فعل هذا إلا إيذاء لك. ما كان ينبغي أن يفعل ذلك بعد أن أبعدني عنك طوال هذه الخمسة أعوام بزعمه أنَّه أبي.»

وهكذا راحوا يتحدَّثون، ولم يكن ثمَّة من أحد يُبرِّر لإلزابث خداع الغائب. وحتى لو كان هنْشَرْد حاضرًا، ما كان ليلتمس لنفسه العذر، فقد وهن تقديره لنفسه وسمعته.

«حسنٌ، حسنٌ، لا بأس، انتهى كل ذلك ومضى،» قال نيوسن بطيب نفس. «والآن، فلنعد إلى حديث حفل الزفاف.»

الفصل الرابع والأربعون

في الوقت ذاته، كان الرجل، موضوع حديثهما، يتابع طريقه وحيدًا وهو يتجه شرقًا إلى أن أخذ منه التعب كل مأخذ، ونظر حواليه باحثًا عن مكان يلتمس فيه بعض الرَّاحة. كان قلبه مثقلًا بالألم من فراق الفتاة حتى إنَّه لم يكن قادرًا على دخول نُزُل أو حتى مسكن متواضع جدًّا، فدخل حقلًا واستلقى تحت كومة حنطة، غير راغب في الطعام. ودفعه ثقل روحه إلى أن يغطَّ في نوم عميق.

وفي صباح اليوم التالي سطعت شمس الخريف في عينيه بأشعتها المتلألئة من خلل أعواد القش، فاستيقظ باكرًا. فتح سلَّته وتناول في الإفطار ما كان قد أعدَّه لعشائه، وأخذ في تلك الأثناء يفحص عُدَّته المتبقية. مع أنَّه كان عليه أن يحمل كلَّ ما جلبه على ظهره، فقد أخفى بين أدواته بعضًا من متاع إلزابث الذي تخلَّصت منه، من قفازات وأحذية وقصاصة بخط يدها وما شابه، وحمل في جيبه خصلة من شعرها. بعد أن نظر إلى هذه الأشياء أغلق عليها السَّلَّة مرة أخرى وتابع سيره.

طوال خمسة أيام متتالية حمل هنشَرْد سلَّة القشّ على كتفه وهو يسير بين أسوجة الطريق العام، تلك السَّلَّة الصفراء الجديدة التي جذبت أنظار عمَّال الحقول بين آجام الزُّعرور البرّيّ، وكذلك قبعة الجوَّال ورأسه، ووجهه المُطرق الذي أخذت تتلاحق فوقه ظلال الأغصان في موكب لا ينتهي. لقد أصبح جليًّا الآن أن مقصد رحلته كان «ويدون برايرز» التي بلغها أصيل اليوم السادس.

كانت الرَّابية الشهيرة، التي أُقيم عليها السوق السنوي أجيالًا عديدة

خالية من أي وجود بشري الآن ومن أي شيء آخر تقريبًا عدا بضعة خراف ترعى في الجوار، لكنها فرَّت مبتعدة حين وقف هنْشَرْد على قمة الرَّابية. وضع سلته على الأرض المعشوشبة ونظر حواليه بفضول وحزن، إلى أن عثر على الطريق الذي دخل منه وزوجته إلى النَّجْد ذات يوم لا يُنسى منذ خمس وعشرين سنة خلت.

«أجل، صعدنا ذلك الطريق،» قال بعد أن تحقَّق من الاتجاهات. «وكانت هي تحمل الطفلة، وكنت أقرأ قصيدة شعبية. ثم عبرنا هنا وكانت حزينة ومرهقة للغاية، وكنتُ بالكاد أتحدَّث إليها بسبب كبريائي اللعينة وخجلي من فقري. ثمَّ رأينا الخيمة، التي لا بدَّ أنها كانت منصوبةً في هذا المكان.» مشى إلى بقعة أخرى، ولم تكن في الواقع البقعة التي انتصبت عليها الخيمة، ولكنَّها هكذا بدت له.

«إلى هنا دخلنا، وهنا جلسنا. كنت مقابل هذا الطريق. ثم شربت واقترفت جريمتي. لا بدَّ أنَّها كانت تقف تمامًا في تلك الحلقة الخرافية عندما قالت لي كلماتها الأخيرة قبل رحيلها معه، أستطيع سماع رنين كلماتها ونحيبها الآن. «واحسرتاه يا مايك! لقد عشتُ معك هذه المدَّة كلَّها ولم ألقَ فيها إلا حدَّة طبعك! والآن ما عدتُّ لك، وسأجرِّب حظي في مكان آخر.»

إنَّ ما أحسَّ به لم يكن مجرَّد مرارة يحسُّ بها رجل وجد، وهو يتأمَّل مسار حياته الطموح، أنَّ ما ضحى به من عاطفة ضاهى ما كسبه من ثروة، بل إنَّ إحساس المرارة اشتدَّ وهو يرى أنَّ تضحيته هذه لم تُجْدِ نفعًا. لقد ندم على كل هذا منذ وقت طويل، بيْد أنَّ جهوده لاستبدال الحبِّ بالطموح أُحبِطت مثلما أُحبِط طموحه نفسه. لقد أحبطتها زوجته المظلومة بخدعة كادت تضارع الفضيلة من فرط سذاجتها. إنَّه لأمر يدعو للحيرة أن تبزغ من كلِّ هذا العبث بالأعراف الاجتماعية زهرةُ الطبيعة تلك، إلزابث. لقد نشأ جزء من رغبته في نفض يديه من الحياة من إدراكه ما في هذه الحياة من تقلُّب وتناقض،

وما في الطبيعة من ميل مرِح إلى تعزيز مبادئ اجتماعية شاذَّة.

عزم على مغادرة هذا المكان – الذي زاره تكفيرًا عن ذنوبه – إلى جزء آخر من الرِّيف كلِّه، ولكنَّه لم يستطع التَّوقُّف عن التفكير في إلزابث، وفي تلك البقعة من العالم حيث تعيش. ونتج عن هذا أنَّ النزعة الطاردة التي استبدَّت به لأنه ضاق ذرعًا بالعالم، قامت مقابلها نزعة جاذبة من أثر ما يكنُّه من حبٍّ لربيبته. ولهذا، عوضًا عن أن يسلك هنْشَرْد طريقًا مستقيمًا ينأى به عن كاستربرِدْج، أخذ ينحرف شيئًا فشيئًا، ومن دون وعي تقريبًا، عن الخط المستقيم الذي انتواه في البدء، إلى أن أصبح تجواله شيئًا فشيئًا، مثل تجوال الحطَّاب الكَنَدي[133]، جزءًا من دائرة مركزها كاستربرِدْج، فكان عند صعوده رابية ما يستدل على الجهات قدر ما أمكن بواسطة الشمس أو القمر أو النجوم، ويُحدِّد في عقله الاتجاه الدقيق الذي تقع فيه كاستربرِدْج وإلزابث جيْن. وعلى سخريته من نفسه لضعفه، كان كلَّ ساعة، بل كلَّ بضع دقائق، يتخيَّل أفعالها في تلك اللحظة، قعودها وقيامها، ذهابها وإيابها، إلى أن يعبر بفكره خاطر مضاد عن نيوسن وفارْفري كما تعبر عصفة هواء باردة فوق بركة، وتمحو صورتها. ثم يُحدِّث نفسه قائلًا: «يا لك من أحمق! أكلُّ هذا من أجل ابنة ليست بابنتك!»

وأخيرًا وجد عملًا في مهنته نفسها بوصفه تبَّانًا، وكان عملًا من النوع الذي يزيد طلبه في هذا الوقت من الخريف. كان المكان الذي يعمل فيه مزرعة رعي جوار الطريق العام الغربي القديم الذي كان مجازًا تقطعه أصنافٌ شتَّى من العربات المتنقِّلة بين مراكز المدن الحديثة النشطة وبلدات وسكس النائية. وقد اختار مجاورة هذا الشريان لإحساسه أنَّه بإقامته هنا، وإن كان على بعد

133) أخذ هاردي هذه المقارنة من كتاب «المغترب والرياضي في كندا» لجون روان الذي كتبه في عام (1876). ويوجز هاردي في مذكراته قائلًا: من دون بوصلة لن يكون بوسع أمهر الحطابين ان يحافظ على السير في خط مستقيم، فإن مشى في دوائر سيتطلّب منه الأمر بين نصف الساعة والساعتين، وأمّا السائر غير المكترث فسيكون عليه أن يقطع المئة فدان نفسها في الغابة طوال اليوم.

خمسين ميلًا، سيكون قريبًا من تلك التي سعادتها غالية أكثرَ مما لو كان في بقعة لا يقع عليها طريق حتى وإن كانت تبعد نصف المسافة فقط.

وهكذا وجد هنْشَرْد نفسه مرَّة أخرى في الموضع ذاته الذي شغله من ربع قرن من الزمان. ولم يكن في الظاهر ثمَّة ما يعوقه عن البدء من جديد على المنحدر الصاعد، ولعلَّه بما حازه من معارف جديدة بوسعه أن يُحقِّق أمورًا أكبر مما كان بوسعه أن يفعل في حاله السابقة التي لم تكن ناضجة بما يكفي. بيد أنَّ الطرائق الحاذقة التي ابتكرتها الآلهة للتقليل من إمكانات البشر في التحسن إلى الحد الأدنى – وذلك عندما قضت بأن تتأتَّى للإنسان حكمة في أداء عمله تضاهي لذَّة القيام به بالقدر نفسه[134] – وقفت عائقًا في سبيل ذلك كلِّه. ولم تكن في نفسه رغبة في أن يجعل للمرة الثانية ميدانَ صراعٍ من عالم لم يعد أكثر من مشهد زائف اللون في نظره.

كان في كثير من الأحايين، وهو يُعمِل سكينه في جذور الحشائش الطيبة الرائحة، يفكِّر في أحوال البشر ويحدِّث نفسه قائلًا: «هنا وفي كل مكان يموت الناس قبل أوانهم مثل أوراق يلفُّها الصقيع، مع أنَّ عائلاتهم وأوطانهم والعالم يحبُّونهم، أمَّا أنا، المنبوذ الذي يثقل الأرض، ولا يريده أحد، ويمقته الجميع، فأحيا رغمًا عن إرادتي!»

طالما أصاخ السمع بحماسة إلى أحاديث أولئك العابرين على الطريق – ليس بدافع الفضول مطلقًا – بل أملًا في أن يجد بين هؤلاء المسافرين بين كاستربرِدْج ولندن من يأتي على ذكر ذلك المكان عاجلًا أم آجلًا. بيْد أنَّ المسافة كانت شاسعة جدًّا ولم يكن من الممكن أن تجعل رغبته تتحقَّق، وكان أقصى نتيجة توصل إليها من انتباهه إلى الكلمات التي كانت تقال على جانب الطريق هو أنَّه سمع حقًّا اسم «كاستربردج» يتلفَّظ به ذات يوم سائق عربة. جرى هنْشَرْد إلى بوابة الحقل الذي كان يعمل فيه، ونادى المتحدِّث الذي كان غريبًا

---

134) في الأصل باللاتينية: pari passu، (المترجمة)

عن هذه الأنحاء.

«أجل، جئت من هناك يا سيدي»، قال مجيبًا عن سؤال هنْشَرْد. «إنني أتاجر بين هنا وهناك، كما تعلم، على أنّني سرعان ما سأخسر عملي بسبب السفر دون الحاجة إلى جياد الذي أخذ ينتشر الآن.»

«هل من أنباء عن المكان القديم، إن سمحت لي بالسؤال؟»

«كل شيء كالمعتاد.»

«لقد سمعت أنَّ السيد فارْفري، العمدة الحالي، يفكِّر في الزواج. أصحيح هذا أم لا؟»

«لا أدري وحقِّ الرَّبّ. كلَّا، لا أظن ذلك.»

«ولكن، بلى يا جون، أنسيت؟» قالت امرأة كانت تجلس تحت غطاء العربة. «أولم نحمل لهم رِزَمًا في مطلع الأسبوع؟ لقد قالوا حتمًا أنَّ عُرسًا سيحلُّ قريبًا، في يوم القديس مارتن؟»

وقال الرجل أنه لا يتذكر شيئًا من ذلك، فانطلقت العربة تخشخش فوق الرابية.

كان هنْشَرْد على يقين أنَّ ذاكرة المرأة لم تخُنها، فالتاريخ الذي ذكرته متوقَّع جدًّا، ذلك أنَّه لم يكن ثمَّة من سبب يؤخِّر أيًّا من الطرفين. ولعلَّه من أجل ذلك الشأن يستطيع الكتابة إلى إلزابث مستفسرًا، لكنَّ غريزته نحو الانعزال جعلت الأمر شاقًّا، مع أنَّها قالت له قبل رحيله أنَّها لا تتمنَّى غيابه عن عرسها.

وراح التَّذكُّر يُلِحُّ في نفسه باستمرار بأن لا إلزابث ولا فارْفري ما يدفعه إلى الابتعاد عنهما، وإنَّما كان ذلك إحساسه المكابر بأنَّ وجوده لم يعُد مرغوبًا فيه. لقد افترض عودة نيوسن من دون دليل قاطع على أنَّ الرُّبَّان كان ينوي العودة، لكنَّ الأقلَّ إمكانًا كان افتراضه أن تستقبل إلزابث جيْن الرُّبَّان، كما لم يكن ثمَّة من دليل قطُّ على أنه إن عاد فسيبقى. ماذا لو كان مخطئًا

في افتراضه، وماذا لو لم تكن ثمَّة من ضرورة في ظل تلك الوقائع المشؤومة إلى انفصاله المطلق عن تلك التي أحبَّها؟ إن قام بمحاولة أخرى ليكون إلى جوارها، ليعود إليها، ضارعًا طالبًا الصفح والغفران لخداعه لها، ليبذل قصارى جهده ليتشبَّث بحبها، فذلك يستحق المجازفة بالتَّعرُّض لصدِّها، بل المجازفة بالحياة نفسها.

ولكن، أنَّى له أن يعود عن كلِّ ما اتخذ من قرارات سابقة من دون أن يثير حنق الزوج والزوجة بتناقضه؟ لقد جعله السؤال يرتعش فرْقًا ويطيل التفكير.

عكف على قطع القش يومين آخرين، ثم أنهى تردُّده بقرار فجائي طائش بأن يذهب إلى حفل الزفاف. ولم يكن يُتوقَّع منه أن يكتب خطابًا ولا أن يبعث رسولًا. لقد أسفت على قراره الرَّحيلَ، ولعلَّ حضوره غير المتوقَّع سيملأ تلك الزاوية الصغيرة في قلبها المُنصِف التي قد تبقى خاويةً إن لم يحضر.

ولكي لا يُقحم نفسه إلا بأقل قدر ممكن في حدث بهيج لا يستطيع شخصه مجاراته، قرَّر ألا يظهر للعيان ريثما يَحُلُّ المساء، حيث يخفُّ التوتر وتنوس في النفوس أمنية لطيفة بنسيان الماضي.

بدأ رحلته سيرًا على الأقدام، قبل عيد القديس مارتن بيومين، وقد عزم على المشي قرابة ستة عشر ميلًا في كل يوم من أيام رحلته الثلاثة، عدَّ منها يوم الزفاف. وكانت في طريقه بلدتان فقط ذات أهمية، هما مِلْشستر وشوتسفورد، وتوقف في الأخيرة في الليلة الثانية، لا لينال قسطًا من الراحة وحسب، بل ليُعِدَّ نفسه لمساء اليوم التالي كذلك.

كان يقف وهو لا يملك من الثياب سوى بدلة العمل التي كان يرتديها، وقد تبقَّعت الآن وتشوهت من فرط استخدامها شهرين، فدخل متجرًا ليبتاع ما يمكن أن يجعله، في مظهره الخارجي على أيِّ حال، يبدو موائمًا الجو الذي سيسود الغد. كان الأهمَّ بين ما ابتاع سترةٌ وقبعة غليظتان ولكنهما لائقتان،

وقميص جديد وياقةٌ جديدة، وأقنع نفسه بأنَّه لن يسيء إليها بمظهره على الأقل، ثمَّ انصرف لابتياع الشيء الأهم، هدية لها.

وما عساها تكون الهدية؟ راح يذرع الطريق جيئة وذهابًا وهو يطالع بتردُّد المعروض في وجوه المتاجر، وقد خيَّم عليه إحساس كئيب بأنَّ ما يودُّ أن يقدِّمه لها قد يفوق ما يحمله جيبه البائس. وأخيرًا وقعت عينه على طائر حسُّون في قفص. كان القفص بسيطًا وصغيرًا، والمتجر متواضعًا، وبعد السؤال عن ثمنه وجد أنه بمستطاعه دفع المبلغ الزهيد المطلوب. لُفَّتْ ورقة صحيفة حول القفص السلكي وداخله المخلوق الصغير، وحمل هنْشَرْد القفص الملفوف في يده ومضى باحثًا عن مأوى للمبيت.

انطلق في اليوم التالي في المرحلة الأخيرة من رحلته، وسرعان ما بلغ المقاطعة التي كانت أرض تجارته في السنوات الغابرة. لقد قطع جزءًا من المسافة مستقلًّا عربة، وجلس في أكثر زاوية مظلمة في الخلف في عربة التاجر تلك، ولمَّا كان أغلب الرُّكَّاب الآخرين من النساء المسافرات في رحلات قصيرة، ويركبن العربة ويترجَّلن منها أمام هنْشَرْد، كان معظم حديثهن يدور حول أخبار محلية، وكان جزء كبير منها عن حفل الزفاف الوشيك في البلدة التي كانوا يقتربون منها. ثم تبيَّن من حديثهن أنَّ فرقة البلدة قد استُئجرت لحفل المساء، وخشية أن يغلب الولع بالشراب مهارة تلك الفرقة اتُّخذت خطوة أخرى وجُلبت فرقة وتريَّة من بُدموث حتى يمكن إعادة الاتزان إن اقتضت الحاجة.

ولكنَّه لم يسمع إلا تفاصيل قليلة يعرفها من قبل، وكان الحدث الأكثر إثارة للاهتمام في الرحلة هو صوت الرنين الناعم لأجراس كاستربرِدْج الذي بلغ أسماع المسافرين عندما توقَّفت العربة على قمة رابية يالبري لإنزال مِجَرِّ العربة. كان الوقت قد تجاوز الثانية عشرة بقليل.

كانت أنغام الأجراس تلك إشارة إلى أنَّ كل شيء قد مضى على ما يرام،

وأنَّ الأقدار لم تغدر في هذه الحال، وأنَّ إلزابث جيْن ودونلد فارْفري قد أُعلِنا زوجًا وزوجة.

بعد سماعه هذا الصوت لم يأبه هنْشَرْد بالاستمرار في متابعة الركوب بصحبة رفاقه الثرثارين. حقًّا، لقد أفقده ذلك الشجاعة، وسعيًا لتنفيذ خطته بأن لا يظهر. في طرقات كاستربرِدْج مخافة أن يجلب الخزي لفارْفري وعروسه، ترجَّل هنا ومعه صُرَّته والقفص، وسرعان ما تُرك شبحًا وحيدًا على قارعة الطريق العام الأبيض الواسع.

كان يقف عند الرابية التي انتظر قريبًا منها مقابلة فارْفري منذ ما يناهز العامين ليخبره بأنَّ مرضًا شديدًا أصاب زوجته لوستا. لم يتغيَّر المكان، فقد كانت أشجار اللاريس تَحُفُّ الحفيف نفسه، بيْد أنَّه أصبح لفارْفري زوجة أخرى كما عرف هنْشَرْد، زوجة أفضل. كان يرجو وحسب أن تحظى إلزابث جيْن ببيت أفضل من ذلك الذي عاشت فيه في السابق.

قضى بقيَّة النهار في حال غريبة من التوتر الشديد، غير قادر على فعل شيء سوى التفكير في اللقاء الوشيك، وهو بسبب ذلك يسخر من مشاعره بحزن مثل شمشون الذي جُزَّ شعره[135]. ولم يكن رائجًا بعد ذلك الابتداع في عادات كاستربرِدْج أن يغادر العروسان البلدة مباشرة بعد الحفل، ولكن، إن كانا قد فعلا ذلك فسيكون عليه أن ينتظر ريثما يعودان. ولكي يتيقَّن من ذلك سأل رجلًا في السوق عندما اقترب من البلدة عمَّا إذا كان الزوجان الجديدان قد غادرا، فأخبره الرجل على الفور بأنهما لم يغادرا، وأنَّهما كانا في تلك الساعة، وفق الروايات كلِّها، يستقبلان عددًا كبيرًا من الضيوف في منزلهما في شارع «كورن».

نفض هنْشَرْد الغبار عن حذائه، وغسل يديه عند ضفة النهر، وتابع طريقه صاعدًا إلى البلدة تحت ضوء المصابيح الخافت. لم يكن بحاجة إلى

135) تزعم الأسطورة أنَّ قوة شمشون كانت تكمن في شعره، وأنه حينما جُزَّ فقدها.

استطلاع الأمر سلفًا، ذلك أنَّه حين اقترب من منزل فارْفري بدا جليًّا لأقل عين ملاحظة أنَّ الاحتفال بالِغٌ مداه في الداخل، وأنَّ دونلد نفسه كان يشارك فيه، فقد كان صوته مسموعًا بوضوح في الطريق وهو يُردِّد على نحوٍ مُعبِّرٍ جدًّا أغنية عن وطنه الحبيب الذي أحبَّه حبًّا جمًّا ولم يعُد لزيارته قطّ. متسكِّعون كانوا يقفون على الرصيف المقابل، ولكي يتجنَّب انتباههم إليه عبر هنْشَرْد مسرعًا نحو الباب.

كان مفتوحًا على مصراعيه، وكانت الرَّدهة مضاءة بترف، والناس يصعدون السلالم ويهبطونها. خانته شجاعته، فإن دخل متقرِّح القدمين، مثقلًا، وفي ثياب بائسة إلى وسط تلك الأبهة، لَجَلب خزيًا لا داعي له لتلك التي يحبُّها، هذا إن لم يردَّه زوجها خائبًا. ولذلك استدار إلى الشارع الخلفي الذي كان يعرفه جيدًا، ودخل إلى الحديقة، ثم مضى بهدوء إلى داخل المنزل عبر المطبخ، وقد وضع القفص وبداخله الطائر مؤقتًا تحت شجيرة في الخارج ليخفّف من حرج مجيئه.

لقد أوهنت العزلة والحزن هنْشَرْد كثيرًا حتى بات يخشى الظروف التي كان يُحَقِّرُ من شأنها في الماضي، وأخذ يتمنَّى لو أنَّه لم يأت في مثل هذا الحين. غير أنَّ تقدُّمه أصبح يسيرًا بطريقة غير متوقَّعة عندما وجد امرأة مسنَّة في المطبخ وحدها بدا أنَّها مدبِّرة منزل مؤقتة إبَّان الفترة التي عانت فيها تجارة فارْفري بعض الاضطراب. كانت أحد أولئك الأشخاص الذين لم يكن يدهشهم شيء، ومع أنَّه كان شخصًا غريبًا تمامًا لا تعرفه، وطلبه بدا غريبًا، عرضت عن طيب خاطر أن تذهب وتخبر سيد المنزل وسيدته بأنَّ «صديقًا مسكينًا قديمًا أتى لزيارتهما.»

بيْد أنَّها أمعنت التفكير وقالت إنَّه من الأفضل ألا ينتظر في المطبخ، وأن يصعد إلى قاعة الاستقبال الخلفية الصغيرة التي كانت خالية. عند ذلك تبعها إلى هناك وتركته. ولم تكد تبلغ الباب المفضي إلى القاعة الكبيرة حتى بدأ

الرقص وعادت لتقول إنها ستنتظر ريثما ينتهي الرقص ثم ستعلن مجيئه، لأنَّ السيد والسيدة فارْفري كانا يرقصان أيضًا.

كان باب القاعة الأمامية قد فُصِل من مكانه لإتاحة مساحة أكبر، وكان باب القاعة حيث جلس هنْشَرْد مواربًا، فتمكَّن من رؤية أجزاء من أجساد الراقصين كلما اقتربت بهم حركاتهم الراقصة من مدخل الباب، وكان يرى في الأغلب أذيال الأثواب وجدائل الشعر المنسدلة، إلى جانب نحو ثلاثة أخماس أعضاء الفرقة الذين استطاع أن يرى الهيئة الجانبية لوجوههم، وكان بينها الظل المضطرب لمرفق عازف الكمان، وطرف قوس الكمان.

ضاقت نفس هنْشَرْد بهذا المرح، ولم يكن بوسعه أن يفهم سبب اهتمام فارْفري بهذا كلِّه، وهو الرجل الرَّزين والأرمل الذي لاقى ما لاقى من المِحن، وإن كان ما زال في فورة الشباب بعد وسرعان ما يشتعل حماسة بالرقص والغناء. وقد أدهشه أكثر أنَّ إلزابث الهادئة التي تقدِّر الحياة حقَّ قدرها بتواضع منذ عهد بعيد والتي تعلم، على عذريتها، أنَّ الزواج كعادة متعارف عليها ليس مسألة رقص، تتحمَّس لهذه العربدة. بيْد أنَّه انتهى إلى أنَّ الشَّابَّ ليس كالشيخ، وأنَّ للتقاليد سطوتها.

حَمِيَ الرَّقص وانتشر الراقصون بعض الشيء، ثم وللمرة الأولى استطاع أن يلمح الابنة التي ازدراها يومًا وتاليًا ملكت عليه جوانحه وفطرت قلبه. كانت ترتدي ثوبًا أبيض من الحرير أو الساتان، فلم يكن قريبًا بما يكفي ليعرف أنَّ اللون كان أبيض كنُدف الثلج ولا تخالطه أقلُّ شائبة من لون حليبي أو زُبْدِيٍّ، وكانت سيماء وجهها تدل على سعادة متوترة أكثر مما توحي ببهجة. وها هو ذا فارْفري قد أقبل، وحركته الاسكتلندية الجذلى تجعله بارزًا للعين في لحظة. لم يكن الزوجان يرقصان معًا، بيْد أنَّ هنْشَرْد استطاع أن يدرك أنَّه كلَّما تبادل الراقصون مواقعهم في الرَّقص التقى الزوجان لحظةً فتنفَّست مشاعرهما عبيرًا أرقَّ من أي وقت مضى.

أخذ هنْشَرْد يدرك شيئًا فشيئًا أنَّ غريبًا كان يشاركهم الرّقص، وقد فاق فارْفري في شدَّة ولعه بالرَّقص. وقد استغرب هنْشَرْد ذلك، إلَّا أنَّ الأغرب أن يجد أنَّ هذا الغريب كان شريك إلزابث جيْن في الرقص. في المرة الأولى التي رآه فيها هنْشَرْد كان يكتسح المكان اكتساحًا برقصه الرشيق الفخم، ورأسه يهتز وينحني للأسفل، وساقاه تتقاطعان وظهره صوب الباب. عندما أقبل مستديرًا في المرة الثانية إلى الاتجاه الآخر، ظهر صِداره الأبيض متقدِّمًا وجهه، ثمَّ تقدَّمت قدماه صِداره. في ذلك الوجه السعيد تكمن خيبة هنْشَرْد كلُّها. لقد كان ذلك وجه نيوسن الذي جاء وحلَّ محلَّه حقًّا.

ضغط هنْشَرْد على الباب، ولم يُبْدِ أي حركة أخرى ثواني معدودة. هبَّ على قدميه ووقف مثل حطام أسود، تحجبه «الظلمة الطالعة من أعماق روحه.»[136]

ولكنَّه لم يعُد بالرجل الذي يتحمَّل هذه النَّكسات دون تأثُّر. كان توتره شديدًا، وودَّ أن يرحل، ولكنَّ الرقص انتهى قبل أن يستطيع ذلك، وكانت مدبرة المنزل قد أبلغت إلزابث جيْن عن الغريب الذي ينتظرها، فدخلت القاعة فورًا.

«أوه! إنَّه السيد هنْشَرْد!» قالت متراجعة للخلف.

«ماذا يا إلزابث؟» صاح وهو يمسك يدها. «ماذا تقولين؟ السيد هنْشَرْد؟ لا، لا تعاقبيني هكذا! ادعِني هنْشَرْد العجوز عديم الجدوى أو أي شيء، ولكن لا تكوني باردة المشاعر هكذا! أوَّاه يا آنستي، أرى أنَّ لك أبًا آخر غيري، أبًا حقيقيًّا. إذن فقد عرفت كل شيء، ولكن لا تفكِّري فيه وحده! هلا ادخرت لي مكانًا صغيرًا!»

احمرَّ وجهها وسحبت يدها بعيدًا برفق. «كان بوسعي أن أحبَّك دومًا، وكنت سأفعل عن طيب خاطر،» قالت، «ولكن أنَّى لي ذلك وقد عرفت

---

136) من القصيدة الملحمية «ثورة الإسلام» للشاعر الإنجليزي بيرسي شيلي.

أنك خدعتني، خدعتني بمرارة بالغة! أقنعتني بأنَّ أبي لم يكن أبي، وجعلتني أعيش على جهل الحقيقة أعوامًا، ثم عندما جاء أبي الحقيقي الحنون باحثًا عني أبعدته بوحشية بكذبة شريرة تزعم موتي، وكاد أن ينفطر قلبه. أنَّى لي أن أحبَّ أو أفعل أي شيء آخر من أجل رجل عاملنا على هذا النحو!» انفرجت شفتا هنْشَرْد نصف انفراجة ليقدِّم تفسيرًا، ولكنَّه أطبقهما وكأنهما سوءة، ولم ينبس بكلمة. أنَّى له أن يشرح لها اللحظة، بأيِّ طريقة تُخفِّف من آثامه العظيمة، وأن يقول لها أنَّه هو نفسه خُدع بشأن هويتها في أوَّل الأمر إلى أن علم من رسالة أمِّها أنَّ ابنته ماتت، وأنَّ كذبته في التهمة الثانية كانت رمية مقامر أخيرة يائسة لأنَّ حبَّه لها كان أهمَّ من شرفه؟ ولم يكن الأقل بين العقبات التي حالت دون هذا الدفاع أنَّه لم يقدِّر نفسه قدرًا كافيًا ليخفِّف من آلامه بتقديم التماس قويٍّ أو حجة مستفيضة.

وهكذا، تنازل عن حقِّه في الدفاع عن نفسه مراعيًا ما بها من قلق وحسب. «لا تبتئسي بسببي،» قال بتعالٍ وإباء، «ولا أرجو ذلك في وقت كهذا. لقد أخطأت بمجيئي إليك، وإنني أرى خطئي. ولكنني أتيت لمرة واحدة وحسب، فاغفري لي. ولن أزعجك مرة أخرى يا إلزابث جيْن، كلَّا، لن أفعل إلى يوم مماتي! طاب مساؤك. الوداع!»

ثم، وقبل أن تجمع شتات أفكارها، خرج هنْشَرْد من القاعة وغادر المنزل خارجًا من الخلف كما دخل، وما عادت تراه.

الفصل الخامس والأربعون

مضى نحو شهر منذ اليوم الذي انتهى فيه الفصل السابق. وقد بدأت إلزابث جيْن تعتاد وضعها الجديد، وأصبح الفرق الوحيد في حركة دونلد بين اليوم والأمس أنَّه أصبح يتعجَّل العودة إلى المنزل بعد ساعات العمل أكثر مما اعتاده بعض الوقت.

بقي نيوسن في كاستربردج ثلاثة أيام بعد حفل الزفاف (الحفل الذي صنع هو بهجته، كما يمكن التخمين، أكثر مما فعل الزوجان)، وكان الناس ينظرون إليه ويبجِّلونه وكأنَّه كروزو[137] العائد بعد طول غياب. إلَّا أنَّه كان من العسير إثارة كاستربرِدْج بأولئك العائدين بغتةً أو أولئك الراحلين على حين غرَّة، ذلك أنَّها ما انفكَّت قرونًا طويلة تعقد جلسات محاكمة كلَّ بضعة أشهر تشهد خروج أحدهم من العالم واختفاءه في الجانب المقابل من الكرة الأرضية ونحو ذلك من أحداث مثيرة، ولذا لم يفقد الأهالي رزانتهم من أجل نيوسن. وشُوهد في صباح اليوم الرابع وهو يصعد إحدى التلال مغمومًا وقد تملَّكه التَّوق إلى اقتناص نظرة إلى البحر من مكان أو آخر. لقد تبيَّن أنَّ مجاورة المياه المالحة ضروريَّة لوجوده، حتى إنَّه فضَّل بُدموث مستقرًّا له على العيش بصحبة ابنته في البلدة الأخرى. وإلى هناك رحل واستقرَّ به المقام في منزل بمصاريع خضراء، ونافذة بارزة بروزًا كافيًا إلى الأمام يتيح رؤية شريط البحر الأزرق لأيِّ شخص يفتح النافذة ويميل إلى الأمام بدرجة كافية للنظر عبر زقاق ضيق بين بيوت سامقة متداخلة.

كانت إلزابث جيْن تقف في منتصف قاعة استقبال الطابق العلوي

137) الإشارة إلى بطل رواية «روبنسون كروزو» للروائي الإنجليزي دانيل ديفو التي نشرت أوَّل مرة في عام 1719.

في منزلها، وهي تعاين بدقة إعادة ترتيب الأثاث ورأسها مائل إلى جانب، عندما جاءت الخادمة وأعلنت قائلة: «يا سيدتي، لقد عرفنا الآن كيف جاء القفص والطائر إلى هناك.»

أخذت السيدة دونلد فارْفري تستكشف مكانها الجديد في الأسبوع الأول من إقامتها فيه، وراحت تنظر بعين الرِّضا والنقد إلى هذه الحجرة المبهجة وتلك، وتتسلَّل باحتراس إلى الأقبية المظلمة، وتمشي بخطّى حذرة في الحديقة التي تناثرت أوراق أشجارها الساعةَ بفعل ريح الخريف، وهكذا مضت تُقيِّم، مثلما يفعل مارشال، إمكانات الموقع الذي كانت على وشك أن تفتتح فيه حملتها لتدبير منزلها، فاكتشفت في زاوية مستترة قفصًا جديدًا لُفَّ في ورق صحيفة، وكانت في أسفل القفص كرة صغيرة من الريش، كانت جسد طائر حسُّون ميت. لم يعرف أحد كيف وصل الطائر والقفص إلى هناك، مع أنَّه كان واضحًا تمامًا أن ذاك الطائر المغرِّد الصغير المسكين قد مات جوعًا. لقد أثَّر الحدث الحزين في نفسها، ولم تستطع نسيان أمره أيامًا، على الرُّغم من مزاح فارْفري اللطيف، والآن وقد كاد الأمر أن يُنسى عاد من جديد.

« أوه يا سيدتي، لقد عرفنا الآن كيف جاء القفص والطائر إلى هناك. ذلك المزارع الذي أتى مساء حفل الزفاف، لقد شوهد وهو يحمل القفص صاعدًا الطريق، ويُعتقد أنَّه وضعه على الأرض عندما دخل برسالته، ثم انصرف ناسيًا أين وضعه.»

كان هذا كافيًا لإعمال تفكير إلزابث، وبحسِّ الأنثى تمكَّنت من القبض على الفكرة وأدركت أنَّ القفص جلبه هنْشَرْد هديَّة لها في يوم زفافها وعلامة على ندمه. لم يُبْدِ لها أيَّ أسف أو اعتذار على ما فعله في الماضي، ولكن كان من طبعه ألا يقدِّم تبريرًا لشيء، بل يواصل العيش وهو أحد أشدِّ المتهمين لنفسه. خرجت، ونظرت إلى القفص، وورات العصفور الشادي الصغير التراب، ومنذ تلك الساعة رقَّ قلبها نحو الرجل الذي أقصى نفسه.

وعندما جاء زوجها أخبرته عن حلها لغز القفص والطائر، وتوسَّلت إلى دونلد أن يساعدها على معرفة المكان الذي نفى فيه هنْشَرْد نفسه على جناح السرعة، حتى يكون بوسعها مصالحته ومحاولة فعل شيء لجعل حياته أفضل من حياة منبوذ وأكثر احتمالًا له. ومع أنَّ فارْفري لم يحبَّ هنْشَرْد حبًّا قويًّا قطُّ كما أحبَّه هنْشَرْد، فمن جهة أخرى، لم يكرهه كرهًا شديدًا كما كرهه صديقه القديم، ولذلك لم ينفر من مساعدة إلزابث جيْن على خطتها الجديدة بالثناء.

بيْد أنَّه لم يكن من اليسير مطلقًا البدء في البحث عن هنْشَرْد. لقد بدا وكأن الأرض ابتلعته بعد خروجه من منزل السيد والسيدة فارْفري. وتذكَّرت إلزابث جيْن ما حاول فعله ذات مرة، فارتعدت أوصالها.

ولكنَّها لم تعرف أنَّ هنْشَرْد قد غدا رجلًا آخر منذ ذلك الحين – إن كان للأساس العاطفي أن يُبرِّر عبارة متطرِّفة كهذه – فما كان عليها أن تخشى شيئًا. وبعد أيام معدودة أسفر استطلاع فارْفري عن أنَّ رجلًا يعرف هنْشَرْد رآه يسير بثبات على طريق ملشستر العام صوب الشرق في الثانية عشرة في منتصف الليل، وبعبارة أخرى، رآه يرتدُّ على عقبيه إلى الطريق الذي منه جاء.

كان هذا كافيًا لنجد في صباح اليوم التالي فارْفري يقود عربته في ذلك الاتجاه، وإلزابث جيْن جالسة جواره، ملتفَّةً بمعطف من الفرو السميك، معطف «فيكتورين» السائد في تلك الحقبة، وبدت بَشَرتُها أكثر طراوة بعض الشيء من السابق، وعلى مُحيَّاها رُسِمت ملامح الوقار والرَّزانة، وصَفَت عيناها كعيني مِنيرفا[138] و«شعَّت إيماءاتها حكمةً»[139]. ولَمَّا كانت هي نفسها قد وجدت ملاذًا آمنًا بعد ما لقيت من أحداث جسام في حياتها، فقد كانت بغيتها أن يبلغ هنْشَرْد الدَّعة والسكينة مثلها قبل أن يهبط إلى الدَّرْك الأسفل من الوجود الذي بات سبيلًا ممكنًا جدًّا الساعة.

---

138) إلهة الحكمة وربَّة الفنون عند قدماء الرومان.

139) من قصيدة شيلي «ثورة الإسلام».

بعد أن قطعا عدَّة أميال على الطريق العام أخذا يتقصَّيان الأمر أكثر، فعلما من مُصلح طرق كان يعمل في هذه الأنحاء طوال أسابيع، أنَّه رأى رجلًا بوصف كهذا في الوقت المذكور، وقد ترك طريق مِلشستر في وذربِري متخذًا طريقًا متشعِّبًا يُطوِّق شمال إدغن هِيث. وصوب هذا الطريق يمَّما وجه الفرس، وسرعان ما انطلقا عبر تلك القرية العتيقة التي لم يخدش سطحها أصبع سوى خموش الأرانب منذ أن مشطتها أقدام القبائل الغابرة. كانت كثبان الرمال التي خلَّفتها هذه القبائل وراءها بُنِّيَّة قاتمة ومشعَّثةً بنبات الخَلَنْج، وقد نتأت فوق النجود بأشكال مستديرة تشرئبُّ صوب السماء وكأنها الأثداء الممتلئة لديانا(140) وهي مستلقية بكسل هناك.

بحثا في إدغن، ولكنَّهما لم يعثرا على أثر لهنْشَرْد. واصل فارفري قيادة العربة، وعند الأصيل بلغا حيًّا يقع على امتداد الأرض البراح شمال أنغلبيري، وهي مكان اتَّخذ هيئة دَغَل ذابل من شجر التَّنوب على قمة الرابية التي سرعان ما عبرا تحتها. لقد كانا على يقين تامٍّ من أنَّ الطريق الذي سلكاه إلى هذا الحدِّ هو الطريق الذي قطعه هنْشَرْد سيرًا، غير أن التَّشعُّبات التي بدأت تظهر على الطريق والتي جعلتهما يتقدَّمان في الاتجاه الصحيح لم تكن سوى تخمين خالص، فنصح دونلد زوجته بقوة بأن تكفَّ عن البحث بنفسها، وأن تثق بوسائل أخرى لتقصِّي الأنباء عن زوج أمِّها. وكانا الساعة يبعدان عشرين ميلًا على الأقل عن البلدة، ولو أنَّهما أراحا الفرس بضع ساعات في قرية اجتازاها الآن، لأمكنهما العودة إلى كاستربرِدْج في اليوم نفسه، وأمَّا لو ذهبا إلى أبعد من ذلك فإنَّهما سيُضطرَّان إلى التخييم في العراء لقضاء الليلة، «وذلك تبذير للمال لا داعي له» كما قال فارْفري. وأخذت تفكِّر في الوضع مليًّا فوافقته الرأي.

وهكذا أرخى لجام الفرس، ولكنَّه قبل أن يعكس اتجاههما توقَّف هنيهة، وأجال النظر في القرية الواسعة التي كشفها موقعهما المرتفع وهو

140) إلهة رومانية ذات أثداء كثيرة.

في ريبة من أمره. وبينما هما ينظران إذ بشبح إنسان وحيد يطلع من تحت الدَّغَل ويمرُّ أمامهما. بدا وكأنَّه أحد العمَّال، كان يمشي الهوينى، شاخص البصر أمامه وكأنَّما عصب عينيه بغمامة، وكان يحمل في يده بضع عصيَّات. ولمَّا عبر الطريق هبط في وهْد، فإذا بكوخ يظهر للعيان، ودخل إليه.

«لولا أنَّ المكان بعيد جدًّا عن كاستربرِدْج لقلت لا بدَّ أنّ ذاك وِتل المسكين، لكأنَّه هو.» قالت إلزابث جيْن.

«لعلَّه وِتل، لأنَّه لم يأت للعمل قطُّ هذه الأسابيع الثلاثة، ومضى من دون أن يقول كلمة أبدًا، وأنا مدين له بأجر يومين ولا أدري لمن أسدِّده.»

دفعهما هذا التخمين إلى التَّرجُّل والاستفسار على الأقل من الكوخ. ربط فارْفري اللجام إلى البوابة واقتربا من البيت الذي كان أكثر البيوت وضاعة. كانت الحيطان التي بُنيَت في الأصل من الطوب اللَّبِن وسُوِّيَت بمِسَجَّة، قد أبلاها تعاقب سقوط المطر عبر السنين فاستحالت سطحًا كثير الكُتل سهل التَّفتُّت، وملأتها الأثلام والأخاديد الغائرة، وشُدَّت صدوعها القاتمة هنا وهناك بأوراق اللبلاب التي بالكاد تسعفها متانتها لهذا الغرض. وكانت العوارض غائرة، والسطح مثلَّمًا ومليئًا بالثقوب. وعند زوايا عتبة الباب كانت هناك أوراق شجر تطايرت من السياج، وبقيت ساكنة هناك بلا حراك. كان باب الكوخ مردودًا، فطرقه فارْفري، وإذ بالذي وقف أمامهما كان وِتل، مثلما حدسا.

بدت على وجهه أمارات حزن عميق، وأخذ ينظر إليهما زائغ البصر، وكان ما زال يحمل العُصيَّات القليلة التي خرج لجمعها. وحالما عرفهما جفل.

«عجبًا! أيْبل وِتل، أهذا أنت؟» قال فارْفري.

«أجل يا سيدي! لقد أحسن إلى أمي عندما نزلت في هذا الوَهْد، على فظاظته معي.»

«عمَّن تتحدث؟»

«أوه يا سيدي، السيد هنشت! ألم تعرف؟ لقد رحل توًّا، منذ زهاء نصف ساعة مع طلوع الشمس، فأنا لا أملك ساعة.»

«هل... مات؟» قالت إلزابث جيْن بتلعثم.

«أجل يا سيدتي، لقد رحل! لقد أحسن إلى أمي عندما نزلت هنا، كان يرسل إليها أجود أنواع الفحم الذي لا يترك هِبابًا أبدًا، وبعض الثياب وكل ما كانت بحاجة ماسة إليه. لقد رأيته يتجه إلى أسفل الطريق ليلة زواج جلالتكم من السيدة التي إلى جانبكم، وبدا لي مهمومًا مكدودًا، فتبعته على جسر «غراي»، والتفت ورآني وقال: عُد أدراجك! لكنني تبعته، فالتفت مرة أخرى وقال: ألا تسمع أيُّها السيد؟ عُد أدراجك! ولكنني رأيت ما كان عليه من همٍّ فواصلت ملاحقته. ثم قال: وتل، لِمَ تتبعني وقد قلت لك مرارًا وتكرارًا أن تعود أدراجك؟ فقلت: لأنني يا سيدي أرى ما حلَّ بك من سوء وقد كنت محسنًا إلى أمي حتى وإن كنت فظًّا معي، وإنَّني لأودُّ أن أردَّ إليك الإحسان. ثم سار وتبعتُه، ولم يشتك بعد ذلك قطّ. وسرنا طوال الليل، ثم في الفجر وقبل بزوغ النهار نظرت أمامي فإذ به يترنَّح ولا يكاد يقوى على مواصلة السير. وفي ذلك الحين وصلنا إلى هنا، ولكنني رأيت أنَّ هذا الكوخ كان فارغًا عندما مررت به، فحملته على العودة، وأزحت الألواح عن النوافذ وساعدته على الدخول. وقال: عجبًا لأمرك يا وِتل، كيف تكون ساذجًا أحمق لتهتم ببائس مثلي! ثم مضيت في الأمر، وأعارني أحد الحطابين في الجوار سريرًا ومقعدًا وبضعة أشياء أخرى، وجلبناها إلى هنا، وجعلناه يستريح قدر ما استطعنا. بيْد أنَّه لم يستردَّ عافيته، لأنَّه يا سيدتي لم يكن ليأكل، كلَّا، لم تكن به شهيَّة للطعام إطلاقًا، فأصبح أكثر وهنًا، واليوم فارق الحياة. لقد ذهب أحد الجيران ليأتي برجل يصلي عليه.»

«يا للهول! أهذا ما حدث!» قال فارْفري.

أما إلزابث فلم تقل شيئًا.

«لقد علّق على رأس سريره قصاصة وفيها بعض الكتابة.» استأنف أيبل وِتل قائلًا. «ولكنّني رجل أُمّيٌّ ولا أعرف قراءة المكتوب، ولذا لا أعرفه. سأذهب وأجلبها لترياها.»

حينما جرى إلى الكوخ وقفا صامتين، ثم عاد بعد هنيهة ومعه قصاصة ورق متغضنة. لقد كُتبت عليها بقلم رصاص السطور التالية:

وصيّة مايكل هنْشَرْد

أن لا تعلم إلزابث جيْن فارْفري بموتي، أو تحزن من أجلي
وأن لا أُدفَن في أرض مقدَّسة
وأن لا يَقرع سَدَنةُ الكنيسة الأجراس
وأن لا يرى أحد جسدي الهالك
وأن لا يسير مشيِّعون في جنازتي
وأن لا تُغرَس الزهور في قبري
وأن لا يذكرني إنسان
وعلى هذا أضع اسمي

مايكل هنْشَرْد

«ما عسانا نصنع؟» قال دونلد عندما ناولها الورقة.

ولم يسعها أن تجيب بوضوح. «أوَّاه يا دونلد!» قالت أخيرًا وعيناها تطفران بالدمع، «أيُّ مرارة تقبع هناك! أوَّاه! ما كنت لأعبأ كثيرًا لولا فظاظتي معه في ذلك الفراق الأخير! ... ولكن لا سبيل إلى تغيير شيء، ولا مفرَّ مما وقع.»

لقد احترمت إلزابث جيْن قدر المستطاع ما كتبه هنْشَرْد في غمرة ألمه

وهو يُحتضَر، إلَّا أنَّ ذلك لم يكن لإحساسها بقداسة كلماته الأخيرة بقدر ما كان لمعرفتها الذاتية بأنَّ الرجل الذي كتبها كان يعني ما قال. كانت تعلم أنَّ أوامره هذه جزءٌ من النسيج نفسه الذي تشكَّلت منه حياته برمتها، ولهذا لا ينبغي العبث بها طمعًا في إرضاء نفسها بلذة الحداد عليه، أو في منح زوجها شرف الفخر بسماحة النفس.

كلُّ شيء انتهى في آخر المطاف، حتى حسرتها على إساءة فهمه في زيارته الأخيرة، وتوانيها في البحث عنه، مع أنَّ هذه الحسرة ظلَّت زمنًا طويلًا شديدة الغور والوطأة. ومنذ ذلك الحين وصاعدًا ألْفت إلزابث جيْن نفسها ترفل في الحريَّة، وتنعم بهدوء البال، وتلهج شكرًا وعرفانًا، ولا سيَّما بعد الظلمة التي خيَّمت على حياتها في السنوات الماضية. وأخذت عواطفها المشبوبة الجيَّاشة في مطلع زواجها تستكين في صفاء رتيب، فأُفسِح لها المجال بفضل ما جُبِلَت عليه من طباع رقيقة أن تكشف لمن ضاقت بهم الدنيا ممن حولها عن السِّرِّ الذي يجعلهم يحتملون ما ينتابهم من ضيق (السِّرِّ الذي تعلَّمته ذات مرة)، والذي أدركت أنَّه يكمن في براعة تعظيم – كأنَّما بشيء من المعالجة المجهرية – تلك الصور التافهة من أسباب الرضا التي تُتاح لكل شخص لا يعاني ألمًا خالصًا، والتي إن عاملها المرء على هذا النحو لأمكنها أن تُحدِث الأثر الملهم نفسه في الحياة الذي تحدثه المسرَّات الكبيرة التي يتقبَّلها المرء بسرور وعلى عجل.

لقد كان لما حظيت به من تعليم أثرٌ في نفسها، حتى خالت أنَّ في وسعها ألَّا ترى ثمَّة فرقًا جوهريًّا بين أن يلقى المرءُ الاحترامَ من الطبقة الدُّنيا في كاستربرِدْج وبين أن يحظى بإجلال أعلى طبقة في المجتمع. كما هو معلوم بين الناس، فقد أتاح لها وضعها حقًّا، إلى درجة ملحوظة، الكثيرَ مما هو جدير بالشكر. أمَا وأنَّها لم تكن تُظهِر شكرها، فما كان ذلك بخطئها، فقد كانت تجربتُها من ذلك النوع الذي علَّمها، صوابًا أو خطأً، أنَّ ذاك الشرف

المهم الذي يناله المرءُ من عبوره القصير في هذه الحياة التافهة لا يقتضي الإسرافَ في الشكر، حتى لو لاح النورُ في منتصف الطريق بغتةً فيَّاضًا بالنِّعم كما لاح في طريقها. بيْد أنَّ إحساسها القوي بأنَّها لا هي ولا أيُّ إنسان آخر يستحق أقلَّ مما قُدِّر له، لم يُغمِها عن حقيقة أنَّ ثمَّة آخرين قُدِّر لهم أنْ يحضوا بأقلَّ جِدًّا مما يستحقون. ولأنَّها مكرهةٌ على تصنيف نفسها بين المحظوظين لم تكفَّ عن التَّعجُّب من عناد الأقدار التي قيَّضت لها أن تنعم بهذه السكينة المتصلة في مرحلة نضجها، هي التي علَّمها صباها أنَّ السعادة ليست إلَّا فصلًا عابرًا في مسرحية الألم الممتدة.

تومَس هاردي (1840-1928) بدأ حياته معماريًّا ناجحًا تَلْمَذَ لمعماريين بارزين وحاز جوائز عدّة في هذا الجانب، وكان أبوه بنّاءً أيضًا، بيْد أنَّ محاولاته الأولى لإبراز موهبته الشِّعريّة باءت بالفشل فهجر الشعر إلى الرواية، وفيها لم يكن حاله أفضل من حاله في الشعر، فقد رفضت دور النشر روايته الأولى «الفقير والسيِّدة» لما حوت من نقد للعلاقات بين الطبقات الاجتماعية المختلفة في المجتمع الفكتوري آنذاك. ثمَّ نشر رواية «علاجات يائسة» على نفقته الخاصة وباسم مجهول ولم تلق رواجًا. تخطّى هذه العقبات لاحقًا وحقَّق نجاحًا بارزًا حين نشر روايته «بعيدًا عن الحشد المجنون» في عام 1874 فتخلَّى عن حرفته كمعماري ليبدأ مسيرته في الكتابة السَّرديَّة حتى نشر قرابة أربع عشرة رواية. وفي منزله «ماكس غيت» Max Gate في بلدته دورشستر الذي هَنْدَسَ بناءه بنفسه وعاش فيه حتى مماته كتب أهمَّ رواياته التراجيدية مثل «عمدة كاستربرِدج» التي صدرت في عام 1886، ثمَّ روايتيه المثيرتين للجدل «تَسّ سليلة دَرْبِرفيلز» 1891، و«جُود الغامض» 1895. وقد أثارت الأخيرتان سُخطَ المجتمع الفكتوري وغضَب رئيس الأساقفة الذي أمر بحرق نُسَخٍ من «جود الغامض»، ذلك أنَّ الروايتين عمدتا إلى تعرية النفاق الاجتماعي والديني للمجتمع ونقد تناقضاته الأخلاقية. وبعد روايته الأخيرة «المحبوبة جدًّا» هجر هاردي الرواية عائدًا إلى حبِّه الأول، الشعر، فكتب «قصائد وِسِكْس» في عام 1898، وبين الرواية والشعر كتب أيضًا «قصص وِسِكْس».

زوينة آل تويه، مترجمة عمانية، صدر لها مجموعة قصصية عام 2005. ترجمت إلى العربية رواية "بارتلبي النساخ" للكاتب الأمريكي هرمان ملفل عام 2010، ورواية "ما رأيكم في شكلي الآن" للناشئة للكاتبة الأسترالية رندة عبد الفتاح عام 2012.

عمدة كاستربردج

"أمّا أنا فلا أرى لِمَ لا ينبغي للرجال الذين لهم زوجات ولا يريدونهن أن يتخلّصوا منهن مثلما يفعل هؤلاء الرّفاق الغجر بخيولهم المُسنّة»، قال الرجل الذي في الخيمة. «لِمَ لا يعرضونهن للبيع في المزاد لرجال يرغبون في سلع كهذه؟ لِمَ لا؟ بحقّ الرّبّ! سأبيع امرأتي هذه اللحظة إن كان ثمّة من يودّ شراءها!». «هناك من يقومون بذلك»، أجاب بعض الضيوف وهم ينظرون إلى امرأته التي لم تكن بشعةً على الإطلاق!"

تومَس هاردي، أحد عمالقة الأدب الإنجليزي في السرد والشعر. رُشّح مرتين لنيل جائزة نوبل للآداب. بعد أن أملى قصيدته الأخيرة على زوجته الثانية وهو على فراش الموت، دُفِن رُفاته في ركن الشعراء في مقبرة وستمِنستر آبي في لندن عام 1928، وقد نُقِل قلبه، كما أوصى، إلى جانب ضريح زوجته الأولى، إيما، في ستينزفورد خارج دورشستر.

من بين أشهر كلاسيكيّات الأدب الإنجليزي.

حوّلت الرواية إلى 7 أعمال تلفازية بين عامي 1921 و 2003، وعرض أوبرا عام 1951، ومسرحيّة إذاعية عام 2008.

Image credit: William Fawcett the Elder, Mayor of Salisbury, 1871 (oil on canvas), English School, (19th century) / Salisbury Museum / Bridgeman Images.
Cover design: Diana Chamma

ISBN 978-9948-38-608-7
9789948386087

روايات
REWAYAT